

ديوان

أسامة بن منقذ

حققه وقدم له

الدكتور أحمد أحمد بدوي

مدرس بكلية دار العلوم

جامعة القاهرة

حامد عبد المجيد

وكيل إدارة نشر التراث العربي

بوزارة المعارف العمومية

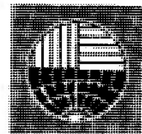
عالم الكتب

بسم الله الرحمن الرحيم

ديوان

أسامة بن منقذ

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م



بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبكي - تلكس : ٢٣٣٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الدكتور أحمد أحمد بدوي

---

(١)

فى يوم الأحد السّابع والعشرين من جمادى الآخرة ، سنة ٤٨٨ ﻫ (يوليه سنة ١٠٩٥ م) ولد أسامة بن منقذ ،فى أسرة توارثت إمارة شيزر ، وهى مدينة فى الشّمال الغربىّ لحماة ، تبعد عنها خمسة عشر ميلا ، وتقع على هضبة ، يحيط بها نهر العاصى من جهات ثلاث ، وتنهض فيها قلعة شامخة حصينة ، وكان لهذه القلعة قيمتها فى عصر الحروب الصّليبيّة ؛ لمركزها الحربىّ الحصين ، ومكانها بين الولايات السّوريّة ؛ فكانت مطمح الطّامعين ، من أمراء المسلمين والصليبيين .

ولد أسامة لأب صالح ، يقضى وقته بين تلاوة القرآن ، الصّيد فى النّهار ، ونسخ كتاب الله فى اللّيل ، ووالدة شهرت بالشّجاعة والنّخوة والإقدام . وقد تركه والده منذ صغره يقتحم الأخطار ، ويركب الصّعب من الأمور ؛ فلا ينهاه عن أن يمضى إلى حيّة يحزّ رأسها ، ويلقى بها فى الدّار ميّتة ، وهو ثابت رابط الجأش ، ولا يحول بينه وبين مصارعة الأسود بشيزر ، وقتل ما يصرعه منها ؛ وهكذا شب جريئا لا يهاب . وممّا ساعده على ذلك أنّه كان يشترك مع أبيه فى رياضته المفضّلة عنده ، وهى الصّيد .

إلى جانب هذه النّشأة التى تعدّ للحرب والنّضال ، تلقّى أسامة الثقافة التى كان يتلقّاها الأمراء فى ذلك العصر ؛ فدرس الحديث ، والفقه ، والأدب،والنّحو ، واللّغة ، وحفظ الكثير من الشّعر ، وأخذ من ذلك بنصيب واف ، يشهد له به كتبه،وما ضمّت من أحاديث كثيرة متنوعة الأغراض ، ومن مأثوركلام البلغاء من المتقدّمين ، وما استشهد به من شعر ومنثور ، وما اقتبسه من شعر السابقين ، وما أورده فى شعره من ألفاظ لغويّة استعملت فى معانيها الدقيقة ، مما لم يكن يجرى إلّا على أقلام كبار البلغاء . أخذ ذلك عن كبار الأساتذة ، كما كانت البيئة التى عاش فيها بيئة أدبية ممتازة ؛ فقد كان الأمراء من بنى منقذ ممن يقصدهم الشعراء والأدباء ، كما أنهم كانوا هم علماء شعراء ، ويحفظ الأدب كثيرا من أشعار أبيه وأعمامه .

كان أسامة أثيرا لدى عمّه أبى العساكر سلطان حاكم شيزر ، ولمّا لم يكن له عقب ، اتّخذ أسامة ابنا له ، وكان يرى فيه الأمير المستقبل لشيزر ، ووارث الملك من بعده ؛ فكان يكلفه من الأمور ما يتطلّب شجاعة وجرأة ، واشترك أسامة فى المعارك التى دارت بين أسرته وبين الصليبيّين ؛ دفاعا عن مدينتهم (شيزر). وعاش أسامة فى تلك المدينة ، بين حب والده وعطف عمّه ، غير أنّ هذا لم يلبث بعد أن رزق أولادا فى آخر أمره ، حتّى دبّ الوهن والفتور إلى العلاقة الّتى تربطه بأسامة ، وبدلا من حبّه وعطفه عليه ، أخذ الحسد والحقد يأخذان مكانهما من قلبه ، خوفا على أولاده من مكانة أسامة ، وحذرا أن يئول الملك إليه دونهم ، فمضى أسامة إلى الموصل ، لدى عماد الدين زنكى ، الّذى صار أكبر أبطال الحروب الصّليبيّة فى وقته ، وأوّل خطر حقيقىّ داهم الصّليبيّين ،

فانتظم أسامة فى جنده ، وحارب تحت قيادته فى عدة معارك ، ولكنه لم ينس وطنه الأول شيزر ، عندما هاجمه الفرنج والروم سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م) فقد مضى إليه ، وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عنه ، وربما كان قد عزم على البقاء فى شيزر ، بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١ هـ ، غير أن عمه أبا العساكر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر ، فقد أيقن أنه أصبح خطرا على ملكه ، وأن ليس لأبنائه سلامة إذا ظل أسامة فى شيزر ، فأمره وإخوته بالرحيل ؛ فتشتتوا فى البلاد ، وكان فى ذلك الخير لهم ، فإنهم نجوا من الزلازل التى هدمت شيزر ، وقضت على بنى منقذ بأسرهم ، وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢ هـ .

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق ، واتصل بحاكمها : معين الدين أُنُر ، واعتمد هذا الحاكم على أسامة فى تصريف الشئون السياسية ، وقد نجح أسامة فى ذلك ، نجاحا رفع مكانته فى دمشق ، واستطاع فى تلك الحقبة أن يتصل بالفرنج عن قرب ، وأن يعرف الكثير من عاداتهم وأخلاقهم . ولكن المقام لم يصف لأسامة بدمشق ، ويظهر من تلك القصيدة التى أرسلها إلى معين الدين أُنُر يعاتبه فيها — أن السر فى نبو المقام بأسامة يعود إلى وشايات ، حملها الساعون إلى معين الدين ، صدقها ، فانحرف قلبه عنه . يدلنا على ذلك قول أسامة :

بلّغ أميرى : معين الدّين مألكة ... من نازح الدار ، لكن وده أمم

هل فى القضيّة يامن فضل دولته ... وعدل سيرته بين الورى علم

تضييع واجب حق ، بعدما شهدت ... به النّصيحة ، والإخلاص ، والخِدَمُ

وما ظننتك تنسى حقّ معرفتى « إنّ المعارف فى أهل النّهى ذمم »
ولا اعتقدت الذى بينى و بينك من ودٍّ ، و إن أجلب الأعداء ، ينصرم
لكن ثقاتك مازالوا بغشّهم « حتّى استوت عندك الأنوار والظّلم »
والله مانصحوا . لما استشرتهم وكلّهم ذو هوى فى الرّأى متّهم
كم حرّفوا من مقال فى سفارتهم وكم سعوا بفساد . ضل سعيهم

و يبدو من تلك القصيدة ، ومافيها : من حياة ، وحرارة ، وقوة ، أن أسامة كان يضمر فى قلبه فيضا من الحبِّ لمعين الدين ، وقد ختم قصيدته بعد هذا العتاب الطّويل ، بقوله :

فاسلم ، فاعشت لى ، فالدهر طوع يدى وكلّ ما نالنى من بؤسه نِعَمُ

ترك أسامة دمشق ، وسافر إلى القاهرة ، فوصل إليها فى جمادى الثانية سنة ٥٣٩ هـ (نوفمبر سنة ١١٤٤ م) ، فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله ، وكان معه والدته ، وزوجه ، وأخوه محمد ؛ فأكرمه الخليفة أيّما إكرام ، وأقطعه إقطاعا ، عاش به فى رغد من الحياة ، وخفض عيش . ولم يشأ أسامة فى أول الأمر أن يزجّ بنفسه فى الأحداث السّياسيّة المصريّة ، حتّى إذا ولى الظّافر ألقى بنفسه فى خضمّ هذه الأحداث ، حتّى ليروى المؤرّخون أنّه اشترك فى المؤامرات التى انتهت بقتل الوزير ابن السّلار ، والخليفة الظّافر . ورأى أسامة أن يعود بعد هذه الخطوب والحوادث إلى دمشق ، برغم أنّ الصّلة كانت وثيقة بينه و بين الوزير المصرىّ الجديد : طلائع بن رزّيك .

عاد أسامة إلى دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ومضت عشيرته لتلحق به ، ولكن السّفينة التّي كانت تحملهم أصابها عطب عند عكّا ، التي كانت في يد الصّليبيّين ، فنهب الفرنج ما معهم من المتاع ، وساموهم سوء العذاب، حتّى إذا وصلوا إلى دمشق ، كانوا قد فقدوا كل ما حملوه معهم من مصر . وكان لذلك أكبر الأثر الأليم في نفس أسامة. وقد اتصل أسامة في دمشق بحاكمها نور الدّين محمود ، أكبر أبطال الحروب الصّليبيّة في عصره ، وكثيرا ما أرسل اليه الوزير المصريّ طلائع قصائد يحثّه بها على أن يتوسّط لدى نور الدّين محمود ، حتى تجتمع كلمة سوريا ومصر على جهاد العدوّ المشترك ، ولكن هذه القصائد لم تثمر ثمرتها ، ولم يصغ نور الدين إليها .

ويظهر أنّ كبر سنّ أسامة قد حال بينه وبين الاشتراك في الوقائع الحربيّة التى شنّها نور الدّين ، وإن كان قد ساهم في بعضها. فقد حدّثنا أبو شامة في كتابه: الرّوضتين ، عما أبداه أسامة من ضروب البسالة في حصار قلعة حارم

ويظهر أنّه وجد بعد زهاء عشر سنين ، قضاها في دمشق ، أنّه في حاجة إلى الرّاحة ، والبعد عن تكاليف السّلطان وخدمة الملوك . فمضى إلى حصن كيفا، وهناك عكف على البحث والدّرس والتّأليف ، وربّما اختار أسامة هذا المكان لما كان فيه: من مكتبات ضخمة غنية. ولكن هذه العزلة التى أرتضاها أسامة، قطعها عودة صلاح الدّين إلى دمشق ،وقد رأى فيه أسامة البطل المنقذ للبلاد ، فمضى إليه ، واستقبله صلاح الدين استقبالا حسنا ، فقد كانت تربطه به صلات وثيقة، عندما كانا

معا فى بلاط نور الدين محمود، فأعطاه صلاح الدين دارا وإقطاعا دارة ، وجالسه وآنسه ، وذاكره فى الأدب، وكان يستشيره فيما يلمّ به ، وإذا مضى إلى الغزو كاتبه،وأخبره بوقائعه ، وكان صلاح الدّين معجبا بشعر أسامة ، مشغوفا بقراءة ديوانه ، وتأمّل خواطره ، واستحسان روائع قصائده ، وكان ولده: مرهف جليس صلاح الدين ، وصاحبه فى الحلّ والترحال .

عاش أسامة فى دمشق يشكو الكبر ، وثقلت الحياة عليه لطول عمره ، حتى إذا كان الثالث والعشرون من رمضان سنة ٥٨٤هـ (نوفمبر سنة ١١٨٨م) توفى أسامة،بعد أن أربى على التّسعين ، ودفن فى سفح جبل قاسيون بدمشق .

(٢)

ترك أسامة عدة كتب ، عرفنا منها :

١ — كتاب الاعتبار ، الذى نشره المستشرق الفرنسى هرتويغ درنبورج (Hratwig Derenbourg)وقد سجل فيه أسامة ذكرياته ومشاهداته: من معارك حربية وأحداث سياسيّة فى مصر والشّام،وهو يصوّر الوقائع التى دارت بينه وبين الفرنج، فى صدق وإخلاص ، ويعلّق على ما يرى ، ويشيد بالبطولة ، سواء أكانت من المسلمين أم من الصّليبيّين،ويدوّن ما رآه من أعمال الأبطال،ولو كانوا من صغار الجند ، ويقيد الحوادث الفردية الغريبة،وينقل إلينا ضوضاء المعارك، ويصف صلة المسلمين بالفرنج يومئذ فى السلم والحرب ، ويصوّر طبائع الفرنج وأخلاقهم وعقائدهم، ويحوى تأمّلات لأسامة بشأن طول العمر ، وألحق بالكتاب قصصا

ونوادر شاهد بعضها ، وسمع بعضها من ثقة . وقيمة الكتاب فى أنّ ما رواه من حوادث تاريخيّة ومعارك ، سجّلها بعد أن رآها ، فكان فيها شاهد عيان ؛ ولذا كان من أهم ينابيع التاريخ لتلك الحقبة من عصر الحروب الصّليبيّة . وقد كتبه أسامة وهو ابن تسعين سنة .

٢ — كتاب لباب الآداب ، نشره الأستاذ أحمد محمد شاكر ، وقد رتّبه مؤلفه على سبعة كتب ، الأوّل فى الوصايا ، والثّانى فى السّياسة ، والثّالث فى الكرم ، والرابع فى الشجاعة ، والخامس فى الأدب بمعنى مكارم الأخلاق ، وقسّمه خمسة عشر فصلا ، وهو يورد فى هذه الكتب ما يتعلق بها ، مما جاء فى القرآن الكريم ، ثم ما ورد من أحاديث تتصل به ، ثمّ يورد المأثور من أقوال الحكماء ، والكتاب السادس فى البلاغة ، تحدّث فيه عن إعجاز القرآن ، وأورد جوامع كلم الرّسول ، ونماذج من كلام البلغاء ، وذكر كثيرا من محاسن الشّعر الموجز البليغ ، الدال على مكارم الأخلاق ، وقطعا لأغراض مختلفة من الشّعر ، والكتاب السّابع فى الحكمة ، نهج فيه نهج سلفه من الأبواب ، والكتاب يدلّ على اطلّاع واسع ، وذوق دقيق فى الاختيار .

٣ — كتاب العصا ، وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية ، تحدّث عن العصا التى عرفت فى التاريخ ، وأثبت فيه أيضا كثيرا من شعره .

٤ — كتاب البديع ، وقد جمع فيه ما تفرق فى كتب العلماء المتقدّمين المصنفة فى نقد الشّعر . وذكر محاسنه وعيوبه ، وقد انتقد هذا الكتاب ابن أبى الإصبع فى كتابه بدائع القرآن . ومن الكتاب نسخة خطية بدار الكتب ، وقد أعددناه للنشر .

٥ – كتاب المنازل والديار ، قالت عنه دائرة المعارف الإسلامية : إنه ترجمة كتبها عن نفسه عام ٥٦٨ هـ (١١٧٢ م) ، فى أثناء إقامته فى حصن كيفا ، والدافع له على كتابته زلزال أغسطس سنة ١١٥٧ م ، وهو يتضمن شواهد شعرية كثيرة عن المنازل ، والديار ، والأطلال ، والربع ، والدمن ، والرسم ، وغيرها . وبالمتحف الأسيوى بلننجراد نسخة منه .

٦ – مختصر مناقب أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب ، لابن الجوزى .

٧ – مختصر مناقب أمير المؤمنين: عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزى أيضا. والكتابان مخطوطان بدار الكتب .

٨ – تاريخ القلاع والحصون .

٩ – أخبار النساء .

١٠ – التاريخ البدرى ، وقد جمع فيه أسماء من شهد بدرا من الفريقين .

١١ – التجائر المربحة ، والمساعى المنجحة .

١٢ – النوم والأحلام .

١٣ – الشيب والشباب .

١٤ – التأسى والتسلى .

١٥ – ذيل يتيمة الدهر .

١٦ – أخبار النساء .

١٧ – نصيحة الرّعاة .

وهذه الكتب العشرة قد نسبها إليه مؤرّخوه ، أو أشار إليها فى كتبه التى بين أيدينا .

(٣)

لم يكن معروفا من شعر أسامة سوى ما تفرق فى كتبه : الاعتبار ، والعصا ، ولباب الآداب ، وما تفرّق فى كتب مؤرخيه : كخريدة القصر ، والروضتين ، فى أخبار الدّولتين ، وتاريخ الإســلام للذّهبى ، وشذرات الذهب ، وجمهرة الإسلام ، ذات النّثر والنّظام . ولكن أسامة كان له ديوان جمعه بنفسه ، وعنى به من بعده ابنه مرهف ، وكان صلاح الدّين مشغوفا به ، كما ذكرنا ، وقد رآه ابن خلّكان ، وذكر أنه بأيدى النّاس . وقد عثرت دار الكتب على نسخة خطّية من هذا الديوان[1] ، وهى النسخة التى قمنا بتحقيقها وموازنتها بما له من شعر متفرق فى الكتب ، وسنلحق بالديوان فى الطبعات المقبلة إن شاء الله ما عثرنا عليه فى هذه الكتب ، ولم يكن مذكورا فى الديوان .

وقد رتب أسامة ديوانه على حسب الأغراض : فباب للغزل ، وآخر لشكوى الفراق ، وغيرهما للوصف ، إلى غير ذلك من أغراض الشّعر الغنائى ، ولكن ديوانه قد خلا من الهجاء ، ويظهر أنّه قد أصرّ على ألا يكون فى شعره هذا اللون ، برغم الدّوافع التى كانت تسوقه إلى أن يهجو ، حتى لقد قال :

ظلمت شعرى ، وليس الظّلم من شيمى ... يطيعنى ، حين أدعوه ، وأعصيه
يهمُّ أن يذكر القوم اللئـام بما ... فيهم ، فأزجره عنهم ، وأثنيه
وليس من خلقى ثلب الغنىّ وإن ... جنى ، ولا ذكر ذى نقص بما فيه

(١) محفوظة بالدار تحت رقم ١٦٨٧٧ ز .

وفى ذلك مسحة من ترفّع الإمارة التى تحول بينـــه وبين التزول إلى مستوى التشاتم والمهاترة .

ولمـا اختار أسامة أن يرتّب ديوانه على الأغراض ، كان يجزئ القصيدة الواحدة ، فيضع غزلهـا مثلا فى باب الغزل ، ومديحها أو فخرها فى باب المديح أو الفخر ، وكان هو يشير إلى ذلك حين يعرض قصائده . ولهذا النّظام فائدته فى تتّبع الدّراسة الفنّيّة ، لـكلّ فنّ من فنون الشاعر على حدة، وإن كانت الحاجة تدعو ، عند دراسة بناء القصيدة ، إلى دراسة أجزائها كلها ، لمعرفة الجو الذى توحى به ، وإدراك مدى الصّلة التى تربط بين عناصرها .

ويبدو ، لأوّل ما نقرأ الديوان ، أن أسامة لم يدوّن كلّ ما قاله من الشّعر ، لأنه لم يرض عن كل ما صدر منه . فحذف منه مالم يرقه ، حيث يقول :

كلما ردّدتُ فى شعرى النّظر بان ضعف العىّ فيه، وظهر
ليس يرضينى ، ولا يمكننى جحد ماقد شاع منه ، واشتهر
فأجيل الفـكر فى تقليله فإذا قل اختصرت المختصر
وبه فقر إلى ذى كرم إن رأى مافيه من عيب ستر

وذاك يدل على تطلع أسامة إلى مثل أعلى ،كان يبغى أن يصل إليه مستوى شعره ، ولابد أن كان لذلك أثره فى تهذيب أسامة لشعره ، وأخذه إياه بالتقويم والتّنقيح ، حتى ظهر شعره فى هذا الثّوب من القوة والجزالة ، مما يذكرنا بشعر الفحول ، الذين سموا بفنّهم عن أن يكون مظهرا للتلاعب بالألفاظ ، أو الجرى

وراء محسن لفظى، من غير أن يكون فى البيت معنى جليل ، أو خاطر سام ، أو شعور صادق ، أما أسامة فلديه ما يقوله ، فى أسلوب قوّى ، وعبارة رصينة .

وتتدفّق خواطر أسامة فى قصيدته ، ويرتبط بعضها ببعض ، حتى يصبح البيت لبنة ، فى بناء ملتحم مؤتلف ، خذ مثلا قوله :

لا تجزعنّ لخطب فكلّ دهرك خطب
وحادثات الليالى مملّة ، ما تغب
تروح سلما ، وتغدو على الفتى، وهى حرب
ولا تضق باصطبار ذرعا، إذا اشتدّ كرب
فصبر يومك مرّ وفى غد هو عذب
كم صابر الدهر قوم فأدركوا ما أحبوا
وكلّ نار حريق يخشى لظاها ستخبو

تر فيه التحام الخواطر وتسلسلها ، ولا تجد ذلك فى مقطوعاته القصيرة فحسب ، بل فى قصائده الطويلة أيضا ، حتى ليخيّل إليك أحيانا أنك تقرأ قطعة منثورة ، لا قصيدة منظومة . ويطول نفس أسامة أحيانا حتى تبلغ القصيدة تسعين بيتا ، كتلك التى كتبها على لسان نور الدّين ، يعدّد فيها وقائعه مع الفرنج.

وينهج أسامة فى كثير من الأحيان المنهج التقليدى ، فيبدأ قصائده بالغزل حين يفتخر ، أو يمدح ، أو يشكو ، وحينا يبدأ موضوعه من غير مقدّمة غزلية،

كهذه القصيدة التى بعث بها إلى معين الدين أنُر ، وقد لقى الفرنج وهزمهم ، فقال أسامة .

كلّ يوم فتح مبين ، ونصر . واعتلاء على الأعادى ، وقهر

ومضى فى قصيدته .

ولكثرة ما اطّلع أسامة على الشّعر القديم ، كان يضمّنه بعض قصائده. حتى قد اتّهمه بعض سامعى شعره بالسرقة من غيره ، وليس فيما فعل أسامة سوى التّضمين ، الذى تراه فى قوله ، يخاطب معين الدّين أنُر :

وأنت أعدل من يشكى إليه ، ولى شكيّة ، أنت فيها « الخصم والحكم »
وما ظننتك تنسى حقّ معرفتى « إن المعارف فى أهل النّهى ذمم »
لكن ثقاتك ما زالوا بغشّهم حتى « استوت عندك الأنوار والظّلم »

وفى هذه الأبيات تضمين من قصيدة المتنبي : واحر قلباه ممن قلبه شبم .
أما قصيدة أسامة التى مطلعها :

أطاع الهوى من بعدهم ، وعصى الصبر فليس له نهى عليه ، ولا أمر

فقد ضمّنها من شعر أبي فراس ، كهذا البيت، ومن شعر المتنبي ، وأبي صخر الهذلىّ ، وغيرهم . وليس التّضمين بكثير فى شعر أسامة . وأكثره ما جاء فى هاتين القصيدتين .

تلمس فى شعر أسامة الجلال والوقار . فلا هزل فيه ولا مزاح ، إلّا قليلا نادرا ، وليس فى باب الملح الذى عقده . فضلا عن قصره ، سوى قليل من

الفكاهة، ولعل من أرقها قوله ،وقد كان له جار من الأمراء يعرف بابن طليب، وقعت في داره نار ، فاحترقت ، فقال أسامة :

أنظر إلى الأيام ، كيف تقودنا قسرا إلى الإقرار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره نارا ، وكان هلاكها بالنّار

(٤)

وجدت الأحداث الكبرى الّتي مرّت بأسامة صداها في شعره ، وصوّر آثارها في نفسه تصويرا قويّا ، ولعلّ من أقوى هذه الآثار عمقا في نفسه ، اضطراره إلى أن يفارق وطنه الأول : شيزر ، الذى شهد مدارج طفولته ، وملاعب صباه ، وملاهى شبيبته . وقد وجد أسامة البقاء في هذا الوطن ، شقاء لا يطيقه ، بعد أن جفاه عمّه ، وقلب له ظهر المجنّ ، فكتب إلى أبيه قصيدة، يحدثه فيها عمّا يعتلج في صدره من الهمّ ، ويشكو إليه ما كدر صفاء عيشه من الغدر ، وما ناله من سوء العقوق ، ويقول له :

أشكو إلى علياك همّا ضاق عن كتمانه صدرى ، وما هو ضيّق
وطوارقا للهمّ ، أقريها الكرى وتلظّ بى صبحا ، فما تتفرّق

وينبئه بأنّه قد صمم على فراق دار الهون ، ما دام الحقد عليه قد وجد سبيله إلى قلوب ذوى قرباه ، فيقول له :

دعنى وقطع الأرض ، دون معاشر كلٌّ علىّ ، لغير جرم ، مُحْنَق

تغلى علىّ صدورهم ، من غيظهم فتكاد ، من غيظ علىّ ، تحرق
أعيا علىّ رضاهم ، فيئست من إدراكه ، ما النّجم شيء يلحق
قد أفسدوا عيشى علىّ، وعيشهم فأنا الشقىّ بهم ، وبى أيضا شقوا
فضل الأقارب برّهم وحنوّهم فإذا جفونى فالأباعد أرفق

وكأن أسامة راضيا عن نفسه بهذا الارتحال ، الذى نأى به عن الضّيم ، وبعد به عن أن يسام الخسف والهوان ، واستقبل بعده عن وطنه راضيا به ، ما دام ذلك فى سبيل احتفاظه بأنفته وعزّة نفسه :

أأسام خسفا ، ثم لا آبى ، فلست إذًا أسامة
هيهات ، لا ترضى المعالى صاحبا يرضى اهتضامه

وألقى أسامة بنفسه فى المعارك تحت لواء عماد الدين زنكى ، ولم ينغص عليه مقامه يومئذ سوى وشاة أو غروا صدر أبيه عليه ، فاضطر أسامة إلى أن يرسل إلى أبيه استعطافا ، يزيل به من نفسه أثر هذه الوقيعة ، التى لم يحدثنا التاريخ عنها شيئا ، فكتب أسامة إليه :

ياويح قلبى من شوق ، يقلقله إلى لقائك ، ماذا من نواك لقى
وناظر قرحت أجفانه ، أسفا عليك، فى لجّة من دمعه غرق
وبعد ما بى ، فاشفاقى يهددنى بشوب رأيك بالتكدير والرّنق
وأن قلبك قد رانت عليه ، من الواشين بى ، جفوة يهماء ، كالغسق
أما كفاهم نوى دارى، وبعدك عن عينى ،وفرقة إخوان الصّبا الصّدق

وأنّى كلّ يوم قطب معركة درّية السّمر والهنديّة الذّلق
أغشى الوغى مفردا من أسرتى، وهمُ هم إذا الخيل خاضت لجة العلق
وموضعى منك لاتسمو الوشاة له ولا يغيره كيسى ولا حمق

وكان موقفه من دمشق حين نبت به ، كموقفه من وطنه الأوّل ، فارقها ، غير راض باحتمال الهوان ، برغم ما ألمسه فى شعره من حبه لمعين الدّين ، إذ يقول له :

ولست آسى على التّرحال عن بلد شهب البزاة سواء فيه والرّخم
تعلّقت بحبال الشّمس منه يدى ثم انثنت ، وهى صفر، ملؤها ندم

أمّا حياته بمصر، فقد مرّ عليه بها من تقلّبات الزمان، وعبر الأيّام ، وتنقّل الملك والسّلطان ماصحّ أن يقول معه :

خمسون من عمرى مضت، لم أتّعظ فيها ، كأنّى كنت عنها غائبا
وأتت علىّ بمصر عشر بعدها كانت عظاة كلّها وتجاربا
شاهدت من لعب الزّمان بأهله وتقلّب الدّنيا الرّقوب عجائبا

ولعلّ الأزمات السّياسيّة التى مرّت به فى مصر ، كانت تملأ صدره بالهمّ حينا، والنّقمة على الزّمن الذى دفع به إلى مصر ، فيقول :

يامصر، مادرت فى وهمى ولا خلدى ولا أجالتك خلواتى بأفكارى
ما أنت أوّل أرض مسّ تربتها جسمى، ولا فيك أوطانى وأوطارى
لكن إذا حمّت الأقدار كان لها قوى تؤلّف بين الماء والنّار

ولكن أسامة برغم هذه الأزمات التى كانت تدفعه حينا إلى الثورة ، والتى لا بد أن تلم بمن يخوض لجة السياسة — وجد فى مصر ما كان يصبو إليه : من مال ومجد ، كان شديد الأسف عليه ، حين أفلت من يده، تحسّ بذلك فى قوله :

نلت فى مصر كلّ ما يرتجى الـ   آمل : من رفعة ومال وجاه
فاستردّت ماخوّلتنى ، وما أسـ   ـرع نقص الأمور عند التناهى !
كنت فيها ، كأنّنى فى منام   زال منه ما سرّ، عند انتباهى

فلا جرم كان شديد الحنين إلى مصر ، بعد أن فارقها ، وكان يتمنّى أن يلبى دعوات الملك الصّالح ، التى وجهها إليه مرة بعد أخرى ، يدعوه فيها إلى العودة والعيش معه . وهنا يحسن بى أن أقف قليلا ، أبيّن رأى الملك الصّالح فيما أتّهم به أسامة: من المشاركة فى قتل الظّافر ، فالصّالح يبرّئ أسامة براءة تامّة من هذا الإثم ، ويراه نقى الصفحة ، طاهر اليدين ، وها هو ذا يرسل إلى أسامة ، يدعوه إلى مصر ، ويحدثه عن الوزير عباس الذى قتل ابنه نصر الخليفةَ الظافر و يقول له :

على أنّه قد نال بالغدر من بنى   نبىّ الهدى مالم ينله بنو حرب
وهل نال منهم آل حرب وغيرهم   من النّاس فوق القتل والسّبى والنّهب
غدا والغا كالكلب ظلما وحزبه   دماءهم ، لاحاطه الله من حزب
و ياليته لو كان فيه من الوفا   لمالكه بعض الذى هو فى الكلب
وحاشا كم ، ما خنتم العهد مثله   ولا لكُم فيما جرى منه من ذنب
ومن مثل ماقد نالكم من دنوه   يحاذر أن تدنو الصّحاح من الجرب

كان لكثرة الترحال أثره فى شعر أسامة ، فكثيرا ما شكا الفرقةوالاغتراب ، وكثرة جوبه البلاد ، وتحسّ فى هذا الشعر لوعة الحرمان ، وألم الشّوق إلى الوطن المفارق ، والآل الغائبين ، فتسمعه يقول :

أهكذا أنا باقى العمرِ مغتربٌ ناءٍ عن الأهل والأوطان والسّكن
لا تستقرّ جيادى فى معرّسها حتّى أروعها بالشّدّ والظّعن

ويقول :

أين السّرورُ من المروّع بالنّوى أبدا ، فلا وطنٌ ولا خلاّنٌ
عيدُ البريّة موسم لعويله وسرورُهم فيه له أحزان
وإذا رأى الشَّمل الجميع تزاحمت فى قلبه الأمواهُ والنّيران

فكان هذا الرّحيل الدّائم ، مصدّر ألم لأسامة ، يؤرّق حياته ، وينغّص عليه عيشه ، وكان له أثره فى مسح شعره بمسحة من الحزن والأسى ، وكثرة حديثه عن الوداع والفراق .

كما كان لتبدّد ثروته ، نهب بعضها عقب الحوادث التى جرت بعد مقتل الظافر ، وغرق بعضها فى البحر عند خروج أسرته من مصر — أثره البالغ من نفسه ، وأثره القوى فى شعره ، شكا ذلك إلى الملك الصالح ، وطلب منه المعونة ، فقال له :

أنا أشكو إليك دهرا لحى عو دى ، وأعراه ، فهو يبس سليب
وخطوبا رمى بها حادث الدهـــر سوادى ، وكلّهن مصيب

أذهبت تالدى وطارفى الطّـــارى ، فضاع المورثُ والمكسوب
فهو شطران بين مصر وبحر ذا غريق فَىٌّ ، وذا منهوب

ويظهر أنّ الفقر قد عضّه بنابه حينا من الدّهر ، حتى رأيناه يصف نفسه بأنّه لا يفترق فى حقيقة الأمر عن سائليه الذين يهرعون اليه ، ظانين فيـه الغنى واليسار :

ولكنّ مستورى كظاهر حالهم فما حيلتى؟ والحظّ حرب الفضائل

وكان أكبر ما يؤلمه فى حالة العسرة الّتى ألمّت به ، هو أن شمت به أعداؤه ، ـأخذ يطمئن نفسه بأن سوف يستعيد مع الأيّام ماله المفقود ، وحينا يقول لهم:

متى رآنى الشّامتون ضرعا لنكبة تعرقنى عرق المدى
هل رزّنى الخطب سوى وفرى الّذى كان مباحا للنّوال والنّدى

وإذا نزلت كارثة زلزال شيزر ، فذهبت بملك أهله وبأهله ، أخذ يبكيهم ، ويندب حظّهم ، ويرثى منازلهم ، ويسائل الزمن عن ماضى مجدهم، ويتألّم لبقائه من بعدهم ، ويمدح ما اتصفوا به: من سامى الخلال ، وطيب الفعال . وبرغم ما كان بينه وبينهم: من إحَنٍ وبغضاء ، عزّ عليـه فقدهم ، وتمنّى أن لو استمرّت حياتهم ، واستمر ما بينه وبينهم من فرقة ونفور ، فقد كانوا برغم ذلك مصدر فخاره ، وينبوعا لقوّته واعتزازه . قال أسامة من قصيدة طويلة يصف فيها هذا الخطب ، وكيف كان له شديد الوقع فى نفسه ، فهو يتطلب الأسى ، فلا يجد أسوة يقتدى بها :

قالوا: تأسّ ، وما قالوا: بمَنْ ، وإذا أفردت بالرّزء ما أنفكّ أسوانا
ما استدرج الموت قومى فى هلاكهم ولا تخـرّمهم مثنى ووحدانا

فكنت أصبر عنهم صبر محتسب وأحمل الخطب فيهم ، عز أوهانا
وأقتدى بالورى قبلى ، فكم فقدوا أخا ، وكم فارقوا أهلا وجيرانا

ويدفع عن نفسه أن يظنّ به ظانٌّ وقوفه من هذه الكارثة،وقوف من لا يعنى بها ، ولا يأبه لها ، فيقول :

لعلّ من يعرف الأمر الذى بعدت بعد التّصاقب من جرّاه، دارانا
يقول بالظنّ إذ لم يدر ما خلقى ولا محافظتى من حان أو بانا :
أسامة لم يسؤه فقد معشره كم أوغروا صدره غيظا وأضغانا
وما درى أنّ فى قلبى لفقدهم نارا تلظّى ، وفى الأجفان طوفانا
بنو أبى ، وبنو عمّى ، دمى دمهم وإن أرونى مناواة وشنآنا
كانوا سيوفى ، إذا نازلت حادثة وجنّتى ، حين ألقى الخطب عريانا

وختم تلك القصيدة الباكية بالدعاء لهم ، فقال :

سقى ثرى أودعوه رحمة ملأت مثوى قبورهم روحا وريحانا
وألبس الله هاتيك العظام ، وإن بلين تحت الثرى ، عفوا وغفرانا

ولما علت سنّ أسامة ، ووهن منه العظم ، أخذ يشكو طول العمر ،وثقل الحياة عليه ، فحينا يجد فى الموت أعظم راحة تنقذه من ضعفه ، وحينا تنهال عليه ذكريات شبابه وصباه ، ويوازن بين ضعفه اليوم،وقوته فى عهده السالف، فقد كانت كفه مألفا للسيف والرمح ، فصارت تحمل العصا ، يمشى بها كما

يمشى الأسير مثقلا بالكبل ، وحينا يأسف على أنه لم ينل فى شبيبته ، من المتع والملاذ . ماكان جديرا أن يظفر به فى عصر الشباب ، إذ يقول :

وما ساءنى أن أحال الزما ... ن ليلى نهارا ، وجهلى وقارا
ولكن يقولون : عصر الشباب ... يكون لكلّ سرور قرارا
فوجدىَ أنّى فارقتُـه ... ولم أبلُ ما يزعمون اختبارا

ومن أكبر ما أثّر فيه يومئذ أنّه رزق ابنة بعد أن تجاوز أربعا وسبعين سنة ، فوجد اليتم ينتظرها ، وكان تفكيره فى يتمها وضعفها مجابة لحزنه وبكائه :

رزقت فروة ، والسبعون تخبرها ... أن سوف تيتم عن قرب، وتنعانى
وهى الضعيفة، ما تنفك كاسفة ... ذليلة ، تمترى دمعى وأحزانى

وصوّر لنا أسامة نفسه محنيّا على عصاه ، قد تقوّس ظهره ، وصارت العصا وترا لهذا القوس ، يمشى مشى الحسير ، قد آده ثقل السّنين، فهو يمشى كالمقيّد بعثاره ، أو كالأسير فى قيده ، فلا جرم كان شديد الضيق والبرم، حين يرى نفسه عاجزا عن تلبية داعى الحرب إذا دعاه :

رجلاى والسبعون قد أوهنت ... قواى عن سعيى إلى الحرب
وكنت إن ثوّب داعى الوغى ... لبّيتـه بالطّعن والضرب

وكان شديد الضّيق والبرم أيضا حين يرى نفسه وحيدا . قد مضت لداته وأترابه . فعاش غريبا فى جيل غريب عنه ، فكان يتأوّه قائلا :

ناء عن الأهلين والأ ... وطان . والأترابُ ماتوا

ولبئس عيش المرء قا رقه الأحبّـبة واللّذات
فإلام أشـــق بالبقـــا ء ، وكم تعذّبنى الحيـاة

(٥)

يصوّر لنا شعر أسامة صلته بأبيه و إخوته: بهاء الدولة منقذ،ونجم الدولة محمد، وعزّ الدّولة ، وشمس الدولة عبد الرحمن ابن أخيه محمد—قوية وثيقة ، يضمر لأبيه الحب وخالص الإجلال ، و يعنى أكبر ما يعنى ، بأن يكون راضيا عن خطواته ، وأهدافه ، كتب إلى أبيه يستأذنه فى فراق شيزر بعـد أن ساءت حياته فيها قصيدة طو يلة ، منها :

فاسمح ببعدى عنهم برضاك لى إنّ الذى ترضى عليه موفّق

حتى إذا آثر أسامة البعد كتب إلى أبيه قصائد يتشوق فيها إليه ، ويحدثه عن آماله فى لقائه والحياة معه ، فإذا سمع أسامة أنّ تغيرّا ألمّ بقلب والده عليه ؛ بعث إليه يستعطفه و يسترضيه ، ومن ذلك قوله :

مالى وللشفعـــاء فيما أرتجى من حسن رأيك فىّ ، وهو شفيعى
أعذبت لى من جود كفّك موردى فصفا ، وأمرع من نداك ربيعى
و بك اعتليت ، وطلت من ساميتـه فخرا بمجدك لا بحسن صنيعى
وقضى ببعدى عنك دهر جائر وإلى جنابك إن سلمت رجوعى

وكتب مرة إليه من مغتربه قصيدة منها :

بى لوعتان عليك ، يضعف عنهما جلدى : من الأشواق والإشفاق
فالشّوق أنت به العليم ، وغالب الإشفاق ممّا أنت فىّ ملاقى

وقد أثّرت هذه القصيدة فى نفس والده ، فكتب إليه :

أتظنّ أنّى بعد بعدك باقى أجزى عن الأشواق بالأشواق
أأبا المظفّر ، دعوة تشفى الظّما منى ، وإن أضحى بها إحراقى
لم أستكن أبدا لخطب نازل إلا لبعدك فهو غير مطاق
فاذا أطعت الوجد فيك أطاعنى قلبى ، ويبدى إن عصيت شقاقى
فاذا ذكرتك خلت أنى شارب ثمل سقاه من المدامة ساقى

ولعلّ والده رأى هذه القصيدة غير مبينة عما يضمره قلبه لولده من لاعج الشوق ، فقام أحد مؤدّبى أسامة بنظم قصيدة أرسلها إليه يصف فيها حال هذا الوالد المعذّب .

ولمّا شتّت إخوته فى البلاد كانت رسائله إليهم تفيض بالحب وشكوى الفراق ، فإذا عتب عليه أحدهم ، تقبّل عتبه بالعتبى ، وصادق الحبّ والمودّة ، وحدث أن أخاه محمدا أسره الفرنج ، وهو راحل من مصر ، عقب حركة عباس وابنه نصر ، فلم يمنعه ما كان بينه وبين ابن عمه بشيزر من صلة مقطوعة أن يكتب إليه ، مستعينا به على فك أسر أخيه ، مبديا أرق ألوان الاستعطاف ، إذ يقول من قصيدة :

أنا ابن عمّك ، فاجعلنى بفكّ أخى من أسره ، لك عبدا ، مامشت قدمى

ولكن ابن عمه لم يتأثر بالشعر ولم يسع فى فكاك أخيه .

أما صلته بعمّه ، حاكم شيزر ، وابن عمه ، فيظهر أنّه حاول جاهدا الإبقاء على الصلة التى تربطه بهما ،وبذل فى سبيل ذلك ما استطاع أن يبذل من عنت ومشقّة ، ولعلّ خير ما يصوّر موقفه فى تلك الفترة قوله :

وما أشكو تلوّن أهل ودّى ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ، ويئست منهم فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادى كظمت على أذاهم ، وانطويت
ورحت عليهم طلق المحيّا كأنّى ما سمعت ، ولا رأيت
تجنّوا لى ذنوبا ما جنتها يداى ، ولا أمرت ، ولا نهيت
ولا والله ما أضمرت غدرا كما قد أظهروه ، ولا نويت
ويوم الحشر موعدنا ، وتبدو صحيفة ما جنوه وما جنيت

وبعد وفاة عمّه ، حاول أسامة أن يصلح ما بينه وبين ابن عمّه ، وأن يعطفه عليه ، ويلين قلبه ، ولكن يبدو أن هذا الجهد لم يؤت ثمرته ، فظلت النّفرة بين أسامة وأهله ، حتى مضى زلزال شيزر بهم ، فبكاهم أسامة كما ذكرنا . وكلّ هذا يدلّنا على ما امتازت به نفس أسامة : من حبّ يضمره لأقاربه ، ورغبة خالصة فى أن يعيش بينهم ، يظلّلهم جميعا الودّ والوئام ، لو استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا ذنب عليه إذا هو أخفق فى جهد كان جديرا به أن ينجح ، وأكاد ألمس فى شعره أنه لم يسع يوما إلى فصم عروة مودّة بينه وبين قريب أو صديق.

(٦)

ومن أكبر هؤلاء الّذين اتّصل بهم أسامة، الملك الصّالح طلائع بن رزّيك، ودار بين الاثنين كثير من المراسلات التى تنفضح عن ود مكين بين قلبيهما، وإعجاب كل بصاحبه أكبر الإعجاب. فمضت قصائد الصالح إلى أسامة تدعوه إلى مصر حينا، وتعتب عليه إيثاره البعد عنها حينا آخر، وتأخذ عليه أحيانا أنّه مقلّ فى رسائله، لا يوالى بعث كتبه، وكثيرا ما حدّثه الصّالح عمّا قام به من حروب مع الفرنج، ويطلب منه أن يكون وسيلته إلى نور الدين، كى يجتمعا معا على حرب الصليبيين. وقد شارك الصالح أسامة فيما نزل به من أحداث قاسية فى حياته، وكان الصالح معجبا بمواهب أسامة فى الحرب والسلم، يرى فيه محاربا شجاعا، وشاعرا مفلقا، وخطيبا بارعا، وحكيما فى إبداء الرأى صائبا، يقول له:

وجهادُ العدوّ بالفعل والقو ل، على كل مسلم، مكتوب
ولك الرّتبة العليّة فى الأمـــرين، مذ كنت إذ تشب حروب
أنت فيها الشجاع، مالك فى الطّعــن ولا فى الضّراب يوما ضريب
وإذا ما حرّضت فالشّاعر المفــلق فيما تقوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لا ينــكر أن التدبير منك مصيب
لك رأى مذ قط إن ضعف الر أى على حاملى الصليب صليب

وهو لذلك يراه خير من يحمل عبء الرسالة إلى نور الدين ، يحرضه على أن يجتمعا معا على حرب الصليبيين في وقت واحد، حتى تتشتت وحدتهم، ولا يستطيعوا الحرب في جهتين ، وذلك كان رأى الملك الصالح ؛ يجهز الاثنان جيشيهما ، ويسيران معا في وقت واحد إلى أرض العدو ، طلب من أسامة أن يبلغ ذلك الرأى إلى نور الدين ، إذ قال له :

فانهض الآن مسرعا فبأمثا لك ، ما زال يدرك المطلوب
والق عنا رسالة عند نور الـدين ما في إلقائها ما يريب
قصدنا أن يكون منا ومنكم أجل في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضا ق بأدناهم الفضاء الرحيب
وعلينا أن يستهل على الشـام مكان الغيوث مال صبيب

فهو يعد بالجيوش والمال ، ويرى أن اجتماعهما معا على حرب العدو كفيل بأن يلقي بهم في البحر . أرسل رسالة إلى أسامة يقول فيها :

فلو ان نور الدين يجعل فعلنا فيهم مثالا
ويسير الأجناد جهرا ، كي ننازلهم نزالا
ويفى لنا ولأهل دو لته بما قد كان قالا
لرأيت للافرنج طرا في معاقلها اعتقالا
وتجهزوا للسير نحو الغرب، أو قصدوا الشمالا

وقام أسامة بدوره من تحريض نور الدين على الغزو ، والاجتماع على رأى الملك الصالح ، فكتب إليه أسامة يقول :

بالغ العبد فى النيابة والتحـــريض ، وهو المفوه المقبول
فرأى من عزيمة الغزو ما كا دت له الأرض والجبال تميل

وكان رأى أسامة كرأى الصالح فى الاجتماع ووحدة الكلمة ، ومضىّ الملكين معا إلى الحرب . وقصائده إلى الملك الصالح تحث على هذا التّضامن والاتفّاق ، ولكنّ ذلك لم يخرج عن حدّ الأمانى ، ولو أنّه نفّذ يومئذ فربّما كان قد تغيّر مجرى التاريخ .

كانت رسائل الملك الصّالح إلى أسامة كثيرا ما تصف له ما نزل بالقدس : من محن على أيدى الصّليبيّين ، وما اتّصف به هؤلاء : من الغدر الذى لا يحول بينهم و بينه هدنة تعقد ، ولا عقد يبرم . وكثيرا ما تحدّثت هذه الرسائل عن وقائع الصّالح فى الفرنج ، وغزواته لهم .

ومضت قصائد أسامة تحمـــل الثناء على الملك الصالح وتشكر أياديه ، وكان الصالح يبره ، و يرسل إليه خيره ، ولم يكن أسامة يجد غضاضة فى سؤال الصالح ولا الشكوى إليه ، كتب إليه مرة يقول :

أشكو زمانا قضى بالجور فىَّ ، ولم يزل يجور على مثلى ، و يعتسف
لحت نوائبه عودى ، وأنفد مو جودى ، وشتت شملى ، وهو مؤتلف
وقد دعوتك مظلوما ومرتجيا وفى يديك الغنى والعدل والخلف

ومن شكر أسامة له قوله :

والندى طبعك الكريم ، فما أهـــنى نوالا تنيله وتثيب
جاءنى والبعاد دونى ، كما جا بت فيافى البلاد ريح هبوب
وعجيب أن المواهب تسرى ويقيم المسترفد الموهوب

(٧)

ومدح أسامة غير الصّالح ، معين الدّين أُنُر حاكم دمشق، عندما كان فى كنفه، وبعد أن فارقه وجاء إلى مصر ، يثنى عليه بالجود الذى تعبده فيقول :

معين الدّين ، كم لك طوق منّ بجيدى مثل أطواق الحمام

وحينا يثنى عليه ببلائه فى حرب الصّليبيّين وانتصاره عليهم ، فيقول له :

أنت سيف الإسلام حقّا ، فلا فـــلّ غراريك أيها السيف دهر
بك زاد الإسلام ياسيفه المخـــذم عزّا ، وذل شرك وكفر

ومدح الوزير الأفضل عبّاس بن أبى الفتوح وزير الظّافر، وابنه نصرا على نعمه وما أولاه من الفضل والكرامة . وفى ديوانه قصيدة ، لا أدرى لمن وجهها ، مدح فيها بتشجيع العلوم وتوطيد أركان العدل . أما رأيه فى نور الدين محمود :

فهو المحامى عن بلاد الشـــام جمعا أن تذالا
ومبيد أملاك الفر نج وجمعهم حالا فحالا
ملك يتيه الدهر والـــدّنيا بدولته اختيالا
فإذا بدا للناظرين رأت عيونهم الكمالا

لكنّه أخذ عليه شدّة زهده ، وحمله النّاس على الزهد، حتى لقد أشبهت أيامه شهر الصوم : فى طهارتها ، وامتلائها بالجوع والعطش. وأسامة بهذا يدل على رغبة قوية فى أن يستمتع بالمباهج الطّيبة للحياة .

ومدح أسامة كذلك صلاح الدين ، ذاكرا فضله عليه وعلى الإسلام .

(٨)

كان أسامة شديد الاعتزاز بنفسه فى ميادين القتال ، شديد الاعتزاز بأسرته ، شديد الثقة بصبره وثباته وتجربته، وكان ذلك كله ينبوع فخره فى شعره، فما قاله مفتخرا بشجاعته :

لخمس عشرة نازلت الكماة إلى	أن شبت فيها ، وخير الخيل ما قرحا
أخوضها ، كشهاب القذف مبتسما	طلق المحيا ، ووجه الموت قد كلحا
بصارم من رآه فى قتام وغى	أفرى به الهام ، ظن البرق قد لمحا
أغدو لنار الوغى فى الحرب، إن خمدت	بالبِيض فى البيض والهامات مقتدحا
فسل كماة الوغى عنى ؛ لتعلم كم	كرب كشفت ، وكم ضيق بى انفسحا

وهو يعلم أن مكانته فى السلم رهينة بما يبديه فى الحرب من بسالة وإقدام :

إن يحسدوا فى السلم منزلتى من العز المنيف
فبما أهين النفس فى يوم الوغى بين الصفوف
فلطالما أقدمت اقدام الحتوف على الحتوف
بعزيمة أمضي على حدّ السيوف من السيوف

وفى كثير من شعره ، افتخر بصبره على المكاره وأحداث الزمان .

(٩)

ولأسامة نظرات صائبة فى الحيـاة ، أوحى إليه بها تجاربه ، وطول عمره وما تقلب عليه من حوادث الزمان ، وعبر الأيام .

يرى أسامة لكل شيء فى الحياة نهاية ، فلا بقاء لأمر ، ولا خلود لحادث ، فللسرور غاية ينتهى إليها ، وللأحزان حد تقف عنده ، وإذا كانت الحياة تجرى على هـذا المنوال ، فمن الواجب استقبال حوادث الأيام ، بحسن الصبر ، وقلة الاهتمام ، فإن الشـدائد إذا كانت ستنقضى وتزول ، فمن العبث أن يزيد المرء آلام نفسه :

خفّض عليك ، فللأمور نهاية   وإلى النّهاية كل شيء صائر

فاستقبل صروف الزمان بالصبر :

الق الخطوب إذا طرقـــن بقلب محتسب صبور
فسينقضى زمن الهمو م ، كما انقضى زمن السرور

بل إنّ هذه النظرة تنتهى بصاحبها إلى قلة الاكتراث بما فى الحياة من سعادة وشـقاء :

لمـا رأيت صروف هـــذا الدّهر تلعب بالبرايا
يعلو بها هذا ، ويهبط ذا ، وقصرهم المنـايا
ورأيتـه مســـترجعا نزر المواهب والعطايا

متغاير الأحوال مختلــف ألضرائب والسجايا
لا نعمـــة فيه تدو م ، ولا تدوم به البلايا
لم أغتبط فيه بفـا ئدة ولم أخش الرزايا

والمرء يتغلب على شدائد الحياة بالصبر :

إذا ماعرا خطب من الدهر ،فاصطبر فإن الليـالى بالخطوب حوامل
فكلّ الّذى يأتى به الدّهر زائل سريعا ، فلا تجزع لمـا هو زائل

وليس الصبر وسيلة لتحمل المكروه حتى ينقضى فحسب ، ولكنه الطريق إلى نيل الأمل ، والظّفر بالأمانى :

اصبر تنل ما ترجيه ، وتفضل من جاراك شأو العلا سبقا وتبريزا

وأستطيع أن أعدّ أسامة بهذه النظرة إلى الحياة متفائلا ، إذ هو ، عند الشدّة ، واثق من زوالها ، وإذا كان الأمر على ذلك فلا معنى لليأس ولا خير فيه :

يا آلف الهم لا تقنط ، فأيأس ما تـكون يأتيك لطف الله بالفرج
ثق بالذى يسمع النجوى ،وينجى من الـــبلوى ، ويستنقذ الغرقى من اللجج

وإذا كان كل شىء فى هذه الحياة إلى انقضاء ، فمن الواجب ألا يدع المرء فرصة سعادة تمر من غير أن يأخذ منها بالنصيب الأوفى :

وتغنّم اللّذّات إنّ ممرّها مرّ السّحائب

وأوحت إليه تجاربه فى الحياة أن القرب من السلطان غير مأمون العواقب ، ولا شهى الثمرة ، فنادى بالبعد عنه ، وإيثار العيش فى خمول وهدوء :

ارض الخمول ، تعش به فى نجوة   مما تخاف ومن معاندة العدى

أما الحياة فى جوار ذوى السلطان ففى خطر دائم ، وقلق لا يهدأ :

لاتقربن باب سلطان ، وإن ملأت   هباته غير ممنون بها الطرقا
فإنّ أبوابه كالبحر ، راكبه   مروع القلب، يخشى دهره الغرقا

وأسامة ممن يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويدين بالحظ ، ويرى الرزق مقسوما ، لا حيلة فى تبديله :

فوّض الأمر راضيا   جفّ بالكائن القلم
ليس فى الرّزق حيلة   إنّما الرّزق بالقسم
دلّ رزق الضّعيف وهو   كلحم على وضم
وافتقار القوىّ تر   هبه الأسد فى الأجم
أنّ للخلق خالقا   لا مردّ لما حكم

ولكن الناس جشعون يتكالبون على الحياة ، ولا يزهدون فيها إلا متكلّفين مكرهين .

(١٠)

وأفرد أسامة فى ديوانه بابا للرّثاء ، خصّ جزءا كبيرا منه برثاء ولده أبى بكر عتيق ، وكان قد وصفه بين أترابه قائلا :

عتيق كالهلال ، إذا تبدّى   لسارى الّليل من تحت الغيوم
تقول إذا به الأتراب حفّوا: أهذا البدر ما بين النجوم

وأكاد ألمس فى تشبيهه بالهلال يبدو لسارى الليل . أنه كان أملا لأبيه ، طالما تمنّاه ، ليكون رفيقا لولده الآخر مرهف ، فلا جرم كان لموته لذعة ألم فى قلبه ، أمضته فمضى إلى شعره يشكو إليه وقدة الحزن ، ولا سيّما أنه نكب به وقد قارب الثمانين من العمر ، لا أمل عنده فى خلف يأتى به .

وأسامة يحدثنا عن شغل فؤاده الدائم بابنه الراحل ، فيقول :

كيف أنساك ياأبا بكر ؟ أم كيـ ـف اصطبارى ؟ ! ماعنك صبرى جميل
أنت ، حيث اتجهت ، فى أسودى عيـ ـنى وقلبى ، ممثّـل لا تزول

ويصف لنا انصرافه بعد زيارة قبره ، يملأ قلبه الأسى والشّجن :

أزور قبرك ، والأشجان تمنعنى أن أهتدى لطريق حيث أنصرف
فما أرى غير أحجار منضّدة قد احتوتك ، ومأوى الدّرة الصّدف
فأنثنى ، لست أدرى أين منقلبى كأنى حائر فى الليل معتسف

وقد أثار فيه هذا الحادث المؤلم ذكرى من مضى من أهله ، فأخذ يندبهم ، ويتوجّع لمصيرهم ، بل أثار فيه الألم لحياته القلقة المشرّدة ، التى لا تأوى إلى وطن :

رمتنى فى عشر الثمانين نكبة من الثكل بودى حملها من له عشر
على حين أفنى الدهر قومى ، ولم تزل لهم ذروة العلياء ، والعدد الدّثر
فلم يبق إلّا ذكرهم وتأسّفى عليهم ، ولن يبقى التأسّف والذّكر
وأصبحت لا آل يلبّون دعوتى ولا وطن آوى إليه ، ولا وفر
كأنّى من غير التّراب ، فليس لى
من الأرض ذات العرض ، دون الورى ، شبر

ولكن أسامة ينتهى بالتّسليم للقـدر ، ما دام ذلك مصير الأحياء أجمعـين ، وإن الدّنيا كلها — مادام ذلك عقبى أمرها — لا تستحقّ عناء طلبها ، ولا التّعب فى جمع ما يخرج المرء منه وهو صفر اليدين .

(١١)

ليس فى غزل أسامة هـذه الحرارة القويّة التى تشعرنا بقلب دلّهه الحبّ ، وأضنته لوعة الغرام ، ولا أكاد أتبين له إحساسا تفرّد به ، أو لمحات امتاز بها ، وليس معنى ذلك أنه لم يذق الحب ، بل أرجّح أنّه ذاقه ، وإن كان لم يشغل قلبه كلّه ، وقد استعمل أسامة تشبيهات الأقدمين وأساليبهم فى وصف عواطف الحبّ ، ومما يلحظ على غزله أنّه شاك حزين ، لا تـكاد تلمح فيه ابتسامة سرور، وقد يرقّ أسامة أحيانا ، ويتّخذ أوزانا مرقصة ، وتحسّ ببعض نبضات الحياة فى غزله ، كقوله :

قل لمن أوحش بالهجـــــر جفونى من كراها
والّذى أوهم عينى أنّ فى النّوم قذاها :
يا ملولا ، قلّمـا استر عى عهودا فرعاها
يا ظلوما ، كلمـا استعـــــطفته ، صدّ وتاها
زدت فى تيهك ، والشّىء إذا زاد تنـاهى
تتقضّى دولة الحسن ، وإن طال مداها
راحتى لو سمع الشكوى إليـــــه ووعاها

غير أنّ الصّمّ لا تسمع دعوى من دعاها
وهو لو نادى عظامى رمّة لبّى صـــداها

هذا وكان أسـامة عندما يبدأ غرضا من أغراض شعره يجعل روح غزله مناسبة لهذا الغرض . واستمع إلى غزله فى مفتتح قصيدة عتاب ، إذ يقول :

ولوا ، فلما رجونا عفوهم ظلموا فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مرّ يوما بفكرى ما يريبهم ولا سعت بى إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا،ولا اطّلعت على ودائعهم فى صـــدرى التّهم

وعلى هذا النسق مضى ، حتى قال :

وبعد ، لو قيل لى : ما ذا تحبّ ؟ وما مناك من زينـة الدّنيا ؟ لقلت : هم
هم مجـال الكرى من مقلتىّ ، ومن قلبى محلّ المنى،جاروا ، أو اجترموا

وهاك من غزله فى قصيدة استعطاف :

أطاع ما قاله الواشى ، وما هرفا فعـاد ينكر منّا كلّ ما عرفا

(١٢)

وعتاب أسامة فيـــه رقة ورفق بالغ ، واستعطافه جدير أن يستلّ الضّغائن من القلوب ، تشعر فيه بحرارة العاطفة ، وصدقها ، يقول لابن عمّه يستعطفه :

هبنى أتيت بجهـــل ما قذفت به فأين حلمك،والفضل الذى عرفا

ولا ، ومن يعلم الأسرار حلفة من يبرّ فيما أتى ، إن قال ، أو حلفا

ما حدّثتنى نفسى عنـد خلوتهـا بمـا تعنّفنى فيـه إذا انكشفا

وبعد فشعر أسامة من النوع الجزل الفخم ، لا يكاد تجد فيه من الهنات إلّا ما يعدّ ويحصى ، فهو فى عصره يوضع فى مقدمة الشعراء الّذين جدّدوا شباب الشعر ، وكسوه حلة من الفخامة والقوّة والجلال .

أحمد أحمد بدوي



مقدمة

حامد عبد المجيد

يعد أسامة بن منقذ فى طليعة رجال عصره أدبا وتصنيفا ، وممارسة لألوان النشاط السياسى فى المحيط الذى عاش فيه ، أغرم بالأدب شعره ونثره ، ونهل منه حتى ارتوى ، ووجد فى الشعر متنفسا يترجم به عن عواطفه ، ويسجل فيه حسه ومشاعره ، إزاء ما كان يمر به من أحداث عنيفة ، كانت تدفعه إلى القول دفعا ، فكان له مع الزمن ديوان ضخم ، عنى بترديد النظر فيه بين الحين والحين ، يستعيد به ذكريات غالية عنده ، أو يصور لنفسه حوادث قوية مرت به ، وكان يجيل قلمه فى أرجائه بالمحو حينا والتعديل حينا آخر ، وكان تطلعه إلى مثل أعلى فى البيان يدفعه إلى معاودة النظر فى شعره بين وقت وآخر ، ليبلغ منه بالتهذيب إلى ما يبغيه من سمو فى القول ، وقوة فى البيان . واقتدى أسامة فى ذلك بما يحفظه التاريخ لكبار رجال القول من إقبالهم على تنقيح شعرهم ، وتلمسهم أسباب الإجادة ، فلا يزالون يغيرون ويحورون فى قريضهم حتى يصلوا به إلى الغاية ، ويروا أنهم قد أوفوا على التعبير الذى يبين عما فى نفوسهم أوفى بيان وأتمه ؛ وحينئذ يذيعون شعرهم فى الناس ، مغتبطين به ، وإن كانوا قلما يرضون عن أنفسهم ، بل يتطلعون دائما إلى مزيد من الإجادة والاتقان .

وقد عنى أسامه فى أثناء حياته بجمع ديوانه ، فكتبه بخطه ، ونقله عنه محبو أدبه ، ورآه ابن خلكان فى مجلدين بأيدى الناس ؛ وروى منه بعض ما راقه فيه وهو يترجم لصاحبه فى كتابه وفيات الأعيان .

وظفر شعره منذ حياته بعناية الأدباء وتقديرهم ، فاختار له العماد الأصفهانى فى خريدته ، وقرن ما اختاره له بأسمى عبارات الإعجاب والإجلال ، كما اختار له الرشيد بن الزبير فى كتابه جنان الجنان . وكان ديوانه مما أحب صلاح الدين الأيوبى صحبته وقراءته ، وترديد النظر فيه بين الحين والحين؛ حتى لقد دفع ذلك بعض الشعراء إلى معارضته فيما كان صلاح الدين يعجب به من قصائده .

روى العماد الكاتب قال[١] : "لزمت خدمة السلطان (صلاح الدين) ، أرحل برحيله ، وأنزل بنزوله ؛ وكنت ليلة عنده ، وهو يذكر جماعة من شعراء الزمان ، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أسامه بن مرشد ، بن سديد الملك على بن منقذ وهو به مشغوف ، وخاطره على تأمله موقوف ، وإلى استحسانه مصروف ؛ وقد استحسن قصيدة له طائية[٢] لو عاش الطائيان لأقرا بفضلها ، وأن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها ، على أن الشعراء المحدثين مامنهم إلا من نظم على رويها ووزنها ، واستمد خصب خاطره من مزنها "

والحق أن شعر أسامة جدير بالحب والتقدير ، فهو من النوع الجزل الفخم ، تستمع إليه فيروقك معناه ، وتعجبك حلته المتينة النسج ؛ التى لم يضح صاحبها بجودتها فى سبيل زخرف أو زينة ، فهو من الشعراء الذين ردوا للشعر أسلوبه الرفيع الذى كان له فى العصور الزاهرة للشعر العربى ، والذى ساعده على ذلك

---

(١) يريد القصيدة التى مطلعها :

أجيرة قلبى إن تدانوا و إن شطوا ... ومنية نفسى أنصفونى أو اشتطوا

راجع الديوان ص ٧٨ و ١٧٤ و ٢١١ .

(٢) الروضتين ١ : ٢٤٧ .

ثقافة واسعة من مأثور الأدب الموروث عن أساطين الأدباء وفحولهم ،وقد تجلت هذه الثقافة الأدبية الرفيعة ، فيما اختاره من نصوص ممتازة جمعها فى كتابه «لباب الآداب» وسواه . فقد كان الرجل واسع الاطلاع، معدودا من علماء عصره وكبار مثقفيه ، فلا غرابة أن تأثر أسلوبه بأسلوب هؤلاء الرجال الممتازين ، وأن اقتبس منهم حينا ، وضمن شعره بعض قولهم حينا آخر ، فثقافة الشاعر ذات أثر كبير فى أسلوبه .

وأسامة يعد بحق فى الطليعة بين شعراء عصره الذين خلد الأدب من بين أسمائهم : المهذب بن الزبير وأخاه ، وطلائع بن رزيك ، وعمارة اليمنى ، والعماد الأصفهانى . ولعل سر تفوقه — فضلا عن ثقافته الأدبية الواسعة التى تحدثنا عنها — أنه كان يعنى بالتعبير عما يمر به فى الحياة من تجاربه الشخصية ، فكان لحياة التجربة فى نفسه أثرها فى قوة شعره .

ولقد هيأ له طول العمر إنتاجا غزيرا فى الشعر ، جمعه فى ديوان كبير . ولسنا ندرى متى جمع أسامه ديوانه ، وأغلب الظن أنه قام بجمعه فى أخريات أيامه ؛ ففيه شعره الذى قاله فى شيخوخته . ويحوى الديوان معظم شعر أسامه ، فلم نعثر فى مراجعه المختلفة إلا على النادر الذى لم يرد فى الديوان .

ولما كان أسامة هو الذى قام بجمع ديوانه ، واختار أن يقسمه إلى أبواب الشعر الغنائى المعروفة فى عصره ، ورأى أن يجزئ القصيدة الواحدة المشتملة على أغراض متنوعة ، أجزاء يضع كل جزء فى الباب الذى يناسبه — فقد احترمنا النهج الذى ارتضاه أسامة لديوانه ، وأشرنا كلما أمكننا ذلك — إلى باقى أجزاء

القصيدة فى أماكنها المختلفة ، ليتسنى للباحث دراسة نظام القصيدة عند أسامة ، ومنهجه فى تأليف قريضه ، وطريقته فى التخلص من غرض إلى غرض .

رتب أسامة ديوانه على حسب أغراض الشعر الغنائى ، من غزل ، ومدح ، ووصف ، ورثاء ، وغيرها ، مبتدئا بالغزل ، ولعل بدأه الأبواب بالغزل ، لما للغزل من صلة بكل قلب ، ولأن القصيدة العربية تبدأ بدءا تقليديا بالغزل ، فرجح ذلك لديه بدء ديوانه بهذا اللون العاطفى المؤثر .

ومضى أسامة يرتب شعره فى كل باب على حسب الحروف الأبجدية ، من غير أن يستغرق هـذه الحروف فى كل باب ، كما كان مقـلا فى القوافى القليلة الاستعمال كالثاء والذال .

أأحسن أسامة فى ترتيب ديوانه على الوضع الذى ارتضاه لإذاعة شـعره فى الناس ، أم أنه كان من الخير أن ينهج نهجا آخر فى ترتيب ديوان ؟

لاريب أن اختيار أسامة لهذا اللون من الترتيب له مزاياه التى لا تنكر ، من خلق جو واحد للقصائد ذات اللون الواحد ، مما يهيئ للقارئ أن يدرك فن الشاعر وطريقته ومنهجه فى كل غرض من أغراض شعره .

أما المنهج الذى نفضله فى ترتيب ديوان الشعراء فهو الترتيب التاريخى الذى يعرض فيه الديوان شعر الشاعر على حسب تاريخ إنتاجه ،منذ بدأ الشاعر يقرض الشعر إلى اليوم الذى صمت فيه قلم الشاعر عن القريض .

هـذا الترتيب التاريخى هو الذى يبين فى وضوح عن تطور فن الشاعر من الحداثة إلى الشيخوخة ، ويجعلنا نصحب الشاعر فى كل أدوار حياته ؛ مرحلة

مرحلة ، نعرف نوازع نفسه ، ونبضات قلبه ، كلما تقدم به العمر ، إذ الشعر صدى الأحداث ، ونظرات الحيـاة ، وتجارب الأيام التى تختلف من أجلها النوازع ، وتتغير أحكام الشاعر على ما يمر به من الظروف والأحوال .

وقد كنا نفضل أن لو أضاف أسامة — وقد اختار ترتيب ديوانه على حسب الأغراض — فى رأس كل قصيدة أنشأها ، تاريخ إنشائها ، والظروف التى أحاطت بها ، لنعرف الجو الذي أحاط به عندما قرضها .

وبعد فقد عثرت دار الكتب على نسخة من ديوان أسامة ، كتبت فى صفر سنة ثمان وثمانين وستمائة ، بخط النسخ فى ثلاثمائة وتسعين صفحة ، وفى كل صفحة ثلاثة عشر سطرا ، وهى النسخة التى قمنا بتحقيقها ونشرها . ولما كان بعض شعر الديوان قد ورد فى مراجع أسامة المختلفة ، كخريدة القصر ، ومسالك الأبصار ، والروضتين ، ولباب الآداب فقـد وازنا بين رواية الديوان وما جاء فى هذه المراجع ، مثبتين ما جاء فيها من خلاف إن كان .

وقد شرحنا ما احتاج إلى شرح من ألفاظ الديوان ، لكيلا ندع بين القارئ والاستمتاع بشعر الشاعر عقبة من ألفاظ قد تكون غريبة عليه .

ووضعنا فى آخر الديوان عدة فهارس ، تسهل الرجوع إلى أجزاء الديوان وقصائده ، كما رقمنا القصائد والمقطوعات ليسهل الحديث عنها فى دراسة شـعر أسامة ونقده

حامد عبد المجيد

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

ثِقَتى بالله

الحمدُ لله ربّ العـالمين ، وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ خاتَمِ النبّيين ، وعلى آله الطيّبينَ الطاهرينَ ، وأصحابهِ البَرَرَة المتّقين ، وأزواجِه الطّاهراتِ أمهاتِ المؤمنين صلاةً دائمةً إلى يوم الدين .

أقالَكَ الله صفقَةَ النَّدم ، وأقلّك من زَلّةَ القَدم ، وعاذَك من خطَإ المقـالِ واجتراحه ، وحَصَائد اللّسان وجراحه ، وَلَا جعَلَك ممن إذا قال ، نَدم واستقال ، فانّى [كَلِفتُ](١) بنظم الشّـعر فى غُرَّة [العمر](١) أظنه من المـآثرِ والمناقب ، [وأعده من الذخائر](٢) للعواقب .

فلما عَلَت سِنّى ، وانجلَت جاهليّةُ بَاطلى عنّى ، ووضح لى أنَّ الشّعر لَهوٌ وهُون ، وأن الشُّعراء يتّبعهم الغَاوون ، أكبرتُ خَطَئِى وأعظمتهُ ، وندمتُ على تفريطى فيما نظمتهُ . على أنى بحمـد الله ما فُهتُ بِرَفَثٍ ولا هجـاء ، ولا مدحتُ لطمعٍ ولا رَجاءٍ ، تنزُّهًا عن رَفَث المقَال ، وترفُّعًا عن منَنِ الرّجال ، فحاولتُ أن أغسل عنّى وَضَرَه ، وأُعَفّى أثَره ، فعصانى منه ما شَاع ، ومُلئت به الأفواهُ والأسماعُ ، فعدت إلى تَقليله وتَمحيصه ، [وقُمت] بتَنخيله وتلخيصه ، وفيه بعد ذلك عيوبٌ يشهد

(١) تكملة لسقط بالأصل بمثلها يتم المعنى .
(٢) « « « « « يستقيم المعنى .

بها إنصَافى وإقرارى ، ويشفَعُ فى سَترها اعترافِى واعتـذارِى ، وأثبتُّ فى هذا الجزءِ منه ما حصلتُ منه على الاختصارِ ، لا على الاختيار ، وفيه ما فيه ، مما لا أنكرُهُ ولا أخفيــه ، فمُظهِرُه قائلُ صدقٍ وعَدْلٍ ، وساترُهُ أخو كرمٍ وفضلٍ ، وأنا القائلُ :

كلّمـا ردَّدتُ فى شِـعرى النَّظَر   بانَ ضعفُ العِيِّ فيه ، وظَهرْ
ليسَ يُرضِـينى ، ولا يُمكنُنِى   جحـدَ ما قد شاع منـه ، واشْتَهرْ
فأجيـلُ الفِـكرَ فى تقليــله   فإذا قَــلَّ اختصرتُ المختصرْ
وبه فقــرٌ إلى ذى كــرمٍ   إن رأى ما فيــه من عيبٍ سَتَرْ

وقد جعلتُه مشتملا على ستة أبواب :

الباب الأول — الغزل . وينتظمُ فى سلكه شكوى الفراق ، ووصفُ الحنينِ والاشتياق ، ثم ما يجوز أن يلتَحق به ، من مكاتبات الإخوان ، ومعاتبات الخُلّان ، وما يجذبُ هذا المعنى بأهدابه .

الباب الثانى — الأوصافُ .

الباب الثالث — المُلَحُ .

الباب الرّابع — المديحُ . ويتشبّثُ به القولُ فى الفَخر المتضمّن مآثرَ الإنسان وخِلالَه ، ثم الحماسةُ الراجعُ معناها إلى التّمدُّح بالشجاعة والبَسالة

الباب الخامس — الأدبُ . ويتعلَّق بسببه الأمثالُ ، وما يجرى مجراها ، أو يُلاحِظ مغزاها ، ثم وصفُ الشَّيب والكبر ، ثم الزُّهدُ لمن تأمّل واعتبر .

الباب السّادس — المراثى .

وكلُّ باب من هذه الأبوابِ المذكورةِ مرتَّبٌ على حروف المُعجم ، فصلًا فصلا ، ليقرب تَناولُ ما يُقصد منه ، والله تعالى المسئولُ فى رحمةٍ توجب الغُفران ، وتكفِّر جرائرَ اللّسان ، إنّه جوادٌ منّان .

باب الغزل

قافية البـاء

(١)

قال :

صَاحِبْهُمُ بترفُّقٍ ما أصحَبُوا[١] ‏ ‏ ‏ ‏ وتجافَ عن تَعنيفهم إن اذنَبوا
ودَعِ العتابَ ، إذا بدت لك زلّةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ إنّ الهوى مُتَجرِّمٌ[٢] لا يُعتِبُ[٣]
واحمِل لهم جَورَ المَلالِ ، وحَملُه ‏ ‏ ‏ ‏ صَعبٌ ، ولكنّ القطيعةَ أصعبُ

(٢)

وقال :

بِنفسى قريبُ الدارِ ، والهجرُ دُونَه ‏ ‏ ‏ ‏ وبُعدُ التّقَالِى[٤] غيرُ بعد السَّباسِبِ[٥]
أَراهُ مكانَ الشَّمسِ بُعدًا ، وبينَنَا ‏ ‏ ‏ ‏ كما بينَ عينٍ فى التَّدانى وحاجِب
وهل نَانِعى قربٌ ، ومِن دُون قلبِهِ ‏ ‏ ‏ ‏ نَوًى قُذُفٌ[٦] أعْيَتْ ظهورَ الرَكائِب
تَجنَّى لِىَ الذَّنبَ الّذى ما جنَيْتُه ‏ ‏ ‏ ‏ ولا هُو مغفورٌ بِعـذْرَة تَائب

---

(١) أصحب : انقاد .

(٢) يقال تجرم علىّ فلان أى ادعى ذنبا لم أفعله .

(٣) العتبى بالضم : الرضا . واستعتبه : أعطاه العتبى ، كأعتبه .

(٤) تقالوا : تباغضوا . وبينهم تقال .

(٥) السباسب : جمع سبسب ، كالبسابس جمع بسبس ، وهما المفازة .

(٦) نوى ونية وفلاة قذف ، محركةً وبضمتين وكصبور : بعيدة .

ومَلَّ ؛ فلو أهـدَى إلىّ خَيالَه ... بَدَا لىَ منه فى الكرَى وجهُ عاتب
وضَنَّ ؛ فلو أنَّ النسيمَ يُطيعُه ... لجنَّبَنِي بَرْدَ الصَّبا والجنَائبِ[1]
إذَا رجَعتْ باليأسِ منـه مَطامعى ... علِقتُ بأذيالِ الظُّنونِ الكَواذِب
وأعجبُ ما خُبِّرتُه من صَبابتى ... بِه ، والهَوى مازالَ جَمَّ العَجائِب
حَنِينِي إلى مَن خِلبُ[2] قَلبِيَ دارُه ... وشَوقى إلى مَن لَيسَ عنّى بغائب

(٣)

وقال :

حتَّى مَتَى أنا شائِمٌ ... إيمَاضَ بارقةٍ خَلُوبِ؟!
وإلاَمَ ألـقَى اللاَّئمِيـ ... ـنَ عليكَ بالوجه القَطوبِ؟!
وأعلِّلُ النفسَ العليـ ... ـلةَ فيك بالأملِ الـكذوبِ
وأقول : تُصلِحك الخطو ... بُ ، وأنت من بعضِ الخُطوب

(٤)

وقال :

نشدتُكما يامُدَّعيَينِ سَلوةً ... عن الحُبِّ ، لِمْ يُستحسن الظُّلمُ فى الحُبّ
وما بالُه يَلقَى البرِىءُ من الضَّنَى ... حَرِيرَةَ ما يأتى المسىءُ من الذَّنب
وكيفَ استمرَّ الجَورُ فيه ، وأُوجِبت ... عقوبةُ ما تَجنى العيونُ على القلب

---

(١) الجنوب : ريح تخالف الشمال ، مهبها من مطلع سهيل الى مطلع الثريا والجمع جنائب .
(٢) الخلب : بالكسر : لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع ، أو الـكبد .

(٥)

وقال :

قَمَــرٌ إذا عاتبتُــه كانتْ قطيعته جَوابى
مُتجرِّمٌ[1] أبدًا يُجــرِّعُنِى مَرارات العتاب
كم سهّلتْ عيناه لِى من وَصلِه وعْرَ الطِّلاب
حتى وقعتُ ، ولم يكن هذَا التلوّنُ فى حسابى

(٦)

وقال[2] :

ذكَرَ الوفاءَ خيالُكَ المُنتابُ فألَمَّ ، وهو بوُدِّنا مرتابُ
نفسى فداؤُكَ من خيالٍ زائرٍ مُتَعَتِّبٍ[3] ، عندى له الإعتابُ
مُستَشْرِفٍ[4] كالبدر خلفَ حجابه أوَ فى الكَرى أيضًا عليكَ حجابُ!
أنكرتُ هجرى ، والزمانُ بجوره[5] يَقضى بأن يَتَهاجر الأحبابُ
حَظَر الوفاءُ علىَّ هجركَ طائعًا وإذا اقْتُسرتُ ، فما علىَّ عتابُ
وُدّى كعهدكَ ، والدّيارُ قريبةٌ من قبل أن تَتَقطَّع الأسبابُ .
ثَبَتٌ ، فلا طولُ الزّيارة ناقصٌ منه ، وليس يزيدُه الإغبابُ[6]

---

(١) تجرم عليه : ادعى عليه الجرم وإن لم يجرم .

(٢) وردت هذه القصيدة أيضا فى خريدة القصر ١ : ١٠٣ ، و ياقوت ٥ : ٢٠٣ .

(٣) فى الخريدة «متغيب» . والتعتب مخاطبة الإدلال . والإعتاب مصدر أعتبه : أعطاه العتبى وهى الرضا .

(٤) هذا البيت لم يرد فى ياقوت . واستشرف الشيء : رفع بصره إليه ، وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس .

(٥) على هامش الديوان «بنذره» .

(٦) ترتيب الأبيات الثلاثة الأخيرة فى الخريدة و ياقوت يخالف ترتيب الديوان . والإغباب مصدر أغب إذا جاء القوم يوما وغاب يوما .

(٧)

وقال :

نفسى بِزَهرةِ دُنياها معذَّبةٌ   فكيفَ حالُ مَن الدّنيا تُعذِّبُهُ

ومن سَمَتْ لوصالِ الشّمس همّتُه   فغيرُ مُستَنكَرٍ إنْ عزَّ مطلبُه

(٨)

وقال :

واعص اصْطبارَكَ إن تكفَّل أنّه   لك مُسعدٌ، فالهجرُ يُظهر حُوبَهُ[1]

ويَحْسب قلبِك مابِه: من حُبِّهم   فَعلامَ تَقرِفُ بالصدود نُدوبَه[2]

(٩)

وقال :

لَيس طَرفى جارًا لِقلبى ، ولكنْ   دَمُ هَذا بدمع هذَا مَشُوبْ

خُلطةٌ فى تَباين الحال : هذا   أبدًا ظاهرٌ ، وذَا محجوبُ

ولِطَرفِى فى كلّ نَهْجٍ من الحبّ وجيفٌ ، وقلبِىَ المجنُوبُ[3]

وسهامُ العيون أخفى من الوهمِ ، ولكن بهنَّ تَدْمى القلوبُ

---

(١) الحوب : الإثم .

(٢) قرف القرحة : قشرها . والندوب : جمع ندبة وهى أثر الجرح الباقى على الجلد .

(٣) الوجيف : الاضطراب . والمجنوب اسم مفعول من جنبه : قاده إلى جنبه .

(١٠)

وقال من قصيدةٍ كتبها إلى الملك الصَّالِح[١]، جواباً عن قصيدة كتبها إليه من نظمه :

أَطِعِ الهَوى ، واعْصِ المُعاتِبْ واصْدِفْ عن الواشِى المُراقِبْ
وتَغَنَّمِ اللَّذَّاتِ إنَّ مَمَرَّها مَرُّ السَّحائِبْ
وانْظُر إلى الأغصانِ حامِلةً شُموسًا فى غَياهِبْ
من كل حَاوٍ ، قد تكَنَّفَهُ ثَعابِينُ الذَّوائِبْ
فى وجهِه ضِدَّانِ ، كُلٌّ منهما لِلُّبِّ سَالِبْ :
نارٌ بلا لَفْحٍ تَضَرَّمُ ، وسْطَ ماءٍ غيرِ ذَائِبْ
هَذى بقايا سِحْرِ بَا بِلَ ، وهى من إحدى العجائِبْ
فحَذَارِ يا أُسْدَ الشَّرى من فتك ألحاظ الرَّبَارِبْ[٢]
غَضبانُ أفديه عَلى ما كان منه : من مَغَاضِب[٣]
دَعْ ذا ، فما عُذرُ الفَتى فى غَيِّه ، والفودُ شَائِبْ

(١١)

وقال :

مَن زَيَّنَ الأُقْحوانَ الرَّطْبَ بالشَّنَبِ ونَظَّمَ الدُّرَّ بين الرَّاحِ والحَبَبِ
ومن تُرى غَرَسَ الأغصانَ حاملةً شمسًا تردَّتْ دَيَاجى الشَّعرِ فى كُثُبِ
وقُل لِشَادِنِ آرامِ الكَاس : أَلَا فانظُر إلى مُلَحٍ فى شادن العَرَبِ[٤]

---

(١) هو طلائع بين رزيك (٤٩٥ — ٥٥٦ هـ) ولى وزارة الخليفة الفاطمى : الفائز بنصر الله ، ثم وزارة العاضد وكان شجاعا حازما جوادا عارفا بالأدب شاعرا ولوعا بغزو الفرنج . (٢) الربرب : القطيع من بقر الوحش .
(٣) المغاضب : جمع مغضبة وهى ضد الرضا . (٤) شدن الظبي : قوى واستغنى عن أمه .

نارُ الحياءِ بخَدَّيهِ بلا لَهَبٍ ... قد مازجت ماءَ حُسنٍ غيرَ منسكبِ
سُبحانَ باري سِهامٍ من لَواحظه ... من الملاحَةِ لا من أسهُمِ الغَرَبِ[1]
إذا رَمين فما دُون القلوب، وإن ... حُرِسْنَ، من جُنَنٍ تَحمى ولا حُجُبِ
كانت، وليلُ الصِّبا تُخفي دَياجِرُه ... عَنّي سبيلَ النُّهى والرُّشد، من أربي
أعصِي النَّصيحةَ فيها غيرَ مُعتذِرٍ ... وأركبُ الغَيَّ عمدًا غير مُتَّئِبِ[2]
وأحمِلُ الضِّغْنَ في وَجدِي بها، وأَرَى ... حمَلَ الهَوى مِن وقارِ الحلمِ أجمَلَ بِي
حتَّى إذا نَادَتِ السبعونَ: حَسبُكَ مِنْ ... تَعليلِ قَلبِكَ بالآمالِ والكَذِبِ

(١٢)

وقال :

مُهَفْهَفٌ يُخجِلُ بَدرَ الدُّجَى ... فإن رآه اكتَنَّ في السُّحْبِ
قَوامُهُ يُزرِي، إذا ما انْثَنَى ... مِنْ لِينِه، بالغُصُنِ الرَّطبِ
يَبسِمُ عن دُرٍّ، تعالَى الَّذي ... نَظَّمه في البارد العَذْبِ
أُلَامُ فيه، وهو لي شَاغِلٌ ... بالهَجر عن لَومٍ وعن عَتْبِ

(١٣)

وقال :

أدعُو على ظَالمي، فيغضَبُ مِنْ ... دُعَايَ، قُل لي: عَلامَ ذَا الغَضَبُ؟!
هَجْرُكَ لي ظالمًا، وخَوفُكَ مِن ... دُعَايَ، يَا ظالِمي، هُو العجبُ

---

(١) الغرب : شجر . (٢) اتأب : خزى واستحيا .

يَدعو لِسانى، والقلبُ من وَجَلٍ   عليكَ أن يُستجاب لى، يَجِبُ
وَبَعْدُ مَن لى، لو أنَّ وزرَكَ فى   صَحيفتى فى المَعَادِ يُكتَبُ

(١٤)

وقال :

لا تكثِرنَّ عِتابَ مَن لم يُعتِب   فمِن العَناء قِيادُ غَيرِ المُصْحِبِ[1]
بين السُّلُوِّ وبين قلبِ أخِى الهوى   ما بين شرقٍ فى البِعاد ومغرِبِ
يُصغِى، فتحسَبُه ارعَوى، ولِذكرِ منْ   يَهوَى أصاخَ، ولم يُصِخ لمؤنِّب
والغَىَّ ما أبصرتَه من رُشدِه   والغِشُّ نُصحُ الناصِحِ المتقرِّب

(١٥)

وكتب إلى الملك الصالح بن رُزِّيك قصيدةً أوّلُهَا :

كَفَّ عَنِّى واشٍ، وأغضَى رقيبُ   ونَهانِى عن التَّصابِى المشيبُ[2]

وستأتى هذه القصيدةُ بتمامها فى مظانّها من هذا الديوان إن شاء الله تعالى،

فكتب إليه الملك الصّالح قصيدة أوّلها[3] :

بأبى شخصُكَ الذى لا يَغيبُ   عَن عِيانِى، وهو البعيدُ القريبُ
يا مُقيماً فى الصَّدرِ، قد خفتُ أن يُؤ   ذيكَ للقلب حُرقةٌ ووجيبُ
وأرى الدمعَ ليس يُطفِئُ حرَّ الـــوجد، إن جادَ غيثُه المسكُوبُ
كلَّ يومٍ لِنارِ شوقِىَ ما بيــــن ضُلوعى بماء جفنى لَهيبُ

(١) يعتب : يعطى الرضا . والمصحب : المنقاد .
(٢) راجع ص ٢٣١ .
(٣) باقى القصيدة ص ١٥٣ و ١٦٤ و ٢٩٦ .

وكذا الصبُّ يَحسُن الجورُ فى الحُبِّ لديه ، ويَعْذُبُ التَّعذيبُ
لا يهابُ الأسودَ فى حومة الحرب ، ويقتادُه الغزالُ الربيبُ
ويُجازِى عن النِّفَارِ من الأحبابِ بالقربِ ، إنَّ ذَا لعجيبُ
يا مليحَ القَوام ، عَطفًا ، فقد يَعطفُ من لِينه القضيبُ الرطيبُ
لكَ قلبٌ أقسى علينَا من الصَّخرِ ، وما هكذا تكُونُ القُلوبُ
وبحكم العَدوِّ تحكُم ألحاظُكَ فى قلبنا ، وأنت الحبيبُ
أنت عندى مثلُ ابن سبراىَ[1] منه الدّاءُ ، يُردِى النفوسَ وهو الطبيبُ
ما لدمعِى يُسقَى به وردُ خَدَّيك ، ومَرعاهُ فوقَ خدِّى جَديبُ
ولأهل الصّفاء مَا منهمُ الآن خَليلٌ إذا دعوتُ يُجيبُ
ما ظَنَنا نفُوسَهم بانصداع الشَّمل يومًا ، ولا الفراقِ تَطيبُ

قافية التاء

(١٦)

وقال :

يامُعمِلَ الآمالِ ، دَعْ خُدَعَ المنى فاليأسُ ينقضُ كلَّ ما أبرمتَه
مَرِّضْ[2] فؤادَكَ بالسُّلوّ ، لعلّه متيسرٌ بعدَ النّوى إن رُمتَه
فمن الجهالةِ أن تؤمِّل وصلَهم بعد البِعاد ، وفى الدُّنوِّ حُرِمتَه

---

(١) ابن سبراى هذا طبيب متقدم فى صناعته ، كان يتولى خدمة الملك الصالح ، وكان فى أخلاقه بعض الشراسة والحدة فلذلك كان الملك الصالح يعبث به ويداعبه مستدعيا لنفرته وحدته مع علمه وفضله . (اه من هامش الديوان) .

(٢) التمريض : حسن القيام على المريض .

قافية الجيم

(١٧)

وقال :

وسائلٍ رابَهُ ضَلالىَ عن نَهـــجىَ ، والحبُّ مالَه نَهجُ:
وَيحَ بَنى الوجدِ كلَّما عُذلُوا في خَوضِهم بلُجَّةَ الهوَى لجوا
علَّكَ تَنجُو منهم ، فقلتُ له : إيَّاك عنِّى ، حاشَاى أن أنجُو
أُنظرْ[١] إليها ، ولا[٢] نَظرْتَ ، ترى شخصًا عن العاشقين يحتجُّ
غُصنٌ ودعصٌ ، فالغُصنُ من هَيَفٍ يَميسُ لينًا ، والدِّعصُ يرتَجُّ
شمسٌ وليلٌ ، فاعجب لشمسِ ضُحًى تُشرقُ ، والليلُ راكدٌ يَدجُو
رحيقُ ريقٍ عَذبٍ ، ففى كبدى منه سعيرٌ ، وفى فَمِى ثلجُ
فى وجهِها كعبةُ الجَمالِ ، فللعَيـــنِ إلى حُسنِ وجهِها حَجُّ

قافية الحاء

(١٨)

وقال[٣]

نَفسى فَدتْ بَدْرَ تمـامٍ ، إذا عاتَبَنى بالجِدِّ أو بالمُزاحْ
سَدَدتُ بالتقبيل فاهُ على مسكٍ ، ودُرٍّ ، وعقيقٍ[٤] ، وراحْ

---

(١) هذا البيت والبيتان بعده مما اختاره مسالك الأبصار لأسامة (١٠ : ٥٠١) .

(٢) هذه رواية الديوان وفى المسالك «فإن» .

(٣) هذان البيتان من اختيار مسالك الأبصار لأسامة (١٠ : ٥٠١)

(٤) فى المسالك « ورضاب » .

(١٩)

وقال .

بَاحَ بشكْوى ما بِهِ ، فاستراحْ ... فهلْ عليه فى الهوى من جُناح
لمَّا رأى كتمانَ ما ينْطَوى ... عليه لايُغْنِى إذا الدّمعُ بَاحْ
دَاوَى بمـا أعلن من بَثّه ... قَلبًا من الكتمانِ دَامِى الجراحْ
صَبٌّ حَمَاهُ الوجدُ طيبَ الكرَى ... وجِسمُهُ للسُّقمِ نَهبٌ مُباحْ
مُخاطِرٌ يركب هولَ الهَوى ... أمًّا ، وأمًّا مثلَ ضربِ القداحْ
ياصاحِ ، ما أصحاكَ عن سَكْرَتى ... عَقْلى بأحْوى ذى مِراحٍ ورَاحْ[١]
مُهفْهَفٍ[٢]، صحّت على سُقمِها ... جُفونُه ، فهى مِراضٌ صِحاحْ
لِطَرفِهِ فَتكةُ بِيضِ الظُّبَا ... وقَدُّه هزَّةُ سُمرِ الرِّماحْ
شمْسُ نهارٍ ، تَرتدى بالدُّجى ... غُصنٌ مُراحٌ،فوق حِقفٍ رَدَاحْ[٣]
طَافَ علينا ، والدُّجى راكدٌ ... يُظِلُّنا من جُنحِه بالجَناحْ
بقهوةٍ من خدّه أشرقت ... ونَشْرُها الضَّائِعُ من فيه فَاحْ
فَظلْتُ فى أمْنِ غرَامِى به ... من كلّ واشٍ ، ورقيبٍ ، ولَاحْ
فى حِندِسَىْ طُرَّتِه والدُّجَى ... ونَيِّرَىْ غُرَّته والصَّباحْ
بغبطةٍ جادَت على بُخلِها ... بها اللَّيالى غَلَطًا لَا سماحْ
حتَّى قَضى الدّهرُ بتفريقنا ... فما احتيالى فى القضاءِ المتاحْ

---

(١) الأحوى : ذو الشفة الحمراء المائلة إلى السواد . والمراح : اسم من مرح كفرح : أشر و بطر واختال ويبختر . والراح الخمر . يريد أن عقلى مشغوف بمرح ذى ثغر أحوى و بالراح .

(٢) هفهف الرجل إذا مشق بدنه فصار كأنه غصن يميد ملاحة... و يقال : جارية مهفهفة ومهففة : ضامرة البطن دقيقة الخصر .

(٣) أراح الشىء : وجد ريحه . والمراد أنه غصن ذو رائحة طيبة . والرّداح : الثقيلة الأوراك .

(٢٠)

وقال .

أرته غِرَّتُه[1] فى الهَجْر مَصْلَحتى ... جهلًا ، فأفسدمنّى كلَّ ماصَلَحا
وقَال : لَيس له قلبٌ يُطيقُ به ... صَبراً ، ولوهمَّ بالسُّلوانِ لافتضَحا
وصبوةُ الحبِّ كانت قبلَ بَذلته[2] ... وَبعدها ، فسواءٌ صدَّ أو نَزَحا
كالشَّعر يُحفظُ مالم يُبتذل ، فإذا ... حَلَقْته عَادَ بعد الصَّون مُطَّرَحا

(٢١)

وقال :

عَقائلُ[3] الحىِّ ،أم سربُ المَها[4] سَنَحا ... أفْسَدْنَ ما كانَ بالسُّلوان قد صَلَحا
بَرَزْن كالبانِ فى الكُثبان حَاملةً ... شمسًا أضاءتْ وليلًا راكدا جَنَحا
فاقتَدْن بالحبِّ مَن أعطى مقَادَتَه ... طوعًا ، ورُضْنَ[5] بحسن الدَّلِّ من جَمَحا
من كل غيدَاءَ[6] مكسالٍ إذا انبهت ... تنفَّستْ عن نسيم الرّوض إذْ نَفَحا
كانت مُنَى النَّفسِ لولا واعظٌ لَسِنٌ ... للشَّيب أسمعنِى ناهيه ، إذ نَصَحا

---

(١) الغرة بالكسر : الغفلة وعدم التجربة .
(٢) البذل : الابتذال : ضد الصيانة .
(٣) العقيلة من النساء : الكريمة المخدرة .
(٤) المهاة : البقرة الوحشية ، شبهت بالمهاة وهى البلورة .
(٥) راض المهر : ذلله .
(٦) الغيداء : المتثنية لينا .

قافية الدّال

(٢٢)

وقال[١] :

حَتَّامَ أرغبُ فى مودّةِ زاهد ... وأرُومُ قُربَ الدّار من مُتَباعِدِ
وإلَامَ ألتزمُ الوفاءَ لِغــادرٍ ... وأُقِرُّ بالعُتبي لِجَانٍ جَاحدِ
وعلَامَ أُعمِلُ فكرتى فى سادرٍ[٢] ... سَاهٍ ، وأُسهِرُ مُقلتيَّ لراقدِ
وأروضُ نفسى فى رِضَا مُتَجرِّمٍ ... فَاتَتْ مودّتُه طِلَابَ الناشـدِ
وأقول : هِجرتُه مَخافَةَ كاشحٍ ... يُغرى بِنا ، وحِذَارَ واشٍ حاسدِ
وأظُنُّه يُبدى الصدودَ[٣] ضرورةً ... وإذا قَطيعتُه قطيعــةُ عَامدِ
مَن لى بنَيْلِ مودّةٍ مَمذُوقَةٍ[٤] ... منه ، يُبَهْرِجُها اختبارُ النّـاقدِ
أرضى بباطِلِها ، وأُقْنَعُ بالمُنَى ... منها ، وأدفَعُ غَيبَها بالشّاهدِ
ياظالمًا[٥] ،أفنَى اصطِبارِى هجرُه ... وابتزَّ ثوبَ تماسُكى وتجالُدِى
كيف السبيلُ إلى وصالك، بعدما ... عفَّيتَ بالهجرانِ سُبلَ مَقاصدى
ويلومُنِي فى حملِ ظُلمك جاهلٌ ... يلقَى جَوَى قلبى بقلبٍ بارد
يُزرِى على جَزَعِى بصبرٍ مُسعدٍ ... ويصُدُّ عن دَمعى بطرفٍ جَامد
لِمَ لا تَرِقُّ . لنـاظرٍ أرَّقتَــه ... وحَشَا حشاهُ الوجدُ جَذْوةَ واقدِ
ومروَّعٍ يلقَى العواذلَ فى الهوَى ... بفؤادِ مَوتُورٍ ، وسمعِ مُعاندِ

---

(١) روى العماد فى الخريدة بعض هذا الشعر (١ : ١٠٣) .
(٢) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالى ما صنع .
(٣) فى الخريدة " الجفاء" .
(٤) يقال فلان يمذق الود ، ووده ممذوق وهو مماذق فى وده : كذاب
(٥) فى الخريدة " يا هاجرا " .

قَلِقِ الوِساد كأنَّ تحتَ مِهاده أسدًا ، ومَضجَعَهُ نُيوبُ أساوِدِ[1]
أتُراكَ يَعطِفُك العِتابُ ، وقلّما يَثْنى العتَابُ عِنانَ قلبٍ شَارد
هيهاتَ ، وصلُكَ عند عَنقَا مُغرِبٍ[2] ورضَاكَ أبعدُ من سُهًا وفَراقِدِ
ومن العنَاءِ طِلابُ وُدِّ صادِقٍ من مَاذِقٍ ، وصلاحُ قلب فاسد

(٢٣)

وقال :

إن خانَ عهدَك من تَودُّهْ ونأى ، فلا يَحزُنْك فَقـدُهْ
واهجُرْهُ هجرَكَ من تُحِـــبُّ ،إذا قَضى وحواهُ لحدُهْ
وإذا سُئِلتَ عَلامَ تَهـــجرُه ، فَقُلْ : ما صَحَّ عهدُهْ
وعَلامَ أرغبُ في مَلُو لٍ ، خَائنٍ ، قد بان زُهدُهْ
واحْذَر مقالةَ من يقو لُ : الحبُّ تخضعُ فيه أُسدُهْ
وإذَا خضعتَ لمن يخُو نُك فالإباءُ لِمَن تَعـدُّهْ !
إن راعَ قلبَكَ هجرُه فغدًا يلينُ له أشَـدُّهْ
والصَّـــبرُ سُمٌّ ناقعٌ لـكنَّ منه يُشارُ[3] شُهـدُهْ
وإذا صرفتَ القلبَ فَهْـــو كأمسِ ، لا يُسطاعُ ردُّهْ
غَالَطتَ نفسَك فيه ، والمشـ غوفُ يَعزُب عنه رُشْدُهْ
وظَنَنْتَه قَصبَــدَ ازديا دَك في الهوَى ، وسواكَ قَصْدُهْ

---

(١) أساود : جمع أسود وهو الحية .
(٢) عنقاء مغرب : طائر معروف الاسم لا الجسم
(٣) شار العسل : استخرجه كأشاره .

وأنَا الفــداءُ لبـاخلٍ بالوعدِ ، والأحلامُ وَعْدُهْ
أرضَى ببـاطله ، ويُقْنِـــطُني تجهُّمه ، ورَدُّهْ
لَدنُ القَوامِ، يُعــلِّمُ الأغـــصانَ كيف تَميسُ قَـدُّهْ
يَفتَرُّ عن عَذْب المقبَّـــلِ ، يُضرم الأحشاءَ بردُهْ
لا شــكَّ ، لُؤلُؤ ثغرِه من عقده أو منهُ عقدُهْ
للخمــر ريقتُــه ، وللـــو ن الجنىِّ النَّضر خَدُّهْ

(٢٤)

وقال :

يا مَلولًا قلّما يَرْ عَى لِمن يهواه عَهدَا
يا ظَلوماً كلَّمَـا استعــطَفْتُه تاه وصَـدَّا
لِمْ جَعلتَ الهجرَ يا مو لاىَ ، قَبل البُعد بُعدَا
مَا أرى[لى][1] منك فى حَا ل الرِّضا والسُّخطِ بُدَّا

(٢٥)

وقال :

مُروَّعٌ بالقِــلَى ، والصَّدّ ، ليس له صبرٌ، على الهجرِ والإعراضِ، يُسْعِدُهُ
إذَا استَغَرَّ[2] الـكَرى أجفانَ مُقلَتِه وَافَى الخيالُ بطولِ الهجرِ يُوعِدُهُ
تُذْكى مدامعُهُ جَمراً تسعَّر فى حشاهُ ، والجمُر فيضُ المـاء يُخْمِدُهُ

(١) تكملة يقتضيها الوزن .
(٢) استغر فلانا : أتاه على غفلة .

(٢٦)

وقال :

لا تَحسَبنَّ اللومَ أجدى بل زادهُ كَلَفًا ووجْدَا
أبْدَى صَبابَتَــهُ ولـلــإعلانِ ما أخْفَى وأبْدَى
نَمَّتْ به زَفَراتُ شَو قٍ ، ما أطاقَ لهنَّ رَدَّا
لا تُكثِرَنَّ فما يَرَى ممَّن تُعنِّفُ فيه بُدَّا
قمرٌ أعار الظبيَ ألـــحاظًا ، وغُصنَ البانِ قَدَّه
شُغفَ الجمالُ به ، فلم يَجعـلْ لما أعطاهُ حَدَّا

(٢٧)

وقال :

قُل لمن لم يَرْعَ عَهدِى والَّذِى ضَيَّع وُدِّى :
يا فَدَتْكَ[1] النفسُ ، قد أسرفتَ فى هَجْرِى وصَدِّى
إنَّما وَصلُك مبـــذُولٌ لخِـــلٍّ مُستَجَدِّ
فابقِ من هَجرِكَ حظًّا لِلَّذى يَهواكَ بَعْدى

---

(١) هذا البيت والبيت الأخير من اختيارات مسالك الأبصار لأسامة (١٠ : ٥٠١)

(٢٨)

وقال :

حَال عمّا عهدتُه من ودادى ... واعتَدَى فى قَطيعتى وبِعَادى
وسَلَانى، وقال : كم جُهْدُ ما ... يَبْقَى بجِسمٍ مُضنًى بغيرِ فُؤاد
وأطاعَ الوُشاةَ فِىَّ، وصعبٌ ... أن يُطيعَ الحبيبُ قولَ الأعادى
وَهو من نَاظِرى وقَلبى، وإن مـــلَ، وأبدَى القِلَى، مكانُ السَّواد

قافية الرّاء

(٢٩)

وقال :

كَم إلى كَمْ أُكَاتِمُ النَّــاسَ وجْدى ، ويظهرُ ؟!
كَشَفَ الهجرُ من غَرا مِىَ ما كنت أسْتُرُ
وأقَــرَّتْ مَـدامعى بالّذى كنتُ أنـكرُ
ما احتيالُ المتيَّمِ الصَّـــبِّ ، أم كيف يَصبرُ
رَاقَبَتْها العيونُ ، ياليـــتَها ليس تنظرُ !
فَهو من خشيَةِ المُرا قِب يَهوَى ويَهجرُ

(٣٠)

وقال :

أيرجعُ لى شرخُ الشباب وعصرُه ... وكيفَ رجوعُ اللَّيلِ قَد لاحَ فَجْرُهُ
رداءٌ قشيبٌ، حالَ حالكُ لونِه ... وأنْهَجَهُ[1] طىُّ الزَّمان ونَشْرُه

---

(١) أنهج الثوب : أخلق ، وأنهجه البلى . وحال : تغير لونه .

وكنتُ به كلَّ الضَّنينِ فبزَّه[١] المشــيبُ ، فويحَ الشَّيبِ لَادَرَّ دَرُّهُ
فياسَعدُ ، كم أحسنتَ بي قبلَ هذه   فدونَك بِرًّا خالِصًا لكَ شُكرُهُ
تَراءَ معي دارًا بأكثبة الحمى   فقد رانَ[٢] من دمعي على العين سِتْرُهُ
فإن تكُ أطلالًا لي فقف بي بِرَبْعِها   لأُبرِدَ قلبًا قد توهّج جَمْرُهُ
وأُفرغَ فيها قَطرَ دَمعٍ يُغيرهُ   إذا جادَها من صيِّبِ الغيثِ قَطرُهُ
وعاهدتُ قلبي أنّه لِيَ مُنجِدٌ   متى خُنْتُمُ ، والآن قد بان غَدرُهُ
وأبدَى الهوى منه تَجَهُّمَ خاذِلٍ   فمَن خانَني مِن بَعده قام عُذْرُهُ
وقد كان سُكرُ الحُبِّ يهفو بلبِّــه   وما خلتُــه يبقى مع الغَدرِ سُكْرُهُ
ولم أتَّبِعْ ضَنًّا بكم سَقَطاتِكُم   لأسبرُكُم ، والكَلْمُ يُدميه سَـبْرُهُ[٣]
ولـكن أرَانِيهَا اشتهارُكُمُ بهـا   وهل يَختفي في حِندس اللَّيل بَدْرُهُ

(٣١)

وقال[٤] :

ما هَاجَ هذا الشوقَ غيرُ الذكرِ   وزورةُ الطيفِ سَرَى من مصْرِ
من بعد طُولِ جفوةٍ وهَجرِ   كم خاض بحرا وفَلًا كبحرِ
يَجوبُه الليلَ حليفَ ذُعرِ   حتى أتى طَلائحًا[٥] في قفرِ
قد انطوَيْنَ من سُرًى وضُمرٍ[٦]   حتى اغتدين كهلالِ الشهرِ
يَحملن كلَّ ماجدٍ كالصَّقرِ   كأنّه مُهنَّدٌ ذو أثْرِ[٧]

---

(١) بزه : غلبه ونزعه .   (٢) ران : غلب .
(٣) السبر : امتحان غور الجرح .
(٤) اختار صاحب مسالك الأبصار بعض أبيات هذه القطعة لأسامة مع اختلاف في الترتيب (المسالك ١٠ : ٥٠٢)
(٥) طلائح : جمع طليح وهو المهزول .   (٦) الضمر : الهزال .
(٧) الأثر : فرند السيف .

بعيدُ مَهوَى هِمَّةٍ وذِكرِ ... للمجد يَسعى ، لا لـكسبِ الوَفرِ
فأمَّ رَحلِي، دُونَ رحلِ السَّفْرِ ... يُذكِّرُنى طيبَ الزَّمانِ النَّضرِ
واهاً له من زَمنٍ وعُمرِ ... ما كانَ إلا غُرَّةً فى الدَّهرِ
إذ الصِّبا عند التَّصابِي عُذْرى ... وغايةُ المُنية أمُّ عَمرو
غَرَّاءُ ، أبهى من ليالِي البدرِ ... بعيدةُ القُرط ، هضيمُ الخصرِ
أحسنُ من شمسٍ بِغِبِّ قَطرِ ... تفعلُ بالألباب فعلَ الخمرِ
تبسِمُ عن مثلِ نظيمِ الدُّرِّ ... كأنَّه لآلِئٌ فى نَحْرِ
إذا انثنَت قبل نُمُوم الفجرِ ... تَنفَّستْ عن مثل رَيَّا الزَّهرِ
كأنَّ فاهَا جُونَةٌ[1] لعطرِ ... وإن مشَت مثقلةً بِالبُهرِ[2]
مَشْيَ النسيم بمياه الغُدْرِ ... رأيتَ سِحراً أو شَبيه سِحْرِ
رَاكدَ لَيلٍ تحت شمسٍ تَسرى ... ضدَّان فيها اتَّفقا لأمرِ
يالائمى ، إنَّ الملامَ يُغرى ... هَيَّجتَ أشواقى،ولستَ تَدرى
لابكَ مابِي: من جَوًى وفكرِ ... إذا أراحَ الليلُ همَّ صدرِى
أبيتُ أرعَى كل نجمٍ يَسرِى ... كأنما حَشيَّتِي من جَمْرِ
كيفَ العزاءُ ، وصروفُ الدَّهرِ ... تقرِفُ[3] قَرحِى،وتَهيضُ كَسرِى
كأنَّها تطلُبُنِي بِوَترِ ... والصَّبرُ ، لو خبرتَه ، كالصَّبرِ

(٣٢)

وقال :

دعانِي إلى هَجرى بثينةَ حقبةٌ ... من الدَّهر خَوفى هَجرَها آخرَ الدَّهرِ
ولا بأسَ بالهجران مالم يكن قِلًى ... ولا الصَّدُّ،مالم يبْدُ المرءُ عَن غَدْرِ

(١) الجونة : السَّفَط . (٢) البهر : انقطاع النفس من الإعياء . (٣) قرف القرحة : قشرها .

(٣٣)

وقال :

وَيحَ العواذلِ، لاخَلاقَ لهم ... وَهُوا، ولم تَصدُقْهم الفِكَرُ
قالوا : فتًى تسمو به هِمَمٌ ... مُستصغَرٌ في جَنبها الخَطَرُ
لا يَنثني عمّا يَهُمُّ به ... أو يَنثنِي الصَّمصامةُ الذَّكَرُ
غرّته دنياهُ بزَهرتها ... فَصَبا، ومن عادَاتِها الغَرَرُ
فأرَته مثلَ الشمسِ طالعةً ... غرّاءَ يعشَى دُونَها البَصرُ
وبدَتْ له عُطُلًا كأحسن ما ... يَبدُو لعينِ المُدلِجِ القَمرُ
حتى إذا ما الحُبُّ أوقَفَه ... حَيرانَ: لا وِردٌ ولا صَدَرُ
ضَمِنَتْ له من وَصلِهَا عِدةً ... إن نَالَهَا فَلْيَهنه الظَّفَرُ
أو كان ذَاك لحَتفِه سبَباً ... فَدَمُ الفَتَى في مِثلِهَا هَدَرُ

(٣٤)

وقال :

يا حاضراً بفؤاد نَاءٍ غائبٍ ... والنجمُ أقربُ من مَلُولٍ حَاضِرِ
أَبلُغْ رضاكَ من الجَفاء فَشيمتى ... وصلُ الملولِ، وحفظُ عَهدِ الغَادرِ
فلأصبِرَنّ عليكَ لا من سَلْوةٍ ... صبرَ الكليمِ على أداةِ السَّابِرِ[1]
حتّى تعودَ إلى الرّضا، ويصدّك إلحـــ ... ـــاقُ الكريمُ عن الطريقِ الجائرِ

---

(١) السبر : امتحان غور الجرح . والكليم : الجريح .

(٣٥)

وقال[1] :

واهاً لليلٍ خِلتُنِي من طيبه متَفَيِّئاً فى ظلِّ طَيرٍ طائرِ
لو أنَّنِي أشرِى بعُمرى مثلَه أو بالشَّبِيبة لم أكُنْ بالخاسرِ
ناهلْتُ فيه البدرَ شمساً تُوِّجَت عند المِزَاجِ بكل نجم زاهر
ولثمتُ ثغراً ، لو تألَّق فى دُجًى أغنَى المَحولَ[2] عن الغَمام الماطر

(٣٦)

وقال :

هُبونى ، كما زَعمُوا ، مُذنِباً أسأتُ ، وقد جئتُ أستغفرُ
فأينَ دليلُ الرِّضا والقبو لِ ، وحُسنُ تجاوُزِ مَن يَقدرُ
ولم يَبق لى بعد ذُلِّ الخضو عِ رجاءٌ سِوى أننى أصْبرُ

(٣٧)

وقال :

يا جائراً ، وهوايَ يَعذرُه منك الذُّنوبُ ، ومنِّىَ العُذْرُ
لا تحسَبنِّى ،عَن مَلالكَ لى غِرًّا ، ولكنَّ الهوى غِرُّ
وأرى سبيلَ الهجر واضحةً مسلوكةً ، لو كان لى صَبْرُ

---

(١) هذه القطعة عدا البيت الثانى مما اختاره مسالك الأبصار لأسامة (١٠ : ٥٠٢)

(٢) المحول : الجدب .

(٣٨)

وقال[1] :

ما حيلَتِى فى المَـلُولِ ، يظلِمُنى   ولَيس إن جارَ منه لى جارُ
ودَادُه كالسَّحابِ ، منتقِــلٌ   وعهدُه كالسرابِ ، غرَّارُ
آمَنُ ما كنتُ منه فاجأنى   بغَــدْرِه ، والملولُ غدَّارُ
عَوْنى عليه مدامعٌ سُفُحٌ   وَزَفرةٌ دونَ حَرِّها النَّارُ

(٣٩)

وقال :

لا صبرَ لى عن بدرِ تمٍّ مُشرِقٍ   أضحَى له البينُ المشتُّ سرَارَا[2]
عاتبتُه[3] فى صَدِّه قبلَ النوى   فكأنَّ عتْبى زادَه إصرارَا
وعَرتْه من خَجلِ العتابِ كآبةٌ   زادتْ محاسنَ وجهِه أنوارَا
ورأيتُ أمواهَ الحَيَاءِ بخدِّه   فترقرقت ، حتى استحالَت نَارَا

(٤٠)

وقال :

أنا أفدى مُغرًّى بصدِّى وهجرِى   وهو شمسى ضُحًى ، وفى الليلِ بدْرِى
يُنْبِتُ الوردَ خدُّه ، وبفيه الـ   ـعذبِ دُرٌّ ، يُسقَى سُلافةَ خمْرِ

---

(١) رويت هذه القصيدة أيضا فى خريدة القصر (١ : ١٠٤).

(٢) السرار : أواخر الشهر.

(٣) هذا البيت والبيت الأخير من اختيارات المسالك لأسامة (١٠ : ٤٠٢)

(٤١)

وقال :

مَن عاذرٌ لى ! ومَن للصبِّ يَعذرُه ... من ناقض العهد يَنسانى ، وأذكُرُه
يَقتَادُنى نحوَه شَوق ، ويَصْرِفنى ... خوفى عليه ، فأهواهُ وأهجرُهُ
تَرى محاسنَه عَيْنِى ، وتُعرِض عن ... قَبيح أفعاله ، أوَ ليس تُبْصِرُه
يأتى بما ساءَنِى عمدًا ، فأعذرهُ ... ويَظهرُ الغدرُ لى منه فأنكرُهُ

(٤٢)

وقال :

حتَّامَ قلبى بالكآبةِ مُكمَدٌ ... باكٍ ، ووجهى للتجمُّلِ مُسفرُ[1]
كالشَّمع يُشرِق بالضِّياء ، ونارُه ... مشبوبةٌ ، ودموعُه تَتَحدَّرُ

(٤٣)

وقال :

مَن عَذِيرى من شادِنٍ[2] لم أُطِقْ عـنه ، مع النُّسكِ والتَّحلُّمِ صَبْرَا
أهْيفٍ ، أنبتَ الجمالُ بفيه الـ ... ـعذبِ دُرًّا سقاهُ مسكًا وخمرا
فأعارَ الغَزالَ عينًا ، وغصنَ الـ ... ـبان لِينًا ، والأُقْحُوانَةَ ثغرَا
أجتلى منهُ فى ضحى اليومِ شمسًا ... وأرى منه فى دُجى الليلِ بَدْرَا
فيه أُنسٌ ، وللملاحَةِ فى عَـ ... ـينيه مَعنًى ، تخالُه العينُ ذُعْرَا
قال لى ، إذ رأى غَرامِى وصدِّى : ... أنت تُخفِى وَجدًا ، وتُظهر هَجْرا

---

(١) أسفر الصبح : أضاء وأشرق . والتجمّل : التصبّر .

(٢) شدن الظبى : قوى واستغنى عن أمه .

أنت كالصّائم، الذى يَشتهى المـــاءَ لفرطِ الظّما ، ويكره فطْرَا
قُلت: دَعْ ذا، فأنت شَرطى، ولكن لم يدَعْ لى المشيبُ فى الجَهلِ عُذْرَا

(٤٤)

وقال :

قَالُوا : أتسلُو عن حبيبك؟ قُلت : لا ، واللهِ ، عُمرِى
قَالوا : ففيه تَبَــذُّلٌ يأباهُ مثلُك ، قلت : أدرى
لو كان مستورًا لَمَا هَتَك الغرامُ عليه سِتْرِى
وإذا أبتْ نَفسى هَواهُ ، مع الخيانَةِ، خَان صَبرِى

(٤٥)

وقال :

ظبيٌ تَغارُ الشمسُ من حُسنه ماءُ الحَيا من خَدِّه يَقْطُرُ
مُتَبَسِّمٌ عن جوهرٍ رائعٍ يَفوحُ منه المسكُ والعنبرُ
إذا مَشَى أخجــلَ سُمرَ القَنَا وحارَ فيه عقلُ مَن ينظُرُ
ما فيه من عَيبٍ سِوَى أنَّه إذا أَردْنَا وصلَه يَهجُرُ

قافية الشين

(٤٦)

وقال :

لا تَرَجَّ النُّجحَ من مَواعده فهى صباحٌ، يُجَابُ عن غَبَشِ[1]
مَا هِى إلا السَّرابُ، يتبَعُه الظَّمــآنُ ، حتى يمُوتَ بالعَطَش

(١) الغبش : ظلمة آخر الليــل .

قافية الصاد

(٤٧)

وقال :

يا مَن مودَّتُه سحابٌ زائلٌ   وعُهودُه فى الحُبِّ ظلٌّ قَالِصُ
هَل فى القَضيَّةِ أن حُبَّك زائدٌ   أبدًا ، وحَظِّى كلَّ يومٍ نَاقِصُ
وتشوبُ وُدَّكَ بالقَطِيعةِ والقِلَى   وهواكَ من كلِّ الشَّوائبِ خَالِصُ

(٤٨)

وقال :

يا غَادِرين إلامَ يَثْنِى هجْـرُكُمْ   وملالُـكُم أمَلِى بجَدٍّ[1] نَاكِصِ
أنا من هَواكُمُ بين حبٍّ زائدٍ   بلغ النهايةَ بى ، وحظٍّ ناقِص
أرضَى مشُوبَ الوُدِّ منـكم بالقِلى   وأبيحُكُمُ محضَ الوداد الخالص

قافية الضاد

(٤٩)

وقال[2] :

صَــدَّ عَنِّى وأعرضَا   وتَنَـاسى الذى مَضَى
واستَمَــرَّ الصّدودُ وانْــقَطعَ الوصلُ وانْقَضَى[3]

(١) الجدّ : الحظ . والناكص : المحجم .

(٢) هذه القصيدة مما روى فى الخريدة لأسامة ١ ، ١٠٤ مع زيادة .

(٣) بعده فى الخريدة : "واختفت فى الهوى ذنو   ب بدت حين أبغضا "

صرَّح الآنَ هجرُه   لِي بما كان عَرَّضَا[1]
وإذا استُعْطِفَ المــلُو   لُ تجنَّى وأعرضَـا[2]

قافية الطاء

(٥٠)

وقال :

لكَ أن أُطيعكَ راضياً أو سَاخطَا   وأصُونَ سرَّك راجيًا أو قَانِطَا
وإذا تَسقَّطَنِي الوُشَاةُ حَديثَكُم   أَلْفَوْا بِسرِّكُم ضنينًا سَاخِطَا
يلقَى اللوائمُ فيك سمعًا صَادِفًا   عنهم ، وجَأشًا للملامَة رابطَا
ويُثِيرُ ذكراكُم زفيرًا صَاعدًا   مُستَنبِطًا بلظَاه دمعًا سَاقطَا
يا هاجرًا ، وافَى الكرَى بخياله   مُستدرِكا بالوصلِ هجرًا فَارطَا
لو أيقنَ الواشُونَ حَظِّيَ منكُمُ   وصَبابتِي بكُمُ لَسرُّوا الغَابِطَا

(٥١)

وقال :

يُقِرُّ بالذّنب يَجنِيه ، فأَحْسَبُه   قَد جاء مُستدرِكًا بالعُذر مافَرَطَا
ولَيس يَقصِدُ إلاّ أن يُعرِّفَنِي   أنّ الإساءةَ عَمدٌ لم تكن غَلَطَا

---

(١) بعده فى الخريدة : " كل عيب يبين فى السخـــط ويخفى مع الرضا "

(٢) بعده فى الخريدة : " ليت من ملنى وأنحـــلَ جسمى وأمرضا "
" عاد بالوصلِ أو قضى   فىَّ بالعدل إذ قضى "

قافية الظاء

(٥٢)

وقال :

أحْفَظتُمُ[1] قلبي بِغَــدْرِكُمُ ⁂ والقلبُ أدْنَى الغَدْرِ يُحفِظُهُ
وأضَعتُمُ عَهدَ الهوَى ، وبِهِ ⁂ أقْسَمتُ أن لا زلتُ أحْفَظُهُ
وظَنَنْتُم وجْدِى يُكفَّرُ ما ⁂ أصبحتُ أسمَعُه ، وألحَظُهُ
هَبْ أنّكُم ماءٌ وبى ظمأٌ ⁂ أفَلَسْتُ عند قَذَاهُ ألفِظُهُ

قافية العين

(٥٣)

وقال :

يا مُوعِدِى بالوَصْلِ وعدًا لا يَرَى ⁂ فيه المؤَمِّلُ للتَّقاضِى مَوضِــعَا
أصبحتُ فى حُبِّكَ كالدَّاعِى الصَّدى ⁂ ما إنْ لَهُ حظٌّ سِوى أن يَسمَعَا
لـكنَّ حظَّ هَواكَ من جِسمى ضَنًى ⁂ بَادٍ ، نَفَى نَومِى ، وأفْنَى الأدْمُعَا

(٥٤)

وقال :

أُطيعُ هَوَى عَصْماءَ ، وهو يُضِلُّنِي ⁂ ومَا أنَا فيهـا للنُّهى بمُطيعِ
ويُسمِعُنِى داعِى الهوَى من بِلادها ⁂ وإنِّى لدَاعى النّصحِ غيرُ سميعِ
وأحفَظُها ، وهى المُضِيعُ لعَهْدِه ⁂ فيا عجبًا من حافِظٍ لمُضِيعِ

---

(١) أحفظه : أغضبه .

قافية الفــاء

(٥٥)

وقال :

أَطَاعَ ما قالَهُ الوَاشى وما هَرَفَا ... فعادَ يُنْكِرُ منَّا كلَّ ما عَرَفَا
وصدَّ حتَّى استمرَّ الهجرُ منه ، فَلو ... أَلمَّ بِى منه طيفٌ فى الكَرى صَدَفَا
يَجْنِى ، وعندى له العُتْبَى ، فواعجباً ... من معُتِبٍ[1] ماجَنَى جُرما ولا اقْتَرفَا
ملَكْتُه طائعًا قلبًا تعسَّفَه ... وقلَّما يملكُ الأحرارَ مَن عَسفَا
لى منه ما ساءَنِى : من هجره ، ولَه ... منِّى الرِّضا بقَضَاياهُ ، وإن جَنَفَا
ألقاهُ بعد التَّصا فى مُعرضا حَنِقًا ... وبعــــد إقباله بالوُدِّ مُنحرفَا
يَا هاجرِينَ لِلاَ ذَنْبٍ[2] سوَى ملَلٍ ... دَعَا ، فَهَبُّوا إلى داعيه إذ هَتَفَا
مالى أرى بَيْننا ، والدّارُ جامعةٌ ... قريبةٌ ، من تَجَنّيكُم نَوى قُذُفَا[3]
لا تَعجَلُوا بِفِراقٍ سوف يُدرِكُنَا ... كَفَى بنا فُرقةٌ ، ريبُ المنون ، كَفَى
صِلُوا فؤاداً ، إذا سكَّنتُ رَوعَته ... هَفَا ، ودمعًا إذا نَهنهته وَكَفَا
لكُم هَواىَ ، وإن جُرتم ، وجورُكُمُ ... مُستحسنٌ منكُمُ ، لو لم يكن سَرَفَا[4]
كذاكَ حَظِّى من الأحْبَاب : من سكَنَتْ ... نَفسى إليه حَبانِى الهجرَ والشَّنَفَا[5]
حتى لقد غيَّر الجَدُّ العثورُ ، فلاَ ... لَعًا لَهُ ، ماجِدًا ماكان مُطَّرِفَا[6]

---

(١) المعتب : طالب العتبى : وهى الرضا . (٢) فى رواية على هامش النسخة « جرم »
(٣) النوى القذف : البعيدة . (٤) السرف : ضد القصد .
(٥) الشنف : البغض . (٦) تمام القصيدة صفحة ١٢٥ . والمطرف : الرجل لا يثبت على صحبة أحد الله .

(٥٦)

وقال :

وَمُهَفْهَفٍ، بِى من فُتُور جُفونه سُكْرٌ، يُقصِّرُ عنه سُكْرُ القَرْقَفِ[١]
أبدًا أُواصِلُه، ويَهجُر عامدًا ومنَ العَنَاءِ ودادُ من لم يُنْصِفِ
يَستعذبُ القلبُ العليلُ عَذابَه وَاهًا لَه، لو أنَّه لم يُسرِفِ
غَطَّى الجمالُ على ذَميم فعاله والموتُ يَستُره صِقالُ المُرهَفِ

(٥٧)

وقال :

لا تَغتَرِرْ بنُحولِ خَصرٍ أهيَفٍ فالموتُ فى حَدِّ الحسامِ المُرهَفِ
وتَوَقَّ فتكةَ ناظرٍ مُتَمَرِّضٍ[٢] يسطُو سُطَا مُتَغَشْرِمٍ مُتَعَجْرِفِ
ظَمِئى من الثَّغرِ البَرُودِ، فمَن رأى ظَمآنَ من بَرَدٍ يُعَلُّ[٣] بقَرقَفِ[٤]
من لى بوصْلِ مُماطِلٍ بدُيُونِه يَعِدُ القَضاءَ مَعَ اليَسارِ، فَلا يَفِى
فى[٤] وَجهه ماءُ الملاحَة حائرٌ وبخدِّه وَردُ الحَيَا لم يُقطَفِ
فكأنَّ وشْىَ عِذارِه فى خدِّه نَملٌ تَسرَّبَ فَوق وردٍ مُضْعَفِ[٥]

(٥٨)

وقال :

مُسْتصغَرُ الذنبِ، إن عُدَّت إساءتُه وَكَلْمُها فى الحشَا يَدْمَى، ويَنْقَرِفُ[٦]
مثلُ القَذاةِ بعينِ المرءِ يَحقِرُها ودَمعُه أبدًا من وَخزِها يكِفُ

---

(١) القرقف : الخمر . (٢) تمرض : ضعف فى أمره .
(٣) البرد بالسكون : الريق . وبالتحريك : حب الغمام . والعلل : الشرب بعد الشرب .
(٤) هذا البيت وما بعده من اختيارات مسالك الأبصار لأسامة (١٠ : ٥٠٣)
(٥) مضعف : أصابه مطر ضعيف .
(٦) الكلم : الجرح . ويدمى : يخرج منه الدم . وقرف القرحة قشرها .

(٥٩)

وقال :

قُل للَّوائمِ : كُفُّوا عن مَلامِكُمُ ... فإنَّه يَستَثِيرُ الهمَّ والأَسفَا
لا تُذكرونِي تَجَنِّيه ، وهَجْرتَه ... فحُبُّه شَاغلٌ عن كلِّ ما سَلَفَا
إذا عرضتُ على قلبِي إساءَتَه ... هَفَا[1]، وأنـكرَ منها كلَّ ما عرفَا
وإن هممتُ بصبرٍ عنه واجَهَنِي ... من وجهِه بشفيعٍ زادَنى شَغَفَا

(٦٠)

وقال :

بَاحَتْ بسرِّكَ أدمعٌ تَـكِفُ ... فإلَامَ تُنـكر ، وهى تَعترِفُ
هل يُغنِيَنْ عنكَ الجحُودُ ، إذَا ... شَهِدَ النحولُ عليكَ والكَلَفُ

منها :

أُخفى غَرامى ، وهو مُشتَهِرٌ ... بادٍ ، وأستُرُه ، وينكشِفُ
أسفى لِعُمْرٍ ، ضاع مُذهَبُه[2] ... فى حبِّكُم ، لو رَدَّه الأَسَفُ
وهَوًى عُنِيتُ برعْىِ ذمَّتِهِ ... فأضَاعه المتلوِّنُ الطَّرِفُ[3]
أنفقتُ فى كَسْبِى مودَّتَهم ... شرخَ الشبابِ[4]، فأعوزَ الخلَفُ
وصدفتُ عن قولِ الوُشاة، وما ... قالُوهُ فِىَّ بسمعهم شَنَفُ[5]
وتنكَّرُوا ، حتّى كأنّهمُ ... ما أنكرُوا وُدِّى ، ولا عَرَفُوا
ولهُم لَدَىَّ ، على ملالِهمُ ... وُدٌّ بِخِلبِ القلبِ مُلْتَحِفُ[6]

(١) هفا : خفق .
(٢) المذهب : الذاهب .
(٣) الطّرف : من لا يثبت على صاحب .
(٤) مرخ الشباب : أوله .
(٥) الشنف : القرط .
(٦) الخلب بالكسر : لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع ، أو الكبد .

بَيْنى وبينهمُ ، وإن قَرُبُوا ... من هجرِهمْ أبداً ، نوىً قُذُفُ
يا جَائرِينَ ، وهُم أعزُّ على ... قَلبى من الطَّرف الذى طَرفُوا
أغراكُمُ بالهجر علمُكُمُ ... أنّى بكُم مُستَهَترٌ كَلِفُ[1]

(٦١)

وقال :

مَا بالملاَلَةِ حين تَعرِضُ من خَفَا ... إن لم تَخُن فابلُغ رضاكَ من الجَفَا
فاليأسُ منكَ، إذا صَددتَ،خيانةٌ ... وإذا مَلِلتَ رَجوتُ أن تَتَعطَّفَا
إنِّى لأضعفُ عن صُدودكَ ساعةً ... وأرى قُوايَ عن الخيانةِ أضعفَا

قافية القاف

(٦٢)

وقال :

حتَّى متَى يا قلبُ ، لا تَستفيقْ ! ... حَسبُك ، قد حُمِّلتَ مالا تُطيقْ
أضنَاكَ إشفاقُكَ من غدرِهِمْ ... وما عَسى يُجدى حِذارُ الشَّفيقْ
إن أخلَفُوا عَهدَك ، أو بدَّلُوا ... فكُن بحُسنِ الصَّبرِ عنهم خَليقْ
واعزِم على سُلوانِهم عَزْمةً ... تَثْنيك بعد الرِّقِّ حُرًّا طليقْ
لا تَبكِهم إن نَزَحَتْ دارُهمْ ... واهجُرْهُمُ هجرَ الخَلىِّ المُفيقْ
لن تعدَمَ الأعواضَ عنهم ، ولاَ ... فى الأرضِ إن أنتَ ترحلتَ ضِيقْ
دَعْ ذا ، فما الناسُ سواءٌ، ولا ... يلْقَى الفتَى فى كلِّ أرضٍ صَديقْ

(١) تمام القصيدة ص ١٢٦ . والمستهتر بالشىء : المولع به لا يبالى بما فعل وشتم فيه .

وهبــكَ تلقى عِوضاً عنهمُ أراجعٌ عصرُ الشبابِ الأنيقْ
عَلِقتُهم حينَ رداءُ الصِّبَا ضافٍ، وغُصنى ذُو اعتدالٍ وريقْ
حتى إذا أُشرِبَ قلبِى لهمْ حُبًّا جَرى فى الجسمِ جَرْىَ الرَّحيقْ[1]
أَلتمِسُ الأعواضَ عنهمُ ، لقد أتيتُ ما ليسَ بمثلى يَليقْ !
أرُوعُهم بالعَتْب مُستصلحا وتحتَ ذاكَ العتبِ قلبٌ شَفيق
يرعَى لهم ما ضَــيَّعوا ؛ إنّه ترْهم ، على ما كانَ منهم، رَفيقْ

(٦٣)

وقال[2]

قَمَرٌ إذا عاتبتُه[3] شغَفاً بِهِ غَرسَ الحياءُ بوجنتَيه شَقيقَا
وتلهَّبتْ خَجَلاً ، فلولا ماؤُها مترقرقٌ فيها[4] ، لصار حَرِيقَا
وازْورَّ عنِّى مُطرِقاً ، فأضلَّنى أن أهتدى نحوَ السُّلوِّ طَرِيقَا
فَليَلْحَنى مَن شاءَ فيه ؛ فَصبوتى بهواهُ سُكْرٌ لستُ منه مُفيقَا

(٦٤)

وقال[5]

أُنظُرْ شَماتَةَ عاذلى وسُرورَهُ بكُسُوفِ بَدرِى ، واشتهار مَحاقِه
غَطَّى ظَلامُ الشَّعْرِ من وَجناتِه صُبحاً تضىءُ الأرضُ من إشراقه
وهو الجهُول، يقول : هذا عارضٌ هُو عارضٌ ، لـكن على عُشَّاقه

---

(١) الرحيق : الخمر أو أطيبها .

(٢) هذه القصيدة مما روى لأسامة فى ياقوت ٥ : ٢٠٥ وخريدة القصر ١ : ١٠٣ ولم تذكر الخريدة البيت الأخير .

(٣) فى ياقوت « عاينته » . (٤) فى ياقوت والخريدة « فيه » .

(٥) هذه القصيدة مما روى لأسامة فى الخريدة ١ : ١٠٢ .

(٦٥)

وقال :

بُثَيْنَةُ ، ما أعرضتُ عنكِ ملَالةً ‏ ‏ ‏ ولا أنَا عمــا تعلمين مُفِيقُ
ولــكن خشِيتُ الكاشحِين فإنَّنى ‏ ‏ ‏ على سِرِّنا من أن يَذيعَ شفيقُ
فأصبحتُ كالهَيمانِ،عَاينَ مَوردًا ‏ ‏ ‏ بَروداً ، ولــكن ماإليه طَريقُ

(٦٦)

وقال[1] :

للهِ ليلتُنا التى رحُبَتْ لنــا ‏ ‏ ‏ فيها المسَرَّةُ فى مجالٍ ضَيِّقِ
ما شَابَهَا لولا مَشِيبُ ظلامِها ‏ ‏ ‏ كَدرٌ ، ولا راعَتْ بِواشٍ مُحنَقِ
فلو استطعتُ خَضَبْتُهــا بشَبيبتى ‏ ‏ ‏ وجعلتُ لونَ صَباحِها فى مَفرقِى

(٦٧)

وقال :

يَا لائِمى ، أُنْظُر إلى قَمرٍ ‏ ‏ ‏ فى الأرضِ فى وجنَاتِهِ شَفَقُ
وبخــدِّه وَردٌ ، إذا نَظرتْ ‏ ‏ ‏ عَينى إليه تَنــاثَرَ الورقُ
سبحانَ مَن أذكى بوجنتِهِ ‏ ‏ ‏ نارَ الحياء ، وليس يحترقُ

(١) هذه القطعة مما روى لأسامة فى مسالك الأبصار (١٠ : ٥٠٣) .

(٦٨)

وقال :

وغَزالٍ فى فيه راحٌ ودرٌّ   وعقيقٌ رطبٌ ، ومِسكٌ فتيقُ[1]
شَبَّهوا دُرَّ ثغره بالأَقَاحِى   ليس للأُقحُوانِ ذاك البريقُ
بىَ سُكرٌ منه وسِحرٌ ، فلا أر   قَ لهذا ، ولستُ من ذا أُفيقُ

قافية الكاف

(٦٩)

وقال :

عَادَيتَنِى حين عاديتُ الورَى فِيكَا   هَجْرُ القِلَى والتَّجنِّى كان يَكفيكَا
أحِينَ خَالفتُ فيك الخلقَ كلَّهُمُ   أطعتَ بِى واشِيًا بالهجرِ يُغرِيكَا !
تُصدِّق الطيفَ ، يَسعى بى ، فتهجُرُنى   وأُكذِبُ العينَ فيما عاينت فيكَا
نَزِّه محاسِنَك اللَّاتى خُصِصتَ بها   عَمَّا يَشِينُ ، وما يهواهُ شَانِيكَا
أغضيتُ منكَ على جمر الغضَا زمنًا   وخلتُ أنّ الرِّضا بالجَوْرِ يُرضيكَا
فما نَهاكَ وَلُوعى عن مُبَاعَدَتِى   ولا ثنَاكَ خُضوعى عن تَعدِّيكَا
باللهِ يا غُصنَ بَانٍ ، حَاملاً قَمَرًا   صِلْ مُغرمًا بك يُغريه تَجنِّيكَا
يَدنُو ، وهجرُكَ يُقصِيهِ ، ويُبعده   وتَنثَنِى عَنه ، والأشواقُ تُدنيكا
سكرانَ فى الحبِّ ، لا يَدرى أسكرتُه   لِسِحرِ عينيكَ ، أم للخمر من فيكا

(١) فتيق : قوى الرائحة .

قافية اللّام

(٧٠)

وقال :

أمَا فى الهَوَى حاكمٌ يَعدلُ ... ولا مَنْ يَكُفُّ ولاَ يَعذُلُ
ولا مَن يَفُكّ أُسارَى الغَرا ... مِ والوجْدِ من ثِقل ما حُمِّلُوا
ولا مُنصفٌ عالِمٌ أنّه ... إذا قالَ بالظَّنّ يُستجهَلُ
إذا هُو لم يَدْرِ ما يلتقى ... أُخو الوجدِ مِن دَائِه يَسألُ
لِيَعلَمَ أنّ سِهامَ الغَرامِ ... قبلَ إصابَتِها تَقتُلُ
وأنّ الدموعَ إذا ما سُفِحْنَ ... أثَرْن لَظًى فى الحشا يُشْعَلُ
وإنْ قَال:هُنَّ مياهٌ ، فقُلْ : ... صَدقتَ،وفى الماءِ ما يَسْمُلُ[1]
مَساكينُ أهلُ الهوى ، مالَهُمْ ... مُجيرٌ ، ولا لهُمُ مَوئلُ
ولا راحمٌ لهمُ يَستَدِيمُ ... حُسنَ المعافَاة مما بُلُوا
قتيلُهمُو ماله واتِرٌ ... ومظلومُهُمْ أبداً يُخذَلُ
وإعلانُهُم للهوى فاضحٌ ... قَتولٌ ، وكِتمانُهم أقتَلُ
وإن جَحدوا الحبَّ خوفَ الوُشاةِ ... أقرّتْ به أدمعٌ تَهمُلُ
وفى سُقمِهمْ، إنْ هُمُ أنكرُوا ... صبابَتَهم ، شَرحُها المجمَلُ
وكُلُّهمُ خاضِعٌ ، يَستكِينُ ... للظُّلمِ ، أوْ وَالِهٌ[2] يُعولُ

---

(١) سمل عينه : فقأها .
(٢) الوله : الحيرة والخوف . وأعول : رفع صوته بالبكاء .

وعيشُهمُ تَعبٌ كلُّه وبالموتِ راحَتُهُمْ تَحصُلُ
بِنفسِىَ مُستَهتَرٌ بالصُّدو دِ ، حازَ الجمالَ ، ولا يُجمِلُ[1]
جُنُونِى به أبدًا زائدٌ وماضِى غَرامِىَ مُستقبَلُ
مَليحٌ بإجماعِ كلِّ الأنا مِ ، سواءٌ محبُّوهُ والعُذَّلُ
مِنَ الحورِ ، رضوانُه بُخْلُهُ وَريقَتُه الباردُ السَّلسَلُ
وما ذُقتُها ، غيرَ أنْ العيو نَ شهادَتُها أبدًا تُقبلُ
بَخيلٌ على مُقلَتِى بالرُّقَا دِ ، ولستُ عليه بِهاَ أبْخَلُ
سَقامِىَ مُستَصْغَرٌ عنـــده وأمرِىَ مُطَّرَحٌ مُهمَلُ
يَرانِى من حُبِّـــه فى السِّيا قِ[2] ، وهْو بِمَـا بِىَ لا يَحفِلُ
أُعاتِبُه وهو لا يَرْعَوِى وأَعذُلُه ، وهو لا يَقبلُ
فلا الوصلُ لى فيه مِن مطمعٍ ولا الهجرُ فِىَّ له مَحمَلُ
ولا فيه عاطِفَةٌ تُرتَجى وكُلُّ بَلائِى به مُشكِلُ
وسُكرِىَ من حُبِّه لا أُفِيـــقُ منه ، فأعْلَمَ ما أعملُ
وبعدُ ، فأستغفرُ اللهَ من مَقالِى ، فإنّى به أهزِلُ
وَما أنا بالحُبِّ ذُو خِبرةٍ ولا هُو لى عن عُلاً مُشغِلُ
ولـكن كما قال ربُّ العبا دِ فينا : نَقولُ ولا نَفعلُ

---

(١) أجمل الصنيعة : حسنها وكثرها .

(٢) يقال فلان فى السياق أى فى النزع . والسياق نزع الروح .

(٧١)

وقال :

قَالُوا : قَلاكَ ، ومَلَّا فقلتُ : حَاشَا ، وكَلَّا
مَا صَدَّعَنِي مَلالًا وإنَّمَـــا يَتَحلَّى
وهْو السَّوَادُ لِعينى لا بَلْ أعزُّ وأغْلَى
وكلَّمـا زادَ عزًّا علىَّ ، قد زدتُ ذُلَّا

(٧٢)

وقال :

كَم ذَا التَّجنِّى ، وكثرةُ العِلَلِ لا تأمنُوا من حَوادِث المَلَل
ولا تقُولوا : صَبٌّ بنا كَلِفٌ فأوّلُ اليأسِ آخرُ الأمل
ولستُ ممن يُريد شقَّ عَصًا الذَّنبُ ذَنبى ، والحبُّ يَشفعُ لِى
هبُونِى أخطأتُ عامداً ، فهَبُوا نَجْلَةَ عُذْرى مَا كان من زَلَلى
واغتَنِمُوا القربَ قبل يَفجؤُنَا البَـــينُ ، فكُلٌّ منه علَى وَجل

(٧٣)

وقال :

قُل لِلمَلُول الذى أعيا تَلَوُّنُهُ : تُرى مَلَالُكَ هَذا غيرَ مَمْلُولِ
إذَا تَجاهلتُ عما ساءَ منه أَتَى من الصُّدودِ بِذَنبٍ غيرِ مَجهولِ
وما جَنَي قطُّ إلَّا جئتُ مُعتذرًا إليه ، لـكنَّ عُذرى غيرُ مقبول

(٧٤)

وقال :

كيفَ الخلاصُ لقلبي من يَدَىْ قَمَرٍ أسـيرُ ناظره بالوجد مَغـلُولُ
جُرحى لديهِ جُبارٌ[١]، لاقِصاصَ له في حكمِه ، ودمى فى الحبِّ مطلُولُ

(٧٥)

وقال :

أحْبَابَنا ، إن كان هجرُكُم غدراً ، فُوُدِّى غيرُ منتقِلِ
أو كانَ من مَلَلٍ طرا ، فَعسى تطْرَا مَلالَةُ ذَلك المَلَلِ
والصبرُ دَأْبِى ، أو تُفَاجِئنى بُشْرَى الرِّضَا ، أوراحةُ الأجلِ

(٧٦)

وقال :

يَلُومُونَنِي فى حبِّ لَيلى ، وإنَّنى لأُكْرِمُها عن عُرضَة اللَّوْمِ والعَذْلِ
وقالُوا : هَواهَا خابِلٌ لك ، فاسلُها ومن لومِهم ، لامِن هَوايَ لها ، خَبلِي
هى الشمسُ ، تَبدُو فى رداءٍ من الدُّجَى على خُوطِ[٢] بانٍ ، فى كَثيبٍ من الرَّملِ
تَهادَى تهادِى الظِّلِّ هونًا ، كأنَّما تخَافُ عثارَ الحَزنِ فى الدَّهَسِ[٣] السَّهل
وتنظرُ من عَيْنَىْ مَهاةٍ[٤] ، كفَاهُما وأغناهُما كُحلُ الملاحة عن كُحلِ

---

(١) الجبار بالضم : الهدر . يقال ذهب دمه جبارا .

(٢) الخوط بالضم : الغصن الناعم .

(٣) الدهس : المكان السهل ليس برمل ولا تراب . والحزن : ما غلظ من الأرض .

(٤) المهاة : البقرة الوحشية .

(٧٧)

وقال من قصيدة كتبها إلى الملك الصالح ، أولها :

ما خَطَر السُّلوانُ فى بَالِى ... فما الَّذى أطمعَ عُذَّالى
وجدى بهمْ فى اليومِ كالأمسِ، ما ... غيَّرَه ما حَالَ من حَالِى
أهوَى ، وما حَظِّىَ منهم كما ... أهوَى ، ولا قَلْبِىَ بالسَّالِى
لحَاجةٌ فى الحبِّ ، ما تحتَها ... سوى صَبابَاتِى وبَلْبَالى[1]
لِىَ القِلَى منهم ، ومِن لائمى ... فيهم طويلُ القِيل والقَالِ
وما أُبالِى بالَّذى نَالنى ... لو أنَّنى منهم على بَالِ
يا قمراً فى غُصنٍ[2] بانٍ على ... نقًا[3] مَهُولٍ غيرِ مُنهالِ
ميَّلَكَ الواشِى ، فما حيلتى ... فى أهيفِ القامة ميَّالِ
مُستَهْتَرٍ[4] بالهجرِ ألقاهُ فى الأحلامِ ، وهو المُعرِضُ القَالِى
نَاظِرُه الفتَّاكُ لا ناظرٌ ... علَى تعدِّيهِ ، ولا وَالِى
يحكُم فى أرواحِنا طَرْفُه ... حكمَ أبى الغَاراتِ فى المَالِ

(٧٨)

وقال :

وإذا مَرَرْتَ على الدِّيارِ فَقِفْ بها ... واسألْ مَعَالِمَهَا بدمعٍ سَائِلِ
ما ظنُّها بِطَعينِ أغْصانِ النَّقَا ... مَاسَتْ مُنَصَّلَةً بأسهُمِ بَابِلِ
هَدرَ الهوَى دمَه ، لأنَّ لحاظَه ... أرْدَتْهُ ، أم أفتى بقَتْلِ القَاتِلِ

---

(١) البلبال بالفتح : الوساوس والبرحاء فى الصدر . وبالكسر : مصدر بلبله : هيجه وحركه .

(٢) فى هامش النسخة "خوط" .

(٣) النقا من الرمل : القطعة تنقاد محدودبة .

(٤) المستهتر بالشىء (بالفتح) المولع به لا يبالى بما فعل فيه وشتم له .

(٧٩)

وقال :

نَفسِى الفداءُ لمن يُعاتِبُنى فأَسُدُّ فَاهُ العَذْبَ بالقُبَلِ
وأضُمُّه ضمَّ الشَّفيق ، كما ضَمَّت جُفونُ العينِ للمُقَلِ
فَيَحارُ من كَلَفِى ، ويُشرِقُ فى خَدَّيه وردُ الحُسْنِ والخَجَلِ
ويعودُ بعد العَتْبِ مُعْتَذِرًا عُذرَ المُسِىءِ إلىَّ ، من زَلَلى

(٨٠)

وقال[١] :

نَفْسى الفداءُ لمن يُعاتِبُنى وفَمِى على فَمِه يُقَبِّلُه
ويُرِيدُ يُوضِحُ وجهَ حُجَّتِه واللَّثْمُ يُعجِلُه ، ويُخجِلُه
حتَّى إذا أضجَرْتُه ستَرَتْ ما بَين فِىَّ وفِيـــه أَنْمُلُه
ويعودُ معتذرًا ليشْغَلَنِى عنهُ بعذرٍ لستُ أَقبَلُه

(٨١)

وقال :

كتمتُ بَثِّى ، غيرَ أن لم أُطِق كِتمانَ فيض المَدمَعِ الهَامِل
السَّافحِ السَّاكِبِ الماطِر

---

(١) روى هذا الشعر فى مسالك الأبصار (١٠ : ٥٠٤) .

وليس يُدْرَى ، لِقَذًى جَائِلٍ　　فى العينِ فاضَت أم هوًى دَاخِلِ

فَاضحٍ غالبٍ ظاهِرِ

كالُورقِ[١] لايُدرَى على هَالكٍ　　نَاحتْ، أمارتَاحت إلى رَاحل[٢]

نَازحٍ غائبٍ هاجرِ

قافيـــة الميم

(٨٢)

وقال[٣] :

وَلُوا ، فلمَّا[٤] رَجَوْنَا عدلَهم ظلمُوا　　فليتَهُم حكمُوا فينا بمـا عَلِمُوا

ما مَرَّ يومًا بفكرِى ما يَرِيبُهم　　ولا سَعَتْ بى إلى ما سَاءَهم قَدمُ

ولاأضعتُ لهم عهدًا ، ولا اطَّلَعَتْ　　على وَدَائعهم فى صَدْرِىَ التُّهَمُ

فليتَ[٥]شعرى بمـا استوجبتُ هَجرهمُ　　ملُّوا ، فصدَّهم عن وصْلِىَ السَّأَمُ

حفظتُ ماضيَّعوا، أغضيْتُ حين جَنَوْا　　وفَيْتُ إذ غدَرُوا ، واصلتُ إذ صَرَمُوا

حُرِمتُ ماكنتُ أرجو من وِدَادِهمُ　　ما الرِّزقُ إلَّا الَّذِى تَجرى به القِسَمُ

مَحاسِنِى ، منذُ ملُّونِى ، بأعيُنِهم　　قَذًى ، وذِكرىَ فى آذانِهِمْ صَمَمُ

---

(١) الورقاء : الحمامة .

(٢) ارتاح إليه : حنّ إليه .

(٣) رويت هذه القصيدة أيضا فى الخريدة ١ : ١٠٧ ومعجم البلدان ٥ : ١٠ والروضتين ١ : ١١٣

(٤) فى الخريدة (ولما) .

(٥) لم يرو معجم البلدان هذا البيت والبيتين بعده .

وبعدُ ، لو قيلَ لى : ماذَا تُحبُّ ، ومَا مُناكَ من زينةِ الدُّنيا ؟ لقلتُ : هُمُ
هُمُ مجالُ الكَرى من مُقلتىَّ ، ومن قَلبى محلُّ المُنى ، جارُوا أو اجْتَرمُوا[1]
تبدَّلُوا بى ، ولا أبْغِى بهم بَدَلًا حسبِى هُمُو ، أنصفُوا فى الحكْمِ ، أو ظَلَمُوا[2]

(٨٣)

وقال :

أقْصِرْ ، فلومِى فى حُبّهم لَمَمُ[3] وناصحُ العاشقين مُتَّهَمُ
ما الغىُّ والرشْدُ بالمَلَامة والإ غراء فى الحبُّ ، بل هُمَا قِسَمُ
بالعذْلِ فيهم ، وشَقوتى بهمُ وسُوء حظّى منهمْ ، جَرَى القَلَمُ
طَرفِىَ أعمَى عن عَيبِهم ، فإذا رأتْهُ عينى ، أقولُ : ذَا حُلُمُ
أصَمُّ عَن نصحِ من يُعنِّفُنِى فيهم ، ومابى لَوْلَا الهَوى صَمَمُ
وهُم إذا خطرةُ التوهُّمِ نا جَتْهُمْ بذنبٍ لم أجْنِه صَرَمُوا
ضَلَالةٌ فى الغرامِ : يكذب رأ ىُ العينِ فيها ، ويَصدُقُ الحُلُمُ
فَلا تَزِدنى جوًى بلومك ، إنَّ الحبَّ نارٌ بالعذلِ تَضطَرِمُ
لو يعلمُ الحاسدُون حَظّى ، وما ألقاهُ منهمْ ، وفيهمُ ، رَحِمُوا
فوّضتُ أمرِى إليهمُ ، ثقةً بِهمْ ، فلما تحكَّمُوا ظَلَمُوا
وما كذا تُحفظ المواثيقُ فى الحبِّ ، وتُرعَى العهودُ والذِّمَمُ
فيا لَهَا هفوةً ، نَدمتُ على ما كانَ منها ، لو ينفَعُ النَّدَمُ
وما احتيالُ الفتى إذا عثَر الجَدُّ ، وزلّت بسعيِه القَدَمُ

(١) اجترم : أذنب .
(٢) تمام القصيدة ص ١٤٦ .
(٣) اللمم محركة : الجنون .

(٨٤)

وقال[1] :

لا تَستَعِر جَلَدًا على هِجرانهم   فقُواكَ تَضعُفُ عن صُدُودٍ دَائمِ
واعلَمْ بأَنَّكَ إن رجَعتَ إليهمُ   طوعًا ، وإِلَّا عُدتَ عودَةَ راغِمِ

(٨٥)

وقال :

قُلْ لمن تَاه بالجمـالِ عَلينا :   ما عَسى دولةُ الصِّبَا أن تَدومَا
عن قليلٍ[2] نَرى قوامَكَ ذَا المَــائسَ ، قد عادَ ذَا اعتدالٍ قَويمَا
ونَرَى طرفَكَ السقيمَ وقد صَحَّ   كأَنْ لم يكن مَريضًا سَقيمَا
ونَرى جَمْرَ وجْنتيك وقد عا   دَ رمادًا ، وبقْلُهنَّ هَشيمَا
ونُنَادى: عدلٌ من اللهِ أن أصــبَحَ ذاكَ النهارُ لَيــلا بهيمَا

(٨٦)

وقال :

جُفونٌ تستَهِلُّ[3] دمَا   وجسمٌ مُشْعَرٌ سَقَمَا
وأنّةُ مُوجَعٍ تُبـدى   من الأشجانِ مَا كَتَمَا
وقلبٌ لو فَرى[4] بِمَيَـاسِمِ النِّيرانِ ما عَلِمَا
وحالٌ لو رآها شَــامتٌ أو حاسدٌ رَحِمَا

---

(١) هذان البيتان من مختارات مسالك الأبصار لأسامة (١٠ : ٥٠٤) .
(٢) فى هامش الديوان " قريب " .   (٣) استهل المطر : اشتد انصبابه .
(٤) فراه : شقه .

(٨٧)

وقال :

مَلَّ ، وأبدَى نَجَهُّم السَّأَمِ   وضَاع وُدىّ فى الظَّنِّ والتُّهَمِ
وخَان عَهدى ، وقَلَّمَا اجتمع الحُـــسنُ   ورعْىُ العهودِ والذِّمَمِ
وصدَّ عَنِّى ، فصرتُ أجتنبُ النّـــومَ ،   حذَارَ الصُّدودِ فى الحُلُمِ
ولستُ أدرى ماذا جنيتُ سِوَى   أنِّى عن الرُّشدِ فى هواهُ عَمِى

(٨٨)

وقال :

يا نَاسيًـا عشرةَ التَّصافِى   وخَافرًا[1] حُرمةَ الذِّمَامِ
إلامَ أغترُّ بالأمَانِى   فِيكَ كمُستَمْطِرِ الجَهَامِ[2]
كأنَّنى ، فى الّذى أُرجِّى،   بُلوغَه منـــك ، فى المَنَامِ
وطالِبُ الوصلِ من مَلُولٍ[3]   كَطالِبِ المـاءِ فى الضِّرام

(٨٩)

وقال :

يَرِيبُنِى ما أرى منكُم ، ويَعطِفُنِى   إلى هواكُم وفاءٌ لستُ أسأَمُهُ
كأنَّنِى أمُّ بَوٍّ[1] تَستريبُ بمـا   تراه منهُ ، ولا تنفكُّ تَرأَمُهُ

---

(١) خفر به وخفره خفرا وخفورا : نقض عهده وغدره ، كأخفره .

(٢) الجهام : السحاب لا ماء فيه أو قد هراق ماءه .

(٣) يقال أملنى وأمل على : أبرمنى فهو ملول وملولة وهى ملول وملولة .

(٤) البو : الحوار . وقيل جلده يحشى تبنا أو ثماما أو حشيشا لتعطف عليه الناقة إذا مات ولدها ثم يقرب إلى أم الفصيل لترأمه فتدر عليه . والبو أيضا ولد الناقة . ورئمت الناقة ولدها : عطفت عليه ولزمته .

(٩٠)

وقال :

أجبْ دواعِي الهوَى بالأدمعِ السُّجُمِ[1] ... وَبُحْ ، فما الحبُّ في حالٍ بمكْتَتِمِ
أسمعتَ يا داعِيَ الأشواقِ ذا كَلَفٍ ... نَائِي المحلِّ ، وإن لم تدْعُ من أَمَمِ[2]
للهِ أنتَ ، فما أغراكَ من مَلَلٍ ... يُنسِي العهودَ ، وما أرعاكَ للذِّمَمِ
وقُل لمن لاَمَ : ما السُّلوانُ من خُلُقِي ... ولا مُلاءَمةُ اللُّوَّامِ من شِيَمِي
أهوَى بلا مَلَلٍ يُسلِي ، ولا طمعٍ ... يُملِي ، ولا ريبةٍ تُزرِي بذي كَرَمِ
فما وَفائِي برثُّ العهد متَّكِثٌ ... ولا هَوايَ بواهِي العَقْدِ[3] مُنْصرِمِ
يزيدُه كَرَمًا مرُّ السنِينَ كَمَا ... زادَ المُدامةَ إشراقًا مَدَى القِدَمِ[4]

(٩١)

وقال :

ما أنصفُوا في الحبِّ إذ حَكَمُوا ... سَلَوْا ، وقَلبِي بِهِمُ مُغرمُ
أحببتُهم في عُنفوانِ الصِّبَا ... وليلُ فودِي حالكٌ أسحَمُ[5]
حتّى إذا عصرُ الشَّباب انقضَى ... وأشرقَتْ في ليلِيَ الأنجُمُ
صدُّوا ، وأنساهُم ذِمَامَ الهوَى ... ما اختلَق الواشُون واللُّوَّمُ
فَمن تُرى يحفظُ عهدَ الهوَى ... إن ضيَّعوه ، وهُمُ ما هُمُ
والحبُّ كالأرزاق بين الورَى ... يُرزَق ذَامنه ، وذَا يُحرمُ
سَعَى بنا الواشِي إليهمْ ، فَمَا ... تَبيَّنُوا الحقَّ ، ولا استَفْهَمُوا
وسَمْعُ من مَلَّ قَبولٌ لمَا ... يُزَخْرِفُ الكاشِحُ أو يَزْعُمُ

---

(١) سجم الدمع : سال .
(٢) من أمم : من كثب .
(٣) العقد : العهد .
(٤) باقي القصيدة ص ١٩٤ .
(٥) الفود : ناحية الرأس . والأسحم : الأسود .

ولَا ومَن أشربَ قلبِي لَهُ ... حُبًّا جرَى من حيثُ يجرى الدَّمُ
ما خُنتُهم عهدًا ، ولا فَاه لِي ... بما رَوى الواشُون عَنِّى فَمُ
فلَو رأَوْا قلبِي رَضُوا كلَّ ما ... يُعلِنُه فيهمْ ، ومَا يَكتُمُ
دَعْ ذا ، فما يُسمَع عُذرُ الهوَى ... بَعد التَّقَالِى ، فَالقِلَى أبكَمُ
براءَةُ المملُولِ مَستورَةٌ ... وعُذْرُه الواضحُ مُستبهِمُ[1]
ولو سَعَى الطيفُ به فى الكَرَى ... لقيلَ : هذا المُنْزَلُ المُحكَمُ
فاصْبِر على جَور الهوَى ، إنَّه ... به تَقَضَّى الزَّمنُ الأقْدَمُ

(٩٢)

وقال[2] :

قَسَمًا بمن لم يُبق خَو ... فُ رَقيبِه لى منه قِسمَا[3]
خافَ الوشاةَ، فصدَّ، حَـ ... ـتَّى فى الرُّقاد ، إذا ألَمَّا
لأُخَاطِرنَّ بمُهجتى ... فى حبِّه ، إمَّا ، و إمَّا

(٩٣)

وقال :

قُولَا لذَا الغَضبان : يا ظالمًا ... يغضَبُ ، أن أدعُو على ظَالمِى
أظنُّه أنتَ ، وإلَّا فلِمْ ... تَخشى دُعائِى دُونَ ذَا العَالَمِ
يَاربِّ ، لا يُقْبَل عليهِ — وإن ... جَارَ — دُعاءُ المُغرِمِ الهَائمِ

---

(١) أبهم الأمر : اشتبه كاستبهم .

(٢) روى هذا الشعر فى مسالك الأبصار (١٠ : ٥٠٥) .

(٣) القسم بالكسر : النصيب .

(٩٤)

وقال :

لمّا رأوا وجْدى بهم تَجَرَّموا[1] … وألزَموني الذَّنبَ ، والجانِي هُمُ
قالُوا : استزارَ طيفَنَا ، تبّا له … من مُغرَمٍ ، وهل ينامُ المغرَمُ
أين شهودُ ما ادَّعَى من حُبِّنَا … أين السُّهادُ ، والجَوى ، والسَّقَمُ
أينَ دموعٌ كلمَّا غيَّضْتُها[2] … تدفَّقَتْ ، ومازَجَ الدّمعَ دمُ
أخفَى الملالُ عنهُمُ مابِيَ : مِن … بَرْحٍ قلاهُمُ ، والملالُ أبكَمُ
كذبتُ فيهم ما رأيتُ من قِلًى … فلِمْ أطاعُوا فيَّ ما توَهَّموا

قافية النون

(٩٥)

وقال :

مُحيًّا ما أرَى ، أم بَدرُ دَجن … وبارقُ مَبسِمٍ[3] أم برقُ مُزن[4]
وثغرٌ ، أم لآلٍ ، أم أقاحٍ … وريقٌ ، أم رحيقٌ بنتُ دَنّ
ولحظٌ ، أم سِنانٌ ركَّبُوه … بأسمَرَ من نَباتِ الخطِّ لَدنِ
وأينَ من الظُّبا ألحاظُ ظَبيٍ … ثَنانِي عن سُلُوِّي بالتَّثَنِّي
إذا جاءَ الملالُ له بِجُرمٍ … محاهُ وجهُه بشفيعِ حُسن

---

(١) تجرم عليه : ادعى عليه الجرم وإن لم يجرم .
(٢) غيّض دمعه : نقصه .
(٣) المبسم كمنزل : الثغر . والمقعد : التبسم .
(٤) المزن : السحاب .

فيا مَن منه قَلبي في سَعيرٍ ... وعيني منه في جنَّاتِ عَدن
حَباكَ هوايَ منّي محضَ وُدٍّ ... تَنزَّه عن مُداجاةٍ[1] وضِغنِ
وقَبــلَك ما تَملَّكَهُ حبيبٌ ... ولا سَمَحَتْ به نَفسي لخِدْنِ
أحين خَلَبْتَني ، وملـكتَ قلبي ... قَلبتَ لخُلَّتِي ظَهرَ المِجَنِّ
فهلَّا قبلَ يَعلَقُ في فؤادي ... هواكَ،وقبلَ يغلَقُ[2] فيك رَهْني
تُساوِرُني هُمومي بعد وَهْنٍ[3] ... فَتَرِي كَلَّ جَارِحَةٍ بِوَهْنِ
ألَمْ يكفِ العواذلَ منك هجري ... وقلبُك ما يُجِنُّ من التَّجنِّي
إذا فكَّرتُ في إنفاقِ عُمري ... ضَياعاً في هواك قَرعتُ سِنّي
وآسَفُ ، كيفَ أخلَقَ عَهدُ وُدّي ... وآسَى كيفَ أخلفَ فيك ظَنّي
وأوجَعُ ما لقيتُ من الليالي ... وأي فعالِهـا بي لم يَسُؤني
تَقلُّبُ قَلبِ مَن مَثواهُ قَلبي ... وَجفوةُ مَن طَبَقْتُ[4] عليه جَفني

(٩٦)

وقال :

إصلاحُ قلبِكَ أعياني ، فأَحْيَاني ... واليأسُ منك إلى السُّلوانِ ألجَانِي
كم ذا التَّجنِّي،وما ذَنبي إليكَ سِوَى ... حُبِّي ، فصفحًا عن المستغفِرِ الجَاني

---

(١) المداجاة : المداراة .

(٢) غلق الرهن فى يد المرتهن : إذا لم يقدر على افتكاكه .

(٣) الوهن من الليل : الطائفة منه . وقيل هو نحو من نصف الليل ، أو هو بعد ساعة منه . وقيل هو حين دبر الليل . والوهن فى آخر البيت : الضعف .

(٤) فى خريدة القصر " ضممت " وقد ذكر العماد من هذه القصيدة ص ١٠٣ ثمانية أبيات : الثلاثة الأولى والثلاثة الأخيرة والسادس والثالث عشر :

هواكَ أخطأني قصدِي، وكنتُ أرى ... أنّ الهوَى منك يُدنِيني ، فأقصانِي
أغراكَ ظنُّك أنّي لا يُطاوعني ... قلبِي إذا سُمْتُه صبراً بِهجْرانِي
ولستُ أنكرُ مِنه فرطَ صبوتِهِ ... لـكنَّه عن هَوًى بالهُـونِ يَنْهانِي

(٩٧)

وقال :

يَاربِّ خُذ بِيَدِى من ظلمِ مُقتَدرٍ ... عَلَيَّ قَد لَجَّ فى صَدِّى وَهجرانِى
لَيِّنْ قَساوَتَه لِى ، أَو فَيَسِّرْ لى ... صبرًا ؛ لأحظى بوصْلٍ أو بسُلوان
أو فاطْفِ جَمرةَ خدَّيه، وأيقظْ جَفْـــنَيْه اللّذين أراقَا ماءَ أجفـانِى

(٩٨)

وقال :

إذا أوحَشَتْنِي جَفوةُ الخِلّ ردَّنى ... إليـه وفاءٌ بالإخاء ضَـنِينُ
كأنِّىَ أمُّ البَوِّ[1] تُنكِرُ شَخْصَه ... ويعطفُها وجدٌ به وحنـينُ

(٩٩)

وقال :

بِاللّهِ يا مُغـرِّى بِهجرانِى ... ويا مُبيحَ الدَّمعِ أجفـانِى
هَلْ فى القضَايا أنّ مَن مَاجَنَى ... يَخضعُ بالعُـذر إلى الجَـانِى

---

(١) انظر الشرح فيما سبق فى ص ٤٣

(١٠٠)

وقال :

إلى كَم أُرجِّمُ فيك الظُّنونَا وأدفعُ بالشَّكِّ عنكَ اليَقينَا
وآملُ عطفَكَ بعدَ الجفا ء ، وقسوةَ قلبِكَ لى أن تَلينَا
وأصبرُ للهَجرِ صبرَ الأسـيرِ على قدِّه[1] ، صاغراً مُستكينَا
وآبى ، وقد خُنتَ عهدَ الهوَى ولم ترْعَ ذِمَّتَه ، أن أُخونَا

(١٠١)

وقال :

زدْنى جَوًى ياحبَّهم ، وأضِلَّنِي يامُرشِدى عن مَنْهجِ السُّلوانِ
لا تَنْهنِي عنهمْ ، فإنَّ صَبابتى لا تَستطيعُ تُطيعُ مَن يَنْهانِي
أحببتُهم ، أزمانَ غُصنِيَ ناضرٌ حتى عَسَا[2]، وعَصَى بنَانَ الحانِي
فَارجِعْ بيأسِك ،لستَ أوَّلَ آمِرٍ شقَّ الغرامُ عصَاه بالعِصيان

(١٠٢)

وقال :

أيَاهاجرًا كلّمـا زدتُ فى خُضوعِى لهُ زادَ هجرانُهُ
تَرفَّقْ بقلبٍ إذا ما ذُكرْ تَ بَدا للمُحدِّث كِتمانُه
مَحلُّكَ منه محـلُّ السَّوا د من ناظرٍ أنتَ إنسانُه

(١) يقال أمره بالقد : بالسير من الجلد غير المدبوغ .
(٢) عسا النبات عسوا : غلظ واشتد .

(١٠٣)

وقال[١] :

يا مُعرضًا[٢] ، راضيًا وغَضبانَا ... وهاجِرى هاجعًا ويقْظانَا[٣]
صَددتَ[٤] إمّا لهَفوةٍ فَرطَتْ ... منّى ، وإمّا ظُلمًا وعُدوانَا
طيفُك ، ما بالُه يُهاجرنى ... مَنْ أَعلمَ الطيفَ بالّذى كَانَا

(١٠٤)

وقال :

يا فتنةً عرَضَتْ لى بعد ما عَزَفَت ... نَفْسِى عن اللّهوِ واقتَادَ الهوَى رَسَنِي[٥]
هلاَّ ، ولَيلِى غِرْبيبٌ[٦] ، وأنجمه ... غرَاربٌ ، وَشبابى ناضِرُ الغُصُن

(١٠٥)

وقال :

أحببتُها فى عُنفوانِ الصِّبَا ... وقلتُ : إنَّ الشيبَ يُسلِينِي
فزادنى شَيْبِي جُنونًا بها ... حتّى كأنَّ الشيبَ يُغْرِينِي
وكالشبابِ الشَّيبُ ، لا مِيزةٌ ... بينهما عنــدَ المجَانِينِ !

---

(١) رويت هذه الأبيات فى الخريدة ١ : ١٠٦ .

(٢) فى الخريدة « ياهاجرا »

(٣) فى الأصل « وسنانا » والتصويب من الخريدة

(٤) فى الخريدة « هجرت » .

(٥) الرسن : الحبل وما كان من زمام على أنف .

(٦) أسود غربيب : حالك .

قافية الهـاء

(١٠٦)

وقال :

يَا هلالًا إذا تبدّى يَراهُ الـــوَرى لا يَمَلّ رَاءُوهَ منْهُ
وتَرانِى الهلالِ فى كلِّ شهرٍ ليلةً ، ثُمّ تُعرِضُ العينُ عَنْهُ
لم يَخُنُ عهدَكَ الذى لم يُطع فِيـــكَ نَصيحًا ، فلِمْ ، فَداك ، تَخُنْهُ[1]
كل حُسنٍ فى الخَلقِ مُجتمِعٌ فِيـــك ، فبِاللهِ لا تَشِنْهُ ، وصُنْهُ
إن تكُن ماراًيت من جَمَع الإحـــسانَ والحُسنَ فى الملاحِ فكُنْهُ

(١٠٧)

وقال :

قُل لمن أوحَشَ بالهَجـــر جُفونِى من كَراهَا
والّذِى أوهَم عَينِى أنّ فى النّومِ قَذَاهَا
يا مَلُولًا ، قلّما استُر عِى عُهودًا فَرعاهَا
ياظَلُوما كلّمَا اسْتَعـــطَفْتُهُ صَدّ وتَاهَا
زدتَ فى تِيهكَ والشّىْ ءُ إذا زادَ تناهَى

---

(١) جزم الفعل للضرورة . وما استفهامية لا جازمة .

تَتَقَضَّى دولةُ الحُسـن ، وإن طَالَ مَدَاهَا
رَاحَتِي لو سَمِعَ الشَّـكْوَى إليه ، وَوَعَاهَا
غَيْرَ أَن الصُّمَّ لاَ تَسـمعُ نَجْوَى مَن دَعَاهَا
وهوَ لو نَادى عِظامى رِمَّةً لَبَّى صَـدَاهَا
مُتلِفٌ بالهَجر نَفسى وإليـهِ مُشْتَـكَاهَا
مُستَقِلٌّ كلَّ ما تَلـقَاهُ فيه : من أَذَاهَا

(١٠٨)

وقال[١] :

تَخفَى علَيَّ ذُنُوبُه فى حبِّه ويَرى ذُنُوبى قبل أَن أجْنِيَهَا
فَكأَنَّه عَينِي: تَرى عَيبِي ، ولا يَبدُو لِيَ العيبُ الَّذِى هُوَ فِيهَا

(١٠٩)

وقال :

نُبِّئتُ أنهمُ بعدَ البِعاد نَسُوا عَهدى،وقالُوا: مضَى أمسٌ بما فِيه
وهُم على كلِّ حَالٍ: من هَوًى وقِلًى إنسانُ عَينِى ، قبيحٌ بى تنَاسِيه
وكلَّما اقتَرفُوا ذنبًا يُزهِّـدُنى أقام حبّى لَهُم عُذرًا يُعفِّيه

---

(١) البيتان من مرويات المسالك لأسامة (١٠ : ٥٠٦) .

قافية الياء

(١١٠)

وقال :

يَغالِطُنى فيكم هَواىَ ، فأنْثَنِى   إليكُم ، عَلى إنكارِ ما قَدْ بَدَا لِيَا
كَعَطْفَةِ أمِّ البَوِّ[١] تَرْأمُ شِلْوَهُ[٢]   وقَد رَابَها منْه الّذى لَيس خَافيا[٣]

(١١١)

وقال :

يَا سَائِلى عَمّـا بِيَهْ   سرُّ المُحِبِّ عَلانيَه
أُنظُر إلى جَسَدى،لِتُخْـــبِرَكَ العظامُ العَارِيَه
عَن مُهجَةٍ بالهجرِ قَد   تَلِفَتْ وعَينٍ جَارِيَه
وصَبَـــابَةٍ لا أستطيـ   ـعُ أبُثُّها ، هِىَ مَا هِيَه
ولِمَنْ ألومُ ، وإنمـا   عَينى علىَّ الجَـانِيَه

(١١٢)

وقال :

يا قمرُ ، أعجَبُ مَا فيـهِ   دُرُّ بديعُ النَّظمِ فى فيه
قدزدتَ فى التِّيه،ومن لايرَىَ   مثلاً لَه يُعـذَرُ فى التِّيه

---

(١) انظر ما سبق فى شرحه ص ٤٣ .

(٢) الشلو : العضو والجسد من كل شىء .

(٣) البيتان من اختيارات الممالك لأسامة (١٠ : ٥٠٦) .

ما قاله فى شكوى الفراق ، ووصف الحنين والاشتياق

قافية الباء

(١١٣)

قال :

أأحبابنا من غاب عمن يوده   فسيان عندى بعده واقترابه
إذا الميت وارى شخصه عفر الثرى   فهل يدنينه أن يقل ترابه
وكل غريب الدار فالأرض دونه   وإن كان حيا فالحمام اغترابه

(١١٤)

وقال :

ألمياء[1]، إن شطت بنا الدار عنوة   فداراك أجفانى القريحة والخلب[2]
تدانت بنا الأهواء ، والبعد بيننا   وما فرقة الأحباب حزن ولا سهب[3]
ولكنما البين المشت هو القلى   وإن قربوا ، والبعد أن يبعد القلب
وكم مهمه[4] تستهول الشمس قطعه   طوته لنا الأشواق نحوك والحب
عقلت به العيس[5] المراسيل بالوجى[6]   إليك ، فأدنتنا المطهمة[7] القب[8]

---

(١) لمى كرضى لمى وكرمى لميا : اسودت شفته ، وهو ألمى وهى لمياء .
(٢) الخلب بالكسر : لحيمة رقيقة تصل بين الأضلاع ، أو الكبد ، أو حجابها .
(٣) السهب : الفلاة . والحزن : ما غلظ من الأرض .
(٤) المهمه : المفازة البعيدة .
(٥) العيس بالكسر : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .
(٦) الوجى : الحفى وهو أن يرق القدم والحافر .
(٧) المطهمة : التامة الخلق .
(٨) الخيل القب : الضوامر .

فلما وصلْنَا (بَرْقعِيدَ)[١] تَحاشدت عليَّ صَبَاباتِي ، وعنَّفَنِي الرَّكبُ
ولجَّ اشتياقٌ ، كنتُ أتَّهِم النَّوَى عليه ، إلى أن زَادَ سَورتَه[٢] القُربُ
فأيقنْتُ أن لا قُربَ يَشفِي من الجوَى ولا ينقَضِي ذا الحبُّ أو ينقضِي النَّحْبُ[٣]

(١١٥)

وقال :

يا آمرِي بالصَّبرِ . إنَّ البَينَ موعدُه الغُروبُ
والصَّبرُ محمودُ العَوا قِبِ، لو أطاقَتْه القُلوبُ
لكن أباهُ عليَّ أحـــشاءٌ يُقلقِلُها النَّحِيبُ
ومَدامعٌ كالبَحرِ ، لا يُرجَى لِمُفْعَمِه نُضُوبُ

(١١٦)

وقال[٣] :

يادَهرُ ، مالَكَ لا يَصدُّ كَ عن إساءَتِيَ العتاب
أمْرضْتَ من أهوَى ،و يأْ بَى أن أمَرِّضَه الحِجابُ
لو كُنْتَ تُنصِفُ كانت الأ مراضُ بِي[٥]، ولَهُ الثوابُ

---

(١) برقعيد : بليدة فى طرف بقعاء الموصل من جهة نصيبين (ياقوت) .
(٢) سورة الخمر وغيرها : حدّتها .
(٣) النحب : الأجل .
(٤) هذه القطعة مما روى لأسامة فى ياقوت ٢ : ١٩٧ وخريدة القصر ١ : ٥٠٠ .
(٥) الرواية فى ياقوت « لى » .

(١١٧)

وقال :

عَلامَ يا دهرُ ، بالعدوانِ تَحبِسُنِي ... فى غيرِ جنْبى ، ولم أُفقدْ ، ولم أغِبِ
هَلاَّ بأدنَى العذَابَيْنِ اقتنَعْتَ لنَا ... فالذَّبحُ أروَحُ من تَعذيبِ مُغتَرِب

(١١٨)

وقال :

رَمتْنا اللَّيالى بافتراقٍ مُشَتِّتٍ ... أشَتَّ، وأنأى من فِراقِ المُحصَّبِ(١)
تخَالَفتِ الأهواءُ، وانشقَّتِ العَصَا ... وشَعَّبَهُم وشْكُ النَّوَى كلَّ مَشْعَبِ(٢)
وقد نَثَر التوديعُ من كلِّ مُقلةٍ ... على كلِّ خدٍّ لؤلؤًا لم يُثَقَّبِ

(١١٩)

وقال :

إلى اللهِ أشكو عِيشةً قد تنكَّدتْ ... علىَّ ، ودهرًا قد ألَحَّت نوائبُهْ
تكَدَّرَ من بَعْدِ الصَّفاء نميرُه ... وأحزنَ من بَعْد السُّهولةِ جانِبُه
وقَصَّر كَفِّى عن نوالٍ تُنيله ... وزَاولهَا عن نيلِ ما أنا طالِبُه

---

(١) المحصب : موضع رمى الجمار بمنى .

(٢) المشعب : الطريق .

(١٢٠)

وقال :

إلى كَم أُعَنَّى بالسُّرى والسَّباسِب[1] ويُصدَعُ شَملى بالنَّوَى والنَّوائِب
فَمَن لاقَه يومًا من الدَّهرِ منزِلٌ فما مَنزلى إلا ظهور النَّجائب[2]
ومن رَاقَه خِـــلٌ يُسَرُّ بِقُربِه فيا وَيحَ قلبى من فِراق الأقارِب
فلى كلَّ يومٍ من جَوى الهمِّ صاحبٌ يُجدِّدُ أحزانى على فَقــدِ صاحب
ولى منزلٌ مَا مَسَّ جلدِى تُرَابُهُ ولا فيه أترابى ، ومَلْهَى مَلاعبى

(١٢١)

وقال :

أمسيتُ مثلَ الشَّمعِ: يُشرِقُ نورُهُ والنَّارُ فى أحشائِه تَتَلهَّبُ
حَيرانَ،وجهِى للتَّجمُّلِ[3] ضَاحِكٌ طَلْقٌ ، وقَلبى للهموم مُقَطِّبُ

قافيــة الجيم

(١٢٢)

وقال :

لم يَنْهَهُ العَذلُ ، لكن زَادَه لَهَجَا والعاذِلُ مما يَزيدُ المستهامَ شَجَى
أضَعتَ نُصحَكَ فِيمن ليس يسمَعهُ ولا يَرى فى ضَلالاتِ الهوى حَرَجا

---

(١) انظر ما سبق من شرحه ص ١ .
(٢) النجائب : جمع نجيبة ، وهى الناقة الكريمة .
(٣) التجمّل : التصبّر .

ماقلبُه حاضرُ النَّجوَى ، فيردَعُه النَّ اهى ، ولا نَهيهُ فى سمعِه وَلَجَا
مُدلهٌ ، فارقَ الأحبابَ أغبَطَ مَا كانُوا ، وكانَ بهم جذلانَ مُبتهجَا
يستخبرُ الدَّارَ عنهم صبوةً ، فإذا أعيَتْ عليهِ جوابًا ناحَ أو نَشَجا [١]
فاضَت بِقَانِى الدَّمِ المنهلُ مقلتهُ فكلُّ راءٍ رآها ظنَّها وَدَجا [٢]
ياوَيحَهُ مِن جوىً يغدُو عليه ، ومِن جَوىً يرُوحُ ، إذا ليلُ الهمومِ دَجَا
أفدِى خيالاً سَرَى ليلاً ، فأشرقتِ الدُّ نيا بأنواره ، والصبحُ ما انبَلَجَا
عجبتُ منه ، تخطَّى الهولَ مُعترِضا أرضَ العِدا ووشَاةَ الحيِّ ، كيف نَجَا
إذا رأيتُ حَبابَ الرّاحِ مُنتظِماً ذكرتُ ذاكَ الرُّضَابَ العذبَ والبَلَجَا [٣]
يَا لى من البَين ، لازالت مَطِيُّهمُ حَسْرَى ، إذا ارتحلَت ، معقولةٌ بِوَجَى [٤]
سَارَت بإنسانِ عَينى فى هَوادِجِهَا فما رَأَتْ مَنظرًا من بَعدِهِمْ بَهِجَا
فارقتُهم ، فكأنِّى ماسُرِرتُ بِهِمْ يَومًا ، وقد عِشتُ مسرورًا بِهِم حِجَجَا

قافية الحاء

(١٢٣)

وقال :

كَتَمَ الجَوَى القلبُ القريحُ فأذَاعَهَ الدّمعُ الفَضُوحُ
إنَّ الدُّموعَ لها لسا نٌ بالأَسَى لَسِنٌ فَصيحُ

---

(١) نشج الباكى نشيجا : غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب .

(٢) الودج : عرق فى العنق .

(٣) البلج : نقاوة ما بين الحاجبين .

(٤) الوجى : الحفى . راجع ص ٥٤

وإذا الدموعُ تَزَحْنَ فَالـــــزَّفَرَاتُ بالشَّكْوى تَبوحُ
أَحبَابَنَا ، كم ذا يُشَتِّـــتُ شَمْلَنا البينُ الطَّروحُ[١]
وكَمِ التَّفرُّقُ ؟ ! آنَ أَنْ تَدنُو الدّيارُ ، وأن تَروحُوا
ماذا يُجِنُّ من الحنيـــنِ إليكم القلبُ القريحُ
أَنَا بعدَكم كالوُرق[٢] فى أغصانِها أبدًا تَنوحُ
لكنَّها غاضَت مَدا معُها ، ولى دَمعٌ سَفوحُ
مزجتهُ بالدَّمِ مقلةٌ إنسانُها أَرِقٌ جريحُ
يا لائمى[٣] فيهم سَهِر تُ ، ونَام عن ليلِى النَّصيحُ
يَلْحَى المرُوَّعَ بالنَّوى وهو الخَلِيُّ المُستريحُ
يَالى من الحَسراتِ ، كَمْ تَغدُو علىَّ ، وكم تَروحُ
لم يَبقَ من لِدَتِي وأتـــرابِ الصِّبا خِلٌّ نصوحُ
غالتْهُم الدُّنيا ، وصدّ عَ شملَهم زَمنٌ نَطوحُ
أَنَا بعـــدَهُمْ مَيْتٌ ، ولِى من جسمِىَ البَالِى ضَريحُ
فيـــهِ ذَمَا[٤] رُوحٍ مَنِـــيَّتُها غَبُوقٌ أو صَبوحُ
ولقلَّما تَبقى ، وكم تَبقى مع التَّعذيب رُوحُ
أفَلا لِقاءٌ يُذهِبُ الـــحَسراتِ ، أو موتٌ مُريحْ

(١) طرحه . رماه وأبعده .
(٢) الورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة .
(٣) فى هامش الديوان (يا ناصحى) .
(٤) الذماء : بقية النفس .

(١٢٤)

وقال :

يَانَازِحينَ واصطِبَارِىَ والأَسَى　　يَجُمُّ[١] ذَا دَمعِى ، وهَذا يَنزَحُ
لا أسأل الأيَّامَ تعويضًا بكم　　لأنها بمثلكُم لا تَسمَحُ
غبتُم ، وأشباحُكمُ بِنَاظِرى　　كأنَّها إنسانُهُ ، لا تَـبرحُ
ولائِمٍ يلومُ فيكمُ ، والهوَى　　يُصحِبُهُ[٢] طورًا ، وطورًا يَجْمَحُ
يلجُّ فى نُصحِى ، وما أشغَلنى　　بالبَيْنِ والِهجرانِ عمَّن يَنْصَحُ

قافية الدال

(١٢٥)

وقال :

يا دارُ ، إن بَخِلَتْ على　　مَغنَاكِ ساريةُ العِهَادِ[٣]
فَلأُمطِرنَّكِ من دُمو　　عِىَ ما ينوبُ عن الغَوادى
كم حلَّ رَبعَكِ من غَضِيـ　　ـضِ الطَّرفِ ممنوعِ الوداد
يَستوقفُ الأبصارَ فَهْـ　　ـىَ عليه حائمةٌ صَوادى
فَرَمتْ جُمُوعَهُمُ اللَّيا　　لِى بالتَّشتُّتِ والبِعَـاد
وصروفُ هَذا الدَهرِ تَطـ　　ـرُقُ بالحوادث ، أو تُغَادى
يُحسِنَّ لا عمدًا ، ويأ　　تِين الإسَـاءَةَ باعتِمَاد

---

(١) أجم الماء : تركه يجتمع .　　(٢) أصحب : ذل وانقاد .

(٣) فى أساس البلاغة : سقطت العهاد وهى أمطار الربيع بعد الوسمى . الواحدة عهدة .

مالى وللأيام ؟ ! كَمْ تُصْمِى نَوافِذُها[1] فؤادى
رَنَّقن[2] من ورْدِى، وأمْـــحَلَ جورُها عمداً مَرَادى[3]
وَقصــــدْننى بنوائب وَالينُهن بــلا اقتصاد

ومنها :

وإليكَ أشكو بَرحَ هَمٍّ كلَّ يَومٍ فى ازدياد
حَظَر السُّرورَ على فؤادٍ لا يُسَرُّ بمُستَفَــاد
لولا تألُّمُــه لمــا يَلْقَى لَعُدَّ من الجمَــاد

(١٢٦)

وقال :

أتظُنُّ صَبرَك مُنجِداً إن أنجدُوا هيهاتَ ؛ ليس لِمُستهامٍ مُسعدُ[4]
إنى لأحسَبُ أنَّ قلبَك ذاهِلٌ عَمَّا سَيلقَى فى غدٍ أو جلْمَدُ
هذا الفِراقُ هو الفِراقُ، فإن تُطِقْ جَلَداً ، فَميعادُ اللقاء المَـوعدُ[5]
قالُوا : غَداً لِنَوى الأحبَّةِ موعدٌ والدَّهرُ أجمعُ بعدَ ليلتِنَا غدُ
فإلامَ تَحتبسُ الدُّموعَ ، وللنَّوى ذُخِرتْ ، وأىُّ ذخيرةٍ لا تَنفَدُ
حمَّلتَ نفسَك ياضعيفُ من الهوَى ما لَيس للجَلْدِ الخلىِّ به يدُ
ووردْتَ جَهلاً مورداً لا مَصدرٌ عنه ، فقد ألهاكَ ذَاكَ الموردُ

(١) أصمى الصيد : رماه فقتل مكانه . والنوافذ : السهام النافذة .
(٢) رنقه : كدره .
(٣) المراد بالفتح : مرعى الإبل ، من راد النعم فى المرعى ريادا .
(٤) أسعد : أعان . وأنجد : دخل نجدا (٥) الموعد : يوم القيامة .

أنى جَسَرْتَ على الفراقِ وأنتَ فى ... قُرب الدّيارِ بهم معنًّى مُكمَدُ
فارقتَهُم ثقةً بصبرك عنهم ... فاصبرْ لِنيرانِ الأسَى يا مُوقَدُ
لو رُضتَ قلبَكَ فى الدُّنُوِّ بهجرهم ... لعلِمتَ بعدَ البَينِ هل تَتَجَلَّد

(١٢٧)

وقال :

ما يُنكِرُ الأخلِياءُ من كَمَدى ... لا جَزَعِى مُسْعِدى ، ولا جَلَدِى
خانَ اصطبارى ، وغاضَ بعد نَوى ... الأحبابِ دَمعِى ، وكان من عُدَدى
وكلَّما أُضرِمتْ حَشَاىَ لذكْـراهم ، تأوّهتُ ، ثم قلت : قَدِى[1]
فلو رَمَتْ بالشَّرارِ بَعدَهُمُ ... أحنَاءُ صَدرى ، ما قلت : وَيْكَ قَدِى
أحبابَنَا ، دعوةً أحسُّ لها ... — لو أسمعتكُم — بَرْداً على كَبدِى
آه لِعَيْشِى ، ما كانَ أنعمَهُ ... بقُربِكم ، والزّمانُ طَوعُ يَدِى
أيّامَ ورْدِى من ماء أوجُهِكُم ... عَذْبٌ ، وقلبِى بعد الوُرُود صَدِى
ففرّقَتْنَا النّوَى ، فواظَمَئِى ... إلى ارتشافِ العُقارِ[2] من بَرَد
ويا أخى البرّ بِى ، أُعيذُك من ... لَومِى ، فكلُّ العقوقِ فى فَنَدِى[3]
أَفِضْ مَعِى عَبرةَ التّجمُّلِ إسْـعافاً لباكٍ بعَبْرَةِ الكَمَدِ

(١٢٨)

وقال :

دَعُونِى أبُحْ ، مَامثلُ وجْدِىَ يُجحَدُ ... عَسى جَمَراتٌ فى الجوانِح تَخمُدُ
أُجَشِّمُ نَفسى كَتْمَ ماأنا كاظِمٌ ... عليه ، وما لِى بالّذِى رُمتُه يَدٌ

(١) قد : اسم فعل مرادفة ليكفى ، واسم مرادف لحسب . (٢) العقار : الخمر .
(٣) الفند بفتح الفاء والنون : إنكار العقل من الهرم أو المرض وقد يستعمل فى غير الكبر .

ووجدى بمَن فارقتُ ، لولا تجلُّدى   وما قَدْرُ[1] ما يُجدى علىَّ التَّجلُّدُ!
كوجدِ لبيدٍ ، أو كوجدِ مُتَمِّمٍ   ومَن مالكٌ مَع من فقدتُ وأرْبَدُ[2]

(١٢٩)

وقال :

أيلامُ مسلوبُ الفؤادِ فقيدُه   جَحَدَ الغرامَ ، فأثبتَه شُهودُهُ
والسِّرُّ فى يومِ الوَداعِ كأنّه   قَبَسٌ تضرَّمَ فى الظلامِ وَقُودُهُ
وإذا أقرَّتْ بالهوَى زَفَراتُه   لم يُغْنِ عنه ، وإن أصَرَّ ، جحودُهُ
بَرِحَ الخفاءُ ، وبان يأسُك منهمُ   فإلامَ أنت جَوَى الفؤادِ عميدُهُ
يُبلِى الزّمانُ هوَى القلوبِ، وحبُّهم   لا يَضمَحلُّ، ولا يرِثُّ[3] جَديدُهُ
وكأنَّ دَمعَك حين يخطُر ذكرُهم   عقدٌ وَهَى ، فانثالَ منه فَريدُهُ
تَحكى الغمامَ : زفيرُ شَوقِكَ برقُه   ونَشيجُ دَمعِكَ وَبْلُهُ ورُعودُهُ
تبكى لأنّتِكَ الحَمامُ ، وطالمَا   هاجَ الجوَى لأخى الهوَى تَغريدُهُ
يا راقدَ الأجفانِ عن قَلِقِ الحشا   ولهَانَ أقذَى طرفَه تَسهيدُهُ
ماذَا عَليكَ إذا بكَى أحبابَه   ذُو غُربةٍ نَائِى المحلّ بعيدُهُ

(١٣٠)

وقال :

ولمّا تَصافَينا وأخلص وُدُّنَا   ورُدَّ بيــأسٍ كاشحٌ وحَسودُ
طَرَتْ هجرةٌ لم تُحتَسَبْ ، وتَقطَّعَت   عَلائِقُ وصْلٍ ، واستمَرَّ صُدودُ

---

(١) فى هامش الديوان : "وإن قل" .
(٢) مالك بن نويرة وأخوه متمم شاعران ولبيد بن ربيعة وأربد بن ربيعة شاعران . وانظر القطعة (٣٣١) ص ٢١٠
(٣) رث : بلى .

فليتَ زمانَ الهجرِ ينقصُ من مَدَى حياتى ، وساعاتِ الوصالِ تعودُ
وكانتْ لَيالِى الوصلِ مُشرِقةً به كما أنَّ أيّامَ القطيعةِ سُـودُ

(١٣١)

وقال :

أسيرُ إلى أرضِ الأعادى، وفى الحشَا لِبُغضهمُ نارٌ تَلظَّى وقُودُهَا
إذا زُرتُها طالَتْ طريقِى ، وإن أعُدْ "أرَى الأرضَ تُطوَى لى، ويدنُو بعيدُهَا"

(١٣٢)

وقال :

إذا مرّ ذِكراكم بقلبى تَضايقتْ ضُلوعِى عما تَحتَهنّ من الوَجْدِ
وأعجَبُ من تَشْتِيتِنَا بعد أُلفةٍ ومن نَقلِنَا بعد الدُّنُوِّ إلى البُعد

(١٣٣)

وقال :

علَيكَ بالصّبرِ ياقلبِى ، فإن خَفِيَتْ سبيلُه عنكَ ، فاسألْ عنه من فَقَدَا
فلن تَرى واجِداً فى الناس فارقَ مَن يَهوى ، فأجْدى عليه أن قَضَى[1] كَمَدَا
بالأمس رَاعَك بينٌ ما احتَسبْتَ به عَسى اللقاءُ الذى لم تَحتَسِبه غَدَا

---

(١) قضى : مات .

(١٣٤)

وقال :

هبْ أنَّ مِصرَ جنانُ الخلد: ما اشتهتِ النُّـــفوسُ فيها من اللّذّاتِ مَوجودُ
ماذا انتفاعِى إذا كانت زَخَارِفُها موجودةً، وحبيبُ النفسِ مفقودُ
وما الحيـــاةُ لمن بانت أحبَّتُهُ رِضًا ، ولا هو فى الأحياء معدُودُ

(١٣٥)

وقال :

بِنَفسى بعيدُ الدَّار ، بى من فِراقه جَوًى لو رآهُ البُعدُ رقَّ لىَ البُعدُ
بِقلبىَ من شوقٍ إليه ، ولوعةٍ عليه ، غليلٌ ليسَ يبُرِده الوِرْدُ
وما بَردُ أحشائى على ما تضمَّنت من الوجد إلا مثلَما بَرَدَ الزَّنْدُ

(١٣٦)

وقال :

تَناءَتْ بِنَا عن أرضِ نجدٍ وأهلِهِ نَوَى غُربَةٍ كالصَّدعِ فى الحجَرِ الصَّلْدِ
وقد قِيلَ: فى اليأسِ الشِّفاءُ من الهوى ودَانِى الّذى أقضى به اليأسُ من نجد
بلادٌ بها صاحبتُ شَرْخَ شَبِيبتى وفارقتُ إخوانِى الكرامَ ذَوِى وُدِّى
إذا خطَرتْ منهم على القلبِ خطرةٌ تَدلَّهتُ حتى ما أُعيدُ ، ولا أُبْدِى

(١٣٧)

وقال :

أقولُ لِعَيني يومَ توديعِهم وقَدْ   جَرتْ بنَجيعٍ[1] فَوق خَدَّىَّ مُزْبِدِ :
خُذى بنَصيبٍ منهُمُ قبل بَيْنِهم   ودونَكِ،والدمعَ [المخضب][2] فى غَدِ

(١٣٨)

وقال :

قد مَرِنت قلوبُنَا على النَّوى   فما تَشكَّى من أليمِ الوَجْدِ
كأنَّ حُسنَ صَبرِهَا على لَظَى   أشواقِها حُسنُ اصطبارِ الزَّند

(١٣٩)

وقال من قصيدةٍ عند الخروج من مصر مع الأفضل عباس[3] :

أتْهَم فيكُم لائمى ، وأنْجدا   وما أفادَ سلوةً إذْ فنَّدَا[4]
أرشدَنِى بزعمه ، وما أرَى   سُلُوَّ قلبى عن هَواكُمْ رَشَدَا
يَا لائمِى فيهِم ، أعِدْ ذكْرَهُمُ   واللومَ فيهم ، واتَّخِذْ عندى يَدَا
روِّح بذكْرَاهُم فؤادًا مُضرَمًا   لو مَاتَ حولاً كاملاً ما بَرَدَا
لو كان مايشكُوهُ من حَرِّ الأسَى   نارا لَباخَتْ ، أو زنَادًا أصْلَدَا
لا تحسَبنَّ اليأسَ أسْلَانى ، ولا   أنسانِىَ النّأىُ هَوَى من بَعُدَا
شرطُ الهوَى لهُمْ علَىَّ أنَّنِى   بهم مُعَنَّى القلب صبٌّ أبدَا

(١) النجيع : دم الجوف .   (٢) تكملة بياض بالأصل بمثلها يستقيم الوزن ويجمل المعنى .

(٣) هو عباس بن يحيى الصنهاجى وزير الظافر الفاطمى ، وهو الذى اتهم ولده نصر بقتل الخليفة ، فهربا من مصر . وصحبهما فى خروجهما أسامة .

(٤) أتهم : أتى تهامة . وأنجد : دخل نجدا . وفند : خطأ الرأى .

لا أستفيقُ من هوًى إلّا إلى ... هَوًى، ولا أسلو، وإن طالَ المَدَى
أفدي خيالاً زارَ رحْلِي موهنًا[١] ... على تنَائِي دَارِه كيفَ اهتَدَى
عهدتُه مُوسَّنًا رَأْدَ[٢] الضُّحى ... فكيفَ جابَ في الظلامِ الفَدْفَدَا[٣]
عُلالَةَ عَلَّلني الشوقُ بها ... والماءُ في الأحلامِ لا يُروى الصَّدَى
ثُمَّ هَبَبْتُ، لا بكَ الوجدُ الذى ... حرَّكَهُ طيفهُمُ وجـدَّدَا
مُدلَّهًا، أمسحُ عَيْنَيَّ، عسَى ... تراهُ يقظى، وأُجُسُّ المرقَدَا
كقانِصٍ فاتَ القنيصُ يَده ... أو واجِدٍ أضَلَّ ما قَد وَجَدَا
أحبابَنَا وحبَّذَا نداؤُكُمْ ... لو كُنتمُ لدعوة الدَّاعِي صَدَى
غالَت يدُ الأيام من بَعدكُم ... ذَخائِرى، حتَّى الإِسَى[٤] والجَلَدَا
ما لاصْطِبَارى مَددٌ بَعد النَّوى ... فويحَ دَمْعى! مَن حَباهُ المَدَدَا
لكنَّنِي ما رُمتُ إطفاءَ الجوَى ... بفيضِه إلا التَظَى واتَّقَـدَا
يا روعَتَا لطائرٍ نَاحَ على ... غُصْنٍ، فأغرى بالأسَى من فَقَدَا
أظنُّه فارق أُلَّافًا، كما ... فارقتُ، أو كما وجدتُ وجَدَا
أدمَى جراحاتٍ بقلبِي للنوى ... وما علمتُ ناحَ حُزنا أم شَدَا
لكن يَهِيجُ للحزِين بثَّه ... إذا رأى على الحَنِين مُسعدَا

ومنها :

فَقُل لمن أشْمَتَه فِراقُنا ... وسرَّه أن جَار دهرٌ واعتَدَى:
إن سرَّكَ الدهرُ بنا اليومَ فهَل ... أمنتَ أن يَسُرنا فيك غَدَا[٥]

(١) الموهن : نحو من نصف الليل .

(٢) رأد الضحى : وقت ارتفاع الشمس عند الخمس الأول من النهار وانبساط ضوئها وذلك شباب النهار . وموسنا : من الوسن وهو شدة النوم .

(٣) الفدفد : الفلاة . (٤) الإسوة بالكسر وتضم : القدوة وما يأتسى به الحزين . الجمع : إسى بالكسر و يضم .

(٥) راجع القطعة (٣٣٢) ص ٢١٠ .

قافية الذال

(١٤٠)

وقال :

صَدُّوه ، وهو صَدى[1] الفؤاد إليهمُ ظَامٍ ، يَحُومُ عليهمُ ويلوذُ
وبعَهْدِهم إن حافَظُوا ميثاقَه زمنَ الوِصالِ من الصُّدود يعوذُ
وبليَّةُ المشتاقِ أنَّ هُمومَه مجموعةٌ ، وفؤادَه مشذُوذُ

قافية الراء

(١٤١)

وقال :

لا غَروَ إن هجرَ الخيالُ الزَّائرُ ما يستزيرُ الطَّيفَ طَرفٌ سَاهرُ
دُون الكَرى خطراتُ همٍّ ذُدْنَه عن نَاظرى، فهو النَّوارُ[2] النَّافرُ
لَا سَوْرَةُ الصَّهباء[3] تَصرِفُه ، ولا يُلهِى فُؤادى حينَ يَطرُق سَامِرُ
وإذَا فَزِعتُ إلى الأَمانِى صدَّنِى يأسٌ يُحقِّقُه الزمانُ الخاترُ[4]
أَستَعطِفُ الأيامَ، وهى صوادفٌ وألومُها ، وهى المُصِرُّ الجَائرُ
وتزيدُها الشَّكوى إليها قَسوةً ولَقَلَّمَا يُشكِى[5] الظَّلومُ القَادرُ
أشكُو جراحاتٍ بقلبى تُعجزُ الآ سى ، ولم يَبلغ مَداها السَّابرُ

---

(١) الصدى : العطشان .

(٢) النّوار : المرأة النّفور من الريبة .

(٣) الصهباء : الخمر .

(٤) الختر : الغدر والخديعة ، أو أقبح الغدر .

(٥) أشكى : أزال شكايته .

غَبِرتْ على دَخَلٍ، وروْعاتُ النَّوى ... يَقْرِفن[١] ما دَمَلَ الزّمانُ الغَابِرُ
وعَلَى الركائبِ، لو أباحَ الدمعُ لى ... نظرًا إلى تلك الخدُورِ، جآذِرُ
سارُوا بقلبِ أسيرِهمْ بعدَهم ... مُتَلَدِّدٍ[٢]، فهو المقيمُ السائرُ
فاضتْ دُموعىَ فى المنازِلِ وارعوَى ... صَبرِى، وراجَعَنِى الرّقادُ النّافِرُ
إن لم أُسحَّ بها سحائبَ أدمعٍ ... ينجابُ خشيتَهَا الغمامُ الباكرُ
أأُحمِّلُ الأطلالَ منّةَ عارِضٍ[٣] ... وسحابُ دَمعى مُستَهِلٌّ ماطِرُ
إنى إذَن بشُئُونِ عينَىَّ باخِلٌ ... وبِعَهْدِ مَن سَكَنَ المنازِلَ غادِرُ

(١٤٢)

وقال:

تَناءَوْا، وما شطَّت بنا عنهمُ الدّارُ ... ومالَت بهم عَنّا خُطوبٌ وأقدارُ
همُ جِيرَتى، والبعدُ بينى وبينَهم ... وأعجبُ شىءٍ بُعدُ مَن هُوَ لى جارُ
لهم مِنّىَ العُتْبَى، إذا ما تجرّمُوا ... وبَذْلُ الرِّضا، إن أنصفونىَ، أو جارُوا
أجيرةَ قلبى، والّذين هَواهمُ ... توافقَ إعلانٌ عليه وإسرارُ
تظنُّونَ أنّ الصّبرَ يُجدُ بَعدكم ... على بُعدِكُم، هَيهاتَ، صَبْرِىَ غَرّارُ
إذا عنَّ ذِكراكُم عرَتْنِى سَكرةٌ ... كأنِّى سَقانى البابليّةَ خَمّارُ[٤]
حفظتُ هَواكُم حِفظَ جَفنٍ لمُقْلَةٍ ... وضاعتْ موداتٌ لديكم وأسْرارُ
وعارُ بِكُم أن تعترِيكُم ملالةٌ ... وحاشَى هواكُمْ أن يُدنِّسه العارُ

(١) القرف: النكس فى المرض. والدخل: الغدر والمكر. والغبر: فساد الجرح.
(٢) تلدد: تلفت يمينا وشمالا وتحير متبلدا وتلبث.
(٣) العارض: السحاب المعترض فى الأفق.
(٤) البابلية: خمر تنسب إلى بابل: مكان بالعراق.

أعاتِبكُم ، أرجو عواطفَ وُدِّكم — وفيكُم على ماأوجبَ العتبَ إصرارُ
ومن عجبٍ أنّى أرِقْتُ لراقدٍ — وألزَمنى حفظَ المودّة غدّارُ
أحينَ استَرَقَّ القلبَ ، واقتادَنِى الهوَى — وأسلَمَنى من حُسن صبرىَ أنصارُ
تَصدَّى لصدِّى ، واعترتْه ملالةٌ — قَضَتْ ببعادى ، والملالاتُ أطوارُ
فهلّا ودمعِى ، ما اريقت جِمامُهُ[١] — وقلبِى لم تُسعَرْ بأرجائه النّارُ

(١٤٣)

وقال[٢] :

ماأنتَ أوّلُ من تَناءتْ دَارُه — فعلامَ قلبُك ليس تخبُو نَارُهُ
إمّا السُّلوُّ أو الحمامُ ، وما سِوى — هَذين قسمٌ ثالثٌ تختَارُهُ
ما بعدَ يَومِكَ من لقاءٍ يُرتَجى — أو يَلتقِى جُنحُ الدُّجَى ونهَارُهُ
هذا وقُوفُك للودَاعِ ، وهذه — أظعانُ مَن تَهوَى ، وتلكَ دِيارُهُ
فاستبقِ دمعَكَ فهو أوّلُ خاذلٍ — بعد الفِراق وإن طَما تيّارُهُ
مَدَدُ الدُّموعِ يقلُّ عن أمدِ النّوَى — إن لم تَكُن من لُجّةٍ تمتارُهُ[٣]
ليتَ المطايَا ما خُلِقن ، فكم دمٍ — سفكتْه يُثقِلُ غيرَها أوزَارُهُ
ما مَاتَ صبٌّ إثرَ إلفٍ نازحٍ — وجْدًا به إلّا لَديْهَا ثَارُهُ
فلو استطعتُ أبحتُ سيفِى سُوقَها — حَتى يَعافَ دماءَهُن غِرَارُهُ[٤]
لو أنَّ كلَّ العيسِ ناقةُ صالحٍ — ما سَاءنِى أنّى الغَداةَ قُدارُهُ[٥]

---

(١) الجمام : معظم الماء .
(٢) روى بعض هذه القصيدة فى الخريدة ١ : ١٠٢ .
(٣) امتار : جلب الطعام .
(٤) الغرار : حدّ السيف .
(٥) قدار : عاقر ناقة صالح .

ما حَتْفُ أنفُسِنَا سواها ، إنّها   لِهَىَ الحِمامُ أُتِيحَ ، أو إنذارُه
واهًا لمغلوب العزاء تناصرتْ   أشواقُه ، وتخاذَلَت أنصارُهُ
هاجَت له الدّاءَ القديمَ أُساتُه   ونَفَى الكرَى عن جَفنِه سُمّارُهُ
كَتَم الهوَى ، حتّى ونَت لُوّامُهُ   فطَفتْ على دمعِ الأَسَى أسرارُهُ
ومحجَّبٍ كالبـدرِ : يدنو نُورُه   من عَينِ رائيه ، وتنأى دَارُهُ
يحكِي الغزالَةَ والقضيبَ قوامُه   ولحاظُه ، وبَهاؤُه ، ونِفَارُهُ
بِي غُلَّةٌ أقضِى بها من حُبّه   وأَرى الورُودَ يذودُ عنه عارُهُ
ومن العَجائبِ أن أعَافَ مع الظّما   ماءَ الفُراتِ لأَنْ بَدتْ أكدَارُهُ
أشتاقُهُ ، وهو السّوادُ بناظرِى   مَا حِيلتِى ، وغَدًا يَشُطُّ مَزارُهُ
إن لم أمتْ أسفًا عليه ، فإنّنى   مَذِقُ[1] الوِدادِ على النّوى غَدّارُهُ
يا زهرةَ الدُّنيا ، ولستُ بواجِدٍ   رَوضًا سِواكِ يَشوقُنِى نُوّارُه
مَالِى إذا عاتَبتُ قَلبِى فيكُمُ   أبدَى اللجَاجَ ، وساءَنِى إصْرارُهُ
وإذا عرضتُ عليه وصلَكِ صدّه   عنه العفافُ ، فما عَسى إيثارُهُ
فإلى متَى يُمسى ويُصبح فى لظًى   من وجدِه ، يَنِمُ المطىَّ أُوارُهُ[2]
مُتضَادِدَ الأحوالِ بين غَرامه   وإبائه ، ما يستقرُّ قرارُهُ
أمَلتُ من دَاءِ الهوَى إفرَاقَه[3]   فَرَمتْه منك بِنُكسه سنجارُه[4]
وفراقُ مجدِ الدّين مُعظمُ دَائِه   وشِـفاؤُه رؤياهُ أو أخبارُه
فارقتُه وظننتُ أنّ لَبيننَا   أمدًا ، فطالَ مداهُ واستمرارُهُ

(١) مذق الود : لم يخلصه فهو مذاق ومماذق .
(٢) الأوار : اللهب .
(٣) أفرق من مرضه : برىء .
(٤) سنجار : مدينة .

وأخافُ أنَّ البينَ يُقذِى ناظرِى ... بِفراقِه ، ما أَوْمَضتْ أشفارُهُ
ظَنًّا سَرَى الإشفاقُ فى ترجِيمِه[1] ... ولربَّما أردَى الشفيقَ حِذارُه
وإذا القُنوط دَجَى علىَّ ظلامُه ... وضَحَ الرّجاءُ ، ولاحَ لى إسفارُهُ[2]
ووثقتُ باللُّطفِ الخفِىِّ من الذى ... تجرى بما يَلقى الفتَى أقدارُهُ

(١٤٤)

وقال بمصر من قصيدةٍ ، وقد بلغه أنّ بعضَ من أشارَ إليهم فى القصيدةِ التى على حرف الميمِ لمّا سمعها ، قال : هذه كلُّها مسروقةٌ ، ولم يفرِّق بين التّضمينِ والسّرقةِ ، فقصد التّضمينَ فى هذه القصيدة[3] :

أطاعَ الهوَى من بَعدهم ، وعصَى الصّبرُ ... فليسَ له نهىٌ عليه ولا أمرُ[4]
وعاودَهُ الوجدُ القديمُ ، فشَفَّه[5] ... جَوًى ضاقَ عن كِتمانه الصّدرُ والصّبرُ
كأنَّ النّوى لَم تختَرِم غيرَ شَملِه ... ولم يجْرِ إلاَّ بالذّى ساءَه القَدْرُ[6]
وهل لِبَنى الدُّنيا سرورٌ ، وإنّما ... هو العيشُ والبُوسَى ، أو الموتُ والقبرُ
وكلُّ اجتماعٍ مُرصَدٌ لتَفرُّقٍ ... وكلُّ وصالٍ سوف يعقبُه هجرُ
وما يدفعُ الخطبَ المُلِمَّ إذا عرى ... سوى الصّبرِ ، إلاّ أنّه كاسمِه صبرُ
أسكّانَ أكنافِ العواصِمِ دعوةً ... بِقَلْبِى بَرودًا ، وهى فى كَبدى جمرُ[7]

(١) الترجيم : الظنّ . (٢) أسفر الصبح : أضاء .
(٣) راجع بقية هذه القصيدة ص ١١٩ .
(٤) مضمن لبيت أبى فراس الحمدانى :
أراك عصى الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهى عليك ولا أمر
(٥) شفه الهم : هزله . (٦) القدر بحركة القضاء والحكم ، كالقدر بسكون الدال .
(٧) عجز بيت المتنبى :
أريقك أم ماء الغمامة أم خمر ... بفى برودا وهو فى كبدى جمر

لقـد أظلمت دُنيايَ بعـد فِراقكمْ   فكلُّ زَمانِي ليـلةٌ ما لَهـا فَجْـرُ
أُعاتِبُ أيَّامِي عليكُمْ ، ومَالَهـا   ولا لِلَّيالى فى الَّذى بيننا عُذْرُ
لقد صَدَّعتْ بعد التَّفرُّق شملَنـا   كصَدْعِ الصَّفا، ما إنَّ له أبدًا جبْرُ
وما زالَ صرفُ الدّهر يسعى بَيْنِنا   فلمَّا انقضَى ما بيننا سكَنَ الدّهرُ[1]
فويحَ زمانٍ فرّقتنَا صرُوفُـه   أكانَ عليـه فى تَفرُّقنا نَـذْرُ
إذا عنَّ ذِكراكُم نَبابِيَ مَضجَعِى   كأَنَّ فِراشِى حالَ من دُونِه الجَمْـرُ
فأُذهَلُ حتى لا أجيبَ منادِيًا   وأُبهتُ، لا عرفٌ لدىَّ ، ولا نُكْرُ[2]
وأرمِى فِجاجَ الأرضِ نحـوَ بِلادكم   بطرفٍ كليـلٍ دمعُه بعدَكم قَطرُ
أراقَ جِمـامَ[3] الدمعِ فيكُم فإن دَعا   به الوجدُ لبَّى ، وهو مُستكرَهٌ نَزْرُ
وجَانبَ طِيبَ النَّومِ بعـد فِراقِكُمُ   فما تَلتقى منـه على سِنَـةٍ شُفْرُ
عسَى نظرةٌ منكُم يُميطُ بهَا القَـذَى   وهيهاتَ،عَرضُ الأرضِ من دونِكُم سِترُ
وإن وَعَدتْنِي باقترابِكُمُ المُنَى   نَهتْنِيَ عَنْ تَصديقِ موعِدِها مصرُ
وكيفَ بكُم . والدّهرُ غيرُ مُساعِدٍ   ودونَكُمُ الأعداءُ واللُّجَجُ الخُضرُ

(١) عجز بيت لأبى صخر الهذلى (الحماسة ج ٢ : ٦١):
عجبت لسعى الدهر بينى و بينها   فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
(٢) مضمن قول أبى صخر الهذلى :
وما هو إلا أن أراها بجاءة   فأبهت لا عرف لدى ولا نكر
(٣) جمام : جمع جمة وهو من الماء معظمه .

مهالكُ لو سَارت بها الريحُ عاقَها الـــوَجَى[١]، وثَناها عن تَقَحُّمها الذُّعرُ
ولم يَبقَ إلا ذكرُ ماكانَ بيننا ولا عجبٌ للدّهرِ أن يُدرسَ الذّكرُ
وروعةُ شوقٍ تَعتريني إليكُمُ كما انتَفَضَ العصفورُ، بلَّلَه القَطرُ[٢]
فياروعتى ، لا تَسكُنِي بعد بُعدهمْ ويا سلوةَ الأيّام ، موعدُكِ الحشرُ[٣]

(١٤٥)

وقال ،

أأحبابَنا ، ما أشتكى بعد بُعدكم سوى أنّنِي باقٍ ، ولُبّيَ حَاضرُ
وما هكذَا يَقضِي وفَائِي ، وإنّما جَرَتْ بهواها لا هَوايَ المقادرُ
وقد كان للبيَنِ المُشتّ أوائلٌ وليس له ، حتّى المماتِ ، أواخرُ

(١٤٦)

وقال[٤] :

ياعينُ ، فى ساعة التّوديع يشغلُكِ الـــبكاءُ عن لذّة[٥] التّوديع والنَّظر
خُذى بحظِّكِ منهم قَبــل بينهمُ وبعدَهم[٦] فاجْهَدى فى الدَّمع والسَّهر[٧]

---

(١) وجى الماشى : إذا حفى ، وهو أن يرق القدم والحافر وينسحج .

(٢) عجز بيت أبى صخر :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة كما انتفض العصفور بلله القطر

(٣) عجز بيت أبى صخر :

فيا حبها زدنى جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

(٤) هذان البيتان رواهما العماد أيضا فى الخريدة (١ : ١٠٤) ولباب الآداب ص ٤١٨ .

(٥) هذه رواية لباب الآداب وفى الأصل « آخر التسليم » .

(٦) رواية الخريدة « ثم اجهدى بعدهم للدمع والسهر » . ورواية لباب الآداب « ففى غد تفرغى للدمع ... » .

(٧) عبر عن هذا الخاطر فى بيتين آخرين ص ٦٦ (وانظر القطعة ١٧٥) .

(١٤٧)

وقال :

يَامصرُ ، مادُرتِ فى وهْمِى ، ولا خَلَدى　　ولا أجَالَتْك خَلْوَاتِى بأفكارى
ما أنتِ أوّلُ أرضٍ مسَّ تُربتها　　جسمى ، ولا فِيكِ أوطانِى وأوطارِى
لكن إذا حُمَّتِ الأقدارُ كان لها　　قُوىً ، تُؤلّف بين الماء والنّار

(١٤٨)

وقال :

يَا غائبينَ ، رَجَاى طِيـ　　ـبَ العيشِ مُذ بِنْتُم غُرورُ
أنْسَتنِيَ الأيّامُ كيـ　　ـفَ يكونُ بعدكُمُ السّرورُ

(١٤٩)

وقال :

يادمعُ ، انجِدْنى على بُعدهمْ　　فقد ترَى قِلّةَ أنْصارى
بَرّدْ جوًى فى القلبِ من ذِكْرهم　　أحرَّ نارًا من لَظَى النّار
فليس شيءٌ مُذهِبٌ للشَّجَى　　مثلَ انهمالِ المَدْمعِ الجَارِى

(١٥٠)

وقال بمدينة حلَبَ ، وقد وصَلَهَ إليها بعض أصحابه ، وأخبره أنَّ من كان له بمصر : من الأهل والأولاد وصَلُوا ، وأنَّ المركَبَ انكسرَ بهم فى ساحِل عكا ،

ونهب الإفرنج كلّ مافيه ، ولم يصلُوا إلى دمشق إلا بأنفسهم ، وأنَّ ملكَ الفَرنج أعطاهم خمسمائة دينار ، تَوصَّلُوا بها إلى دمشق[١] :

إلى اللهِ أشكُو فُرقةً دَميتْ لها جُفُونى ، وأذكَتْ بالهمومِ ضَميرِى
تمادَتْ إلى أن لاَذَتِ النفسُ بالمنى وطارتْ بها الأشواقُ كلَّ مَطيرِ
فلما قضَى اللهُ اللّقاءَ تعرّضتْ مساءةُ دهرى فى طريقِ سُرورى

(١٥١)

وقال :

وجَدَّدَ وَجْدى بعدما كان قدعَفا وراجَعَنِي حلمى ، ووَازَرَنِي صَبْرِى
هتوفُ الضُّحى مفجوعةٌ بأليفها تُهيِّجُ أشجانَ الفؤاد ، وماتَدْرى
ولو أنَّها إذْ أعْولَتْ فاضَ دمعُها لقلتُ : هى الخنساءُ ، تَبكِى على صَخْرِ
ولكنَّها لم تُذْرِ دمعاً ، وأدمُعى إذا قُرِنت بالقَطر زادت على القَطر

(١٥٢)

وقال :

كأنِّي عَجولٌ[٢] ، أو ثَكولٌ ، إذا جَرى بسمعِيَ عن غيرِ اعتمادٍ لكُم ذِكرُ
ولو أسعَفتنى مُقلتاىَ بِقَطْرَةٍ شفَتْ داءَ أحشائى ، ولو أنها قِطْرُ[٣]

---

(١) رويت الأبيات الثلاثة فى الروضتين ١ : ٩٩ .
(٢) العجول : الواله من النساء والإبل .
(٣) القطر بالكسر : النحاس الذائب .

(١٥٣)

وقال من قصيدة كتبها إلى الملك الصالح :

نأَوا ، فأدنَتكَ منهمُ الذِّكَرُ ومثَّلتْهم لقلبِك الفِكَرُ
يَراهمُ بالوِدادِ قلبِي ، على البُعـد ، وإن لم يُدركهمُ النَّظَرُ
وحَسرتِى أنَّنِي أنا المُعرِضُ النَّـازِف ، وما أعرَضوا ، ولا هَجَرُوا
بُعْدتُ عنهم ، إذ كُل عصرهمُ بهم ربيعٌ ، ولَيلهُ سَحَرُ
ونافَستنِى الأيامُ فيهِم، ومَجْنَى الـعيشِ دانٍ ، وروضُه نَضِرُ[1]

(١٥٤)

وقال :

غَرِضتُ[2] من الهجران، والشملُ جامعٌ ولم يتعمَّدْنَا بفُرقتنا الدَّهرُ
فلمَّا تفرَّقنا ، وشطَّت بنا النَّوَى تمنَّيتُ لو دامَ التَّجاوُرُ والهجرُ

(١٥٥)

وقال :

وصفَ الصَّبرَ لى جهولٌ بأمرِى فارغُ البالِ من هُمومِى وفِكرِى
مستريحٌ مَا قلبُـه مثلُ قَلبِى لاَ ، ولاَ دهرُه ظلومٌ كَدهرِى
مالَه بالهُمومِ عهدٌ ، ولا اضْـطُرَّ إلى الصَّبرِ باقتِسارٍ وقَهرِ
وأنا ، الدَّهرَ ، فى خطوبِ زمانٍ أشربُ الصَّبرَ فيهِ من حُسنِ صَبرِى
صارَ لى عادةً ، فلو ضَاقَ رحبُ الأَ رضِ عنِّى، ماضَاق بالصبرِ صَدرِى

---

(١) بقية القصيدة فى ص ١٧٢ .

(٢) الغرض محركة : الضجر والملال . غرض كفرح .

قافية الضـاد

(١٥٦)

وقال :

فى ذلِكَ الحىِّ المُعرِّض لى هَوىً ... ودَّعتهُ حذرا بطرفٍ مُعرِضِ
أخشىَ عليه الكاشِحين ، فكُلُّهم ... غَضبانُ يُسخِطُه هَوانَا ، لاَرضِى
فتلفَّتَتْ عينِى المريضةُ بالبكا ... والبينِ ، تأملُ نظرةً من مُمرضِى
وقِبابُهم فى الآلِ[1] تطفُو مثلَما ... يطفُو الحَبابُ على الرحيقِ الأبيضِ
حتّى إذا يئستْ دعتْ زَفراتُها ... فَيضَ المَدامِعِ بالشَّجا المتَعرِّضِ

قافية الطـاء

(١٥٧)

وقال من قصيدةٍ فى الملك الصالح رحمه الله :

أجيرةَ قلبِى ، إن تَدانَوْا ، وإن شَطُّوا ... ومُنيَةَ نَفسى ، أنصَفُونِى أو اشتَطُّوا[2]
عصَيْتُ اللَّواحِى فيكُمُ ، وأطعتمُ ... مقَالَهُمُ ، ما هكذا فى الهَوى الشرْطُ
ولو عَلِمُوا مقــدارَ حَظِّىَ منكُمُ ... وهمّى بكم زال التّنافُسُ والغَبْطُ[3]
إذا كانَ حظّى منكُمُ فى دُنُوِّكُم ... صدودٌ وهجرٌ ، فالتَّدانِى هو الشَّحطُ[4]

---

(١) الآل : السراب .

(٢) هذه القصيدة معارضة لقصيدة أبى العلاء :

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا ... يظللهم ما ظل ينبته الخط

وشط : بعد . واشتط : جار .

(٣) الغبط من قولهم : غبطت الرجل أغبطه إذا تمنيت أن يكون لك مثل حاله من غير أن يزول عنه . والحسد أن تريد إزالتها عنه .

(٤) الشحط : البعد . يقال شحطت الدار ، إذا بعدت .

فيا قلبُ مهلاً ، لا تُرَعْ ، إنَّ قُربهمْ　　إذا هَجروا ، مثلُ التَّنائى إذا شَطُّوا
هَواهُم هَوىً ، لا البعدُ يُبْلِى جَديدَه　　لدَيْنا ، ولا عَالِيه بالهجر يَنْحَطُّ
أُحِبُّهمُ حُبَّ الحيــاةَ ، محبَّــةً　　جرتْ فى دَمى والرّوحِ فَهى لها خِلْطُ[1]
لَهمْ من فؤادى موضعُ السِّرِّ والهَوى　　أَمحضُ هَواهُم فى سُويدائِه وَخْطُ[2]
يُعلِّلُنى شَــوقى بزَوْرةِ طَيفِهم　　وَجَيْبُ الدُّجَى عن واضحِ الصبحِ مُنْحَطُّ[3]
وَطَرفِى يُراعِى النَّجمَ حَيرانَ مثلَه　　إلى أن دَعَاهُ فى مغَاربه الهَبْطُ[4]
عَجبتُ له ، كيفَ اهتدى لِرحَالِنَا　　وكم للِّوى من دُون تَعْرِيسِنَا سِقْطُ[5]
وكيفَ فَرَى عرضَ الفَلاَ من يَؤُودُه　　وَبُهرُهُ[6] فى جانبِ الخدرِ أن يَخْطُو
فلما استَفَاضَ الفَجرُ كالبحرِ ، وانبَرت　　نُجومُ الدُّجى فيه تَغُورُ ، وتَنْغَطُّ[7]
أسفتُ على زَوْرٍ[8] أَتَانِى به الكَرى　　وما زَارَنى مُذْ كَانَ مستيقظاً قَطُّ
إذا مَاسَ خلتُ المسَّ غَالَ عقولَنَا　　وخَامَرَها من سورَةِ الوجدِ إسْفَنْطُ[9]
يَقولُون : خُوطٌ ، أو قَناةٌ قويمةٌ　　وما قَدُّهُ ما يُنبت البانُ والخَطُّ
شبيهةُ أمِّ الخشْفِ[10] جِيداً ومُقلَةً　　بجِيدكِ تزدانُ القلائدُ والقُرطُ
تَروَّضَ جَوٌّ جُبتِهِ ، وتضوَّعَتْ　　رُبًا مَسَّهـا ، مما تَسَرْبَلَتِه ، مِرْطُ[11]
حكى وجهُكِ الشمسَ المُنيرةَ فى الضُّحَى　　ولونَ الدَّياجِى شَعرُكِ الفاحمُ السَّبْطُ

---

(١) الخلط بالكسر : كل ما خالط الشيء .
(٢) وخطه : خالطه .
(٣) فى الأصل (منغط) ولعل الصواب ما اخترناه .
(٤) الهبط : التسفل .
(٥) يشير إلى قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل　　بسقط اللّوى بين الدخول فحومل

(٦) فرى : شق . ويئوده : يبلغ منه المجهود . والبهر : انقطاع النفس من الإعياء .
(٧) غطه فى الماء : غمسه ، فانغط .
(٨) الزور : الزائر وهو فى الأصل مصدر وضع موضع الاسم كصوم ونوم بمعنى صائم ونائم .
(٩) الاسفنط بكسر الفاء وتفتح : الخمر .
(١٠) الخشف مثلثة : ولد الظبي أول ما يولد .
(١١) المرط بكسر الميم : كساء من صوف أو خز .

فتكت بَبتَّاك الحُسامِ، إذا هَوَى … على مُفرِدٍ ثَنَّاه[١] فى المعرَكِ القَطّ

وما خلتُ آسادَ الشرى إذ تَبَهْنَستَ[٢] … فرائسَ غِزلان الصريمة[٣]، إذ تعطو[٤]

فيا عجباً من فَاتِرِ الطَّرفِ، فاتِنٍ … سَطَا بِكَمِىٍّ، لم يزلْ فى الوغَى يَسطُو

فأرداهُ فردُ الحُسن فرداً، وإنَّه … ليرهبُه من رَهط قَاتِـلِهِ الرَّهطُ

أيَا ساكنِى مصرٍ، رضَانَا لِبُعدكمُ … عن العيش والأيَّامِ — لا تبعدُوا — سُخطُ

إذا عنَّ ذكراكمُ ظَلِلْتُ كأنَّنى … غَريقُ بحَارٍ ما لِلُجَّتِهـا شَطُّ

وأَلزِم كفِىَّ صدعَ قلبٍ، أطارَهُ … جوَى الشوقِ، لولَا أن تَداركَهُ الضَّبطُ

فَهلْ لى إليكُم، أو لَكُم بعد بُعدكُم … إيابٌ، فقد طَال التَّفرقُ والشَّطُّ

أراكُم على بعْـد الديارِ بناظرٍ … لـكلِّ فراقٍ من مدامِعِه قِسطُ

إذا عايَن التَّوديعَ أرسَـل لُؤلؤاً … من الدَّمعِ لم يَجمع فرائدَه اللَّقطُ

وما شَـفَّه إلا نوَى من يَودُّه … وفُرقَةُ أُلَّافٍ هى المِيتةُ العَبْطُ[٥]

فراقٌ أتَى لم تُخبرِ الطيرُ كَونَهُ … ولاَ رَفعُوا فيه الحُدُوجَ[٦] ولا حَطُّوا

تَلقَّتهُ منى سُلطةٌ وصريمةٌ[٧] … ومن لِيَ أنِّى بَعدَ وشْكِ النَّوَى سَلْطُ[٨]

وما كنتُ أَدرى أنَّ للشَّوقِ زَفْرةً … تَزيدُ، كما يَنْمِى، ويَضطرم السِّقطُ[٩]

---

(١) أى أن حسامه الباتك يشق الشخص نصفين . والقط والقد والبتك : القطع .

(٢) تبهنس : تبختر . والتبهنس : التبختر والأسد يبهنس فى مشيه ويتبهنس أى يتبختر .

(٣) الصريمة : القطعة الضخمة من الرمل تنصرم عن سائر الرمال .

(٣) تعطو : تتناول . عطوته أعطوه إذا تناولته .

(٥) مات عبطة : إذا مات شابا صحيحا .

(٦) الحدج بالكسر : مركب للنساء كالمحفة وجمعه حدوج وأحداج .

(٧) الصريمة : العزيمة .

(٨) السلط . الحديد من كل شىء .

(٩) السقط مثلثة : ما سقط بين الزندين قبل استحكام الورى .

بِرغْمِىَ أن تُمسِى وتُصبِحَ دُونكُم ... فَيافٍ، لأَيدى الجُردِفى وعْرِهَا لَغْطُ[١]
وأن تَنزِلُوا دَارَ القطيعة والقِلَى ... وجِيرَانُكُم بَعدَ الكرام بها القبطُ[٢]

(١٥٨)

وقال :

إلَى اللهِ أشكُو من جَوًى لم أجدْله ... مسَاغًا ، ولا طُولُ البكاءِ يُمِيطُه
ومِن حرِّ قَلْبٍ، كلَّما رُمتُ بَرْدَه ... بتَسويفه أذْكَى جواهُ قُنُوطُه
أعارَ جُفونِى ما يُصعِّدُ من دمٍ ... فلما تَقضَّى فَاضَ منها عبيطُه[٣]

قافيه العين

(١٥٩)

وقال :

أحبَابنَا ، لى عندَ خَطْرةِ ذِكرِكُم ... نَفَسٌ تَقومُ له حنَايا أضلُعِى
أنْسِيتُ بَعدَكُمُ السرورَ ، وأنكَرَتْ ... عَينِى الكرَى ، ونبَا بِجَنْبِى مَضْجَعِى
ألْقَى نَسِيمَ الرِّيحِ من تِلقَائِكُم ... بخُفُوتِ مكرُوبٍ ، وأنَّةِ مُوجَعِ
وإذا السحابُ سَرى فَنَارُ بُروقِهِ ... من زَفْرتِى ، ومياهُه من أدْمُعِى

---

(١) اللغط ويحرك : الصوت والجلبة أوأصوات مبهمة لا تفهم ج ألغاط . والجرد : جمع أجرد وهو الفرس القصير الشعر .

(٢) انظر تمام القصيدة فى صفحتى ١٧٤ و ٢١١

(٣) يقال لحم ودم وزعفران عبيط ، بين العبطة بالضم : طرى .

(١٦٠)

وقال :

يا قلبُ ، دَعْهُم ، فقد جرَّبْتَ غَدرَهُمُ ... وَفى التَّجارِبِ بَعدَ الغَىِّ ما يَزَعُ[1] :

أكَفَّرَ البعدُ عَنهم ما جَنَوهُ ، أمِ الـ ... أيّامُ أنسَتْكَ بعد البَيْنِ ما صَنَعُوا

وَهَبْهمُ أحسنُوا ، هـل يُرجِعَنَّهُمُ ... إليكَ وجدُكَ ، أو يُدنيهِمُ الهَلَعُ

ألستَ بالأمسِ فارقتَ الشبَابَ ، ولا ... أعزَّ منهُ ، فَلِمْ لا رَدَّه الجَزَعُ

(١٦١)

وقال :

إلى مَتَى أمسى وأُضْـحى بالنَّوى مُرَوَّعَا

مُرتَحِلًا كُرهًا عن الـأحباب ، أو مُوَدِّعَا

تُرَى اللَّيالِي نَذَرَتْ أَلّا نُرَى يوماً مَعَا

(١٦٢)

وقال ، وكان القاضى المكينُ أبُو المعالى عبدُ العزيز بنُ الحسين المعروفُ بابن الحبّاب[2] ، رحمه الله ، قَد مَدَح الملك الصَّالح بقصيدةٍ ، أوّلُهَا :

أرأيتَ بين معاطِفِ الأجْرَاعِ ... ومَضَانَ ذَاكَ البارِقِ اللَّمَّاعِ

فَنَفَّذ الملكُ الصالح إليه نُسختَهَا ، عَطْفَ كتّابٍ منه ، ليُعارِضَها بقصيدةٍ على وزنها ، وقافيتها ، فعارضَها بهذه القصيدة وأوّلها :

ما أنكَرُوا من عَزْمَتى وزَماعى ... شوقٌ دَعَا ، أفَلا أجيبُ الدَّاعى !

أأُجيبُ دَاعِى الحربِ فى غَمراتِهَا ... ويصدُّ عَن داعى الغَرامِ سَماعِى !

---

(١) يزع : يدفع . وذلك عجز بيت للمتنبي صدره : أهل الحفيظة إلا أن تجربهم ...

(٢) ورد اسمه فى النجوم الزاهرة والخريدة والنكت العصرية (ابن الحباب) .

هيهاتَ ، ماآنَ لأوّلِ سَلوةٍ عَرَضَتْ ، ولا نَاهِي النُّهى بِمُطَاعِ
أفدى الدِّيارَ ، وساكنيها ، إنَّهم لَهُمُ الأحبَّةُ ، والرِّباعُ رِباعِي
سَلَبَتْنِيَ الأيامُ نعمةَ قُربِهِم ومَواهبُ الدُّنيَا إلى استِرجَاعِ
فنزعتُ(١) عنهم مكرَهًا ، وإليهمُ حتى اللقاءِ تَشوُّقِي ونِزَاعِي
أودعتُ عهدَهُم على شَحطِ النَّوى قلبًا لديهِ العهدُ غيرُ مضاعِ
قل للّوائمِ : لستُ بالرَّاعي الهوى إن مرَّ لومُكُمُ بسَمْعٍ وَاعِ
كُفُّوا ، فَإنَّ عَذابَ أبناءِ الهَوَى مستعذبُ الأوصابِ والأوجَاعِ
أينَ السُّلُوُّ من المروّعِ دهرَه بقَطيعةٍ مَوصولةٍ بوَدَاعِ !
هو والأحبَّةُ ، كالأصائِلِ والضُّحا لا يَحظَيَانِ بساعةَ اسْتِجْمَاعِ

قافية الغين

(١٦٣)

وقال :

يا لائمَ المشتَاقِ ، دعهُ ، فَقَلَّمَا يُصغِي إلى نُصحٍ ووَعظٍ بَالغِ
تَلحَى المحبَّ ، وقلبُه ملآنُ من حَسَراتِه ، عَبثًا ، بقَلبٍ فَارِغِ
دعْ لَومَه ، فكَفاهُ تعذيبُ الهوَى واستَبقِ عَافيةَ النَّعيمِ السَّابغِ

قافية الفاء

(١٦٤)

وقال :

اسيرُ نَحو بلادٍ لا أُسَرُّ بها إذا تَبدَّتْ لِعيني هيَّجت أسَفِي
تطولُ أرضِي ، إذا يَمّمتُ ساحتَها بُغْضًا لها ، ثمّ تُطوَى عندَ مُنصرَفِي

---

(١) نزع عنه : انتهى عنه . ونزع إليه : اشتاق .

(١٦٥)

وقال :

يَا لائِمَ المشتَاق ، تَعـنِيفُ المَشُوقِ الصَّبِّ عُنفُ
انظُر إلى عَينٍ مُسَهَّدَةٍ ، وجَفنٍ لا يَجِفُّ
وسَقَامِ جسمٍ كلُّ سرٍّ للهَوى منه يَشِفُّ
واعْطِف عليه فَلِلكِرا مِ على أُولى الضَّرَّاءِ عَطفُ

(١٦٦)

وقال ، وكان يلازمُه بنَصيبين خيَّاطٌ اسمه مَهدِى ، يُخيِّط ثياباً للغلمان ولا يزالُ يحدِّثُه حديثَ معاشِه ومكسبه :

أحبَابنَا ، مَن لِيَ لَو دَامَ التَّدانِي وَالجَفَا
فإنَّني أَرَى النَّوَى من الصُّدودِ أَتلَفَا
شَتَّتَت الأيَّامُ ظُلماً شَملَنَا المؤتلِفَا
وكدَّرَت مِن عَيشنَا ما كانَ طابَ وصَفَا
وأوقفَتْنِي بَعدَكُم من النَّوى على شَفَا[1]
حتّى رأى الحاسدُ بى ما كَانَ يَهْوَى ، واشْتَفَى
وصَارَ بعد البَينِ نَدمَانِيَ مهدى ، وكَفَى
كأنَّنِي اعتَضتُ من الدُّرِّ الثمينِ الصَّدفَا

---

(١) يريد : على شفا الهلاك .

(١٦٧)

وقال ، من قصيدة فى الملك الصّالح :

أذكرهمُ الوُدَّ، إن صَدُّوا، و إن صَدفُوا[1] إنَّ الكِرامَ إذا استعطفتَهم عَطَفُوا
ولا تَرِد شافعاً إلّا هَواكَ لَهم يكفيكَ ما اختبرُوا منه ، وما كَشَفُوا
به دنَوتَ ، و إخلاصُ الهَوى نَسَبٌ كما نأيتَ ، و إفراطُ الهَوَى تَلَفُ
رأى الحسودُ تَدانِي وُدِّنَا ، فَسَعَى حتَّى غَدتْ بَين دَارَينا نَوًى قُذُفُ
ومَا البعيدُ الّذى تنأى الدّيارُ به بَل مَن تَدانَى ، وعنهُ القلبُ منصرفُ
أجيرةَ القلب ، والفُسطَاطُ دَارُهُمُ لم تُصقِبِ الدَّارُ، لكن أصقَبَ الكَلَفُ[2]
أدنَى التَّدانِي الهَوَى ، والدَّارُ نازحةٌ وأبعدُ البُعد بين الجيرةِ الشَّنَفُ[3]
فارقتكُم مُكرَهًا ، والقلبُ يُخبِرُنى أنْ لَيس لى عِوَضٌ منكم ، ولاَخَلَفُ
ولو تعوَّضتُ بالدّنيا غُبِنتُ ، وهَل يَعوضُني من نَفيس الجوهرِ الصَّدفُ
ولستُ أنكِرُ ما يأتِي الزَّمانُ به كُلُّ الوَرَى لِرزَايا دَهرِهم هَدَفُ
كم فَاجأتنِى اللّيالِي بالخُطوبِ ، فَما رأتْ فُؤادِيَ من رَوْعَاتِها يَجِفُ
واستَرجَعَت ما أعَارتْ: من مَواهِبها فما هَفَابِي عَلَى آثارِه اللَّهَفُ[4]
ولا أسِفتُ لأمرٍ فاتَ مطلبُه لَكن لفُرقة من فارَقْته الأسَفُ[5]

---

(١) صدف : انصرف وأعرض .

(٢) يقال أصقبت دارهم : دنت . والكلف : شدّة الحب .

(٣) شنف له كفرح : أبغضه وتنكر له .

(٤) اللهف : الحزن والتحسر .

(٥) انظر تمام القصيدة فى باب المديح وهى القصيدة رقم ٣٠٩ ص ١٧٩

(١٦٨)

وقال ، من قصيدةٍ فى الملك الصالح ، رحمه الله :

ما منهمُ لك مُعتاضٌ ، ولا خَلَفُ ... فكيف يَصبرُ عنهمُ قلبُك الكَلِفُ
إن جَارَ صَرفُ الَّليالِى فى فِرَاقِهِمُ ... فليسَ عنهُمْ ،على الحَالاتِ، مُنْصَرَفُ
هُمُ الهوَى ، إن تَناءَوْا عنكَ أو قَرُبُوا ... هُمُ المُنَى ، أقبلُوا بالوُدِّ أو صَدَفُوا[1]
لا تَعتذر بالنَّوى ، إنّ الهوَى أبداً ... سِيَّانِ فيه التَّدانِى ، والنَّوى القُذُفُ
فالشَّوقُ تُطوى لَه الأرضُ الفَضاءُ ، كما ... تُطوى إذا استوعَبَتْ مَضمونَها الصُّحُفُ
جَاهِرْ بوَجْدِك واعصِ اللّائمين ، وبُحْ ... بحُبِّهم ، إنّ كِتمَانَ الهوَى تَلَفُ
فَكاتِمُ الحُبِّ إن لم يَقْضِ من كَمَدٍ ... فإنَّه لإصاباتِ الرَّدَى هَدَفُ
كَساتِرِ النَّارِ فى أثوابِهِ غَرَراً ... بها ، تُحرِّقُه يَوماً وتنكشفُ
هَل يَختَفِى الحبُّ ، أو يُغنى الجُحُودُ ، إذا ... تَحدَّثَتْ بالهَوى أجفَانُكَ الذُّرُفُ
كَم من هَوىً للمَعَالِى فيه رُتبَةُ مَنْ ... نَالَ المعَالِى ، وفى إسرَافِه شَرَفُ
وَيحَ المُفَارِقِ ، لا صبرٌ يُؤازِرُه ... ولا تَشَتُّتُ شَمْلِ الحىِّ يأتَلِفُ
يزيدُه يأسُه منهم بهم شَغَفاً ... وقلَّما يتلاقَى اليأسُ والشَّغَفُ
علىْ شَفَا جُرُفٍ من شَوقه ، وأرَى ... أن سَوف يَنْهَارُ من وجدٍ به الجُرُفُ
يا غَافلين عن القَلبِ الذى كَلَمُوا[2] ... بِبَيْنِهِم ، وعَنِ الطَّرفِ الذى طَرَفُوا
تَفديكُم مُهجَتى ، لا أرتَضى لَكُمُ ... فِداءَ جِسمِىَ ، وهو النَّاحِلُ الدَّنِفُ[3]
حَاشاكُمُ من جوَى قَلبى ، ولوعَتِه ... عليكُمُ ، وحَشًا للوَجْدِ تَرتجِفُ

---

(١) صدف : أعرض . (٢) كلموا : جرحوا . (٣) الدنف : المريض .

لمَن ألومُ ! ومَن ذَالى يَرِق إذا شكوتُ بَثِّىَ ، أوْ أَرْدَانِىَ اللَّهَفُ
أنا الّذى شطَّ عن أحبابِهِ ثِقةً بصبرِه ، وهو بالتّفرِيطِ مُعترِفُ
فارقتُهُمْ ، وهُمُ عصرُ الشّباب ، ومَا من الشّباب ولاَ مِن عصرِه خَلَفُ
وحيثُ كانُوا ، وشطَّتْ دَارُهُم ، فَلَهم منّى هوًى بسُوَيْدَا القلب مُلتَحِفُ[1]

قافية القاف

(١٦٩)

وقال :

لو أحْسنوا فى مِلكِنَا، أو أعتَقوا لَصَفَـا لَهُمُ من وُدِّنَا ما رنَّقُوا[2]
مَلَـكْتُهُم رِقِّى ، كما حكمِ الهوَى فأبَى اعتِسَافُ[3] جَمالِهِم أن يَرفُقوا
لِجُّوا بهجرى فى الدُّنوّ ، كأنَّهُم لم يعلَمُوا أنَّ الزّمانَ يُفرِّقُ
أمُشَيِّعِى باللّحظِ خَوفَ رَقِيبِهِ والدّمعُ من أجفـانِهِ يترقرَقُ
قد كنتُ أخضعُ قبلَ بيْنِكَ للنوى فالآن لستُ من النَّفَرُّق أفرَقُ
هَذى النَّوَى ، قد نَالنِى من صرفِها ما كُنتُ منه زمانَ وصالك أشْفِقُ

ومنها :

ويَهِيجُنِى بعد اندمال صَبَابَتِى ورقاءُ مادَ بِـهَا قضيبٌ مُورِقُ
عجماءُ ، تَنطِقُ بالحَنِينِ ، ولم يَهِج شوقَ القلوبِ كأعجمىٍّ ينطقُ
بِى مَابِهَا ، لـكن كتمتُ،وأعلَنَتْ ودموعُها حُبِسَـتْ ، ودمعى مُطلَقُ

---

(١) تمام القصيدة فى ص ١٨٣ .
(٢) رنّق : كدّر .
(٣) الاعتساف : الظلم .

ومنها :

كَمْ دُونَ رَبْعِك مَهْمَهٌ مُتقاذِفٌ   تَشْقَى الرِّكابُ به ، وبِيدٌ سَمْلَقُ[١]

ملَّ السُّرَى فيه الصِّحابُ ، فعرَّسُوا   والشَّوقُ يُوضِعُ بِي إليك ، ويُعنِقُ[٢]

قَطعَتْ إليكَ بنا المَطِيُّ ، وحثَّها   أشواقُها ، والشَّوقُ نعم السَّيِّقُ

بَارَتْ مَطارِحَ لحظِهَا ، فيخالُها الـ   ـرَّائِي ، تَسابَقَ لحظُها والأسؤُقُ[٣]

تَشكُو إلينا شوقَها ، وحنينَها   وَلِرَكْبِهَا منها أَحَنُّ وأشْوَقُ

مَعْقُولَةٌ بِيَدِ الغَرامِ طليقةٌ   هَل يُفتَدى ذاكَ الأسيرُ المطْلَقُ

مُنِيَتْ بحَمْلِ غَرامِنا وغَرامِها   فتجشَّمت مالا تُطيقُ الأيْنُقُ[٤]

(١٧٠)

وقال :

ياقلبُ ، كم يَستخفُّكَ القَلَقُ   غَيرُ جميلٍ بمثلِك الخُرُقُ[٥]

أَكُلُّ هَذا خوفَ الفِراقِ ، وهَل   يُجدِى عليكَ الحذارُ والفَرَقُ

أينَ تَصُونُ الأسْرَارَ فيكَ ، إذَا   تَحكَّمَ الوجدُ فيك والحُرَقُ

لكَ التأسِّى بالناسِ ، كم عثَرَ الـ   ـدَّهرُ بشَملِ الجميعِ ، فافترَقُوا

مَا أنتَ بِدعٌ فى سُخطِ سيرَتِهِ   كلٌّ علَى الدّهرِ ساخطٌ حَنِقُ

دَعْ ذَا ، ففيهِ عَن لَومِنَا صَمَمٌ   وهْو بِنَا — مَاعلِمتَه — عُقَقُ[٦]

---

(١) سملق : قاع صفصف . والمهمه : المفازة البعيدة . ومتقاذف : تقذف السائر بها من مكان إلى آخر .

(٢) أوضعت الناقة : أسرعت فى سيرها . وأعنق : أسرع .

(٣) الأسؤق : جمع ساق .

(٤) جمع ناقة . وانظر تمام القصيدة ص ١٢٧ .

(٥) الخرق بالضم و بالتحريك : ضد الرفق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور ، والحمق .

(٦) عق : ضد بر ، فهو عاق . وعق وعقق محركة و بضمتين .

(١٧١)

وقال :

مَاذَا يروعُكَ من وَجدِى ومن قَلَقِى ... أم مَا يَرِيبُك من أجفَانِيَ الدُّفُقِ
هَنَاكَ بُرْؤُك من دَائِى، ومن سَقَمِى ... ونَومُ جَفْنَيكَ عن هَمّى ، وعن أرَقى
إن كنتَ قَدّرتَ أنَّ الحبَّ مَوردُه ... سهلٌ فإنَّك مَغرورٌ به ، فَذُقِ
لِتَستَبِيحَ مَلامى ، أو لِيَفْسَحَ لِى ... سدادُ رأيك فى جَهْلِى ، وفى خُرُقِى
لا تَحسَبَنَ الهَوى ما كنتَ تَسمَعُه ... من مُدَّعٍ لم يُعالِجْه ، ومُختَلِقِ
هذَا الهوى، لا هوَى القَيْسَينِ[1] ، إنَّهما ... عاشَا مَلِيًّا ، وذَا مُوفٍ على رَمَقِ
فإنْ بقيتُ ، وبى مَابى ، فَقُل: رَجلٌ ... فى الميِّتِينَ ، ولكن للشقَاءِ بَقِى
وإن أَتَانِى حِمامٌ أستريحُ بهِ ... فَيَالَهَا مِنَّةً للموتِ فى عُنُقِى
ولستُ أشكُو اضطِبارِى عند نَائبةٍ ... ولا فؤادى بخَفَّاقٍ ، ولا قَلِقِ
وإنَّما أشتَكِى دهرًا يُكلِّفُنِى ... مالا أُطيقُ، فعالَ القَادِرِ الحَنِقِ
يَروعُنى كلَّ يوم بالفِراق ، وما ... بقاءُ صبرى مع الرَّوعَاتِ والفَرَقِ
فَما غَدَوتُ بشَملٍ غَيرِ مجتمِعٍ ... إلا ورُحتُ بهم غَيرَ مُفترِقِ
ولا تَبَسَّمْتُ ، أُبدِى للعدَا جَلَدًا ... إلَّا تميَّزتُ من غَيظٍ ومن حَنَقِ
وقد غَرِضْتُ[2] بِعيشى من مُفَارَقَتِى ... أغَرَّ أروعَ طَلقَ الرّاحتين تَقِى[3]

(١) القيسان : قيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح .
(٢) غرض كفرح : ضجر ومل .
(٣) باقى القصيدة ص ١٢٩ .

(١٧٢)

وقال :

ولمّا وقفنا للوَداعِ عَشيَّةً وَطَرفى وقلبى أدمعٌ وخُفُوقُ
بكيتُ ، فأضحكتُ الوُشاةَ شَماتةً كأنّى سحابٌ ، والوُشاةُ بروقُ

(١٧٣)

وقال :

أَلِفَ القِلَى ، وأَجابَ داعيةَ النّوَى فَبُليتُ منه بِهجرةٍ وفِراقِ
والصَّبُّ راحتُه البكاءُ ، ومُذْنأَى إنسانُ عَينِى أمحلَتْ آماقى
لو كنتُ أطمعُ فى بقاءِ عُهوده سكنَتْ بَلابِلُ قَلبِىَ الخفّاقِ

(١٧٤)

وقال :

رفقًا بقلب الصَّبِّ ، رفقًا هُو دُونكم بالبَينِ يَشْقَى
لا تَحسَبَنْه يَا خلىَّ القَلب بَعد البُعد يَبْقَى
فى زُمرة الشُّهداء يُحشَرُ فى غدٍ ، إن مَاتَ عشقًا

(١٧٥)

وقال[1] :

أقولُ للعين فى يومِ الفِراقِ ، وقَد فَاضَتْ بدمعٍ على الخدَّينِ مُسْتَبِقِ
تَزَوَّدِى اليومَ من تَوديعهم نظرًا فَفِى غَدٍ تَفرُغى[2] للدَّمعِ والأرقِ[3]

---

(١) هذه القصيدة مما يروى لأسامة فى الخريدة ١ : ١٠٤ . ومسالك الأبصار ١٠ : ٥٠٣ .

(٢) فى خريدة القصر (ثم أفرغى فى غد ...) .

(٣) عبر عن هذا الخاطر فى بيتين سبقا ص ٦٦ ، وآخرين ص ٧٤ . وهما رقم ١٣٧ و ١٤٦ .

(١٧٦)

وقال :

مَن مُبلغُ النَّائى المقيمِ تحيَّةً ... مِن رَاحِلٍ شَاكٍ جَوَى أشْوَاقه
لَهِجٍ مع اليَأسِ المُبينِ بذكْرِه ... قَلِقِ الحشَا لِبِعَاده خَفَّاقه
وهُو الخليقُ بأن يموتَ كآبةً ... لكنَّ حُسن الصَّبرِ من أخلاقه

(١٧٧)

وقال :

أأحبَابَنا ، مَالى إلى الصَّبرِ عنكُمُ ... دليلٌ ، وقد ضَلَّتْ عَلَىَّ طَريقُهُ
فَهل نظرةٌ منكُم على بُعد دَارِكُمْ ... يُدَاوَى بها صبُّ الفؤاد مَشُوقُهُ

(١٧٨)

وقال :

إن تَقْطَعِ الأيَّامُ منك عَلائِقِى ... فأنَا المُواصِلُ بالوِدَادِ الصَّادِق
أرضَى من العهدِ القديمِ بِرَعْيه ... ومنَ الزِّيَارَة بالخيالِ الطَّارِق
هَذا ، وعندى لِلفِرَاق مآتمٌ ... فيهَا التَّجمُّلُ والعَزَاءُ مُفارِقِى
وألَامُ فى شَكْوَى جَوَاىَ ، وقلَّمَا ... يَحظى المُفَارِقُ بالرَّفِيقِ الرَّافِقِ
هَل يُغْنِيَنْ صَمتِى عن الشَّكْوى ، إذا ... شَكَتِ الجوَى زَفَراتُ قَلْبِى الخافِقِ
هَبنى[1] أكَفْكِفُ زَفْرتى ومَدَامِعِى ... مَا حيلَتِى ، وَشجَا التَّجمُّلِ خَانِقِى !!
أنا كالحَمَامِ : تَبُوحُ ، حينَ تَنُوحُ ، بالشَّـــكْوى ، ولَم تَفْغَر لَها فَمَ نَاطِق

---

(١) هذا البيت وما بعده اختيار الأسامة فى مسالك الأبصار (١٠ : ٦٠٣) .

(١٧٩)

وقال :

طَالَتْ يَدُ البَينِ فى تَفريقِ أُلفَتِنَا   فَما لَها قَصُرَتْ عن جَمعِ ما افتَرقَا!
كأنَّنا المـاءُ سهلٌ حِينَ تُهرِقُه   وجَمعُه مُعْجِزٌ من بَعد ما انْهَرَقَا
لكنَّ قُدرةَ مَن يَطوى الظَّلامَ[1] عن الـدُّنيا ، ويَنشُرُ فى آفاقها الفَلَقَا[2]
يَرُدُّ شَمِلى مجموعًا ، وقَلبىَ مَسـروروًا ، ويابِسَ عُودى كَاسِيًا وَرَقَا

(١٨٠)

وقال :

بالغَورِ أهلُكِ يَابْنَتِىَ ، وأهلُنا   بالأبْرَقَينِ ، فأينَ أينَ المُلتَقَى !!
بَعُدَ المَزارُ ، فلو سَرَى لزيارتى   طيفُ الخيالِ ثَناهُ هولُ المُرتَقَى
كم شِمتُ برقًا منك أَخلَفَ نَوْءُه   قبلَ النَّوى ، وظننتُ ظَنًّا أَخفَقَا
فَعلامَ أجزَعُ للفراقِ ، وإنَّنى   لأراه أرأَفَ بالقُلوبِ وأرفَقَا

(١٨١)

وقال :

كَم تُرْزِمِى[3] ولَم تَحِنّى يَانَاقْ   حَسْبُكِ ، قَد هِجتِ الجَوَى والأشوَاقْ
هى النَّوَى ، فما غَناءُ الإشفاقْ   تَقَسَّمَتْنَا بالشَّتاتِ الآفَاقْ
كأنَّها خَلْقٌ ، ونحن أرزاقْ   حتَّى إذا أدمَى البكاءُ الآماقْ
أصْقَبَتِ الدَّارُ ، وقَلبِى مُشتاقْ   ما أتعَبَ الحـامِلَ قلبـًا تَوَّاقْ
كالبرق ، مشبوبَ الضِّرامِ خَفَّاقْ

---

(١) فى الأصل الضياء تحريف والتصويب لابنه مرهف مثبتا فى هامش الصفحة .

(٢) الفلق : الصبح .   (٣) أرزمت الناقة : حنت على ولدها .

(١٨٢)

وقال :

ليتَ مَن يسألُ جيرانَ النَّقَا   هَل لنَـا بعد افتراقٍ مُلتَقَى
عانَنَا(١) الدّهرُ ، فأضحَى شملُنا   بَعـــد ما كان جميعًا فِرَقَا
وَهىَ الأيَّامُ من عَادَاتِهَا   رَدُّ صَفوِ العيش طرْقًا رَنَقَا(٢)
كُلَّ شَىءٍ غيَّرتْ منِّى النَّوى   بَعدكُم إلَّا الجَوَى والحُرَقَا
خَان فيكُم حُسنُ صَبرِى،وَوفَى   لـكُمُ الدَّمعُ . فآلَى : لا رَقَا(٣)
لَيتَ مَن يغبِطُ أبناءَ الهوَى   ذاقَ ما يَلقَوْن فيه : من شَقَا

(١٨٣)

وقال :

أشْتاقُكمْ ، فإذا نَظرتُ إليكُم   زادَ الدُّنُوُّ صَبابَتِى وتَشَوُّقِى
فَمَتى أُفيقُ، وبُعدُكُم يُذكِى جَوَى   قَلْبِى ، ويُضرِمُ شوْقَه أن نَلْتَقِى؟!

(١٨٤)

وقال :

خَلِيــلَىَّ ، زُورَابِى "رُوَيْقَــةَ" ،إنَّنى   إليهـا ، على قُربِ الزّيارة ، شَيِّقُ
خَلِيــلَىَّ ، ما ألتَـذُّ عيشًا ، ولاَ لَهُ   إذَا ما نَأَت عنى "زُوَيقةُ" — رَوْنَقُ
إذا بَرزتْ بين النّســاءِ حَسِبتَها   هى الشَّمسُ، أومن وجهها الشَّمسُ تُشرِقُ
تُنَازِعهــم نَزْرًا عليــه سـكِينَةً   وتُعرِضُ عن لَهـو الحدث وتُطرِقُ

---

(١) عانَنا : حسدنا . (٢) الطرق : الماء الذى خوضته الإبل و بوّلت فيه كالمطروق . والرنق : الكدر .
(٣) رقأ الدمع : جف .

قافية الكاف

(١٨٥)

وقال[1] :

نَافقتُ دَهرى ، فَوجهِى ضَاحكٌ جَذلٌ   طَلقٌ ، وقَلبِى كَئِيبٌ ، مُكْمَدٌ ، بَاك

وراحةُ القلب فى الشَّكْوى ، ولَذَّتُها   لَو أمكَنَتْ ، لَا تُساوى ذِلَّةَ الشَّاكى

(١٨٦)

وقال :

يا قلبُ ، مُتْ كَمَدًا عَلَى   مَن غبتَ عنه ، وغَابَ عَنكَ

لا تَلْتَقِى بَدَلًا به   وسَيَلْتَقِى الأَبْدَالَ منكَ

قافية اللام

(١٨٧)

وقال :

لا ذَنبَ للصَبِّ المشُوق ، إذا بَدَتْ   أسرارُه ، يَومَ النَّوى ، للعُــذَّلِ

زَفَراتُه نَمَّتْ ، ولم يُفصِح بِمَا   يُخفِى ، بَجَاءَ الدَّمعُ بِالخَبرِ الجَلى

أفنَى صَدُودُك فى الدُّنوِّ تَصَبُّرِى   وأتَى الفراقُ فَبزَّ حُسنَ تَجمُّلِ

فالعُمرُ أجمعُ بين هجرٍ سَالِفٍ   مَاضٍ ، وبَيْنٍ آنفٍ مُستقبَلِ

---

(١) هذان البيتان رويا لأسامة فى معجم الأدباء ٥ : ١٩٩ ، وتاريخ ابن عساكر ٥ : ١٧٣ .

(١٨٨)

وقال :

نَفسى الفداءُ لمن قَبّلتُه عجِلًا　　والبينُ يَعجبُ من وجْدى ومن عَجَلى
فالَ عَنّى بِفيه ، ثُمَّ عرَّضَ لِى　　خدًّا ،جَرى فيهماءُ الحسنِ والخَجَلِ
فأخضَلَتْ أدمُعِى توريدَ وجْنَتِه　　فزادَ إشراقُ ذاكَ الوردِ بالبَلَلِ
فارتاعَ من حرِّ أنفاسِى، وحُرقة أحـــشائِى ، ونَهَى فاهُ العذبَ بالقُبلِ
ورَابَهُ ما رَأى من رَوْعَتِى ؛ فبكى　　وقالَ : لا كانَ ذا توديعَ مُرْتَحِلِ

(١٨٩)

وقال :

ونَازِحٍ ، فى فُؤَادِى من هواهُ صَدًى[١]　　لم يَروِ غُلته بالعَــلّ والنَّهَلِ[٢]
فى فِيه ما فى جِنَانِ الخُلدِ من دُرَرٍ　　ومن أقَاحٍ ، ومِن خَمرٍ ، ومن عَسَلِ
لو كُنتُ أعلَمُ أنَّ البينَ يفجؤُنى　　روَّيتُ قَبل النَّوَى قَلبى من القُبَل

(١٩٠)

بِنَفسِى عذولٌ ، لامَ فيكُمْ ، فردَّ لى　　بذكرِكُم رَوْحَ الحيَاةِ عَذُول
لحَىَ نَاصِحًا فيكُم ، فأذكَى صَبَابتى　　وتُذكِى الرِّياحُ النّارَ ، وهىَ بَليلُ
أُسُوفُ[٣] صَعِيدَ الأرض ، إذ وافقَ اسمُه　　صعيدًا به أهلُ الحبيب نُزُولُ
وأغْدُو على أُسْوانَ[٤] أَسوانَ فى الحَشَا　　لِبُعْــدىَ عَنهــا لوعَةٌ وغَليــلُ

---

(١) الصدى : العطش .　(٢) العل : الشرب بعد الشرب ، والنهل : أول الشرب .

(٣) السوف : الشم .

(٤) أسوان ، بضم الهمزة : مدينة معروفة بصعيد مصر ، وأسوان بفتح الهمزة : حزين .

قافية الميم

(١٩١)

وقال :

مَا استَجْهَلَتْكَ مَعَالمٌ ورُسُومُ ... إلَّا لِيُعْلَنَ سِرُّكَ المكتُومُ؟!
أَوَ بَعدَ نَاهيةِ المشيبِ جَهالةٌ ... يأبى الوقارُ عليكَ والتَّحلِيمُ[1]
مَا جُرتَ فى داجِى الشَّبابِ، فكيفَ إذْ ... وَضَحَتْ بِفَودكَ للشيبِ نُجومُ

ومنها :

أعوَاذلى ، كُفُّوا ، فَليس بِمُسمِعِى ... نُصْحٌ ، و بعضُ النَّاصحِينَ مَلُومُ
وَقَرَتْ دَواعى البَينِ سَمعِى بَعدهمُ ... فَلِمَن يُعنِّفُ ناصحٌ و يلومُ؟!
لى كلَّ يومٍ رَوعةٌ بمودِّعٍ ... ونَوًى ؛ فَهمِّى طارفٌ وقديمُ
وعَلَى الرَّكائبِ مَاطلٌ بِديُونِنَا ... عَسِرُ القَضَاء مع اليَسار، ظَلُومُ
مُتَبَسِّمٌ عَن ذى غُروبٍ[2] واضحٍ ... يُعزَى إليـه اللؤلُؤُ المنْظومُ
فى وجْهه ماءُ الملاحَة حَائرٌ ... فقلوبُنا الظِّمأى عليـه تَحومُ
أتبعَتُهم قَرِحَى الجفونِ كليلةً ... تُضحِى بدَمعِى تَارةً وتَغِيمُ
مَسْمُولةً[3] بمدَامعٍ حالَت دمًا ... فـكأنَّمـا إنسانُهـا مكلُومُ
يا نَازِحًا ضَنَّ الزَّمانُ بقُربِهِ ... وجْدِى عليكَ ، و إن رَحلتَ، مُقِيمُ

---

(١) حلمه تحليما : جعله حليما أو أمره بالحلم .

(٢) غرب الفم : كثرة ريقه و بلله وجمعه غروب ، وغروب الأسنان مناقع ريقها وقيل أطرافها وحدتها وماؤها.

(٣) سمل عينه : فقأها .

لى مقلةٌ قَذِيَتْ ببُعدكَ ، بِرَّها فيضُ الدُّموعِ ، وعقُّها التَّهويمُ [١]
ساوَى بِعادُك ليلَهَا ونهارَهـا كلٌّ ، كما قَضت الهمومُ ، بَهيمُ
كم أنشأتْ ذِكرَاك بين جَوانحى من زَفرةٍ قَلبى بها مَوسُومُ
نَفَسٌ يقومُ له اعوجاجُ أضالعى ويَضيقُ عن نَزَواتِه الحيزُومُ [٢]
مَا أخطأتْ فيكَ النَّوى عادَاتِها لـكنَّ تَقريفَ [٣] الكُلومِ أليمُ

(١٩٢)

وقال :

إنْ لَمْ تُطيقَا يومَ رَامَةَ [٤] أن تُسعدَا ، فَذَرَا المَلاَمَهْ
عَنفتُمَانِى أنْ مَرَرْ تُ بِمنزِل أقضِى ذِمَامَهْ
هو منزلُ الأحبابِ ، لم يدَعِ البِلَى إلَّا رِمَامَهْ
وعلىَّ حقٌّ أن تُصا فِحَ سُحُبُ أجفانِى رَغَامَهْ
وأبِيكُمَا ، لأرَوِّيَـنَّ ، ولو بِسَحِّ دمٍ أُوَامَهْ [٥]
ما الدَّمعُ للأطلَالِ لَـكن أهلُها أجرَوْا سِجَامَهْ [٦]
فإلامَ لومُكُما ! أفى رَعْيِ العُهُودِ علىَّ آمَهْ [٧]
واهًا لقلبٍ لا يَفو زُ بسَلْوةٍ ، تَشفى هُيَامَهْ
غَرَضًا لبيْنٍ لا يَزا لُ مُقَرْطِسًا [٨] فيه سِهَامَهْ
أبدًا يدُ الأيامِ تَقْـرِفُ [٣] كلَّما اندملَتْ كِلَامَهْ [٩]

---

(١) التهويم : هز الرأس من النعاس . (٢) الحيزوم : الصدر .
(٣) القرف : النكس فى المرض . (٤) رامة : موضع بالبادية . (٥) الأوام : شدة العطش
(٦) سجم الدمع سجاما : سال قليلا أو كثيرا . (٧) الآمة بتخفيف الميم : العيب قال الشاعر :
مهلا أبيت اللعن مهـ ـلا إن فيما قلت آمه
(٨) فى القاموس . القرطاس : كل أديم ينصب للنضال . ورمى فقرطس أصاب القرطاس .
(٩) كلام : جمع كلم ، وهو الجرح . و باقى القصيدة فى ص ١٤١ .

(١٩٣)

وقال :

إن لم أبُحْ بهوَاكَ قُلنَ لَوائمى: ذَا مُبطِلٌ : ما الكَتْمُ شِيمةُ هَائِمِ
و إن ادَّعى خوفَ الوُشاة، فما الهوَى للخَوف مُذْ خُلق الهَوى بمُلاَئمِ
لا تكْذبنَّ ، فَما لأبناءِ الهَوى رأيٌ يحذِّرُهُم عواقبَ نَادِمِ
شُغلَتْ قُلُوبُهُمُ بروْعات النَّوَى والهَجرِ عن خَوفِ الزَّمانِ العَارِم[1]
فتَراهُم صوَرًا كظلّ ماثِلٍ[2] لا يَرعَوُون لزَاجِرٍ أو لاَئمِ
واهًا لأيَّامِ الحِمَى ، لو أَنَّها دامَتْ ، وهل عَيشٌ يَسُرُّ بِدَائمِ
إذ أجْتَلِي القَمَرَ المُرَدَّى بالدُّجَى يجلُو الشُموسَ على القَضيبِ النَّاعِمِ
مُسْكرى بنَاظره ، ورَاحِ رُضَابِه وكُئوسه ، طولَ الزَّمان ، مُلازِمى
ماغَال عقلِيَ [قطُّ][3] سِحرُ جُفونهِ إلَّا جَعلتُ ذُؤَابَتَيْــــه تمائِمى
ثم افتَرقْنا بغتَةً ، فإذا الذَى كُنَّا نُسرُّ به فُكاهَةُ حَالِمِ

(١٩٤)

وقال .

أأحبَابَنَا ، مُذْ أفرَدَتْنِيَ مِنكُمُ صُروفُ اللَّيالِي ، أفرَدَتْنِيَ بِالهَمّ
وحُمِّلتُ ثِقلَ الشوقِ عنكُم ، وإنَّنى لأضعُفُ عن حَملِ التَشَوُّقِ والسُّقْمِ
كأنِّيَ عَودٌ[4] أو هَنَ الثِّقلُ صحبَهَ فردُّوا عليــــه ثِقْلَهُنَّ على رَغْمِ

(١٩٥)

وقال :

قُل للَّذينَ نأوْا ، والقلبُ دارُهُمُ : وِجدانُنا كُلَّ شَيءٍ بَعدَكُم عَدَمُ[5]
جَهلتُ أُنْسِي بكُم ، والدارُ دَانيةٌ حتَّى إذا نَزَحتْ أَدْمَى يدِى النَّدَمُ

---

(١) عرم : اشتد . (٢) مثل : زال عن موضعه . (٣) تكملة لسقط بالأصل يقتضيها الوزن .
(٤) العود : المسن من الإبل والشاء . (٥) تجزيئت يتمى صدره : " يا من يعز علينا أن نفارقهم " .

(١٩٦)

وقال :

كَمْ قَدْ جَزِعتُ لبَيْنِ من فَارَقْتُه ... وصبَرْتُ عنه ، والحشَا يَتَضرَّم
كالقَوسِ تَرمِى السَّهمَ ، ثُمَّ تَرِنُّ من ... جزعٍ ، ويبدو اليأسُ منه، فتَكْظِم
والوجْدُ لو أجدى على ذى لوعةٍ ... ما مات بالكمد القديمِ متممُ[1]

(١٩٧)

وقال :

وهاجَ لى الشوقَ القديمَ حَمامةٌ ... على غُصُنٍ فى غَيْضَةٍ[2] تترنمُ
دعتْ شجوَها محزونةً لم تنهض لها ... دُمُوعٌ، ففاضت أدمعى، مَزْجُها دمُ
فقلتُ لها : إن كنت خنساءَ لوعةً ... ووجدًا فإنِّى فى البكاء متمِّمُ[1]

(١٩٨)

وقال :

سَهِرتُ بخرتبِرتَ[3] ، فطالَ لَيْلِى ... علىَّ ، ولم يَطُلْ ليلُ النِّيامِ
أفكِّر فى مُفارقَتِى رِجالًا ... همُ الكُرَمَاءُ أبناءُ الكِرامِ
كأنِّى السَّهمُ يُفْرَدُ ، باعتمادٍ ... لنَزْعِ القوسِ، من بينِ السِّهامِ

(١٩٩)

وقال ، بأرض مَلَطْيَةَ[4] ، بإزاءِ الجبلِ الأغرِّ :

مَالى ، وللجبلِ الأغَرِّ ، وإنَّما ... كلُّ الهوَى جبلُ أشمُّ بَهِيمُ[5]
موفٍ على أرضِ الشَّآمِ، كأنَّما ... جُوْنُ السحائب فى ذُرَاه جُثُومُ

---

(١) هو متمم بن نويرة الذى حزن حزنا قاتلا على أخيه مالك ورثاه رثاء مؤثرا .

(٢) الغيضة : مجتمع الشجر فى مغيض ماء .

(٣) حصن فى أقصى ديار بكر .

(٤) بلدة من بلاد الروم كانت تتاخم الشام .

(٥) البهيم : الأسود .

ما زال مَطْرَحَ نَاظِرِى، حتى إذا … لاحت بفَودى للشَيبِ نُجومُ
فَارقتُه ، ونأيتُ عنه ، ومانَأى … وجْدِى به، وهوَى الكريمِ كريمُ
فإذا ذكرتُ النَّازلِينَ بِسَهْلِهِ … وبهم ، وإن شَطَّت نَوَاىَ، أهيمُ
دارَت بِى الأرضُ الفَضاءُ ، كأنّما … بِى المُومُ[1] أولَعِبتْ بِىَ الخُرطُومُ[2]

قافية النون

(٢٠٠)

وقال :

ما يُريد الشَّوقُ من قلبِ مُعَنًّى … ذكرَ الأُلَّافَ والوَصلَ ، لحنَّا
حَسبُه ما عندَه : من شَوقِهِ … وكَفاهُ من جَواهُ ما أَجَنَّا
كلّما شاهَد شمــلًا جَامعًا … طارَ شوقًا، وهفَا وجْدًا ، وأَنَّا
عَاضَهُ الدَّهرُ من القُربِ نَوًى … ومن الغبطةِ بالأحبابِ حُزْنَا
فَرثَى من رَحْمَــةٍ عاذلُه … ورأى الحاسدُ فيه ما تَمَنَّى
ويحَــهُ من زَفرةٍ تَعتَـادُه … وهُمومٍ جمَّةٍ ، تَطرقُ وَهْنَا[3]
يازَمانَ القُربِ، سُقيًا لكَ، مِن … زَمنٍ، لو كان قُربُ الدَّارِ أغنَى
لم تـكُن إلّا كَظِلٍّ زَائلٍ … والمسراتُ تلاشَى ، ثُمَّ تَفنَى
ساءَنا ما سرَّنا من عيشِنَا … بعدَ ما رَاق لنا مرأًى ومَجْنَى

---

(١) الموم : الحمى .

(٢) الخرطوم : الخمر .

(٣) الوهن : الطائفة من الليل ، وقيل نحو من نصفه .

فافترقنا بعد ما كنّا صدًى   إن دعونا ، وكفانا قول : كنّا
وكذا الأيامُ : من عاداتها   أنّها تعقب سهل العيش حزْنَا
خُلُقٌ للدهر : ما أولى امرأً   نعمةً منه ، فملاّه[1] ، وهنّا
وكذا الباخلُ : ما أسدى يداً   قطُّ ، إلاّ كدّر المنّ ، ومنّا[2]
قل لأحبابٍ نأت دارهمُ   وعلى قربهم أقرع سنّا :
ساء ظنّي باصطباري بعدكم   ولقد كنتُ به أحسنُ ظنّا
لأبِجِنَّ الجوى من كبدي   موضعاً لم يبتذل عزّا وضنّا
وأذيلَنّ[3] دموعاً لو رأتْ   فيضهنّ المزنُ[4] خالتهنّ مزْنَا
أسفًا ، لا بل حياءً أنّني   بعدكم باقٍ ، وإن أصبحت مضنَى
لا صفا لي العيش من بعدكمُ   ما تمادتْ مدّةُ البين وعشْنا
وعجيبٌ ، والتّنائي دونكم   أنكم منّي الى قلبيَ أدْنَى
حيثُ كنتمْ ففؤادي داركم   وعلى أشباحكم أغمض جفْنا

(٢٠١)

وقال :

يا ناقُ ، شطّت دارهمْ ، فحنّي   وأعلني الوجد الذي تُجِنّي
ما أرزمتْ[5] وهناً لفقد إلفها   إلاّ رمتْ جوارحي بوهْنٍ[6]
تذكّرتْ ألاّفها ، فهيّجتْ   لاعجَ شوقي ، وذكّرتْ خدْني
أبكي اشتياقًا ، وتحنّ وحشةً   فقد شجاني حزنها وحزني

---

(١) ملاك الله حبيبك : متعك به .
(٢) المنّ : الإنعام . ومنّ عليه : عدّد له ما فعله له من الصنائع .
(٣) أذال الشيء : أهانه .
(٤) المزن : السحاب ، أو أبيضه .
(٥) أزمت الناقة : حنت على ولدها .
(٦) الوهن : الضعف .

حَسْبُكَ قَد طالَ الحنينُ والأَسَى ... وما أرى طُولَ الحنينِ يُغْنِي
ولا تَمَلِّى مِنْ مَسِيرٍ وسُرَى ... فى مَهْمَهٍ سَهلٍ ووعْرٍ حَزْنِ
حتّى تُناجِى تحتَ بَاناتِ الحِمَى ... سَقَى الحِمَى والبانَ صوبُ المُزنِ
أَهْوَى الحِمَى ، وأهلَه ، وبانَه ... وإنْ نأيتُ ، وتناءَوْا عَنّى
شطُّوا . وشطَّتْ بى دَارى عنهمُ ... وهُمْ إلى قَلبَى أَدنَى مِنّى
لم يُذكَروا لى قَطُّ إلا امتلأتْ ... بالدَّمعِ أجفانِى ، وقَالتْ : قَطْنِى[1]
وهُم أعزُّ إن نأَوْا ، وإن دَنَوْا ... مما حَوى خِلْبى[2] ، وضَمَّ جَفْنِى
نَفسى فِداءُ من أُوَرِّى بالحِمَى ... والبَانِ عن أسْمَائِهِمْ وأَكْنِى
هُمُ ، إذا قُلتُ : سقَى أرضَ الحِمَى ... وبَانَه صوبُ الحَيا ، مَن أعْنِى
ضَنًّا بِهِم عن أن يطور[3] ذكرَهُمُ ... بمَسْمَعٍ ، وهُمْ مكانُ الضَّنِّ
أحبَبْتُهُم من قَبلِ يَنجابُ دُجَى ... فَودى عن الصُّبحِ ، ويَذوِى غُصْنِى
حُبًّا جَرَى مَجرى الحياة من دَمِى ... أَصَمَّ عن كُلِّ نَصيحٍ أُذنِى
فلو تَعوَّضتُ بِهِم عَصْرَ الصِّبا ... لَبانَ فى صَفقَةِ بَيْعى غَبْنِى
فَارقتُهم أشغَفَ ما كُنتُ بِهِم ... وعادَتْ قد أدمَتْ بَنَانِى سِنِّى
أُلْزِمُ كَفِّىَ فُؤادًا مالَهُ ... من بَعدِهِم رَوْحٌ سِوَى التَّمنِّى
لكنَّنِى أَدْعُو لجمعِ شَملِنا ... مُسيِّرَ الشُّهبِ ، ومُجرِى السُّفْنِ

(٢٠٢)

وقال[4] :

أَعلمتَ مافعلتْ به أجفانُهُ ... سحَتْ ، فباحَتْ بالهوَى أشجانُه
نَمَّتَ علىَ حَسَراتِهِ زفراتُه ... وكذَا ينمُّ على الضِّرام دُخَانُه

---

(١) قطنى : يكفينى . (٢) الخلب : لحمة رقيقة تصل بين الأضلاع . (٣) طاربطور : حام ودنا .

(٤) اختار صاحب المسالك لأسامة من هذه القصيدة الأبيات الثانى والثالث والرابع والتاسع والعاشر والخامس عشر (١٠ : ٥٠٥)

وأخو الهَوى مثلُ الكِتَابِ: دليلُ ذا … كَ بيانُه ، ودليلُ ذَا عُنوانُه

تَحكِى البروقُ فؤادَه : فَضِرامُها … أشواقُه ، وخُفوقُها خَفقَانُه

ضَمِنَ الهَوى ألّا يَزالَ أخَا ضَنًى … وضَمانَةٍ (١) ، فَوَفَى بذَاكَ ضَمانُه

يا مُدَّعِى السُّلوانِ عن أحبابِه … أينَ السُّلُوُّ ، وأينَ منكَ أوانُه

شطَّتْ ديارُك عنهمُ ، وهفَا بكَ الشّـ … ـوقُ المبرِّحُ ، والتظَتْ نيرانُه

وأبانَ بينُهُمُ هَواكَ ، فما عسى … بكَ فاعلٌ هذا الهَوى وبيانُه

كاتمتَ واشِيَكَ الهَوى قبلَ النَّوى … فبَدَاله من بَعدِها كِتمانُه

وعَصاكَ دمعُكَ عند خَطرةِ ذِكْرِهم … وبِقَدْرِ طَاعَتِك الهَوَى عِصيانُه

فإذا تَبادَرَ من جُفونِك خِلْتَه … عِقداً وَهَى مَرجانُه وجُمانُه

لو أيقَنَ الحَنِقُ الحسودُ عليهِمُ … حَظِّى لحَالَت رحمةً أضغَانُه (١)

بينَ المُحبِّ وبينَهم من هَجرِهم … بينٌ طويلٌ بَرحُه (٣) وزَمانُه

أبدَوا لَه مَلَلَ (٤) القَريبِ ، مع النَّوى … وتَناسَى النَّائى ، وهُم جِيرانُه

وتَخَلَّق الطَّيفُ الطَّروقُ بخُلْقِهم … فإذَا أَلَمَّ يَرُوعنى هجرانُه

وَهُم الصِّبَا : أيامُه محبوبَةٌ … وإن اعتدَى فى غَيِّه شَيطانُه

وجمالُهم كفَّارةٌ لِمَلالِهم … والهجرُ ذَنبٌ يُرتَجَى غُفرانُه

لو يعلمُون مكانَهم ما أضْرَموا … قَلبِى بهَجرِهمُ وهُم سُكَّانُه

ولِجَهلِهم طَرفوا بطُولِ صدُودِهم … وَملاَلِهم طَرفِى ، وهُم إنسَانُه

---

(١) الضمانة : المرض .

(٢) أضغان : جمع ضغن وهو الحقد .

(٣) البرح : الشدّة .

(٤) فى الأصل (ملك) تحريف ولعل الصواب ما اخترناه .

(٢٠٣)

وقال :

أهكذا أنَا ، بَاقِى العمر مُغترِبُ ... نَاءٍ عن الأهلِ والأوطانِ والسَّكَنِ
لا تَستقرُّ جِيادِى فى مُعَرَّسِها[1] ... حتَّى أُرَوِّعَها بالشَّدِّ والظَّعَنِ

(٢٠٤)

وقال :

أينَ السُّرورُ من المُرَوَّعِ بالنَّوى ... أبداً ، فَلا وَطنٌ ، ولا خُلاَّنُ
عِيدُ البَرِيَّةِ مَوسِمٌ لِعَويلِهِ ... وسُرورُهُمْ فيه لَهُ أحزانُ
وإذَا رأى الشَّملَ الجميعَ تَزاحمتْ ... فى قَلبه الأمواهُ والنّيرانُ

(٢٠٥)

وقال :

قَسمَ الهوَى دَهْرَ المروَّعِ بالنَّوى ... شَطرَيْنِ بين شُئُونِه وشُجُونِهِ[2]
هُو فى الدُّجَى كالشَّمعِ : يَقطُر دمعُه ... نَارًا ، فتحرقُه ميـاهُ جُفُونِهِ
فإذَا بدا وَضَحُ الصَّباحِ رأيتَه ... مثلَ الحمَامِ ينُوحُ فوقَ غُصونِهِ

(٢٠٦)

وقال بحَماة ، فى جفلة أهلِها من الرُّوم ، وكان بدارِه أولادٌ لغلام له ، مات فى الزَّلازل رحمـــه الله ، وضَمَّ أولادَه إليه ، وكان فيهم طفلٌ اسمه منصور ،

---

(١) المعرس : البيت .

(٢) الشجون : جمع شجن ، وهو الهم والحزن . والشئون : جمع شأن وهو مجرى الدمع إلى العين .

وكان يألفُه ، فحمَلوا مع من حَمَل من الأهل والحاشية إلى قلعة جَعْبَر ومنصور معهم :

منصورُ، دارُك أضحَتْ منك مُوحِشَةً قد أقفرتْ بعد سُكَّانٍ وجِيرانِ
أضحَى الّذى كان منها أمسِ أضحكَنِي وسرَّنى ، هاجَ أشجانِي وأبكانِي
عهدْتُها نادِيًا للّهوِ، مُجتَمَعاً للأُنس ، مَلْعَبَ أترابٍ وَوِلدانِ
فأصبحَتْ مَابِها مما عهدتُ بِهَا سِوَى صدىً ، كُلّما ناديتُ لبَّانِي

(٢٠٧)

وقال :

وقد أفْرَدتْنِي الحادثاتُ ، فَليس لى أنيسٌ،ولا فى طَارِقِ الخطبِ أعوانُ
كأنِّى من غيرِ التُّرابِ،نَبتْ بىَ الـــبِلادُ ، فما لى فى البَسِيطةِ أوطانُ
أجولُ ، كما جالت قَذاةٌ بمُقلَةٍ وأسْرِى،وسَارِى النجمِ فى الأفقِ حَيرانُ

قافية الهـاء

(٢٠٨)

وقال :

سَلا قلبَه : ما غَالَ حُسنَ سُلوِّهِ وردَّاهُ فى غَىِّ الهَوى وغُلُوِّهِ
ومَا بالُه يشكُو الفِراقَ؟ وأينَ مِن قَسَاوتِهِ شكوَى الهَوى وعتُوِّهِ
ومَا خِلْتُه مَهوَى الهَوى وَمقِيلَه ومَأوى الأَسى والَبثِّ عند هُدوِّهِ
تَثُوبُ إليه فى الصَّباحِ شُجونُه وَيأوِى إليه الهَمُّ عنــد هُدوِّهِ

بِنَفْسِىَ مَنْ أَهْدَى إِلَىَّ تَحِيَّةً   على بُعده ، وافَتْ بريَّا[1] دُنُوِّه
فأذكَرَ مَن لم تُنْسِه عَهدَه النَّوى   ولَا طَمِعَتْ فى يأسه ونُبُوِّه
يَحِنُّ اشتياقًا بالأصائِل والضُّحا   ويرتَاحُ فى روْحاته وغُدُوِّه

(٢٠٩)

وقال :

أَلا مَن لِصَادٍ ، وَالمواردُ جَمَّةٌ   له عَلَلٌ[2] من بَردِها لَم يُرَوِّه
يُغَانُ[3] عَليه ، حِين يسمعُ نَبْأَةً   بِذِكْرِهِم ، أودعوةً من مُنَوِّه
إِذَا ما دَعاهُ الشوقُ خَرَّ كأنَّما   به الموتُ ، لولَا أَنَّةُ المتَـأوِّه

(٢١٠)

وقال[4] :

بُكاءُ مِثلِيَ من وَشْكِ النَّوى سَفَهُ   وأمرُ صَبْرِىَ بَعـد البَين مُشْتَبِهُ
فَمَـا يُسَوِّفُنِى فى قُربِهِم أَمَلٌ   ولَيس فى اليأسِ لى رَوْحٌ ولَا رَفَهُ
أُكاتِمُ النـاسَ أَشجَانِى ، وأَحْسَبُها   تَخْفَى ، فَتُعلِنُهـا الأسقامُ وَالوَلَهُ
كأَنَّنِى من ذُهولِ الهمِّ فى سِنَةٍ   ونَاظِرى قَرِحُ الأجفانِ مُنْتَبِهُ
أذنبتُ،ثُمَّ أحلتُ الذَّنْبَ من سَفَهٍ   عَلَى النَّوى ، ولَبِئسَ العادَةُ السَّفَهُ
أقمتُ طوعًا وسَارُوا ، ثُمَّ أَندُبُهم   أَلاَ[5] صَحِبْتُ نَواهُم حيثُما اتَّجَهُوا !

---

(١) الريا : الريح الطيبة .
(٢) العلل محركة : الشربة الثانية ، أو الشرب بعد الشرب تباعا .
(٣) غين على قلبه غينا ؛ غشى عليه .
(٤) رويت هذه القطعة فى خريدة القصر أيضا ١ : ١٠٤ .
(٥) فى الخريدة « هلا » .

أضرَّ بى ناظرٌ تدمى محاجرُه وخاطرٌ، مُذ نأوْا، حيرانُ مُنْشَدهُ
فما يُلائمُ ذا بعدَ النّوى فرحٌ ولا يرُوق لهــذا منظرٌ نزِهُ
سَقْيًا لدهرٍ، نعمنا فى غضارتِه إذ فى الحوادث عمّا ساءَنا بَلَهُ
وعَيشُنا لم يُخالِطْ صفوَه كدَرٌ وودُّنا لم تَشُبْ إخلاصَه الشُّبَهُ
مضى، وجاء زمانٌ لا نُسَرُّ بِه كُلُّ البريَّةِ منه[1] فى الّذى كرِهُوا

(٢١١)

وقال:

يا قلبُ، زفقًا بما أبقيتَ من جَلَدى كم ذا الحنينُ إلى مَن أنتَ مثواه
ماغابَ عنّى، فأنساهُ، ولستُ أرى فى الخلقِ لى عِوضًا عنه، فأسلاهُ
قد كنتُ فى القُربِ أرعاه، وأحفظُه ومُذْ بَعُــدتُ تولّى حفظَه اللهُ

(٢١٢)

وقال:

ما وَجْدُ من فارَق أحبابَه كوجْد من فارَق روْحَ الحياهْ
فارقتُ مَن أمواله عِنــدَهُ عاريةٌ مضمونةٌ للعُفاهْ
منَ طابَ للجانى جَناه، ومَنْ كفّر بالعفو ذنوبَ الجُناهْ
أعزُّ مِن أجفانِ عَيْنى على عَيْنى، ومن قلبٍ حباهُ هواهْ
إذا مَدَحْنا ماجدًا غيرَه فما أردنا بمديحٍ سِواهْ
فمن يُساوى فقدَ هــذا بحبو بِ إذا ما غابَ عنــه سَلاهْ

---

(١) فى الأصل « منها » تحريف، والتصحيح من خريدة القصر.

قافية الألف المقصورة

(٢١٣)

وقال :

بِأَبِي هوىً فارقْتُه ، ولِمثلِه ... لو كانَ يُوجدُ مثلُه، خُلِق الهَوَى
حَازَ الجمَالَ بأسرِه ، لم يَحوِ مِنْ ... فتَنِ الملاحة يُوسفُ ماقَدْ حَوَى
فى القَلب منه غُلَّةٌ ، فلو اغتَدى ... فى ماء خدَّيْهِ غَرِيقًا، مَا ارْتَوَى
يَلحىٰ عليه خَلِيٌّ بالٍ ما دَرَى ... دمعَ الغَرَامِ،ولادَرى كيفَ الجوَى
متكلِّفٌ مَقْتَ النَّصيحَةِ، مالَهُ ... رُشْدُ المحبِّ،ولا عليه إن غَوَى
وأنا المروَّعُ بالنَّوى ، لو أنَّنِي ... أحببتُها لجرَتْ بِفُرقَتِها نَوَى
فعلامَ يَلْحَى اللائمون بجهلِهم ... مَن جُرحُه فى الحُبِّ عندَهم شَوَى[1]

* * *

---

(١) الشوى : الأمر الهين .

ما قالَه فى المكاتبَات ، وما ينخرِطُ فى سلكها من المعاتبات

قافية الهمزة

(٢١٤)

قال ، وكتَب بها إلى شمس الدَّولةِ أبى الحارث عَبد الرحمن ابنِ أخيه نجمِ الدَّولةِ أبِى عبدِ الله مُحمد بنِ مُرْشِدٍ ، وكان سَارَ إلى مصر ، وسارَ هُو إلى الحجاز سنةَ خمسٍ وخمسينَ وخمسمائةٍ :

لئن غَرَّبَتْ شمسى المنيرةُ فى النوَّى ... فَلَيْلِى وصُبحى فى الظَّلامِ سَواءُ
فَفِى أسودَىْ قلبِى وطرفِى محلُّه ... وإن بَعُدتْ أرضٌ بنا وسَماءُ
تَرحَّلَ غربًا ، وارتحلْتُ مُشرِّقًا ... وخُلفُ ارتحالِ الظَّاعنينَ عَناءُ
إذا زادَنا التَّرحالُ بُعدًا ، فما الَّذى ... يُقرِّبُنا إن كان ثَمَّ لِقاءُ
بلَى ، إنَّ لُطفَ اللهِ يجمعُ شملَنا الشَّـ ... ـتِيتَ ، ويُدنى الدَّارَ كيف يَشاءُ

قافية البـاء

(٢١٥)

وقال[1] :

لم يَبْقَ لى فى هَواكُمُ أَرَبُ ... سَلوتُكم وَالقُلوبُ تَنقلِبُ
وضعتُ عَنِّى أثقالَ حُبكُمُ ... وحَاملُ الحبِّ مُثقَلٌ تَعِبُ
ورْدِى قَذَى وِدِّكم ، وغَضَّ أجفا ... نِى عليه ، من فعلِكُم عَجَبُ

(١) هذا الشعر من مرويات ياقوت ٥ : ١٩٦ والخريدة ١ : ١٠٠ مع اختلاف فى الترتيب وقد ذكرا المطلع والأربعة الأبيات الأخيرة .

إلامَ دَمعى من هَجرِكم سَرِبُ ... قانٍ، وقلبى من غدرِكم يَجِبُ

إن كان هذا لأن تَعبّدَنِى الـ ... ـحُبُّ . فقد أعتقَتنِى الرِّيَبُ

أرَيتُمونِى[1] نَهجَ السُّلوّ . وقد كا ... نت بِى الطُّرقُ عنه تَنشعبُ

أخبَبتُكمُ فَوقَ ما توهَّمَه النَّـ ... ـاسُ، وخُنتُم أضعافَ ما حَسِبُوا

(٢١٦)

وكتب إلى صديقٍ له :

وقد كنتُ أرجُو أن أرَاكَ ، وبَينَنا ... مَفاوِزُ أدْنَاهَا الشَّنَاخِيبُ[2] والسَّهبُ[3]

فلمَّا تَدانَينا يَئِستُ ، وزَادَنِى ... تَبَارِيحَ شَوقٍ ضِقتُ ذَرعاً بها ، القُربُ

(٢١٧)

وقال[4] :

تَبذَّلَ[5]، حَتّى قد مَلِلتُ صِحَابَه ... وأعرضتُ عنه ، لا أُرِيدُ اقتِرابَهُ

إذا سَقَطتْ من مَفرِقِ المرءِ شعرةٌ ... تأفَّفَ منها أن تَمسَّ ثِيَابَهُ

(٢١٨)

وكتب إلى أخيه عز الدولة :

أيَا نَازِحًا لم أحتَسِبْ بُعدَ دَارِه ... وقد كان، لو نِلتُ المُنَى ، قُربُه حَسْبِى

تَعرَّضَتِ الأخطارُ دُونَ لِقَائِنَا ... وصَدَّ التَّنَائِى عن مُواصَلةِ الكُتْبِ

وقد صَارَ يأتِى بعد حَولٍ مُجرَّمٍ[6] ... كتابُكَ مَقصوراً على اللَّومِ والعَتْبِ

فيا أنسَ قَلبِى ، لا تَزِدنِى وَحْشَةً ... ويا رَوْحَ كَربِى ، لا تكُنْ سَبَبَ الكَربِ

---

(١) الرواية فى ياقوت وخريدة القصر "أوضحتم لى سبل السلو" .

(٢) الشنخوبة : رأس الجبل . والجمع شناخيب .

(٣) السهب : الفلاة .

(٤) مما رواه العماد لأسامة فى الخريدة .

(٥) فى الخريدة (تجزم) .

(٦) يقال حول محرم كمعظم : تام .

(٢١٩)

وكتَبَ إلى صديقٍ له :

يامَن به سَلْوَتِي عن كلِّ مُفْتَقَدٍ ... ومَن مودَّتُه أدنَى من النَّسبِ
شَكوتَ همَّك بي لما اشتكيتُ، فَلا ... زالتَ المُوقَّى من الآلامِ والنُّوَبِ
أبْلَ جسمِيَ مِن أوصَابِه ، وأرَى ... قَلبِي مِن الهمِّ لا ينفَكُّ ذَا وَصبِ
وداؤه باطنٌ ، لا طِبَّ يبلُغُه ... إن لَمْ يُداركْه لطفٌ غيرُ مُحتَسَبِ
وما الَّذي نَالَه من دائِه عَجَبٌ ... لكن سلَامَتُه من أعجَبِ العجَبِ

(٢٢٠)

وقال ، وكتب بها إلى ابنِ أخيه شمسِ الدّولةِ ، وقد سيَّرَهُ إلى مصرَ ، لى الملك الصّالح :

أيا غائبًا ، يُدنيه شَوقِي على النَّوى ... لَأَنْتَ إلى قَلبِي من الفِكْرِ أقربُ
وما غابَ مَن أُفْقَاهُ : عَيني وخَاطِري ... لهُ مَطلعٌ مِن ذَا ، وفى تِلك مَغربُ
غَبطْتُك نُعْمَى ، فُزتَ دُونِي بِنَيْلِها ... ونخرًا، له ذيلٌ على السُّحبِ يُسْحَبُ
جِوارَك مَن يَحمِى على الدَّهرِ جَارَهُ ... و يَطلبُ منهُ جودُه كيف يطلبُ
هو البحرُ، تَروَى الأرضُ عندسُكُونِهِ ... وتَغرَقُ فى تيَّارِه حين يَغْضَبُ
فَمن لِى لو كنتُ الرّسولَ بِبَابِه ... لتُبرِدَ رؤْياهُ حشًا تَتلهَّبُ
وأبلُغَ ما أنفقْتُ فى أمَلِي لَه ... من العُمْرِ عَشرًا ، كأنَّها لِىَ مُتعِبُ
فما رَقَّ لى فيها نسيمُ أصائِلى ... ولا رَاقَ لى فيها من الهمِّ مَشربُ

ولولا رجاءُ الصَّالِـح المَلكِ الّذِى ... به طالَ، واسْتَعْلَى على الشّرق مَغربُ
وأَنّى سَآوِى من حِمَـاهُ إلى حِمًى ... يُرَى كُلّ خَطْبٍ دونه يتَذَبْذَبُ
لَمُتُّ، ومَا موتِى عَجيبٌ، وقد نأت ... بِى الدّارُ عنه، بل بَقَائِى أعْجَبُ

(٢٢١)

وقال، وكتب بهـا إلى الوزير نظامِ الدينِ أبى الكرامِ المُحسن بنِ الحسينِ بنِ أبى المضاء (رحمه الله) فى صدر كتاب:

وما سَكَنتْ نَفسِى إلى الصَّبرِ عنكُمُ ... ولا رَضِيَتْ بُعدَ الدِّيَارِ من القُرْبِ
ولـكنَّ أيّامِى قضَتْ بِشَتَاتِنَا ... ففارقَكُم جِسمِى، وجَاوَرَكُم قَلبِى
ولو جَمَعَتْنَا الدّارُ بعد تَفرّقٍ ... لـكُنتُم من الدُّنيا ونِعمتِها حَسْبِى

فوقَفَ عليها الملكُ الصّالح (رحمه الله)، وأجابَ عنها بِهذه القَصيدة:

مِنَ اليومِ لا أغتَرُّ ما عشتُ بالحُبِّ ... ولَا اَطلبُ العُتْبَى[1] من الخِلِّ بالعَتْبِ
ولا أرتَضِى بالبُعد من ذى مَوَدَّةٍ ... وأقنعُ منـــهُ بالرَّسائِلِ والكُتْبِ
ولا سِيَّما إنْ قَالَ لى مُتَصَنِّعًا: ... فَفَارَقَكُم جسمِى، وجَاوَرَكُم قَلبِى
عَلَى أنّنِى قد قُلتُ حِين أجَبتُه ... بلا حِشمةٍ: ما أشْبَهَ العُذرَ بالذَّنبِ
أخِلّاىَ، لو رُمتم دنُوًّا لمـا أبَى ... سُرَى العِيسِ[2]، بل رَكضُ المطَهَّمة القُبِّ
ولـكنّكم بِعتُم وفاءً بِغَدرةٍ ... غَداةَ اشتريتُم وحشَةَ البُعد بالقُربِ
عليكُم سلامُ الله، إنَّ بِعادَكُم ... لأَعظَمُ ما قَد كان من ذَلِكَ الخطبِ

---

(١) العتبى: الرضا.

(٢) العيس: الإبل البيض يخالط بياضها شقرة. والمطهمة: البارعة الجمال. والقبّ: الخيل المرتفعة.

ولَو أنّنا كُنَّا ظَنَنّاه لم نكُن نُظاهِرُ دُونَ النَّاسِ عباسَ[1] بالحرْبِ
على أنّه قد نالَ بالغدرِ من بَني نَبِيّ الهُدَى ما لم ينَله بنُو حَرْبِ[2]
وهل نالَ منهم آلُ حربٍ وغيرُهم من النّاسِ فوقَ القَتلِ والسَّبيِ والنَّهبِ
غَدا وَالغًا[3] كالكلبِ ظُلْمًا وحزبُه دماءَهُمُ ، لاحاطه الله من حِزبِ
و ياليتَه ، لو كانَ فيهِ من الوفَا لِمالِكه بعضُ الذى هُو فِي الكلب
وحاشاكُم ، ما خُنتُم العهدَ مثلَه ولا لكُمُ فيما جرَى منه من ذَنبِ
ومِن مثلِ ما قَد نَالكُم من دنُوِّه يُحاذَر أنْ تدْنُو الصِّحاحُ من الجُربِ
وما روضةٌ غنَّاءُ هبَّ نسيمُها عليلاً ، فلم يُوقِظ بها نائمَ التُّربِ
سقَاهَا الحيَا من آخرِ الليلِ مُزنَةٌ كأيْمَانِنَا ، لما هَمَتْ بنَدًى سَكْبِ
فأضحتْ ثغورُ الأُقحوانِ صَقيلةً تضاحِكُ فى أرجائِها أوجهَ الشَّربِ[4]
بأَحْسَن ، بمجدَ الدّين ، مما تَصرَّفَتْ بَنانُك فى تَفويفِ أبرادِه القُشْبِ
وما هُو إلا الشَّمسُ أضحَى يزُورُنَا بمسراهُ من شَرقِ البلاد إلى الغَربِ
أأحبابنَا . يَا طال ما كان قربكُمْ إلىَّ من الدُّنيا ونعمتِها حَسبِي
وكنتُم إلى قَلبى ، إذا ما لَقِيتكُم على ظمأٍ ، أشهىَ من البارد العَذبِ
تركتُم مَوْرُودَ النّيلِ ، يروَى بها الظَّمَا ويُخلِفُها من جُودنا النّيلُ فى الجَدبِ
هو الآيةُ العظمى التى دلَّ حكمُها بأوطانِنَا أنَّ العنَايَةَ للرَّبِّ
بحيثُ الأمانى ليس تُخلِفُ سحبَها بِسقْيَا ، إذا ما أخلفَت دِرّةُ السُّحبِ
وما اعتضتُم منهم غَداةَ نُقِلتُم بكُرهٍ إلى جَدبِ البلادِ من الخصبِ
وإنّى على ما قد عهِدتُم محافظٌ على الوُد منكم فى بِعادٍ وفى قُربِ

---

(١) هو الوزير عباس الصنهاجى . راجع المقدمة .
(٢) هم بنو أمية .
(٣) ولغ الكلب فى الإناء : شرب ما فيه بأطراف لسانه .
(٤) الشرب : الشاربون .

أحِنُّ إلى أخلاقِكم ، وأُعِدُّكُم   بلا مِرْيَةٍ من جُملةِ الأهلِ لا الصَّحبِ
أسامةُ[1] لى منه اعتزامُ أسامةٍ   ومُرهَفُ[2] فيه هِزَّةُ المرهفِ العضْبِ[3]
فإن تُبعِدوا عنَّا ، ففى حِفظ ربِّكُم   وإن تقرُبوا منا فَفِى المنزلِ الرَّحبِ

(٢٢٢)

وقال :

لَئِنْ فرَّق الدهرُ المشتِّتُ شملَنا   فأصبحتُ فى شَرقٍ، وأمسيتَ فى غَرب
لقـــد عزَّهُ تَفريقُ صَدقٍ وُدِّنا   وأعجزَه إبعادُ قَلبِكَ من قَلبى

(٢٢٣)

وقال ، وكتب بها إلى صديقٍ له ، سأله السِّفارةَ عند بعض الأمراء ، لرجل سأله ذلك ، فتأخر جوابه :

أبَا البركاتِ ، لى مولًى جَوادٌ   مواهبُـــهُ كمُنهلِّ السَّحابِ
يُحكِّمُ فى مكارِمه الأمانِى   ولو كلَّفتَه ردَّ الشَّبابِ
فَمَـا بَالِى أرَى ما أبتغِيه   بعيدًا عند مُنقَطعِ السَّرابِ
وعذرُك فى قضا شُغلِى قضاءٌ   يُصَرِّفُه ، فَمَـا عُذْرُ الجَوابِ

(٢٢٤)

وقال :

لى صديقٌ أُفضِى إليهِ بسِرِّى   وخَبايا صَدرى ومكنونِ قَلبِى
لا أرى دونَه لسِرِّىَ سِترًا   فى مُناجاتِه ومضمونِ كُتْبِى

---

(١) أسامة فى أول البيت هو ابن منقذ ، ولفظ أسامة بعده يريد به الأسد .
(٢) هو مرهف بن أسامة .
(٣) المرهف : السيف الدقيق . والعضب : القاطع .

لو أَتَتْنِي صحيفَتِي في حَياتِي ... قلتُ : خُذها ، فانظر قبائِحَ ذَنبِي
وهو إن جاءَه كتابٌ طَواهُ ... وطواهُ عَنِّي اطِّراحًا لِعَتْبِي
وأَرَى أنّ كُتْبَهُ لَيس فيها ... غيرُ سَبِّي ، وغَيرُ نَقْصِي وثَلْبِي
فلهذا عذرْتُه ، ولَعَمْرِى ... إنَّ عذرى لمؤلِمٌ مثلُ ضَربِي

قافية التاء

(٢٢٥)

وقال[1] :

وما أشكُو تلوُّنَ أهلِ وُدِّى ... ولو أجدَتْ شَكيَّتُهم شكوْت
مَلِلْتُ عتابَهم ، ويئستُ منهم ... فما أرجوهُمُ فِيمن رَجوتُ
إذا أدمتْ قَوارِصُهُم فؤادى ... كَظَمتُ على أذَاهم ، وانطويْتُ
ورُحتُ عليهمُ طلقَ المُحَيَّا ... كأنِّى ما سمِعتُ ولا رأيتُ
تجنَّوْا لِي ذُنوباً ما جنتْها ... يَداىَ ، ولا أَمرتُ ، ولا نَهيتُ
ولا واللهِ ، ما أضمرتُ غدْرًا ... كما قد أظهَروهُ ، ولا نَويتُ
ويومُ الحشرِ موعدُنا ، وتَبدُو ... صحيفةُ ما جنَوْهُ وما جنيتُ

قافية الثاء

(٢٢٦)

وقال ، وكتبَ بها إلى أخيه بهاء الدَّولة ، أبِي المغيث مُنقِذ (رحمه الله تعالى) :

أيا مُنقذِى ، والحادثاتُ تَنوشُنِي[2] ... ودافِعَ همى إذ ترادَفَ بَعثُهُ
لسانِى عَن شكرِى أياديكَ مُفحَمٌ ... وأنتَ ، فأعلى من ثناءٍ أبثُّه

---

(١) رويت من هذه القصيدة فى مسالك الأبصار (١٠ : ٥٠٧) الأبيات الأربعة الأولى .

(٢) النوش : التناول والطلب .

تحملتَ عنى كلَّ خطبٍ يئُودُنِى[1] ... ونَاهَلْتَنِى[2] عَيشى ، وقد بَان خُبثُه
فَدًى لك ، يا طوعَ الإخاء أمينَه ... على غَيبِه ، مُستكَرُهُ الوُدِّ رَثُّه
نَسِىٌّ لمـا يُولَى ، ومَا طالَ عهدُه ... مَلُولٌ لمَن يَهوَى ، ومادَام لَبثُه
وما أشتَكِى شوقِى إليكَ تجلُّداً ... على أنَّه بَلبَالُ قَلبِى وَبثُّه
وقاسَمنِى قلبِى على الصَّبرِ عنكُم ... ولا عجبٌ إن بانَ بعدَكَ حِنثُه
وما زال يثْنِيه إليكَ حِفَاظُه ... وغَدْرُ صُروفِ الدَّهرِ عنك تَحثُّه
وشَارَكَنِى فيهِ هَواكَ ، فهمُّه ... وأفكارُه عِندى ، وعندَكَ مُكثُه
وماضَعضَعَتْنِى الحادثاتُ ، وإنَّنِى ... كَعهدِكَ : وعْرُ الخُلقِ فى الخطبِ وَعْثُه[3]
جَرِىءٌ على الأهوالِ ، والموتُ مُحجِمٌ ... مَرِيرُ القُوَى ، والدَّهرُ قد بانَ نَكثُه
كظُومٌ على غَيظٍ يضيقُ به الحَشَا ... فلستُ ، وإن آدَ[1] اصطبارى ، أبثُّه
ولم أرِثِ الصبرَ الجميلَ كَلالَةً ... ولكنَّه عَن مُرشِدٍ[4] لِىَ إرثُه
عنِ المُترِى أخلافَ[5] دهرٍ تَشابَهتْ ... أطَايِبُه ، إلّا عليـه ، وغَثُّه
نَداهُ ربيعٌ يُنعش الناسَ سَيبُه ... إذا أخْلَفَ الوسمىُّ جَادَ مُلِثُّه[6]
يُضاعِفُ داءَ الحاسـدِينَ كمَالُه ... على أنَّه يَشفِى من الداءِ نَفثُه

---

(١) الأود : الإثقال . ويقال آدنى يئودنى : أثقلنى .

(٢) النهلان : الريان .

(٣) الوعوث : الشدة .

(٤) مرشد : جد أسامة .

(٥) مرى الناقة : مسح ضرعها ، الشىء : استخرجه . والأخلاف : جمع خلف وهو للناقة كالضرع للشاة

(٦) الث : دوام المطر والندى . وألث المطر : دام أياما لا يقلع . والوسمى : مطر الربيع الأول .

(٢٢٧)

وكتب إلى أخيه عزّ الدّولة :

يَا ثانياً للنَّفسِ ، وهْــو لِنَاظرَيَّ أعزُّ ثالِثْ
ونجِّى فِـكرِى دُون سَا — مِرٍ من أُنَاجِى أو أحادِثْ
أشكُو فراقَكَ ، فهو أو — جَعُ مالقيتُ من الحوَادِثْ
شَكوَى مَشُوقٍ يستريــحُ إليك ، والمصدورُ نَافِثْ
وألومُ دهرًا جدَّ فى — تشتيتِ شملِى ، وَهْو عابِثْ
إنِّى علِقتُ من اضطبا — رى عنكَ أسباباً رثَائِثْ[١]
عاهــدتُه ألَّا تُضَعْـ — ضِعَه النّوى ، وأراه ناكِثْ
وكأنَّ قلبِى حينَ يَخْــطُرُ ذكُركُم فى كفِّ ضَابِثْ[٢]
وبَقَاىَ بعــدَ فراقكُم — خطبٌ ، لعمرُ أبيكَ ، كارِثْ

قافية الدال

(٢٢٨)

وكتب إلى أخيه بهاء الدّولة :

يامن هَــواهُ على التّنا — ئِى والتّـدانِى فى ازْدياد
أصبحتُ مُغـترِباً لبعُــدِك ، بين أهلى فى بِلَادِى
مستوحِشًا معَ كثرةِ الــخُلَّانِ وحْشَةَ ذِى انفراد
وأقلُّ مالاقيتُ بعَـــدَكَ من تَبارِيحِ البِعاد
شوقٌ إليك أباحَ فَيــضَ مَدامِعِى ، وحمَى رُقَادِى

---

(١) رث : بلى . (٢) ضبث به : قبض عليه بكفه .

(٢٢٩)

وكتب إلى أخيه عز الدولة :

أساكنَ قلبي ، والمَهامهُ بيننا ... وإنسانَ عيني ، والمزارُ بعيدُ
تُمثِّلُكَ الأشواقُ لي كُلّ ليلةٍ ... فهمّي جديدٌ ، والفِراقُ جديدُ
ومُعظمُ همّي أنّ عمرَ فراقنا ... مَديدٌ ، وعُمري ، للشقاءِ ، مَديدُ
فيا صخرُ ،ما الخنساءُ مثلي ،ولانهى ... بَوادرَ دمعي ما قضاهُ لَبيدُ(١)

(٢٣٠)

وكتب إليه :

أبَا حَسنٍ ، وافى كتابُكَ شاهراً ... صَوارمَ عتبٍ ، كُلُّ صفحٍ لها حَدُّ
فقابلتُ بالعُتبى مَضيضَ عتابه ... ولم يتجهّمه الحجاجُ ولا الجَحدُ
وأعجبني عِيٌّ لديهِ ، ولَم أزَل ... إذا لم تكُن خَصمي لِيَ الحججُ اللُدُّ(٢)
فيا حَبّذا ذنبٌ إلَيَّ نَسبتَه ... وما خطأٌ مني أتاه ، ولا عَمدُ
ولو كانَ ما بلّغته ، فظننته ... لكفّرهُ حقُّ الأخوّةِ والوُدُّ
فأهلاً بعتبٍ تستريحُ ببثّه ... ويُؤمنُني أن يستمرَّ بك الحقدُ
لقد رَاقَ في قلبي ، ولَذّ سماعه ... بِسمعِي "فزدني من حديثك ياسعدُ"

(٢٣١)

وقال :

ألا أبلِغا عني أُناساً صحبتُهم ... فما حفظوا عهداً ، ولارَاعَوا الوُدَّا
بأنّي ، وإن حالت بي الحالُ ، لم أقُل ... لهم واصِفاً شوقاً ، ولاشاكياً وَجدا .

---

(١) يشير إلى قول لبيد لابنتيه :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

(٢) عجز بيت لأبي فراس صدره ... سأسكت إجلالا لعلمي أنه ...

خذُوا بزِمَامِي ، قد رجَعْتُ إليكُمُ رجوعَ مُريدٍ ، لا يَرى منكُمُ بُدَّا
ولكِنْ لِيَ الأعواضُ في النَّاسِ منكُمُ وكُلُّ سَماءٍ من سمائِكُم أندَى

قافيـــــــة الراء

(٢٣٢)

وقال من قصيدة تقدّم أولها[1] :

أأحبابَنَا ، خطبُ التَّفرُّقِ شاغلٌ عَن العَتبِ لكنْ جَاشَ بالكَمَدِ الصَّدرُ
لأَسرَعَ ما حُلتُم عن العَهدِ بَعدمَا تَصرَّمَ في حِفظِي وِدادُكُمُ العُمرُ
ولا عجبٌ ، أنتُم بنُو الدَّهرِ ، مثلُه : عُهودُكُم غَدْرٌ ، وَوُدُّكم خَترٌ[2]
كأنكُم الدنيـا : تمـدُّ رجاءَنَا بزُخرُفِها ، والموتُ فيها لنَـا قَصرٌ[3]
مَلِلتُم ، فمِلتُم نحوَ داعِيةِ القِلَى وخُنتُم ، فَدِنتُم بالَّذى شَرع الغَدرُ
وأنساكُمُ حفظَ العهودِ مَلالُكُمْ "كَما قد تُنَسِّى لبَّ شَارِبِها الخَمرُ"
وإنِّي لَتَثْنِيني إليكم حَفِيظَتِي إذا ما ثَناكُم عن مُحافَظَتِي الغُمرُ[4]
وأُكذِبُ رأيَ العَينِ فيكُم ، وإنَّكُمْ لَتقضُون في هَجرِى بمـا خَيَّل الفِكْرُ
أُسَاهِلُ فيما رَابَ منكم ، ودُونَ ما أُؤَمِّل : من إنصافِكُم مسلكٌ وَعرُ
لهجتُم بهجرِى ، والدِّيارُ قريبةٌ وما قربُ دارٍ حالَ من دونِها الهَجرُ
وأغضَى تَجنِّيكم جُفونِي على القَذَى إلى أن تقضَّى ذلك الزَّمنُ النَّضرُ

---

(١) انظر أول القصيدة ص ٧٢ .
(٢) الختر : الغدر والخديعة أو أقبح الغدر .
(٣) قصر : غاية .
(٤) الغمر : من لم يجرب الأمور .

فلما تَفرَّقْنَا أتانى قَوارِصٌ ... بها ينفُضُ الأحْلاَسَ[١] فى السَّفرِ السَّفْرُ
أَسَرَّكُمُ أن خِلتُم الدَّهرَ ساءَنا ... وقَرَّتْ بنا ، لاقَرَّت ، الأعينُ الخُزرُ[٢]
وجاهَر بالشَّحناء قومٌ عهدتُهم ... يَسوءُهمُ ، لو لَمَ أَغِبْ عنهمُ ، الجَهرُ
وأصغيتُمُ إذْ لم تقولُوا ، وطَالَمَا ... تعرّضَ فى الأَسماعِ من ذكرَى الوَقْرُ

(٢٣٣)

وقال ، وكتب بها فى كتاب :

وكِتابٍ منكَ فاجأَنِى ... كبشيرٍ جَاءَ بالظَّفَرِ
ردَّلِى شرخَ الشَّبابِ ومَا ... غَالت الأيَّامُ من عُمُرِى
ظَنَّه الرَّائى مُكاتبةً ... وهو أصدافٌ على دُرَرِ

(٢٣٤)

وقال :

يا بعيدًا أحلَّه الشَّـــوقُ قَلبِى وناَظرى
ما نَأى مَن خيالُه حَاضرٌ فى ضَمائِرى
والتَّنائِى ، إذا صَفَا ودُّنَا ، غيرُ ضَائر

(٢٣٥)

وكتبَ إلى أخيه بهاءِ الدَّولةِ من الرزم بطرى[٣] :

يُكاثِرُ مَاءُ الرَّزِمِ[٤] عند ادِّكَارِكُم ... دُمُوعى ، ولـكنْ ذَا بَرودٌ ، وذى قطْرُ[٥]
ولَو لَم أُعِزْها بَعدَكم كلَّ من بَكَى ... لأعظَمها عَن أن يُكاثِرَهَا القَطرُ

(١) الحلس : كساء على ظهر البعير تحت البرذعة . (٢) الأعين الخزر : الضيقة ، كناية عن الأعداء .
(٣) لعله اسم موضع . (٤) الرزم : واد فى أرض أرمينية فيه ماء كثير يصب فى دجلة (ياقوت) .
(٥) القطر : النحاس الذائب .

(٢٣٦)

وكتب إلى شمس الدّولة ابن أخيه :

أشمَسَ الدّولةِ ، اسمع بثَّ شَوقٍ يَضيقُ بمثـلِه ذَرعُ الصَّبورِ
لقد أوحَشْتَ دُنيَا ، كُنتَ أُنسِي بها ، وسَلَبْتَنِي رَغَدَ السُّرورِ
إذا ما الشَّمسُ لم تظهرْ بأرضٍ فما طيبُ الحياةِ بغـيرِ نُورِ
وإن أصبحتَ فى خَلَدِى مُقيماً بحيثُ يجولُ فِكرِى من ضَميرِى
فقُربُ الدَّارِ خيرٌ من بِعادٍ ورُؤيا العينِ أشفَى للصُّـدُور

(٢٣٧)

وكتب إليه القاضى الرَّشيدُ أبُو الحسين أحمدُ بنُ علىٍّ بنِ الزُّبير[١] من مصرَ كتابا افتتحه بهذه الأبيات :

أأحبابَنَا ، مَا مصرُ بعدَكُمُ مِصرُ ولـكنَّها قَفرٌ ، إليكُم بهـا فَقرُ
وإن تَخلُ يوما بُقعةٌ من شُخوصِكُم فلم يَخلُ يوما من مودَّتِكم صَدْرُ
وإن تُنئِكُم عنَّا المهامِهُ والسُّرَى تُقرِّبُكُم منَّـا المودّةُ والذِّكْرُ
رحلتُم ، فعادَ الدّهرُ ليلاً بأسرِهِ وليسَ له إلَّا بأوبتِكم فَجْرُ
تُرى فَاضَ ماألقَى من الهمِّ والأسَى لبُعدكُم ، فاسودَّ من صِبغِه الدَّهرُ
وكيف ألومُ اللّيلَ إن طالَ بَعدكُم وقد غَابَ عَنّي منكُم الشّمسُ والبدرُ

فـكتب إليه جوابًا عنها :

تُذَكِّرُه أحبابَه الأنجمُ الزُّهرُ فيَا وَيحَه ماذَا به صنعَ الذِّكرُ
همُ مثلُها : بُعدًا ، ونورًا ، ورفعةً ولـكنْ لهَا، إذْ شُبِّهت بهم ، الفَخرُ

---

(١) شاعر مصرى قدير .

وقد كنتُ أشكُو هجرَهُم فى دُنوِّهم … فمن لِيَ لَو دام التَّدانِي والهجرُ
سَقَى مصرَ جودُ الصَّالِحِ الملكِ ، إنَّه … هُو الوابلُ المُحيِي البريَّةِ لا القَطرُ
ففيها كرامٌ أسْعَرُوا بجَوانِحِى … ببعْدِهُمُ جمراً ، به يُحرَق الجَمْرُ
ومن عادتِي الصبرُ الجميلُ ، ولَيس لى … عَلَى بُعدِهِم ، لادرَّ درُّ النَّوى، صَبْرُ
إذا ما "أمينُ الدِّينِ" عنَّ ادِّكارُهُ … ذُهلت ، كأنِّى خَامَرَتْ لُبِّيَ الخمْرُ
يذكِّرُنِيه الفاضلُون ، و إن غَدَوْا … جَداولَ إن قِيسُوا به ، وهو البحرُ
إذا حضَر النَّادِى فَرِضْوَى رجاحَةً … و إن قَال فالدُّرُّ المنظَّمُ والسِّحرُ
ويعجِبُنِي منه تدفُّقُ عِلمِه … وأعجبُ منه كيف يجمعُهُ صَدرُ
تناءتَ بنا الدَّارَانِ ، والوُدُّ مُصْقِبٌ[١] … فللقُربِ شطرٌ ، وللبِعادُ له شطرُ
كأنَّ الليالِى إذْ قضَت بفراقنَا … قَضى جَورُها أن ليس تجمعنا مِصرُ
أُحُلُّ بها إن غابَ عنها ، وإن أَغِبْ … يحلُّ بها ؛ فاعجبْ لما صنعَ الدّهرُ
فليت تلاقِينا ، ولو بعضَ سَاعةٍ … يُحَمُّ[٢] وشِيكًا ، قبل أن ينفَدَ العمرُ
لِأحظَى بِرؤياهُ ، وأشكرَ مَنَّهُ[٣] … وإن لم يقُم عَنِّى بواجبِهِ الشُّكرُ

(٢٣٨)

وكتب فى صدر كتاب :

لَأشكرَنَّ اهتمامًا منك يَذكُرُنِي … فِى البعدِ، حتَّى كأنِي مُصقبُ[١] الدَّارِ
بَعدتُ عنه ، فما أنكرتُ خُلَّتَه[٤] … مع التَّنائى ، وكم أنكرتُ من جَارِ

(١) أصقبت دارهم : دنت .
(٢) حم الأمر بالضم : قضى .
(٣) المن : الإنعام .
(٤) الخلة بالضم : الصداقة .

(٢٣٩)

وكتب إلى أخيه بهاء الدَّولة :

أصبحتُ بعدَك ياشقيقَ النَّفسِ فى بحرٍ من الهمِّ المبرِّج زَاخِرِ
متفرِّدًا بالهمّ ، مَن لىَ ساعةً بِرِفَاقِ شَعياً ، أو عُلالة دَاهِرِ

داهرُ : صاحبٌ للوزير الكامل أبى القاسم بن المغربى (رحمه الله) الذى يقول فيه :

كفَى حزَنًا أنّى مقيمٌ ببلدة يُعلِّلُنى بعدَ الأحبّة دَاهِرُ
يحدِّثُنى مما يُجمِّعُ عقلُه أحاديثَ منها مستقيمٌ وجَائِرُ

وشعياَ : صاحبٌ للقاضى أبى المجد بن سليمانَ المعرِّى (رحمه الله) الذى يقول فيه :

لقد ولَّى زمانٌ نحنُ فيه فسُقيًا للحمَام به ورُعيَا
إسارٌ بين أتراكٍ ورُومٍ وفقدُ أحبّةٍ،ورِفاقُ شَعيَا

قافية السين

(٢٤٠)

وقال ، وكتبها فى كتاب :

كتابى ، ولولَا أنَّ يأسِيَ قد نَهى اشـ ـتياقِى ، لذَابَ الطِّرسُ[1] من حرِّ أنفَاسى
وبعدُ ، فعندِى وحشةٌ لو تَقسَّمتْ على الخلقِ ، لم يستأنِسِ النَّاسُ بالنَّاسِ

(١) الطرس : الصحيفة .

قافية العين

(٢٤١)

وكتب إلى أبيه :

مَالِي وللشفعاء فيما أرْتَجِي   من حُسن رأيكَ فيَّ ، وهوشَفيعِي
أعذَبتَ لِي من جُودِ كفِّكَ مَوردى   فصَفَا ، وأمرَعَ من نَدَاكَ رَبيعِي
وبِكَ اعتليتُ، وطُلتُ[1] من ساميته   فخرًا بمجدك لا بحُسنِ صَنيعِي
وقضَى بِبُعدىَ عنك دهرٌ جائرٌ   وإلى جَنَابِك،إن سلمتُ،رُجوعِى

(٢٤٢)

وكتب فى صدر كتاب إلى الوزير نظام الدين :

نظامَ الدِّينِ ، لا سُقيَا لخطبٍ   رَمانَا بالنَّوَى بعدَ اجتماعِ
عدَا حتَّى على حُسنِ اصْطبارِى   وضَنَّ علَّى حتَّى بالوَداعِ
فمَا قلبِي لسُلوانٍ مُطيعٌ   ولا السُّلوانُ عنك بمُستَطاعِ
ولو أمَّلتُ أنْ ألقَاكَ حتَّى   أبُثَّكَ مُضمَرَ القلبِ الشَّعَاعِ[2]
لسرَّتنِي الأمانِي أو لسرَّتْ[3]   جَوَى قلبِي ، لبُعدك ، والْتِيَاعِى[4]

قافية الفـاء

(٢٤٣)

وكتب إلى ولده مُرهَف :

مُواصَلَتِي كُتبِي إليكَ تَزيدُنى   إليكَ اشتياقًا ، بل عليكَ تأسُّفَا
ولى أسوةٌ فى النَّاسِ لو نَفَعَ الأَسِى   فَمَن قبلِنَا يعقوبُ فَارَقَ يُوسُفَا

(١) طلت : كنت أطول منه .
(٢) قلب شعاع : تفرقت همه وآراؤه ، فلا تتجه لأمر جزم .
(٣) من سرّى عنى الهم .
(٤) الالتياع : الاحتراق من الهم .

وَلكنَّ نفسِى قد تَملَّكَها الأَسَى … وقَلبِى ، إذا سكَّنتُه بالأُسَى هَفَا
ومَا أحسَبُ الأَيَّامَ تَقنَعُ بالنَّوَى … ولا أنَّ صَرفَ الدَّهرِ بالفُرقةِ اشتَفَى

(٢٤٤)

وقال ، من قصيدة تقدّم أولها[1] :

وابتزَّنِى رأىَ عزُّ الدِّينِ ، مُستلِباً … من بعدما عمَّنِى إحسانُه وضَفَا[2]
أضَافَنِى عتبُهُ همًّا شَجِيتُ به … أبانَ عن نَاظِرِى طِيبَ الكرَى ونَفَى
أتَته عَنِّى أحاديثٌ مُزَخرفَةٌ … ما إنْ بِها عنهُ ، وهو الألمعىُّ ، خَفَا
لـكنَّها وافقَتْ من قَلبِهِ مَلَلاً … لم يَستَبِنْ صحَّةَ الدَّعوَى ، ولا كَشَفَا
وما الرِّضَا ببعيدٍ من خَلائقِهِ … وهى السُّلافَةُ راقتْ رقَّةً وصَفَا

ومنها :

يامَن حَوَى قَصَباتِ السَّبقِ أجمعَها … فَمَا يُرَى اثنان فى تفضيله اختلَفَا
أنفقتُ مُذهَبَ عُمرِى فى رضاكَ ، وما … رأيتُ مُنفقَ عُمرٍ واجدًا خَلَفَا
لـكنَّنِى اعتضتُ منه حُسنَ رأيكَ لى … فَنِلتُ منه العُلا والعزَّ والشَّرفَا
حتَّى إذَا أنَا ما نِلتُ النجومَ عُلًا … وقلتُ : قَد نِلتُ من أيامِىَ الزُّلَفَا[3]
أريتَنِى ، بَعد بِشرٍ ، هجرةً وقِلًى … وبَعد بِرٍّ ولُطفٍ ، قَسوةً وجَفَا
فَعُدتُ صِفرَ يدٍ ممَّا ظفرتُ به … كأنَّ مانِلتُه من كَفِّىَ اختُطِفَا
هبْنِى[4] أتيتُ بِجَهلٍ ما قُذِفتُ به … فأين حلمُكَ[5] والفضلُ الَّذى عُرِفَا

---

(١) انظر أول القصيدة ص ٢٧ . (٢) الضفو : السبوغ والكثرة . (٣) الزلف : جمع زلفة وهى القربة .
(٤) هذا البيت وتالياه رواها أسامة أيضا فى لباب الآداب ص ٣٨٠ .
(٥) رواية لباب الآداب (فأين فضلك والحلم ...) .

وَلاَ ، وَمَن يعلَمِ الأسرارَ حِلْفَةَ من ... يبرُّ فيما أتَى ، إن قَال ، أو حَلَفَا
ما حدَّثَتْنِي نَفسِى عندَ خَلوتِها ... بِمـا تُعنِّفُنِي فيه إذا انـكَشَفَا
لـكنَّها شِقوةٌ حَانَتْ ، وأقضيةٌ ... حَبَتْنِيَ الهمَّ مذُ عَامَينِ والأسَفَا
تداولَتْنِي أمورٌ غيرُ واحدةٍ ... لو حُمِّلَ الطَّوْدُ أدنَى ثِقلِهَا نُسِفَا
وأقصَدَتنى[1] سِهامُ الحاسِديَّ علَى ... فَوزِى بقُربِكَ حتى قَرطَسُوا[2] الهَدَفَا
وبعدَ مَانَالنِي ، إن جُدتَ لى برضًا ... فقد غفرتُ لدَهرى كلَّ مَا سلَفَا
وذاكَ ظَنِّى ، فإن يَصدُقَ فأنت لما ... رجوتُ أهلٌ ، وإن يُخفِقوا أسفَا
حاشَاكَ تَغدُو ظُنونى فيكَ مُخفِقَةً ... أو يَنثنِى أَملِى باليأسِ مُنصرِفَا
وجُنَّتِى من زمانِى حسنُ رأيكَ لى ... أكرِمْ بها جُنَّةً ، لاالبِيضَ والزَّغَفَا[3]
ألفتُ منكَ حُنُوًّا منذ كنتُ ، وقَد ... فقدتُه ، وشديدٌ فقدُ ما أُلِفَا
وغيرُ مُستنكَرٍ منكَ الحُنُوُّ علَى ... مثلى ، ولو زَاغَ يوماً ضَلَّةً ، وهفَا
فَعُدْ لأحسَنِ ما عوَّدتَ مِن حَسَنٍ ... يامَن إذا جادَ وفَّى ، أو أذمَّ[4] وَفَى
واسلَمْ لنا ثالثًا للنَّيِّرينِ عُلاً ... وزِدْ إذا نقَصا ، واشرُفْ إذا كُسِفَا
أيَّامُنا بك أعيادٌ بأجمعِهَا ... فدُم لنا ما دَجَا ليلٌ ، وما عَكَفَا

(٢٤٥)

وكتب إلى أبيه من قصيدة تقدم أولها[5] :

لـكنَّنِي أشكُو قَوارِصَ من ... تِلقَائهمْ ، قَلبِى لها يَجِفُ
ومَلالةً منهمُ يَبِينُ علَى ... أثنائِهَا الشَّنآنُ والشَّنَفُ[6]

(١) أقصد السهم : أصاب ، فقتل مكانه . (٢) قرطس ، أصاب القرطاس ، وهو كل أديم ينصب للنضال .
(٣) الزغف : الدرع اللينة الواسعة المحكمة ، أو الرقيقة الحسنة السلاسل .
(٤) أذم له عليه : أخذ له الذمة ، وفلانا : أجاره .
(٥) انظر القصيدة ص ٢٩ وأولها : (باحت بسرك أدمع تكف) .
(٦) الشنف بالتحريك : البغض والتنكر . والشنآن : البغض .

أنكرتُ قسوتَهُمْ ، وأعرفُهُمْ   كُرماءَ ، إمّا استعطفُوا عطَفُوا
قطَعُوا أواصِرَ بينَنَا وشَجتْ   أسبابَها الأنسابُ والسَّلَفُ
وإذا سلِمتَ ، أبا سلامةَ ، لى   فمُصابُ كلِّ رزِيّةٍ خَلَفُ[1]
لى سَلوةٌ بكَ عن بَنى زَمَنى   فليجْهَدُوا فى الغَدْرِ، أو يَفُوا
قارعتَ دُونِى الحادثاتِ ، فلا   طرقَتْ فناءَكَ ، مادجَا السَّدَفُ[2]
وكفَيتَ آمالِى بجودِك أن   تُضحِى إلى الرَّغَباتِ تَسْتَرِفُ[3]
فغدوتُ لاخَطبًا أخافُ ، ولا   أنَا إثرَ شىءٍ فائتٍ أسِفُ

قافية القاف

(٢٤٦)

وقال ، يخاطب والده من قصيدة تقدم أولها[4] :

يابن الأُلَى جمعَ الفخارَ لِبيتِهِمْ   ما شَتَّتُوهُ من العَطاءِ ، وفرَّقُوا
وتَملَّكُوا رِقَّ الأكارِمِ بالَّذِى   فَكُّوا به رقَّ العُنَاةِ[5]، وأطلَقُوا
أشكُو إلى عَلياكَ هَمًّا ضاقَ عَن   كِتمانِه صَدرى ، وما هو ضَيِّقُ
وطوارِقًا للهمِّ . أقربها الكرى[6]   وتَلِظُّ[7] بى صُبحًا ، فما تَتفرّقُ
لو لم أُمَنِّ النَّفسَ أنّك كاشِفٌ   كُرباتِها عَنْها لكادتْ تَزهَقُ
أنا عائذٌ بك من عُقوقِ مُحبِطٍ   عَمِلى ، فَعصيانِى لأمرِكَ مُوبِقُ[8]

(١) الخلف : كل عين .
(٢) السدف : الظلمة .
(٣) تسترف : تتطلع .
(٤) انظر ص ٨٧ .
(٥) العناة : جمع عان ، وهو الأسير .
(٦) أى أى أجعل النوم قراها .
(٧) لظ بالمكان وألظ به وألظ عليه : أقام وألح . والإلظاظ : لزوم الشىء والمثابرة عليه .
(٨) أوبقه : أهلكه .

لا تُلزِمَنِّي بالهَوانِ وحَمْلِه   إنَّ احتمالَ الهُونِ[١] ثِقْلٌ مُرهِقُ
دَعْنِي وقَطعَ الأرضِ دُونَ مَعاشرٍ   كُلٌّ عليَّ لِغيرِ جُرمٍ مُحنَقُ[٢]
تَغلِي عليَّ صُدورُهم ، من غَيظِهم   فتكادُ من غيظٍ عليَّ تَحَرَّقُ
تَعشَى إذا نَظَرُوا إليَّ عُيونُهم   حتى كأنَّ الشَّمسَ دُونِي تُشرِقُ
كَسَدَت عليَّ بَضائعي فيهم ، فَلَا   أَدَبٌ ، ولا نَسَبٌ ، عليهم يَنفُقُ[٣]
أعيَا عليَّ رِضاهُم ، فَيئِستُ من   إدراكِه ، ما النَّجمُ شيءٌ يُلحَقُ
إن أغشَهُمْ ، قالُوا : خَلُوبٌ[٤] ، مَاذِقٌ[٥]   أَوْ أَجْفُهُمُ ، قالُوا : عدوٌّ أزرقُ
قد أفسدُوا عَيشِي عليّ ، وعيشَهُم   فأنا الشَّقِيُّ بهم ، وبي أيضا شَقُوا
فاسمَحْ ببُعدِي عنهمُ برضَاكَ لي   إنَّ الَّذى ترضَى عليه مُوفَّقُ
فلعلَّ بعضَ العمرِ ، وهو أقلُّه   ألاَّ يُكدَّرَ بالهُمومِ ، ويُمذَقُ[٥]
وعَسَى قلوبٌ أعضَلَتْ أدواؤُها   فى قُربِنَا بعد التَّفرُّقِ تُفرِقُ[٦]
فضلُ الأقاربِ بِرُّهُم وحُنوُّهُم   فإذا جَفَوْنِي فالأباعدُ أرفقُ
أتظنُّنِي أرجُو عَواطِفَ وُدِّهِمْ   إنِّى إذًا عبدُ المطامعِ ، أخرقُ
بَيني وبينَهُمُ هِناتٌ فى الحشَا   منها نُدوبٌ[٧] ، ما بقِيتُ وما بَقُوا
لا تَغتَرِرْ برجَائِهِم أن يُحسِنُوا   كم قد رأينَا من رجاءٍ يُخفِقُ
خُذْ ما تَراهُ ، ودعْ أحاديثَ المُنى   إنَّ الأمانِي فيهمُ لا تَصدقُ
وأغِثْ ، فإنَّ السَّيلَ قد بلغَ الزُّبَى[٨]   حقًّا ، وأدرِكْنِي قُبيلَ أُمزَّقُ

---

(١) الهون : الهوان . (٢) الحنق : الغيظ . (٣) نفق : راج .
(٤) خلبه كنصره خلبا وخلابا وخلابة بكسر الأخيرين : خدعه . (٥) مذق الودّ : لم يخلصه .
(٦) أفرق من مرضه : برئ . (٧) ندوب : جمع ندبة ، وهى أثر الجرح الباقى على الجلد .
(٨) الزبى : جمع زبية وهى الرابية .

(٢٤٧)

وكتب إليه من قصيدة تقدم أولها[١] :

إيهًا ، بحقِّكَ مجدَ الدّين تعلَمُ أنَّ الصبرَ عنكَ أو السُّلوانَ من خُلُقى
أو أنّنِى بَعد بُعدِى عنْكَ مُغتَبِطٌ بالعيشِ، إنِّى به، لا تكذبَنَّ، شَقِى
ياويحَ قلبِىَ من شوقٍ ، يُقَلْقِلُه إلى لقائكَ ماذا من نَواكَ لَقِى
ونَاظِرٍ قُرِّحَتْ أجفانُه أسَفًا عليكَ فى لجّةٍ من دمعه غَرِق
وبعدَ ما بِى ، فإشفاقِى يهدِّدُنى بشَوب رأيكَ بالتكديرِ والرنَقِ
وأنَّ قلبَكَ قد رانت عليه من الـ ـواشين بى جفوةٌ، يهماءُ ، كالغَسَقِ[٢]
ونافَسُونِىَ فى حُسنَى ظُنونِك بى حتّى غدوتُ وسوءَ الشَّكّ فى نَسَقِ
بهم تبارِيحُ أشواقِى إليكَ، وما أجنُّ : من زفَراتٍ بالجَوَى نُطُقِ
أمَا كَفاهُم نَوَى دارِى، وبعدُكَ عن عَينِى،وفُرقَةُ إخوانِ الصِّبا الصُّدُقِ
وأنّنِى كلَّ يومٍ قطبُ معرَكةٍ دريئةُ السُّمرِ والهنديّةِ الذُّلُقِ[٣]
أغشَى الوغَى مفردًا من أسرتِى، وهمُ هُمُ إذا الخيلُ خاضت لجّةَ العلَقِ[٤]
هم المحامُون، والأبطالُ مسلَمَةٌ والملتقُون الرَّدَى بالأوجهِ الطُّلُقِ
وموضِعى منكَ لا تسمُو الوشاةُ له ولا يُغيِّرُه كَيْسِى[٥] ولا حُمُقِى
وإنَّما قالةٌ جاءتْ ، فضاقَ لها صدرِى ، ولو غيرُكَ المعنىُّ لم يَضِقِ
كذّبتُها ، ثم ناجتنى الظُّنونُ بأنَّ الدّهرَ ليس بمأمونٍ ، فلا تَثِقِ

(١) انظر ما سبق ص ٨٩

(٢) اليهماء : الفلاة لا يهتدى فيها . والأيهم : من لا عقل له ولا فهم . والغسق : ظلمة أول الليل . وران على قلبه : غلب .

(٣) الدريئة الحلقة يتعلم الطعن والرمى عليها . والسمر : الرماح . والهندية : السيوف . والذلق : الحادة .

(٤) العلق : الدم .

(٥) الكيس : العقل .

كم قد أغَصّ بما[١] تَمرِى مذاقَتُه ... وَنغّص الباردَ السلسالَ بالشَّرقِ
تَوقّعِ الخوفَ ممن أنت آمنُه ... قد تنكأُ الكَلْمَ كفُّ الآسِي الرَّفقِ
فقلتُ : مالِي وكَتمِى ما تُخالِجُنى ... فيه الظّنونُ كفعلِ المُغضَبِ المَلِقِ[٢]
أدعو لمـا بى صَدَى صوتى وموضعَ شكـــواىَ وحاملَ ثِقلى حيث لم أُطِقِ
فإن يكن ما نَمى زُورًا ، وأحسَبُه ... فعنده العفو عن ذى الهَفوة العُقُقِ[٣]
وإن يكن ، وأحاشى مجدَه ، ثَلَجت ... عُتباه حرَّ حشًا بالهمّ مُحترِقِ
هو الأبىُّ الذى تُخشى بوادرُه ... ويُرتجَى عَفوُه فى سَوْرة الحَنَقِ
عُتباه تلقَى ذُنوبى قبل معذرتى ... وماءُ وجهِى مصونٌ فيه لم يُرَقِ
لا غيَّرت رأيَه الأيّامُ فىَّ ، ولا ... نالت مكانِىَ منه لَقعة[٤] الحدَقِ

(٢٤٨)

وقال[٥] :

أأحبابَنا ، هلّا سبقتُم بوصلِنَا ... صُروفَ اللّيالِى قبل أن نتفرَّقَا
تشاغلتُم بالهجرِ ، والوصلُ مُمكنٌ ... وليس إلينا فى الحوادثِ[٦] مُرتقَى
كأنّا أخذنا من صُروف زَمانِنَا ... أمانًا ، ومِن جَورِ الحوادثِ[٧] مَوثِقَا

---

(١) مرئ الطعام فهو مرىء : هنىء . (٢) الملق : الضعيف .
(٣) العقق : العاق . (٤) لقع فلانا بعينه أصابه بها .
(٥) هذه القطعة مما يروى لأسامه فى خريدة القصر ١ : ١٠٣ ، ومعجم الأدباء ٥ : ٢٠٥ .
(٦) فى الخريدة ومعجم الأدباء (للحوادث) .
(٧) هذه رواية المصدرين السابقين وفى الأصل " الليالى " وبما أثبتنا يستقيم الوزن .

(٢٤٩)

وكتب إلى أخيه عزّ الدّولة :

بَعُدتْ مسافةُ بينِنَا ، وتوحَّشَتْ حتَّى على طيفِ الخيالِ الطَّارقِ
ويئستُ من أن نَلتقِي ، لـكنَّنِي ألقَى تذكُّركُم بقلبٍ خَافقِ
وأُغيِّضُ العبراتِ ، وهى فرائدٌ من لُؤلؤٍ ، فَتفيضُ سِمْطَ عَقائقِ

(٢٥٠)

وكتب إليه :

أبَا حسَنٍ ، لولا التَّعلُّلُ بالمُنى قَضَى كَمَدًا قلبٌ إليكَ مَشُوقُ
إذا ما اعترَته ذُكْرَةٌ منكَ خلته جَناحًا وَهَى عَظماه، فَهو خَفُوقُ
يَزِيد اشتياقاً كلَّما زَادَ يأسُه فيا عجبًا لليأسِ كيف يَشُوقُ
وما ساءَنِي أنِّي لبعدكَ جَازعٌ لأنَّ جميلَ الصَّبرِ عنكَ عُقوقُ

(٢٥١)

وكتب إلى أبيه :

لا تُفسِـدَنَّ نَصيحتِي بشِقَاقِ وأبيكَ ماالسُّلوانُ من أخلاقِى
حظَر الوفاءُ علىَّ أن أسلُو ، فلا فكَّ السُّلُوُّ من الغرامِ وَثَاقِى
لا ترجوَنَّ لِىَ الشفاءَ من الجوَى واليأسُ كُلُّ اليأسِ من إفراقِى[1]
كيف الإفاقةُ للَّديغِ أخِى الهوَى من دَائِه ، والسُّمُّ فى الدِّرياقِ[2]
سُقْمُ الجفُونِ سَقَامُه ، وشفاؤُه فيها ، فَمِنها الدَّاءُ ، وهى الرَّاقى

---

(١) أفرق المريض والمحموم : برئ .

(٢) الدرياق : الترياق .

وأغنّ[1] راعتنِي النّوَى بفراقه ولَكَم فُجعتُ ، ولا كذا ، بفِراقِ
أخلُو بأفكارِى ، لتدنِىَ شخصَه خُدَعُ المُنَى من قلبِىَ الخفّاقِ
وأكرِّرُ التَسآلَ عنـــه بجاهلٍ علمِى ، وتلك عُلالةُ المشتاقِ
فإذا تسامحَ لى الزّمانُ بقُربِه من بعدِ بَيْنَىْ فُرقةٍ وشِقَاقِ
باثثته وجْدِى ، وقلتُ : يَرِقُّ لى فأجابَنى بالصَّمتِ والإطراقِ
ويلومُنِى فيـــه رفيقٌ يدَّعى نُصحِى ، أضاعَ النُّصحَ حتّى رِفاقِى
إيهاً ، كلانا يشتكى حَرَّ الهَوى لـكن جهلتَ تَبايُنَ العُشّاقِ
أنت استضأْتَ بنارِه متبصّراً وأنا صليتُ بجمرِهِ المِحراقِ
أتلومُنِى بعد الهبُوبِ من الكرَى وحشاكَ مثلوجٌ ، ودمعُك راقِ
لادرَّ درُّك ، سوف يُفرِدُك الهوَى مِنّى ، فـــلا تتعجّلَنَّ فِراقِى
أسلمْتَنِى للوجدِ ، إن أرضاكَ أن أضْنَى ، فكُلُّ رِضاىَ أنّك باقِ
إن جُرْتَ عن نهجِ الكرامِ فمرشدٌ[2] لك مُرشدٌ بمكارِمِ الأخلاقِ
فاعمَد لمجدِ الدِّينِ ، تلقَ المجدَ ما لاقيتَه ، أكرِم به من لاقِ
فإذا وصلتَ إلى أغرَّ محجَّبٍ مخلوقةٍ كفّاهُ للإنفـاقِ
فاربَعْ بربـعٍ لا يزالُ نَزِيلَه حُسنُ الثَّناءِ ، وخَشيةُ الخلّاقِ
وابلِـغْ تحيةَ نازحٍ قذَفَتْ به أيدِى النَّوَى فى أسحَقِ الآفاقِ
قد كانَ بالشّامِىِّ يُعرفُ بُرهةً من دَهرِهِ ، والآنَ فهو عِراقِ
أنضَى الوجيفُ[3] رِكابَه وجيادَه فكأنّهنّ قلائدُ الأعناقِ

(١) ظبى أغن : يخرج صوته من خياشيمه .
(٢) جد أسامة .
(٣) الوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل .

وهو الجليدُ على خُطوب زمانِه لا يشتكى منها سوى الأشواقِ

ينزُو لذكرِ أبى سلَامَةَ قلبُهُ فيكادُ يمرُق مِن حَشًا وصِفَاقِ (١)

واهتِف به : يا خيرَ من أرجوه لِلْـلأْوَاءِ (٢) أو أدعُوهُ يومَ تَلاقِ

بى لوعتَان عليكَ يضعفُ عنهما جَلَدى : من الأشواقِ والإشفاقِ

فالشوقُ أنت به العليمُ ، وغالبُ الإشفاقِ مما أنتَ فىَّ مُلاقِ

وإذا أخطأتكَ الحادثاتُ، فكلُّ ما ألقاهُ محمولٌ على الأحداقِ

فأجابَه ، رحمه الله ، بقصيدةٍ أوَّلُها :

أتظُنُّ أنِّى بعد بُعْدكَ بَاقِ أجزِى عن الأشواقِ بالأشواقِ

يقول فيها :

أأبا المظفَّر دعوةً تَشفِى الظَّما منِّى ، وإن أضحَى بها إحراقِى

لم أستكِنْ أبدا لخَطبٍ نازِلٍ إلّا لبُعدِك ، فهو غيرُ مُطاقِ

فإذا أطعتُ الوجدَ فيك أطاعنِى قلبِى،ويُبدى ، إن عصَيتُ ، شِقَاقِى

فإذا ذكرتُكَ خِلتُ أنِّى شَارِبٌ ثمِلٌ ،سَقاهُ من المُدامةِ سَاقِ

قَال : ووقف مؤدِّبى الشيخُ الخالى أبو عبدِ الله محمّدُ بنُ يوسف المعروفُ بابن المنَيِّرة ، رحمه الله ، على القصيدة ، فأجابنى عنها بقصيدة أولها :

يا راكبَ الشَّدَنِيَّةِ (٣) الغَيْداقِ (٤) ومُتَابِعَ الزَّمَلانِ (٥) بالإعنَاقِ

فى فتيةٍ وصَلُوا السُّرَى حتى انبَرت أجسامُهم أخفَى من الأرماقِ

(١) الصفاق (ككتاب) : الجلد الأسفل تحت الجلد الذى عليه الشعر ، أو ما بين الجلد والمصران ، أو جلد البطن كله .

(٢) اللأواء : الشدة . (٣) الشدنيات محركة من الإبل منسوبة إلى موضع باليمن أو فحل .

(٤) الغيداق : الطويل .

(٥) زمل يزمل (بضم الميم وكسرها) : عدا معتمدا فى أحد شقيه رافعا جنبه الآخر . والإعناق : الإسراع .

من كل مهتزٍّ بكف نُعاسه هزَّ الوليـــد ثِنَايَةَ المِخْرَاقِ[١]
وضَع النُّعاسُ على الأكف خُدودَهم فكأنَّهم خُلقوا بلا أعنَاقِ.
إمَّا بلغتُم سـالمين ، فبلِّغوا أوفَى تحيّـــةِ مُشئِمٍ لِعَراقِ
وتوسَّمُوا ذاكَ المحيَّا ، وامترُوا تِلكَ البنـانَ مفاتِحَ الأرزاق
من آل مُنقِذ الذين رِحَاصُهم ملأى من الزُّوَّارِ والطُّرَّاقِ
اللَّابِسينَ من المكارِمِ جُنَّةً ما للمَعَايِبِ غيرَها من وَاقِ
يتهلَّلُون لدَى النَّوالِ ، وفى الوغَى يَسطُون بالإرعاد والإبرَاقِ
يأيُّها المولَى الذى بِبِعادِه عنِّى ، قَرُبتُ من الرَّدى المُعتَاقِ
لى أنَّةُ الشَّاكِى الشجىِّ لما به إمَّا ذُكرتَ ، ولوعةُ المشتاق
وإذا الجفونُ نظرن بعدك نُزهةً عاقبتُهن بدمعِىَ المُهْراق
لا تطلُبَنْ منِّى المسرَّةَ؛ إنها عَذراءُ ، قد متَّعتُها بطَلاق
أمَّا أبوك فداؤُه مُستحكِمٌ ما إنْ له بِسواكَ من إفْراقِ[٢]
كيفَ السُّلُوُّ لَه ، وأنَّى صبرُه عن مُصطفًى بمكارِمِ الأخلاقِ
ذُو مُهجة تنزُو إليك ، ومقلةٍ تبكى عليك إليكَ بالأشواقِ
لمَّا علمتُ بعجزِه عن نَظمِ ما يُنهِى إليك ، وذاكَ باستحقاقِ
أجريتُ طِرفى فى سِباقك دُونه وعهِدتُه أبدًا من السُّبَّاقِ !
وبذلتُ جَهدى بالنِّيابةِ عنه بالـــنَّزْرِ القليلِ من الكثيرِ الباقِى
جريًا على شَغَفِى بكم ، ومحبَّتِى لكُمُ ، وحِفظِ العهد والميثاق

(١) المخراق : المنديل يلف ليضرب به . والثناية حبل من صوف أو شعر أو غيره .
(٢) أفرق : برئ .

(٢٥٢)

وكتب إلى أخيه عزّ الدّولة ، رحمه الله :

قد كنتُ أحسَبُ أن آ مدَ[١] مُنتهى أمد الفراقِ
وأُسكّنُ القلبَ الخَفُو قَ إليكم بِمُنَى التَّلاقِي
وأقولُ : قد رقّ الزَّما نُ لِبرحِ وجدِى واشتياقِى
وإذا بهِ مُستصغِرٌ ما قد لقِيتُ ، وما أُلاقِى
يقضِى بتشتِيتِى وإر جاء اللِّقاء إلى التَّلاقِى[٢]

(٢٥٣)

وكتب إلى الأمير السيّد ضياء الدّين ، أبِى عبدِ الله ، زيدِ بنِ محمد بن محمّد ابن عبيدِ الله الحُسينى ، نقيبِ الطالبيّين بالموصل :

ضياءَ الدّين ، ما شَوقٌ دعَانِى فاسمَعنِى بمصرَ من العِراقِ
بمحدُودٍ ، فأشرَحَه ، ولا فى قُوى الأقلام تسطيرُ اشتياقِى
ولكِنّى سأُنجِزُه ، وأرجُو مُشافهَتِى به عنـــدَ التلاقِى
إذا ما كنتُ جارَك ذَا اشتياقٍ إليكَ فكيفَ بى بعدَ الفراقِ
ولِى شكوَى من الأيّامِ أضحَتْ لها نَفسِى تَردَّدُ فى التَّراقِى[٣]
أُكلَّفُ من أذَاهَا فوقَ وُسعِى وأحمِـــلُ كارها غيرَ المُطاقِ
ويلزِمنِى الإباءُ الصبرَ فيما ينوبُ ، وطعمُهُ مرُّ المَذاقِ
ومغفورٌ لهـا ، إن أسعفَتْنِى بقربك ، ما لقيتُ ، وما أُلاقِى

---

(١) آمد : أعظم مدن ديار بكر ، وأجلها قدرا ، وأشهرها ذكرا . (ياقوت) .

(٢) يريد يوم التلاق : يوم القيامة .

(٣) التراقى : جمع ترقوة : مقدم الحلق فى أعلى الصدر ، حيثما يترقى فيه النفس .

وكتب إليه الملكُ الصالح رحمه الله هذه القصيدة بخط يده[١] :

أيها المُنقذىُّ[٢]، أنتَ على البُعـــدِ صديقٌ لنـا ، ونعمَ الصّديقُ
لَيس فيما تأتيه من برٍّ أفعا   لكَ للطالبِ الحقُوقِ عُقوقُ
فلهذَا نَرَى مُواصلةَ الكُتـــبِ تباعاً إليك ممـا يَليقُ
ونُناجيكَ بالمهمَّاتِ إذ أنْـــتَ بالقائها إليكَ خَليقُ
وأهمُّ الأمورِ[٣] أمرُ جهادِ الـــكُفرِ ، فاسمعْ ، فعندَنا التَّحقيقُ
وَاصَلتْهُم منا السَّرايَا[٤] فأشجَا   هُمُ[٥] بكُورٌ منَّا لَهُمْ ، وطُروقُ
وأبَاحَتْ ديارَهُم ، فأبادَ الـــقَومَ قتلٌ ملازمٌ وحَريقُ
وانتظرنا بزحْفنَا بُرءَ نُورِ الـــدين علمًا منَّا بأن سيفُيقُ
وهُوَ الآنَ فى أمانٍ من الـــلّهِ ، وما يعتريهِ أمرٌ يَعوقُ
ما لهذَا المُهمِّ مثلُكَ، مجدَ الـــدِّين ، فانهَض به فأنتَ حَقيقُ
قلْ لَه ، لاعَداهُ ، رأىٌ ولا زَا   لَ لَديه لِكلِ خيرٍ طَريقُ :
أنتَ فى حَسمِ دَاء طاغيةِ الـــكفَّارِ ذاكَ المرجوُّ والمرموقُ
فاغتنِم بالجهاد أجرَكَ ،كى تلـــقَى رفيقًا له ، ونعمَ الرّفيقُ

(٢٥٤)

فأجابه بهذه القصيدة :

كَم إلى كَم يُلحَى[٦] المحبُّ المشوقُ   وهو من سَكرةِ الهَوى لا يُفيقُ
عَذَلوهُ ، وهو الضّعيفُ من التَّعـــنيفِ فيهم واللّومِ ما لا يُطيقُ
شجَّعوهُ على القطيعـــة ، والصَّـــبُّ من الصَّدّ والفراقِ فَروقُ[٧]

---

(١) النص فى الروضتين أيضا ١ : ١١٦ . (٢) نسبة إلى منقذ : أحد آباء أسامة . وفى الروضتين : المقذى .
(٣) فى الروضتين : المهم . (٤) السرايا : جمع سرية . وهى الطائفة من الجيش .
(٥) أشجاه : أحزنه . (٦) يلحى : يلام . (٧) فرق كفرح : فزع .

ولَحْوه من ساحلِ البحر ، والمسكينُ في لُجَّة الغرامِ غَريقُ
والسَّقيمُ العاني يُعاني من الأو صابِ[١] ما لا عانَى المعافَى الطَّليقُ
يا عذُولى ، إليكَ عنّى ، فما أنـت ، كما تدَّعى ، الصَّديقُ الصَّدوقُ
ليس للصَّبِّ من تباريحِ ما يَلـقَى مُعينٌ ، ولا رفيقٌ رفيقُ
إنَّما الحبُّ كالقيامَة : ما فيـه حميمٌ ، ولا شقيقٌ شَفيقُ
وأخوُ الوجدِ ما إلى قلبِه المحـبوبِ بالحبِّ للسُّلوِّ طريقُ
خانَهُ الأصفياءُ حتَّى التَّأسّى وجفَاهُ حتَّى الخيالُ الطَّروقُ
وإذا نَهْنَهَ الدُّموعَ استجمَّتْ[٢] وهَمَتْ ، وهى لُؤْلُؤٌ وعقيقُ[٣]

(٢٥٥)

وكتب إلى الوزير نظامِ الدِّين ، رحمه الله :

نظامَ الدِّينِ كم فارقتُ خِلاًّ وكم صَلِيَتْ حشاى لظَى اشتياقِ[٤]
فلم أجزعْ لِفَجْعَاتِ التَّنائِى ولم أفرَقْ لروْعاتِ الفِراقِ
وهأنذا لِبُعـدِكَ إلفُ همٍّ تَفيضُ له النُّفوسُ من المآقِى
أُمَنِّى قَلبِىَ الخفَّاقَ شـوقاً إليكَ بِقُربِ أيَّامِ التَّـلاقى

(٢٥٦)

وكتب إلى شمسِ الدَّولة ابن أخيه :

أبا الحارثِ،اسلمْ من حوادثِ دهرِنا ومن حَرِّ أنفاس المشُوقِ المُفارقِ
أذُمُّ إليكَ البـينَ ، إنَّ وشيكَه[٥] رمَى كلَّ عظمٍ من عِظَامِى بعَارِقِ[٦]
وأضلاتُ شمسِى ، ثم أصبحتُ ناشدًا لهَا ، وهى فى غَربٍ ، بأرضِ المشَارِقِ
أروحُ وأغدُو فى همُومٍ تَعودُنى فيا لىَ من همَّينِ : غادٍ ، وطَارِق

(١) الوصب : المرض .
(٢) جم واستجم : كثر واجتمع .
(٣) باقى القصيدة ص ١٨٨ .
(٤) صلى النار : قاسى حرها . واللظى : النار أو لهبها .
(٥) وشيك : سريع .
(٦) عرق العظم عرقا : أكل ما عليه من اللحم .

قافية اللام

(٢٥٧)

وقال ، وكتب بها إلى أخيه عزّ الدولة :

أبا حَسَنٍ ، قد رَانَ(١) ، بعد بِعادكم على القلبِ ، همٌّ ، ما أراه يَزولُ
أعلِّلُ نَفسِى أننى سـأبُثّه إذا ما التقينا ، والرَّجاءُ مَطُولُ(٢)
إذا قلتُ : فى أعقابِ ذَا العامِ نلتقى تمادَى ، وأيامُ الهُمومِ تَطُولُ
وأقتَـلُ أدوائى بِعادُ أحبّتِى وداءُ التَّنائِى ، ما علمتَ ، قَتُولُ
وقد ساءَنى أنّ الليالِىَ غيَّرتْ أخلاَّى ، حتّى ما يدُومُ خليلُ
وجفوةُ "مجدِ الدِّين" أعدلُ شاهدٍ على أنّ أهواءَ القلوبِ تَحُولُ(٣)
أساءَ التَّنائى ظنَّه بِى ، وإنّنى لأعهدُه فى القُربِ ، وهوَ جَمِيلُ
جفَانِى زماناً لا مَلاَلاً ، وإنّما نَهته حُزُونٌ بَيننَا(٤) وسُهولُ
مفَاوِزُ لا يَسْطِيعُ قطعَ فِجاجِها(٥) رسولٌ ، ولو أنَّ الخيـالَ رسولُ
ولا ذَنبَ إلاّ للبِعادِ فمـا لَنـا دنوٌّ ، وحَظِّى فى الدُّنوِّ قليـلُ

(٢٥٨)

وكتب إليه ، وقد وصله منه كتابٌ غيرُ مختوم :

وافى كتابُكَ مفتوحاً ، فبشَّرنِى بِفتح سُبلِ اللقاء الزَّجرُ(٦) والفَالُ
فقلتُ : أحبِب بِهَا بُشرى إلىَّ ، وإن تعرَّضَتْ ، دونَ ما نَرجُوه ، أهوالُ

---

(١) ران : غلب .
(٢) المطل : التّسويف بالعدة .
(٣) تحول : تحوّل .
(٤) فى رواية بهامش الديوان (دوننا) .
(٥) الفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين .
(٦) زجر الطير : تفاءل به .

ثمّ اعتَرَتنِي أشواقٌ ، تُجهِّلُنِي كيف اطمأنَّتْ بِقلبِي بعدَك الحالُ
وكيفَ يَبقَى ، وما يَنفَكُّ ذَاوَجَلٍ خوفًا عليكَ،وفى الأَوجالِ[1] آجالُ

وكتب إليه الشريف ضياءُ الدِّين أبو عبد الله زيدُ بن محمدِ بنِ عبيدِ الله الحُسينى وهو بظاهر المَوْصل :

أبا المظفَّرِ ، أشواقٌ مبرِّحةٌ وما استقَلَّتْ[2] بكُمُ للبينِ أجمالُ
وأنتُمُ حيثُ إطْلَالِيَ بَيْنَكُمُ وما نأت دارُ من يُبديه إطلالُ
فكيفَ بى إن غَدا الهرماسُ[3] مشرَبكُم وحالَ من دونكم مرتٌ[4] وأحْبَالُ[5]
إذًا تُخبرُكَ الرُّكبانُ عن كَبِدٍ تَدمى[6] ، وعينٍ لها سَحٌّ وتَهمالُ
وعن مُودّعِ قلبٍ قد رحلتُ به يعتادُه لكُمَا همٌّ وبَلبَالُ[7]

(٢٥٩)

فأجابه :

يا خيرَ مَن عَلِقت كَفِّى مودّتَه وصُدِّقَتْ لِىَ فى عَلْياهُ آمالُ
ماذا أقُول ، وقلبِى قد تخلَّفَ عن جِسْمى،وزُمَّتْ[8] لوشك البين أجمالُ
وكم فُجِعتُ بروْعاتِ الفِراق ، ولا كَهٰذه ، لم يرُعْنِى قطُّ تَرحالُ
وقبلَ وشك النَّوَى قد كنتُ أحذَرُها كأنّ ذاكَ التَّوقّى قبلَها فَالُ
فإن تمادَتْ بِنا أيّامُ فُرقَتِنَا وكلُّ ساعاتِ بُعدى عنك آجالُ
فاحفَظ فؤادًا مقيمًا فى ذُرَاك،ولا تُسْلِمْهُ للشَّوقِ ؛ إنّ الشَّوقَ قتَّالُ

---

(١) الأوجال : جمع وجل ، وهو الخوف .
(٢) استقل : ارتحل .
(٣) الهرماس : نهر .
(٤) المرت : المفازة بلا نبات ، أو الأرض لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها .
(٥) الحبل من الرمل : المجتمع الكثير العالى .
(٦) دمى كرضى : تلوث بالدم .
(٧) البلبال : الوساوس وشدة الهم .
(٨) زم البعير : خطمه ، وتقدم فى السير .

وكتب إليه الملك الصّالح ، رحمه الله قصيدة من نظمه بخطّ يده :

أيُّها السَّائرُ المُجِــدُّ إلى الشَّـــامِ تُبارِي[1] رِكابُه والخيولُ
خُذْ على بلدةٍ بها دارُ مجد الــدّينِ[2]،لا ريعَ ربعُها المأهولُ
وتَعرَّفْ أخبارَه ، واقْرِه منّــا سلامًا فيــه العتابُ يجولُ
قلْ له : أنتَ نِعمَ ذخرُ الصَّــديق اليومَ،لكنّك الصّديقُ الملُولُ
ما ظنَنَّا بأنّ حالَك فى الــقُرب ولا البعد بالملاَل تَحولُ[3]
لا كتابٌ ، ولا جوابٌ ، ولاقَو لٌ ، به لليقينِ منّا حُصولُ
غيرَ أنَّا نُواصِلُ الكُتبَ إذ قصَّـــرَ منك البرُّ الكريمُ الوَصولُ[4]

(٢٦٠)

فأجابه :

أيْن سَمعى عمَّا يقولُ العذولُ أنا بالهَجرِ والنَّوى مَشغولُ
وسبيلُ السُّلوِ بادٍ لِعَيــنَىَّ ، وَلكنْ مالِى إليه سَبيلُ
مَا قَليلُ الغرامِ ، يامستريحَ القَــلب ، مما يلقَى المحبُّ ، قليـلُ
بِالهوَى هَامَ فى الفلاَ قيسُ ليلَى وبه ماتَ عُروةٌ[5] وجَميـلُ
فَاعفِ من لَومكَ المحبَّ ، كفاهُ مِن جَواهُ تَسهيدُه والنُّحولُ
لا تَظُنَّنَ وجدَ مَن فارقَ الأظـــعانَ يحثُّهنّ حادٍ عَجولُ
تَقطع البيدَ حاملاتٍ شُموسًا مالَها فى سِوَى الخُدورِ أُفُولُ
كلُّ شمسٍ تُنيرُ فَوقَ قَضيبٍ يتَهــادَى به كثيبٌ مَهيلُ
لاَ ولاَ وجدَ نازحٍ فارَق الأو طانَ،يهتاجُه الضُّحَى والأصيلُ

---

(١) تبارى أى تتبارى . و باراه : عارضه .
(٢) لقب أسامة .
(٣) حال الشىء : تحول .
(٤) باقى القصيدة فى ص ٢١٧
(٥) هو عروة بن حزام من متيمى العرب ، كان يحب ابنة عم له اسمها عفراء . وجميل هو جميل بثينة .

كلّما لامَهُ العذولُ مَرَى[1] دمْـــعًا تُبَـارِيه زَفرةٌ وعَويلُ[2]

مثلَ وجْدِى لِفُرقةِ المَلْكِ الصـــالِـح ، وهو المرجوُّ والمأمولُ

ومنها :

يا أميرَ الجيوشِ ، ياأعدلَ الحُـــكَّامِ فى فعله وفيما يقولُ

أنتَ تقضِى بالحقِّ،لستَ، وإن زالَتْ جبَالُ الأَرَضِينَ، عنه تزولُ

فبِماذَا قضيتَ يا سيِّدَ الحـــكَّامِ طُرًّا علىَّ أنِّى مَلُولُ

مَن يملُّ الحياةَ ، أمْ مَنْ عَليهِ مِن تَوالى أنفاســه تَثقيلُ

لا تَرُعْنى بالعَتْبِ ، فهو،على قَطْـــعِ رسُومِ[3] التَّشريفِ عَنّى،دليلُ

لى رسومٌ ، منها مواصلَةُ الـكُتْـــبِ ، وأنتَ البَرُّ الكريمُ الوَصولُ

وسِواهَا أغنَيْتَنِي عنه بالإنعـــامِ ، حتَّى لم يَبقَ لى تأميلُ

فأَعذِنى من قَطعِها ، فهى لى فخــرٌ ، به أُدرِكُ العُلا ، وأطُولُ

فبِوُدّى لو اطَّلعتَ على قلـــبى ، فيبدُو لك الوَلاءُ الدخيلُ

وتَرى أنَّ ما زَرعتَ من الإنـــعامِ، لم يُحص رَيعه التجميلُ[4]

قافية الميم

(٢٦١)

وقال ، وكتب إلى أبيه من قصيدة تقدَّم أوّلها[5] :

أبَنِى السُّرَى والبيد ، لا أغرَى الزّمانُ بكم عُرامَهْ[6]

هـــل فيكُم مَنْ مُبلِغ عنّى السَّلاَمَ أبَا سلامَهْ

---

(١) مرى : استخرج . (٢) العويل : رفع الصوت بالبكاء .

(٣) رسم بكذا : أمر به . (٤) لعله يريد بالتجميل ردّ الشىء عن تفرقة . أو من أجمل الحساب : ردّه الى الجملة . وبالهامش نقلا عن خط والده مرهف بالحاشية :

. وترى ريع ما زرعت من الإنعام عندى لم يحصه التأميل .

(٥) انظر ما سبق ص ٩٧ . (٦) السُّرى : سير عامة الليل . والبيد : الفلا . وعرام الزمان :

وتحيّـــةً كَشذا فتيـــقِ المسك ، صُفّقَ بالمُدامَهْ[١]
تُهدَى ، يضوعُ[٢] نسيمُها لأغرَّ عَصّاءٍ مَـلامَهْ
من جَامحِ العزماتِ ، لا يَرضَى على هُونٍ مُقَامَهْ
وقَّعنَ[٣] غَاربَهَ الخطو بُ ، ولم يزل يأبَى الظُّلامَهْ
يابن الخضَارمة[٤] الكرا مِ ، أولِى المكارمِ والكَرامَهْ
من كلِّ بسَّامٍ تَسُـــحُّ يداه للعافين سَـامَهْ[٥]
خَضلِ الجنَابِ إذا تردَّ ى الجوُّ من محَلٍ قَتَامَهْ[٦]
أأُسامُ خَسفًا ، ثمّ لا آبَى ، فلستُ إذًا أُسَامَهْ
هيهاتَ لا ترضَى المعا لِى صاحبًا يرضَى اهتضَامَهْ[٧]
وعلامَ يخشَى النّاسَ مَن لم يخشَ فى حالٍ حِمَامَهْ
مَن لاتَراهُ إثرَ شى ءٍ فائتٍ يُبدى النَّدامَهْ
وإذا حوَى الرغباتِ أمـــضَى للعُلا[٨] فيها احتكَامَهْ
لو أنكرَتْ أجفانُه طيفَ الخيالِ جفَا مَنَامَهْ

(٢٦٢)

وقال ، وكتب بها إلى القاضِى الرشيدِ[٩] ، أبِى الحسينِ أحمَدَ بنِ علىٍّ بنِ الزُّبيرِ إلى مصرَ ، فى ضِمنِ كتَابٍ :

سرَتْ سُرَى الطَّيفِ من مصرٍ إلى الشّامِ وكيفَ أشكرُ مَن أسدَى إلىَّ يدًا
عنِّى عيونُ أخلائِى ، وأيَّامِى رأى مكانِى على بُعدِى ، وقد عَشيَتْ
ظِلِّى ، وأعرَضَ عنِّى طيفُ أحلامِى مُحافظًا لعُهودى ، حين أفردَنِى

(١) فتق الطيب : خلطه . والتصفيق تحويل الشراب من إناء إلى إناء ممزوجا ليصفو .
(٢) ضاع المسك : تحرك ، فانتشرت رائحته . (٣) وقعته كوضعته : كويته .
(٤) الخضارمة : جمع خضرم وهو الجواد المعطاء والسيد الحمول .
(٥) السام : الذهب والفضة . (٦) القتام : الغبار . والمحل : الجدب .
(٧) الاهتضام : الظلم . (٨) فى رواية بهامش الديوان (للندى) . (٩) انظر ما سبق ص ١٢١ .

(٢٦٣)

وكتبتُ إلى الأمير السّيِّد الشّريف النّقيب ضياء الدين ، أعتذرُ من تأخر كتبي عنه ، فى ورق أصفر :

قَصَّرتُ فى خِدَمى تقصيرَ مُعترِف — وما كذَا يَفعلُ الإخوانُ والخَدمُ
حتّى تعصفَرَ لونُ الطِّرسِ من وجَلٍ — فإن صفحتَ جرَى فى وجنتيه دمُ
ولو تجافتْ لىَ الأيّامُ عن وطَرِى — لنابَ عن قلَمِى فى سَعيِه القدمُ
و بعدَ عُذرى فقد أقرحتُ من أسَفٍ — جفْنى ، وأدمَى بنانى بعدكَ النَّدمُ
أطعتُ حُكمَ الليالِى فى فراقِ مَن — وِجدانُنا كُلَّ شىء بعدَه عدَمُ[1]
لِمْ لا تَصامَمتُ عن داعى الفراقِ، ومَا — بَالِى صَلِيتُ لَظَاهُ ، وهو يَحتدمُ
فإن تُقِلْنِى اللَّيالِى عَثرَتِى ، وأفُز — بالقُربِ منكَ فميعادُ اللقَا الرَّدَمُ[2]

فكتب إليه جوابا عنها أبياتاً أوّلها :

جاءَ الكتابُ ، وقد تَعصْفَرَ لونُه — خوفَ الهلاكِ علَىَّ من إبطائهِ
فأعادَ لى رَوحَ الحياة وُصُولُه — ولقيتُ قاصيةَ المنى بِلقائهِ

(٢٦٤)

وقال ، وكان له على ديوانِ الصِّناعة ، قبلَ أيّام الملك الصّالِح (رحمه الله) فى كلّ ســنةٍ خُروجُ كَتّانٍ بمائة دينار ، فأحال بها تُجّارًا من أهل الشام عن ثمنِ كُسوة قَبَضَها منهم ، وتمادى مُقامهم فى الدّيار المصريّة إلى أن خَرج منها ،

(١) مضمن قول أبى الطيب المتنبى (٢٥٤ ط هندية) :
يا من يعز علينا أن نفارقهم — وجداننا كل شىء بعدكم عدم
(٢) الردم : بلدة بالبحرين وموضع بمكة .

فمُنِعوا من الإطلاق ، ووصلُوا إلى الشّام ، ولم يقبضوا ممّـا لَهُم فى جهته شيئا ، فسألوه فى رقعةٍ يرفعونها إلى الملك الصالح رحمه الله ، فكتب إليه مُطالعةً ، ضمّنها هذه الأبيات :

يُلَظُّ[1] بالدّينِ مَن مولاهُ مُسلِمُه حتّى يُخلّصَهُ السُّلطانُ والحَكَمُ
لكنَّ مولايَ يَقضِى ما استَدنتُ ، ولَا يَلْقَى سُؤالِىَ منهُ الصّدُّ والسّأمُ
فكفُّه البحرُ ، لكن موجُهُ بِدَرٌ[2] وجودُه الغيثُ ، لكن وبلُه[3] نِعَمُ

فأمر الملك الصالح بتجديد التوقيع ، ووفاء التجار ، وتخليد التوقيع فى الدواوين ، واستمرار الإطلاق ، وكتب إليه هذه القصيدة من نظمه بخطه :

أقسمتُ بالجودِ منّا ، إنه قَسَمُ وبالمودةِ منكُم ، إنهَا رَحِمُ
إنّا لَنحفظُ فيكم مَعْ بِعادِكُمُ شَرِيعةً سنّها فى دينِنا الكَرَمُ
وكلّما رامَ واشٍ نقضَ مذهبِها أضحتْ تُؤكِّدُهُ الأخلاقُ والشِّيَمُ
لَسنا كقومٍ ، ولانُزرى[4] على أحدٍ وَلُوا ، فلما رجوتُم عدلَهُم ظلَمُوا[5]
بعلمِنَا قد حكمنا فى إخائِكُمُ دهرًا ، وما حكَمُوا فيكم بمَا عَلِمُوا
لم يعرِفُوا لـكُمُ قدرًا ، وإن كَرُمتْ أخلاقُهم ، وعرفنا قدرَ فضلِكُمُ
وليَس ذاكَ لشيءٍ غيرَ أنّهمُ بالطبعِ لَا تنفُقُ[6] الآدابُ عندهُمُ
والعرُبُ ، أقتَلُ داء يهلِكُون به أن تَملِكَ الحُكمَ فى أعناقِهَا عَجَمُ
ترقّتْ منك ، مجدَ الدين ، همّةُ مَن نُجومُه فى سموات العُلا الهِمَمُ

(١) ألظ الغريم : منع من الحق .
(٢) البدر : جمع بدرة ، وهى كيس فيه سبعة آلاف دينار .
(٣) الوبل : المطر الشديد الضخم .
(٤) أزرى عليه : عابه .
(٥) يشير إلى قصيدة أسامة الميمية التى مطلعها :
ولوا فلما رجونا عدلهم ظلموا فليتهم حكموا فينا بما علموا
(وانظر ص ٤٠)
(٦) نفق : راج .

إذا تأخرتِ الآدابُ وامتنعتْ   تقدَّمتْ لك فى إحرازِها قَدمُ
وإن نظمتَ قريضًا فى مكاتبةٍ   فالبحرُ مازالَ منه الدُّرُّ يُنتظَمُ
لله كُتْبٌ توالت ضِمنها دُررٌ   من بحرِ علمِك قالوا : إنها كَلِمُ
يَقِلُّ فى فَضلِهَا أمثالُها ، فإذا   تلوتَها ، فَهى الأمثالُ والحِكَمُ
سألتَ ماقد أجبتَاه،ومابرِحتْ   قُصَّادُنا فى الّذى نحويه تحتكِمُ
إن أمسَكَ الغيثُ فانظرْ ماتجىءُ به   أنواؤُنا[1] ، فهى مهما شئتَها دِيَمُ
ولو حللْتَ بِوادِينا على وجَلٍ   أيقنْتَ من غيرِ شكٍّ أنّه الحَرَمُ
والأرضُ مابرِحت مثلَ الرجال   يُرى من الرجالِ لَهَا الإثراءُ والعُدمُ
كذاكَ إن قلَّ حظُّ الودِّ عندكمُ   فالحظُّ كالرّزقِ ما بين الورَى قِسَمُ
يا غائبينَ ، وقد أضحت منازلهمُ   صُدورَنا ، هل علمتُم أنها حَرَمُ
قُولوا لنا : هل وجدتُم معْ جَفائكُم   رحابَها اليومَ أحمَى أم حصونكُمُ
بالسَّهلِ منها اعتصمتُم عن مُعانِدكم   والنّاسُ من قبلُ بالأجبالِ تَعتصِمُ
قالُوا : المعارفُ فى أهلِ النُّهى ذِممٌ   وقد غَدا بينَنا العرفانُ والذِّمَمُ[2]
وما نُلِطُّ[3] بدَينٍ تدّعُون به   حتّى يخلّصَه السّلطانُ والحَكَمُ
بل عندَنا إن سألتُم واثقين بنا   فى حاجَةٍ نِعمٌ ، جوابُها نَعَمُ
بعُدْتُمُ ، ومُنَانَا الآنَ قربُكُمُ   فكيف يَعتادُنا فى ودِّكُم سأَمُ
لو أبصرتْ ، لارأتْ سوءًا عيونُكُم   جَوارحى اليوم فيكُم وهى تختصِمُ

---

(١) النوء : المطر .

(٢) يشير إلى قول المتنبي (٢٥٤ ط هندية) :

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة   إن المعارف فى أهل النهى ذمم

(٣) انظر ما سبق ص ١٤٤ .

تقولُ عَيني لقلبي : قد ظفِرتَ بهم دُوني ، ومالكَ مثلي أدمعٌ سُجُمُ[١]
وقَولُ قَلبي لعيني : إن حظِيتُ بهم مع بُعدهم فلِيَ الأشواقُ والألَمُ
إذاً رأيتَ مليكاً ظلَّ يملِكهُ وفاؤه ، وبَنُو الدُّنيا له خَدَمُ

(٢٦٥)

وقال من قصيدة تقدّم أوّلها[٢] :

يا راكباً تقطعُ البيداءَ همّتُه والعِيسُ تعجزُ عما تُدرك الهِمَمُ
بلِّغ أميري : مُعينَ الدّين ، مألُكةً[٣] مِن نازحِ الدّارِ ، لكن وُدّه أَمَمُ[٤]
وقل له : أنت خيرُ التّركِ فضّلكَ الـــحياءُ ، والدّينُ ، والإقدامُ ، والكرمُ
وأنت أعدلُ من يُشكَى إليه ، ولِي شَكيّةٌ ، أنت فيها الخصمُ والحكَمُ[٥]
هل في القضّيةِ يامَن فضلُ دولته وعدلُ سِـــيرتِه بين الورَى عَـلَمُ
تَضييعُ واجبِ حقٍّ بعد ماشَهدت به النّصيحةُ ، والإخلاصُ ، والخِدَمُ
وما ظننتُكَ تَنسى حقَّ معرفَتِي إنَّ المعارفَ في أهلِ النُّهى ذِمَمُ[٦]
ولا اعتقدتُ الذي بيني و بينَك : من وُدٍ ، و إن أجلبَ[٧] الأعداءُ ، ينصرمُ
لكن ثِقاتُك ما زالوا بِغِشّهمْ[٨] حتى استوتْ عندَكَ الأنوارُ والظُّلَمُ[٩]
باعُوكَ بالبَخسِ ، يبغُون الغِنَى ، ولهمُ لو أنّهم عَدِمُوك ، الويلُ ، والعدَمُ

---

(١) سجم الدمع : سال .
(٢) انظر القصيدة ص ٤٠ .
(٣) المألكة : الرسالة .
(٤) الأمم : القرب .
(٥) مضمن قول المتنبي : (يا أعدل الناس إلا في معاملتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم)
(٦) عجز بيت المتنبي وانظر الهامش (٢) بالصفحة السابقة .
(٧) أجلبوا : تجمعوا .
(٨) في الخريدة (بعتبهم) تحريف .
(٩) مضمن قول المتنبي (٢٥٣ ط هندية) :
(وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم)

والله ما نَصَحُوا ، لما استَشرتَهمُ — وكلُّهم ذُو هوًى فى الرأي مُتَّهَمُ
كم حرَّفُوا من مقالٍ فى سِفَارَتهم — وكم سَعَوْا بفسادٍ ، ضَلَّ سعيهُمُ
أينَ الحميَّةُ[١] والنفسُ الأبيَّةُ ، إذ — ساموك خُطَّةَ خسفٍ عارُها يَصِمُ[٢]
هــلَّا أنِفتَ حياءً ، أو محافظةً — مِن فعلِ ما أنكرتْه العُرْبُ والعَجَمُ
أسلمتَنَا ، وسيوفُ الهندِ مُغمدةٌ — ولم يُرَوَّ سنانَ السمهرىِّ[٣] دَمُ
وكنتُ أحسَبُ مَن والاكَ فى حَرَمٍ — لا يَعترِيه به شيبٌ ولا هَرَمُ
وأنَّ جارَكَ جارٌ للسموءَل[٤] ، لا — يَخشَى الأعادى ، ولا تغتالُه النِّقَمُ
وما طُمانُ[٥] بأولى من أُسامةَ بالـــوفاء ، لكن جرى بالكائنِ القلمُ
هَبنا جَنَيْنا ذُنوبًا ، لا يكفِّرها — عُذرٌ ، فماذا جَنى الأطفالُ والحُرُمُ
ألقيتَهُم فى يَدِ الإفرنج مُتَّبِعًا — رضًا عداً يُسخِط الرحمنَ فعلُهُمُ
هُمُ الأعادى ، وقاكَ اللهُ شرَّهمُ — وهُم بزعمهمُ الأعوانُ والخَدَمُ
إذا نهضتَ إلى مجدٍ تؤثّله[٦] — تقاعَدُوا ، فإذا شيَّدتَه هَدَمُوا
وإن عَرَتْكَ من الأيامِ نائبةٌ — فكلُّهمْ للذى يُبْكِيكَ مُبْتَسِمُ
حتَّى إذا ما انجلَت عنهم غيابَتُها[٧] — بحدِّ عزمِك ، وهو الصارمُ الخذِمُ[٨]
رَشفتَ آجنَ[٩] عيشٍ ، كلُّه كَدَرٌ — ووِردُهم من نَداكَ السلسلُ الشَّبِمُ[١٠]
وإن أتاهُم بقولٍ عنك مُختَلَقٍ — واشٍ ، فذاكَ الذى يُحبَى[١١] ، ويُحترَمُ

---

(١) الحمية : الأنفة .

(٢) وصم الشىء : عابه . وسامه : كلفه .

(٣) السمهرىّ : الرمح الصُّلْب .

(٤) السموءل بن عادياء .

(٥) طمان خادم تركى كان لأتابك ملك الأمراء زنكى بن آق سنقر هرب من خدمته إلى دمشق فطلبه أتابك الشهيد ولج فيه فاشتمل عليه معين الدين أنر لجنسية وحماه . فلما ألح فى طلبه سيره إلى العرب إلى البرية ، وقام له بما احتاجه إلى أن رده إلى خدمته بدمشق (وانظر الروضتين ١ : ١١٣) .

(٦) أثله : أصله .

(٧) غيابة كل شىء : ما سترك منه .

(٨) الخذم : القاطع .

(٩) الآجن : الماء المتغير الطعم واللون .

(١٠) الشبم : البارد .

(١١) حباه : أعطاه .

وكلُّ من ملتَ عنه قرَّبُوه ، ومَن   والاكَ فهو الذى يُقْصَى ، ويُهْتَضَمُ[١]
بغيًا ، وكفرًا لما أوليتَ من مِنَنٍ   ومرتَعُ البغيِ، لولا جهلُهم ، وَخِمُ[٢]
جرِّبْهم مثلَ تجريبي ، لتخبُرَهُم   فالرِّجالِ إذا ما جُرِّبوا قِيَمُ
هل فيهمُ رجلٌ يُغنى غَنَاى إذَا   جَلَا الحوادثَ حدُّ السّيفِ والقَلَمُ
أم فيهمُ مَن له فى الخطبِ ضَاقَ به   ذَرعُ الرجالِ يَدٌ يَسطو بها وفَمُ
لكنَّ رأيَكَ أدناهُم ، وأبعَدَنى   فليتَ أنَّا بِقَدرِ الحبِّ نَقْتَسِمُ[٣]
وما سَخِطتُ بِعادِى إذ رضِيتَ به   وما بِجُرحٍ إذا أرضاكُمُ أَلَمُ[٤]
ولستُ آسَى[٥] على التَّرحالِ عن بلد   شُهبُ البزاة سواءٌ فيه والرَّخَمُ[٦]
تعلَّقَتْ بحبالِ الشمس منه[٧] يَدِى   ثمّ انثنَت وهى صفرٌ[٨] ، ملؤُها نَدَمُ
لكنْ فراقُكَ آسانِي ، وآسَفَنِي   ففِى الجوانحِ نارٌ منه تَضطرمُ
فاسْلم، فما عشتَ لِى فالدهرُ طوعُ يدى   وكُلّ مانالَنِي من بؤسه نِعَمُ[٩]

(٢٦٦)

وقال ، وكتب بها إلى ابن عمّه الأمير ناصرِ الدّين تاج الدّولة أبي عبد الله محمدِ بنِ سلطان بن عليّ بنِ مقلّد بنِ نصر بنِ منقذ ، رحمه الله ، يستعينه فى فَكاك أخيه نجمِ الدّولة أبي عبدِ الله محمد بنِ مُرشد بنِ علىّ من أسر الفرنج ، وكان أسر

---

(١) الاهتضام : الظلم . (٢) أرض وخمة : لا ينجع كلؤها .

(٣) عجز بيت المتنبي :
(إن كان يجمعنا حب لغرته   فليت أنا بقدر الحب نقتسم)

(٤) عجز بيت المتنبي :
(إن كان سركم ما قال حاسدنا   فما لجرح إذا أرضاكم ألم)

(٥) أسيت عليه : حزنت . (٦) عجز بيت المتنبي :
(وشر ما قنصته راحتى قنص   شهب البزاة سواء فيه والرخم)
والبازى : ضرب من الصقور . والشهبة : بياض يصدعه سواد . والرخم : جمع رخمة وهى طائر ضعيف .

(٧) فى خريدة القصر (فيه) . (٨) صفر : خالية .

(٩) اقتصر معجم الأدباء وكتاب الروضتين على جزء من هذه القصيدة مع اختلاف فى التقديم والتأخير أحيانا .

فى طريق مصر ، وقد خرج معهم فى خروجهم مع الأفضلِ عبَّاسِ بنِ أبى الفتوح ابن يحيىَ بن تميم بن المعز بن باديس وزير مصر يومئذ والسلطان بها :

ياناصرَ الدِّين ، يابنَ الأكرمينَ ، ومَن … يُغنى نَدَى كفِّه عن وابلِ الدِّيَمِ[١]
ومَن حوَى السَّبقَ فى فضلٍ ، وفى ورعٍ … وفى عفافٍ ، وفى دينٍ ، وفى كَرَم
أنت العَيِيُّ ، على مَا فيكَ من لَسَنٍ … عَن (لاَ) ، وأفصحُ خلقِ الله فى (نَعَم)
تُولى الجميــلَ بلا منٍّ تكدرهُ … لا كدَّر اللهُ ما أولاكَ من نِعَم
هذا ابنُ عمِّك فى أسرِ الفرنج ، له … حولٌ تجرَّم[٢] ، فى الأغلالِ والظُّلَم
يدعُوكَ ، لا بل أنا الدَّاعى نداكَ له … ياخيرَ من علِقته كفُّ معتصمِ
وأنت أكرمُ مَن تَثْنِيه عاطفةُ الــقُربَى ، ويرجوهُ للجُلَّى ذوو الرَّحمِ
ومَن تكنْ أنتَ مولاهُ وناصرَهُ … فكيف تسطو عليه كفُّ مهتضِمِ
لا تُحْوِجَنِّى إلى منِّ الرجالِ ، فمـا … حملُ الأيادى ، وإنْ أعسرْتُ ، من شِيمى
ولا تظنَّنِى أدعو سِواك ، ولا … يفوهُ مجتدياً إلا إليكَ فَمِى
علامَ أرتشف الرَّنْقَ[٣] الأُجَاجَ ، وقد … روَّيتَ كلَّ صدٍ من بحرِك الشَّبِمِ
أنا ابنُ عمِّك ، فاجعلنى بفكِّ أخى … من أسرِه ، لك عبداً ، مامشتْ قَدَمِى
فِملكُ مثلىَ لا يغلُو بما بَذَلَ المبْــتَاعُ فيه ، ولا يُستام[٤] بالقِيَمِ

فلم يحرِّكه الشِّعرُ ، ولا سعى فى خلاصه ، ولا أعَان عليه ، وادَّخر الله تعالى أجرَ خَلاصه وحسنَ ذكره ، للولى الملكِ العادلِ نُورِ الدِّين أدَام الله أيامَه ، فوهبه فارسًا من مقدّمى الدّاوية[٥] ، يقال له المَشطوبُ ، قد بذَل الفرنج فيه عشرة آلاف دينار ، فاستخلَص به أخاهُ من الأسر .

---

(١) الديم : جمع ديمة وهى مطر يدوم فى سكون بلا رعد و برق . (٢) تجرم : كمل .
(٣) فى الأصل : العذب . والتصحيح من رواية على هامش النسخة . ورنق الماء كفرح ونصر رنقا بسكون النون فتحها ورنوقا : كدر . والأجاج : الملح المر .
(٤) استام السلعة : طلب بيعها . (٥) الداوية : طائفة من الفرنج الصليبيين .

قافية النون

(٢٦٧)

وقَال ، وكتب بها إلى أخيه عزِ الدَّولةِ رحمه الله :

هَذَا كتابُ فَتًى أَحلَّته النَّوَى   أُوطَانَها ، ونَبَتْ[١] به أُوطَانُهُ
شَطَّتْ به عمَّن يُحبُّ دِيارُهُ   وتفرَّقتْ أيدِى سَبَا[٢] إِخوانُهُ
مُتَتَابِعِ الزَّفراتِ بَين ضُلوعه   قَلبٌ يبوحُ بسرِّه[٣] خَفقَانُهُ
تأوِى إليــه مع الظَّلامِ همُومُه   وتذُودُه[٤] عن نَومه أَشجانُهُ
أَلِفتْ مُقارَعَةَ الكُماةِ[٥] جيادُه   وسُرى[٦] الهَواجِرِ[٧] ، لا نِيِّ ذَمَلانُهُ[٨]
يومَانِ أجمعُ دهرِهِ إمَّا سُرًى   أو يومُ حَربٍ تَلتَظى نِيرانُهُ
لكنَّه لا يستكينُ لحَادِثٍ   خوفَ الحِمَامِ ، ولا يُرَاعُ جَنَانُهُ

(٢٦٨)

وكتبَ فى صدرِ كتاب :

أَحِنُّ إليكمُ ، والمَهامهُ بيْنَنَا   حَنينَ أُلُوفٍ بانَ عنها قَرينُها
وأَسْتُرُ أشواقِى ، وأعلَمُ أنَّ لِى   لدَى ذِكرِكُمْ ،أنفاسَ وجْدٍ تُبينُها

---

(١) لم توافقه .

(٢) تفرقوا أيدى سبأ : تبددوا .

(٣) بهامش النسخة (ببثه) رواية .

(٤) الذود : الطرد والدفع .

(٥) الكماة : جمع كمىّ ،وهو الشّجاع .

(٦) السرى : سيرعامةِ الليل .

(٣) يقال ناقة مهجرة : فائقة فى الشحم والسير . والمهجر : النجيب الجميل والجيد من كل شىء والفائق الفاضل على غيره كالمهجر (ككنف) والهاجر .

(٤) الذميل ضرب من سير الإبل ، قيل هو السير اللين . ذمل يذمل ذميلا وذملانا .

(٢٦٩)

وكتبَ إلى صديقٍ له بمصر :

نفسى الفداءُ لمن أذُودُ بذكرِه عَنِّى عَوادِى الهَمِّ والأشجانِ
وإذَا فررتُ من الخطوبِ جَعلته فئتى[1] فيفُرِقُها[2] امتناعُ مكانى
وكأنَّ مُعجزةَ المسيحِ كتابهُ فإذا قَضَيتُ[3] من الأسى أحيانى

(٢٧٠)

وكتَب إلى أخيه عزِّ الدّولة :

وإنَّ امرأً أضحى "بإربلَ" دارُه وفى شيزَرٍ[4] أحبابُه وشجُونه
لَغيرُ مَلُومٍ فى الحنينِ إليهمُ وَمعذُورةٌ أن تستَهِلَّ جفُونُه[5]

قافية الهـاء

(٢٧١)

ومِمـا يلتحقُ بهذَا الباب قولُه يُعاتب[6] :

إن ألقَه سرَّهُ قُربى ، وآنَسَهُ وإن أغِبْ صدَّ عَنِّى مُعرِضاً ، ولهَا
كأنَّنى مَيّتٌ ، فى النَّوم يُبهجهُ لقاؤُه ، ثم ينساه إذا انتبهَا

---

(١) الفئة : الطائفة .

(٢) يفرقها : يفزعها .

(٣) قضى : مات . والأسى : الحزن .

(٤) إربل : مدينة كبيرة من أعمال الموصل . وشيزر : قلعة كانت لبنى منقذ بالقرب من حماة بالشام .

(٥) فى هامش الديوان عن نسخة (شئونه) . والشئون : جمع شأن وهو مجرى الدمع الى العين . واستهل المطر : اشتد انصبابه .

(٦) البيتان من مختارات المسالك لأسامة (١٠ : ٥٠٦) .

قافية اليـاء

(٢٧٢)

وقَالَ :

وافى كتَابُكَ مُعلِنًا بسلاَمةٍ   قَدَحَتْ زِنَادًا فى الجوَانحِ وَاريًا[1]

وقَرأتُه ، فوجدتُ طَرفى ضَاحِكاً   فَرِحًا برؤيَته ، وقَلبى بَاكِيَا

وتَعمَّدَتْنى نَافِذاتُ سهامِه   حتَّى إذا أَصْمَيْنَ[2] عُدْنَ مَكَاوِيَا

وتَطلَّعَتْ منه أَرَاقِمُ رَمْلَةٍ   يُردى السليمَ لُعابُها والرَّاقيَا[3]

فكأنَّ ذَاكَ الطِّرْسَ[4] أضحَى سَلَّةَ الحَاوى ، وهَاتِيكَ السُّطورُ أَفَاعيا

---

(١) ورت النار : اتقدت .

(٢) أصمى الصيد : رماه ، فقتله بمكانه .

(٣) الأرقم : جمع ارقم وهو أخبث الحيّات وأطلبها للناس . و يردى : يهلك . والسليم : اللديغ .

(٤) الطّرس : الصحيفة .

باب الأوصاف

قافية البـاء

(٢٧٣)

من قصيدةٍ كتبها إليه الملكُ الصالحُ ، يصفُ الزَّلزلَةَ الكائنةَ بشيزَر :[١]

رَقَصتْ أرضُه عشيَّةَ غنَّى الرّ   عدُ فى الجوّ ، والكريمُ طَروبُ
وتَثَنَّتْ حِيطانهُ ، فأمالتْـــهَا   شَمالٌ بزَمْرِها ، وجَنُوبُ
لا هُبُوبٌ لنـائمٍ من أمانيـــهِ   ، وللعاصفاتِ فيها هُبوبُ
وأرَى البرقَ شامتًا ضاحكَ السِّـــنِّ   ، وللجوِّ بالغمامِ قُطوبُ
ذكرُوا أنَّه تَذوبُ به السُّحـــبُ   ، فما للصُّخورِ أيضا تذوبُ
أبذَنْبٍ أصابهـا قدَرُ اللّـــهِ   ، فللأرضِ كالأنامِ ذُنُوبُ!

قافية الدال

(٢٧٤)

وقال فى ضرس قلعه[٢] :

وصَاحِبٍ لاتُمَلُّ[٣] الدَّهرَ صُحْبَتُهُ   يشْقَى لِنفعى ، ويسعَى سعىَ مُجْتَهِد
لم ألقَه مذ تَصَاحَبْنَا ، فحينَ بَدَا   لِنَاظِرىَّ افترقْنَا فُرقَةَ الأَبدِ

---

(١) راجع ص ٧ و ١٦٤ و ٢٩٦ وورد معظمه فى الروضتين ١ : ١٠٦ و ١١٨

(٢) هذان البيتان رواهما ياقوت ٥ : ١٩٤ ، ومسالك الأبصار ١٠ : ٥٠٨ ، وكتاب الروضتين ٢ : ٢٦٤

(٣) الراوية فى ياقوت والخريدة (لا أمل)

قافية العين

(٢٧٥)

وقال فى الشَّمعة :

أنِيسىَ فى ليـلِ القطيعةِ مُشْبِهى: نُحولاً ، وتَسهيدًا ، ولوناً ، وأدْمُعَا
أُواجِهُ وجهاً منـــه حيثُ رأيتَه   منـيراً إلى مَن أمَّهُ متطَلِّعَـا
كمُلبس جِسمِى سُقمَ جفنَيْهِ حيثُما   بَدَا لِىَ عاينتُ المـــلاحةَ أجمَعَـا

(٢٧٦)

وقال فيها :

وَمفـردةٍ تبكِى إذا جَنَّ ليلُهـا   خُفَاتًا ، وفى أحشائِها النَّارُ واللَّذْعُ
تذوبُ جوًى ، إمَّا لصدٍّ وهجـــرةٍ   وإمَّا لِبَينٍ ، ما لِتشتيتِـــه جَمْـعُ
فــلم أرَ جمراً ذائباً غيرَ دَمعِهـا   ولا جِسمَ باكٍ قَبْلَهـــا كلُّه دمْعُ

قافية القاف

(٢٧٧)

وقال من أبيات :

وسلِّ عنكَ الهمومَ إن طرقَتْ   ببنتِ كرمٍ ، فى الكأسِ تأتَلِقُ
إذا فــرَاها[1] المزَاجُ أضرَمَهـا   وقلتَ : أيدِى السُّقَاة تحـترِقُ

---

(١) فراه يفريه : شقه . وهذا البيت والبيت بعده مما اختاره مسالك الأبصار لأسامة (١٠ : ٥٠٣) .

تَوَّجَها المـاءُ من فَواقِعِه   تَاجًا ، به تَرتَدِى وتَنْتَطِـقُ[1]
يُقـالُ : ما تستقـرُّ والهمُّ فى   صدرٍ ، فيـا نِعمتاه لو صَدَقُوا
وأينَ مِن هَمِّىَ المُدامُ ، وقـد   سُدَّتْ عليهـا من دُونِه الطُّرُقُ

(٢٧٨)

وقال فى ضرس قلعه[2] :

اعجَبْ لمحتجبٍ عن كلِّ ذى نَظَرٍ   صحبتُه الدّهرَ، لم أسبُر[3] خَلائقَه
حتى إذا رَابَنِى قَابلتُه ، فَقَضَى   حَياؤُه وإبائِى أن أفَارِقَه

قافية الميم

(٢٧٩)

وقال فى مقْلمة كيمخت[4] أسودَ ، أُهديت إليه ، وفيها أقلامٌ مبريّة وسكّين:

وافتْكَ حالِكَةُ السَّواد ، يخالُها   صبغَ الشَّباب النَّاظـرُ المتوسِّمُ
فيها رِماحُ الخطِّ مُرْهفَةَ الشَّبا[5]   تُردى الطَّعينَ،ولا يُضرِّجها[6] دَمُ
من كلِّ أهيفَ إن جَرَى فى طِرسه   نَاجى ، فأفهَمَ ، وهو لَا يتكلّمُ
بيضُ الأيادى فى سواد لُعابِه   فكأنّمـا الأرزاقُ منـه تُقسَّمُ
تَحوِى مُسلَّطَةً[7] عليهَا ، يختَشى   من حدِّها المـاضِى الحسامُ المخذَمُ[8]
تَأديبُهـا لهمُ بقَطعِ رُءُوسِهم   إن قَصَّروا فى السَّعىِ عمـا تَرسُمُ
فانعَم بحُسنِ قبولِهـا مُتطوِّلاً   فالشـكرُ لَا يَحويه إلّا مُنعِمُ

---

(١) ترتدى : تلبس الرداء . وتنتطق : تلبس المنطقة .
(٢) راجع وصفه للضرس ص ١٥٣ .
(٣) لم أسبر : لم أختبر .
(٤) نوع من الجلود .
(٥) الشبا : جمع شباة ، وهى حد كل شىء .
(٦) ضرجه : لطخه .
(٧) المسلطة هنا يراد بها : السكين .
(٨) المخذم : القاطع .

باب المُلَح

قافية البـاء

(٢٨٠)

وقال على لسان الشيخ أبي صالح بنِ المهذَّب رحمه الله ، على سبيل المداعبة، فى جارية اسمها شَوق ، كانت لبعض العرب النَّازلين بشَيزر ، وكان ينفرُ من ذكرها له :

قُولا لريم(١) فى حِلَّة(٢) العَرب : إليكَ أشكُو ما يَصْنَعُ اسمُك بى
بمـا استجازَت عيناكِ سفكَ دَمِى وأَخَذَ قَلبى فى جُملة السَّلَب
جارُك أولَى برعْىِ ذمَّتِــه إن أنْتِ راعيت حُرمةَ الصَّقَب(٣)
لولاكِ ، والدَّهرُ كلُّه عجبٌ ما خُفرتْ فى ذِمَّةُ العَرَب
هذا هوًى ، كنتُ فى بُلَهْنِيَةٍ عنـه ، فيـا لَلرِّجالِ للعَجَب
أيسترقُّ الكريمَ ذَا النَّسب الوَا ضِح عبـدٌ مُستعجِمُ النَّسَب
ويحمِلُ الثَّأرَ مَن به خَوَرٌ(٤) عن احتمالِ الحجالِ والقُلُب(٥)
نشدتُك اللهَ فى احتمالِ دَمى فمعشَرِى ما يفوتُهـم طَلَبى
ما فاتَ قومِى آلَ المهلَّب مِن قبلىَ ثأرٌ فى سَالِفِ الحقَب
فلا تُرِيقِى دمًا لذِى أدبٍ يسـطُو بأقلامه على القضُب(٦)

---

(١) الريم : الظبي الخالص البياض .
(٢) الحلة بكسر الحاء : القوم النزول ، وجماعة بيوت الناس
(٣) الصقب بالتحريك : القريب والقرب .
(٤) الخور : الضعف .
(٥) الحجال : الخلاخيل . والقلب : سوار المرأة .
(٦) قضب : السيوف .

قافية الثاء

(٢٨١)

وقال بحصن الطُّوبان[1] على سبيل الدُّعابةِ :

متى أرى الطُّوبانَ قد مَهَّدت حيطانَه السُّودَ المحاريثُ
ما فيهِ إلَّا رِيحُ عادٍ ، وأجلافُ طَغامٍ[2] ، وبَراعيثُ

قافية الراء

(٢٨٢)

وقال ، على سبيل المجون ، فى سَوداء :

شَبيهةَ حبّاتِ القُلُوبِ ، لكِ الهوَى وهل لفؤادٍ عن سُويدانِه صَبرُ
على نَحرِكِ الدَّاجِى زهَا الدُّرُّ مثلما زَهَتْ فى دياجِى اللَّيلِ أنجمُهُ الزُّهرُ
لَأَنتِ شَبابٌ ما يَشينُ سوادَه بياضُ مشيبٍ ،والشَّبابُ هو العمرُ
لقد أكثرَ اللُّوّامُ فيكِ ، وجهلُهم إذا عنَّفونِى فى هواكِ ، هو العُذْرُ

(٢٨٣)

وقال أيضا بمصر ، وكان له جارٌ من الأُمراء يعرف بفخر الملك بنِ طُلَيْب ، وقعت فى داره نارٌ فاحترقت ، وقصد المجون معه والعبث :

أُنظُر إلى الأيام ، كيفَ تقودُنا قَسْرًا إلى الإقرار بالأقدارِ
ما أوقدَ ابنُ طُلَيْب قطُّ بِدارِهِ نَارًا ، وكان هلاكُها بالنَّار

---

(١) الطوبان : حصن من أعمال حمص أو حماة . (ياقوت) .

(٢) الطَّغام : أوغاد النَّاس .

قافية الشين

(٢٨٤)

وقال[١] :

أميرُنا[٢] زاهدٌ، والنّاسُ قد زَهدُوا لَه ؛ فكلٌّ على الطّاعات[٣] مُنكمشُ
أيّامُه، مثلَ شَهر الصَّوْمِ : طاهرةٌ[٤] من المعَاصِى، وفيها الجوعُ، والعطشُ

قافية الصاد

(٢٨٥)

وقال :

رُمّانُ مِصرَ كأنّه ذُرَةٌ آكلُهُ شَاخِصٌ[٥] من الغُصَصَ
والرِّيقُ فيها ، فَدَعْ سواهُ ، إذا أسَاغَهُ المرءُ كانَ بالنَّغَص
ولَيس يَرضَى اللبيبُ عِيشَتَه فيها ، ولكنْ زُرَيق[٦] فى القَفَص

قافية القاف

(٢٨٦)

وقال يداعب بعض الاصحاب :

إذا صاحبتَ عَمْرًا فى طريقٍ فقد سَايَرْتَ ظلَّكَ فى الطَّريقِ
فإنْ لم تلقَ إنسانًا سِواهُ تُرافقُه ، فأنتَ بلَا رَفيقِ

(١) هذان البيتان ممارو يا لأسامة فى الخريدة ١ : ١٠٣ ، و ياقوت فى معجم البلدان ٥ : ٢٠٤ ، والروضتين ٢ : ١٢٩
(٢) فى الخريدة و ياقوت "سلطاننا" .
(٣) فى المصدرين السابقين "الخيرات" .
(٤) فى المصدرين السابقين "خالية" .
(٥) شخص بصره : فتح عينيه وجعل لا يطرف .
(٦) زريق : طائر

قافية اللام

(٢٨٧)

وقال فى أعرج :

عابُوا هَوَى شادنٍ[١] فى رجله قصَرٌ … من سُكْرِ ألحَاظه فى مَشْيِه ثَمَلُ[٢]
وماهَوَى خُوطِ[٣] بَانٍ مَاسَ من هَيَفٍ … عَيْبٌ، و إن كان عيباً فهو مُحْتَمَلُ

قافية الميم

(٢٨٨)

وقال ، وقد اجتازَ بقريةٍ له من أعمال بالوا[٤]، تسمى لُغَى كوم، كثيرةَ الفواكه والأشجار ، باردة المـاء ، وجميع فلَّاحيها أرمنٌ لا يعرفون العربية :

نزلتُ بأرضِ (بَالْوَا)، وهى حِصنٌ … عَلَا ، حتَّى تمنطَقَ بالنُّجومِ
بُرومٍ ، لاتلائمُهُم طِباعى … وما العَربىُّ ذو إلفٍ بِرُومِ
سَلامُهُمُ (هزَارْ[٥] بَارِيك) مَاذَا … شبيهُ سَلامِ خُزَّانِ النَّعيمِ
و إن كلَّمتهم قالُوا: (اشكَدِيمُ)[٦] … ولستُ بعالِمٍ معنَى (اشكَدِيم)
وماتَسوَى[٧] (لُغَى كُومٍ) و إنْ هِى … سَجَا[٧] لَيلِى بها ، وصَفَا نَسيمى
وبَرْدُ مِيَاهها ، وجَنَى جِنَانٍ … تُحيطُ بها ، و يانعةُ الكُرومِ
مُقامِى بَينَ قَومٍ ، إن تَدَاعَوْا … سمعتُ دعاءَ أصداءٍ[٩] و بُومِ

---

(١) الشادن : ولد الظبية قوى واستغنى عن أمه . (٢) الثمل محركة : السكر . ثمل كفرح فهو ثمل .
(٣) الخوط : الغصن الناعم .
(٤) فى ياقوت : بالو قلعة حصينة و بلدة من نواحى أرمينية بين أرزن الروم وخلاط .
(٥) و (٦) هذه ألفاظ غير عربية .
(٧) يقال هو لا يساوى شيئا . ولا يسوى كيرضى قليلة . (٨) سجا : سكن .
(٩) أصداء : جمع صدى : ما يرده الجبل على المصوت فيه .

(٢٨٩)

وقال فى ولد له اسمُه عتيق ، وكنيته أبو بكر ، على سبيل المجون :

عَتِيقٌ كالهلالِ ، إذا تَبَدَّى لسارِى اللّيلِ مِن تحتِ الغُيومِ
تقولُ، إذا به الأترابُ حَفُّوا: أهذا البدرُ ما بَينَ النُّجوم

قافية النون

(٢٩٠)

وقال بدمشقَ ، وكتب بها إلى أصدقائه،وهُم عند سماعٍ،على طريقة الصُّوفيّة،
فيهم صبيٌّ قوّالٌ ، إسمه رضوانٌ ، حَسنُ الصِّناعةِ والوجه ، على سبيلِ المُجون :

يَا ساكنى جنَّةٍ ، رِضوانُ خَازنُها هُنِّيتُم العيشَ فى رَوحٍ ورَيحان
مُرُوا النَّسيمَ،إذا مَا الفجرُ أيقظَه بحملِهِ طيبَ نَشرٍ[1] منه أحيانِى
أو فَابعَثُوا نَغْمةً منه يعيشُ بها قَلبى ، فقد مَات مُذْ حِينٍ وأَزمانِ
ظَبىٌ أغَنُّ[2] تردَّى بالدُّجى،وَجَلا شَمْس النَّهار، على غُصْنٍ من الْبانِ
فى فِيه مَا فى جِنَانِ الخُلدِ:من دُرَرٍ ومن رَحِيقٍ،ومن مسْكٍ،ومَرْجَانِ
إذا بدَا وشَدَا فى مجلِسٍ ظَفِرُوا بمنية النَّفسِ من حُسنٍ وإحسَان
لا تَنْسَنِى يا أبانَصرٍ[3]،إذا حَضَرتْ قُلوبُكم بين مَزْمُومٍ وطَرخَانِى[4]
كُن لى وكيلاً على الرُّؤيا ،ووكِّلْ لى سواكَ يَسمعُ عَنِّى شَدوَ رضوان

(١) النشر : الريح الطيبة .
(٢) الأغن من الغزلان وغيرها : الذى فى صوته غنة .
(٣) كان أبو نصر هذا أطروشا . اه نقلا عن الديوان .
(٤) طرخان : اسم للرئيس الشريف : كلمة خراسانية . وزمّ القربة : ملأها .

وقُل له : يتَغَنَّى من قلائِده صوتاً يُجَدِّدُ لى شَجْوى ، وأشجانِى
نسيمُه يتلقَّانِى بزوْرَتِه مُبشِّراً لِى بهِ من قَبل يَلقانِى

(٢٩١)

وقال ببغداد ، وهو متوجه إلى مكة :

وصَفُوا لِى بغدادَ حيناً ، فلمَّا جِئتُها ، جئتُ أحسنَ البُلدان
منظرٌ مبهِجٌ ، وقومٌ سَراةٌ[1] قد تَحلَّوْا بالحُسنِ والإحسان
ليس فيهِمْ عيبٌ سوى أنَّ فى كــلِّ بنـانٍ علَّاقَةَ الميزانِ
وسمِعْنَا ، وما رأينا سوَى أمِّ ظَلومٍ[2] فيها من النِّسوانِ
وهى جِنِّيَّةٌ كأقبحِ ما شــبَّهَهُ ربُّنا من الغِيــلان
إنَّ فيها من الصَّبايا شُموساً فى غُصونٍ تهتَزُّ فى كُثبان
شغَلتْنا السَّبعونَ والحجُّ عنهــنَّ ، فقلنا بالسَّمعِ دُونَ العيان

---

(١) السراة : السادة .
(٢) أم ظلوم : عجوز كانت فى الدار التى نزلها ببغداد قبيحة المنظر . اهـ نقلا عن هامش الديوان .

باب المديح

قافية الباء

(٢٩٢)

قال فى الأفضلِ عبَّاسِ بن أبى الفُتوح[١] ، شَفاعةً لإنسان :

لقد عمَّ جُودُ الأفضَلِ السَّيِّدِ الوَرَى   وأغنَى غَناءَ الغَيثِ حيثُ يَصُوبُ
أعدْتَ ربيعَ النَّاسِ فى كلِّ بَلدةٍ   فَليسَ بهـا للرَّائدِين جُدُوبُ
وجادَت لهمُ بالمـالِ يمناكَ ، إنَّها   بَذُولٌ على بُخلِ الزَّمانِ وَهُوبُ
"وفى[٢] كلِّ حىٍّ قد خَبَطْتَ بِنعمةٍ   فَحُقَّ لشَأسٍ من نَداك ذَنُوبُ"[٣]

(٢٩٣)

وكتب إلى الملكِ الصَّالح من قصيدةٍ سيأتى أوَّلُها :

غرَّنى لامعُ السَّرابِ ، وهذا الـــبحرُ دُونى عذبُ المياه شَروبُ
سرتُ أستَقرِئُ المُحولَ ، وفى أر   ضىَ مَرعَى عِينٍ[٤]، ووادٍ قَشيبُ
وسحابٌ منــه تعلَّمَتِ السّحـــبُ ، وإن لم تُشبِهه ، كيفَ تصوبُ
سوءُ حَظٍّ أنأَى عن الملكِ الصَّـــالح ، والحظُّ ينتهى ويَثُوبُ[٥]
وإلى بابِه مآلِى ، وللآ   بِقِ[٦] حُسنُ القَبولِ حين يُنِيبُ[٧]

---

(١) وزير مصرى قتله الفرنج سنة ٥٥٠ هـ . راجع المقدمة .
(٢) هذا البيت لعلقمة بن عبدة كما فى اللسان (خبط) وشاس اسم أخى علقمة . وخبطه بنعمة : أعطاه .
(٣) الذنوب : الحظ والنصيب .
(٤) العين : بقر الوحش .
(٥) ثاب : رجع .
(٦) الآبق . الهارب .
(٧) أناب : تاب .

غَابَ عنه جِسمِى ، وقلبىَ مَا زا ... لَ مقيمًا ببـابِه ، لا يَغيبُ
فإذا ما سَمعتَ بالنّـازح[1] الدَّ ... انِى فإنّى ذاكَ البعيدُ القريبُ
ومتَى ما قَرُبْتُ منــه لحَظِّى ... من عُلاهُ التقريبُ والتَّرحيبُ
وبما نِلتُ من نَدى المِلكِ الصَّـالح أقسمتُ صَادقًا لا أحوبُ[2]
لا ثَنَانِى البِعادُ عنه ، وإن حَا ... لَت أعادٍ من دُونِه وحُروبُ
أو يُرَوَّى برُؤيتِى وجهَه الميمــونَ قَلبِى الصَّادِى وطَرفى السَّكُوبُ
ويقولَ الأنامُ : آدمُ قــد عَا ... دَ إلى الخلدِ ، إنَّ ذَا لَعجيبُ
لحياتِى ، وإن بلغتُ به المأ ... مولَ ، فى غير ظلّه لا تَطيبُ
يا أخَا البيد والسُّرَى ، وأخِى الـــبرِّ ، إذا عقَّنِى أخٌ ونَسيبُ
قُل لِغيثِى الهتونِ فى أزمةِ المحَــلِ ، وغَوثِى إن أرهقَتْنِى الخطُوبُ
كاشِفِ الغُمَّةِ المُبِرِّ على الشُّــحبِ بجودٍ مَدَى الزَّمانِ يصوبُ[3]:
يا رَبيعِى المَريعَ ، حاشَاكَ أن تُمْــحِلَ رَبْعِى ، وأنتَ ذُخرى ، الجدُوبُ
أنَا أشكُو إليكَ دهرًا لحا[4] عُو ... دى ، وأعرَاه ، فهُو بَئسٌ سَلِيبُ
وخُطوبًا رَمى بهـا حادثُ الدَّ ... هرِ سَوادى[5] ، وكُلُّهنّ مُصيبُ
أذهبتْ تَالِدى[6] وطارفىَ الطَّـــارِى فَضَاعَ المورُوثُ والمكسوبُ
فهـــو شَطرانِ بين مصرٍ وبحــرٍ ... ذَا غريقٌ فَىءٌ[7] ، وذَا منهــوبُ
وإبائِى أراهُ عن حَمــله المَنَّ ضَعيفًا ، وهو القَوىُّ الرَّكُوبُ

(١) نزح : بعد . (٢) الحوب : الإثم .
(٣) الصوب : الانصباب . (٤) لحا الشجرة : قشرها .
(٥) السواد . الشخص . (٦) التالد : ما ولد عندك من مالك أو نتج : والطارف : الحديث من المال .
(٧) الفيء : الغنيمة .

وِيَرى كلَّ منَّةٍ لِسِوَى الصَّا ... لِحِ غُلًّا فى حمله تعذيبُ
ما اعتذارُ المُنى إذا مَطَلَتْنِي ... بِطِلابي ، وفضلُك المَطلوبُ
أَوَ ليست مصراً ، وكلُّ بنانٍ ... لكَ بحرٌ ، وكلُّ عبدٍ خَصيبُ
والنَّدى طبعُك الكريمُ ، فما أهْـ ... ـنَى نوالًا تُنيله ، وتُثيبُ
جاءَنِي والبِعادُ دُوني ، كما جا ... بَتْ فَيافِي[1] البلاد ريحٌ هَبُوبُ
وعجيبٌ أنَّ المواهِبَ تَسري ... ويقيمُ المسترفِدُ[2] الموهُوبُ
سُنَّةٌ سنَّها نَدَى الملك الصَّا ... لِحِ ، فيها لِكلِّ خَلقٍ نَصيبُ
مَن تَنائِي طَوَى إليه الفَيافِي[1] ... وهو من كلِّ ذى اقترابٍ قَريبُ
وله بالنَّوال باعٌ طويلٌ ... ويدٌ سَبْطَةٌ ، وصدرٌ رَحيبُ
وبأيامه تبسَّمتِ الدُّنيَا ... سُروراً ، فلا اعترَاهَا قُطوبُ

فأجابه بهذه القصيدة ، وقد تقدّم أوّلها[3] :

يا أخلاَّىَ بالشَّآم لَئِن غِبْـ ... ـتُمْ ، فشوقِي إليكُمُ لا يَغيبُ
غَصَبتْنَا الأيَّامُ قربكُمُ منَّا ... ، ولا بدَّ أن تُردَّ الغُصُوبُ
ولكُم ، إن نَشطتُم عندنَا الإ ... كرامُ ، والرِّفدُ[4] ، والمحلُّ الخَصيبُ
قد علمتُمْ بأنَّ غَيثَ أياديِنَا ... على النَّاس بالنُّضار[5] سَكُوبُ
وبنا يُدرِكُ المؤمّلُ ما يَرْ ... جُوهُ قدماً ، ويُنقَذُ المَكروبُ
نحن كالسُّحبِ : بالبوَارق والرَّعْـ ... ـدِ لدينَا التَّرغيبُ والتَّرهيبُ

---

(١) الفيافى : جمع فيفاء ، وهى المفازة لا ماء فيها .

(٢) المسترفد : المستعين .

(٣) مطلع القصيدة .

بأبى شخصك الذى لا يغيب ... عن حياتى ، وهو البعيد القريب

وانظر ص ٧ و ص ١٥٣ و ٢٩٦ . وجزء كبير من النص فى الروضتين ١ : ١٠٦ و ١١٨ .

(٤) الرفد : العطاء والصلة .

(٥) النضار : الذهب الخالص .

تارةً نُسعِر الحروبَ على النَّـاس ، وطورًا بالمكْرُماتِ نَصوبُ[1]
كَرِهَ الشّامُ أهلَه ، فهـو محقُـوقٌ بألّا يُقيمَ فيـه لَبيبُ
إن تَجافَتْ عنـه الحروبُ قليلاً خلفتها زَلازلٌ[2] وخُطـوبُ

ومنهـا :

أنَّ ظَنِّي ، والظَّنُّ مثلُ سهامِ الرَّمي : منهـا المُخطى ، ومنهـا المُصيبُ
إنّ هـذَا لأنْ غَدَتْ ساحةُ القُدسِ ، ومَا للإسلامِ فيهَـا نَصيبُ
منزلُ الوَحيِ قبـلَ بعث رَسُول اللّـه ، فهـو المحجُوجُ والمحجوبُ
نَزلَتْ وسْـطَه الخنَازيرُ والخمـرُ ، وبَارَى النَّاقوسَ فيها الصَّليبُ
لـو رآه المسيحُ لم يَرضَ فعـلاً ذَكَروا[3] أنَّه لَهُ مَنسـوبُ
أبعـدُ الناسِ عن عَبادة ربِّ النَّـاسِ قَـومٌ إلههُمْ مَصـلوبُ

ومنها :

ولَعمري إنَّ المنُاصِحَ للدِّ ين[4] على اللهِ أجرُه محسوبُ
وجِهادُ العـدوّ بالفعلِ والقـولِ على كلِّ مُسـلمٍ مكتـوبُ
ولكَ الرتبـةُ العليَّـةُ فى الأمـرينِ مُذ كنتَ،إذْ تشبُّ الحرُوبُ
أنتَ فيها الشّجاعُ ، مَا لَكَ فى الطّعـن ، ولاَ فى الضّراب يوماً ضَريبُ
وإذا ما حرَّضتَ[5] فالشّاعرُ المفـلِقُ فيما تقـولُه ، والخَطيبُ
وإذا ما أشَرْتَ فالحـزمُ لا يُنـكرُ أنّ التَّدبيرَ منكَ مُصيبُ
لكَ رأيٌ مُذ قطُّ[6]،إن ضَعفَ الرأْيُ ، على حامِلى الصليبِ صَليبُ[7]

(١) الصّوب : الانصباب .
(٢) يشير إلى الزلازل العنيفة التى حدثت بالشام وأتت على شيزر ومن فيها من أهل أسامة . راجع مقدمة الديوان .
(٣) فى هامش الديوان : زعموا .
(٤) فى الروضتين : فى الدين .
(٥) فى الروضتين : قرضت .
(٦) فى الروضتين : يقظان .
(٧) الصّليب : الشديد .

فانهض الآن مُسرِعاً ، فبأمثا لك ما زال يُدرك المطلوبُ
والقِ عنّا رسالةً عند نُور الدّ ينِ ، ما فى إلقائها ما يريبُ
قُل له ، دام مُلكُه ، وعليه من لباس الإقبالِ بُردٌ قشيبُ:[1]
أيها العادلُ الذى هو للدّ ينِ شَبابٌ ، وللحروب شَبِيبُ[2]
والّذى لم يزَلْ قديماً عن الإسـ ـلامِ بالعَزْم منه تُجلَى الكروبُ
وغَدا منه للفَرنج إذا لا قوه يومٌ من الزّمانِ عَصيبُ
إن يَرُمْ[3] نَزفَ حقدهم فلأشطا ن[4] قَناهُ فى كلِّ قَلْبٍ قَليبُ[5]
غيرُنا من يقولُ ما ليس يُمـ ـضيه بفعلٍ ، وغيرُك المكذوبُ
قد كتبنا إليكَ ، فاوْضِحْ لنا الآن[6] بِمَ ذَا عن الكتابِ تُجيبُ
قَصدُنا أن يكون منّا ومنكمْ أجَلٌ فى مَسِيرِنا مَضروبُ
فلدينا من العَساكِرِ ما ضا قَ بأدناهمُ الفَضاءُ الرّحيبُ
وعلينا أن يَستهلّ[7] على الشا مِ مكانَ الغيوث مالٌ صَبيبُ
أو تَراها مثلَ العَروس : تَراها كلُّه من دَمِ العِدَا مخضوبُ
لِطَنين السُّيوفِ فى فَلَقِ الصُّبـ ـحِ على هَامِ أهلها تَطريبُ
ولجمع الحُشودِ من كلِّ حِصْنٍ سَلَبٌ مُهملٌ لهم ونُهوبُ
وبِحولِ الإلَهِ ذاكَ ، ومن غا لَبَ ربِّى فإنّه مَغلوبُ[8]

---

(١) قشيب : جديد .

(٢) هو شبيب بن يزيد الشيبانى أحد أبطال الحروب ومن كبار الثائرين على بنى أمية . توفى سنة ٧٧ هـ .

(٣) هذه رواية الروضتين وفى الأصل : ترم .

(٤) الشطن محركة : الحبل الطويل .

(٥) القليب : البئر .

(٦) فى الروضتين : ماوضح الآن .

(٧) استهلّ المطر : اشتد انصبابه .

(٨) هذه القصيدة وصف لما أصاب القدس فى عهد الحروب الصليبية واستنهاض من الوزير المصرى الملك الصالح للملك العادل نور الدين محمود كى يجتمع شمل البلدين لطرد العدو من الوطن المغتصب .

قافية الجيم

(٢٩٤)

وقال :

يا مُنتهَى الأمَلِ امتدّت مَطارِحُه ... ويا حِمَى مَن إليه فى الخُطوب لجَا
هَذى نتيجةُ فِكرٍ كان فى الزَّمنِ الـ ... ـماضى عَقِيماً ، ولولا أنتَ ما نُتِجا
أتتْكَ تَحمِلُ شكراً لوقرنتَ به ... لَطِيمةً[1] لاكتَسَتْ من نَشرِه[2] أرَجا[3]

قافية الحاء

(٢٩٥)

وقال[4] :

فَيا أخَا العزمِ يَطوِى البيدَ مُنصَلِتاً ... فى سَيرِه عن مَسيرِ العَاصفاتِ وَحَى[5]
قل للمهذَّبِ فى فَضلٍ ، وفى خُلُقٍ ... وللبليغ ، إذا مَا جدَّ أو مَزَحَا
من ينثُرُ الدُّرَّ فى نَثرِ الكتابةِ إنشَاءً ، ... وينظمُه فى النَّظم إن مَدَحَا
من لَفظُه تُسكِرُ الصَّاحِى فَصاحَتُه[6] ... ولَو وَعَى فَضلَهُ ذُو سَكْرةٍ لَصحَا :
أتتكَ مُغرِبَةَ الأنباءِ مُعرِبَةً ... عن مُخلِصٍ ، إن دَنَا فى الوُدِّ ، أو نَزَحَا

---

(١) اللطيمة : المسك .

(٢) النشر : الريح الطيبة .

(٣) الأرج : توهج ريح الطيب .

(٤) لعل أول القصيدة فى باب الغزل ص ١١ قوله : أرته غرته فى الهجر مصلحتى .
أو قوله : عقائل الحى أم سرب المها سنحا ...

(٥) الوحى : العجلة والإسراع . وانصلت : مضى وسبق

(٦) فى هامش الديوان : بلاغته .

فاسمَعْ ، فَلَا زِلتَ للخيراتِ مُستمِعاً   أُعجُوبةً مثلُها فى الكُتُبِ ما شُرِحَا
مولاىَ إن سدَّ عنّى بابَ أنعُمِه   ولم يزَل للوَرَى بالفضلِ مُنفَتِحَا
ولَم يَجُدْ لى بطَرفٍ من مواهبه   وكم حَبانِي ، وكم أسْنَى[1] لى المِنَحَا
بجُودِه السُّحْبُ إن أكْدَتْ[2] مخايِلُه[3]   يوماً ، فكم سَحَّ بالنُّعمَى ، وكم سَفَحَا
وكم له من يدٍ عندى تزيدُ على   ما سَامَه الأملُ المشتَطُّ واقترَحَا
أقلُّ مانِلتُ من جَدْوَى[4] يديه غنًى   ما ساءَنى بَعدَه مَن ضنَّ أو سَمَحَا
لقد غَنِيتُ به عنه ، كما غَنِيَ الـ   ـغديرُ بالسُّحبِ عنها ، بعد ما طَفَحَا
لكن بقلبِىَ همٌّ زاد سورتَه[5]   وهْمٌ إذا قلتُ يخبو زَندُه قَدَحَا
أظَنَّ بِى العجزَ فى الحربِ العَوانِ ، وهَل   لها سِوايَ من الأبطالِ قُطبُ رَحَى

ومنها :

فقُلْ له ، جدَّد اللهُ البقَاءَ لَهُ   ما شَقَّ جَيبَ الدُّجَى صُبحٌ وما وَضَحَا :
كم قد بَعثْتُ إلى عَليَاكَ من أمَلٍ   أنلتَنِيه ، وكم من مَطلَبٍ نَجَحَا
وأنتَ من لو حَبا الدُّنيَا بأجمَعِها   لم يُرضِه ما حَبَا منها وما مَنَحَا
وما سَلِمتَ فذنبُ الدَّهر معتَفَرٌ   وصرفُه ما جنَى جُرماً ولا اجْتَرَحَا[6]

قافية الدال

(٢٩٦)

وقال :

كِناسُ سِربِ المَهَا عِرِّيسَةُ الأُسدِ[7]   فكيفَ بالوَصلِ للمستَهْتَرِ[8] الكَمِد
والبيضُ ، دُونَ خُدورِ البيضِ ، مُصلَتَةٌ   حكَتْ جَداولَ ماءٍ غيرِ مُطَّرِد

---

(١) أجزل . (٢) أكدى : بخل ، أو قل خيره ، أو قلل عطاءه . (٣) مخايله : جمع مخيلة من خال بمعنى ظن .
(٤) الجدوى : العطية . (٥) سورة الشيء : حدته . ويخبو : يسكن . وقدح بالزند : رام الإيراء به .
(٦) صرف الدهر : نوائبه . واجترح : اكتسب .
(٧) الكناس : مستتر الظبي فى الشجر . والمها : بقر الوحش . والعريسة : مأوى الأسد .
(٨) استهتر بكذا على ما لم يسم فاعله : فتن به ، وذهب عقله ، وانصرف همه إليه .

وكلُّ أسمَرَ فيه لَهْذَمٌ ذَرِبٌ[١] بجَذْوَةِ النَّارِ لم تُقْبَس ولم تَقِد
إذا تَسدَّدَ داوَى كلَّ ذى لَدَدٍ[٢] وإن تأوَّد[٣] ساوى مَيلَ ذِى الأَوَد
والبِيضُ والسُّمرُ لا تَروَى بغيرِ دَمٍ من كلِّ جائشةِ الأرجاءِ بالزَّبَد
صَدِينَ حتَّى جلاها فى النُّحورِ وفى الـ ـهَاماتِ أورعُ يُروى غُلَّ[٤] كلِّ صَدِ
مَن أظهرَ الجُودَ والإقدامَ إذ عُدِمَا إلى الوُجودِ بضربِ الهامِ والصَّفَد[٥]
ونفَّق العلمَ مِن بعد الكَساد ، فما تَرَى سوى طالبٍ للعِلمِ مُجتهِد
مَنْ عدلُه أمَّن الشَّاءَ المهمَّل فى الـ عَرِينِ أن يتوقَّى وثبةَ الأَسَد
مَن يلتقى المُذنِبين المُسْلمِين بما جَنوْه قَصداً بعفوٍ غَيرِ مُقتَصِد
يُسنِي المواهبَ مَسروراً بها جَذلاً فَمنُّه غيرُ مَمنونٍ[٦] ولا نَكِد
وما تَذَمَّر مِن غَيظٍ ومن غَضَبٍ إلَّا جَلا عن مُحيًّا بالحياءِ نَدِ
كالمشرفيَّةِ فيها حُسنُ رونقِها فى السِّلمِ،والحرب،والهامات،والغُمُد

قافية الراء

(٢٩٧)

وقال :

يا مُنقذى ، ويدُ الزّمان تَنُوشُنِى[٧] ومُقِيلَ جَدّى ، وهو كابٍ عاثِرُ[٨]
حتّامَ أنتَ لِثقلِ هَمِّى حامِلٌ وما يَهِيضُ[٩] الدّهرُ منِّى جابِرُ
ومقارعٌ دونِى الزمانَ وأهلَه مستلئِمينَ[١٠] ، وأنت فَذٌّ حاسِرُ

(١) اللهذم : القاطع من الأسنة . والذرب : الحاد .
(٢) اللدد : الخصومة الشديدة .
(٣) أود : اعوج .
(٤) الغُلّ : العطش . والصدى : العطشان .
(٥) الصفد محركة . الوثاق .
(٦) منّ الحبل : قطعه .
(٧) تنوشنى : تتناولنى .
(٨) أقال جدّه : رفعه من سقوطه . والجد : الحظ . وكبا : انكب على وجهه .
(٩) هاض : كسر .
(١٠) استلأم : لبس اللأمة وهى الدرع . والحاسر : المنكشف .

مهلاً ، فِدًى لك مهجةٌ دافعتَ عن حَوْبائِهـا[١] ، إذ ليس غيرَكَ نَاصِرُ
خَفِّـض عليكَ ؛ فلِلأُمور نهـايةٌ وإلى النّهـايةِ كلُّ شيءٍ صَـائِرُ

(٢٩٨)

وقال يمدح الأميرَ مُعينَ الدّين أُنُر وقد لَقِيَ الفَرنج فهزَمهم :

كلَّ يومٍ فتـحٌ مبينٌ ، ونَصرُ واعتـلاءٌ على الأعـادِي وقَهرُ
قد أتاكَ الزّمانُ بالعُذرِ والإعتاب[٢] ممّـا جَنـاهُ ، إذ هُو غِرُّ
صدَق النَّعْتُ فيك ، أنتَ معينُ الـدّينِ ، إنّ النُّعوتَ فألٌ وزَجرُ
أنت سيفُ الإسـلامِ حقا ؛ فلافَـلَّ غِرَارَيْك أيُّها السيفُ دهرُ
بك زادَ الإسلامُ ياسيفَه المِخـذَمَ[٣] عزًّا ، وذلَّ شِركٌ وكُفرُ
ثِق بإدراكِ ماتؤمّلُ ؛ إنّ اللّـهَ يجزِى العبـادَ عمّـا أسرُّوا
لم تزل تُضمـرُ الجهادَ مُسِرًّا ثُم أعلنتَ ، حينَ أمكنَ جَهـرُ
كُلُّ ذخرِ الملوكِ يفنَى وذُخـراكَ ، همـا الباقيان : أجرٌ ، وشكرُ
للنَّـدى مالُكَ المباحُ ، وما ما لُكَ إلّا جُرْدٌ[٤] ، وبِيضٌ ، وسُمْـرُ
عَمَّ أهلَ الشّامِ عدلُك لكنَّـا بَعُدنا ، وغايةُ البعـدِ مِصرُ
فحُرِمْنا من بينِهم رَيْعَ ما كنَّـا زرعنا ، وقال زيدٌ ، وعمرُو
أمِنَ العـدلِ أنّنَا فى بلادِ الـكُفـرِ شَفعٌ ، وأنتَ فى الغـزوِ وَترُ
كانَ حَظّى من ذاكَ ذِكراً شَايعًا ثُمَّ مالى فيمن يُجاهِدُ ذِكرُ

(١) الحوباء : النفس .
(٢) أعتبه : أعطاه العتبى وهى الرّضا .
(٣) خذمه : قطعه .
(٤) جرد : جمع أجرد ، وهو الفرس القصير الشعر .

لا تَنَامَى مَن كانَ ظِلَّكَ فى العُسـرِ وضيقِ الزَّمانِ إذ جاءَ يُسرُ
إنَّ حسنَ الوفاء من مَلِكٍ مثـلكَ فضلٌ ، يَرويه بدوٌ وحَضرُ
فابقَ ، واسلمَ ، وزدْ على رغمِ أعدا ئك جَدًّا ، ما أعقبَ الليلَ فَجـرُ
لا أغبَّ الزَّمانُ قصدَ أعاديـكَ ، ولا شَدَّ من تَهَبَّضتَ[1] جَبرُ

(٢٩٩)

وقال :
صديقٌ لنـا كاللَّيلِ : يَستُر الـدُّخانَ ، ويُبدِى النُّورَ للمُتَنَوِّرِ
يُوارِى إساءَاتى ، ويُبدِى محاسِنِى ويحفَظُ غَيبِى فى مَغيبِى ومَحضَرِى

(٣٠٠)

وقال فى ناصرِ الدّين نصرِ بن الأفضلِ عبّاسٍ[2] رحمه الله :
يَا من يُهِينُ المالَ فى كَسبِ العُلَا ويَرى الثناءَ أجلَّ ذُخرٍ يُذخَرُ
أغربْتَ[3] فى بذلِ النَّوالِ ، وخاطبُ الـعَلياء ليسَ بضائعٍ ما يُمهِرُ
وسعيتَ للمجد الَّذى فى مثـله إلَّا عليـكَ حُزونَةٌ وتَوعُّرُ
وبذلتَ جودَكَ للعُفاة[4] ، فما لهم وِردٌ سواه ، وليس عنه مَصدَرُ
كم من يَدٍ أوليتَنِيها ، أثمرتْ عندى ، وما كُلُّ الأيادى تُثمِرُ
وكرامةٍ أبدًا ، أبوحُ بشكرِها إنَّ الكريمَ على الكرامةِ يُشكَرُ
والشكرُ من مثلى يَزِينُ ، وإنّما بثَناءِ من يُثنَى عليـه يُفخَرُ
وصنائِعُ المعروفِ كالوسمِىِّ[5] : ذا من قَطره نبتٌ ، وهذا جوهرُ

(١) أغب : جاء يوما وترك يوما . وتهبض : انكسر .
(٢) راجع مقدمة الديوان .
(٣) أغرب : أتى بالغريب .
(٤) العفاة : جمع عاف وهو طالب المعروف .
(٥) الوسمى : مطر الربيع الأول .

(٣٠١)

وقال فى الملك الصالح ، وقد تقدم أول[١] القصيدة :

لكنْ مكانِى من أنعمِ الملكِ الصّا — لِحِ لا تهتدى له الغِيَرُ[٢]
أنهلَنِى ، ثمّ علَّنى جودُه الغَمْ — رُ ، فبُعدى عن بابِه صَدَرُ[٣]
فقُلْ لِمن سرّه بِعادىَ : ما — تبعدُ أرضٌ يؤمُّها المَطَرُ
ماضَرَّنِى البعدُ عن نَدى ملكٍ — يبلغُ ما ليسَ يبلغُ الخَبَرُ
يطلبُ طُلَّابَ جودِه ، فلِمَنْ — يرجو مُقَامٌ ، وللنَّدَى سَفَرُ
أبقتْ عطاياهُ لى غناىَ ، كما — تبقَى عَقيبَ السَّحائب الغُدُرُ

ومنها :

يامالكاً أصبحَتْ بدَوْلَتِه الـ — أيّامُ تزهو تيهًا ، وتَفْتَخِرُ
أطالَ باعِى جميلُ رأيِك ، فالـ — أحداثُ دونى فى باعِها قِصَرُ
وشدّ أزرِى ، حتّى ترجّيتُ أنْ — يحْمِلَ عنِّى أثقالَ ما أَزِرُ
أنشَرْتَ لى أُسْرَتِى ، فشُكرِىَ ، ما — فاه فمِى ، فى البلادِ مُنْتَشِرُ
وانْتَشْتَهم[٤] من يدِ الخطوبِ ، ولا — ملجأً منها يُنْجِى ولا وَزَرُ
سيّرهُمْ فضلُك الذى أعجزَ الوصـ — ـفَ ، ولم تَتْلُ مثلَه السِّيَرُ
فاعْلُ ، ودُمْ ، ماعلا النّهارُ ، ومَا — أضاءَ فى حِندِسِ[٥] الدُّجى القَمَرُ
مشرِّفاً عصرَنا البهيمَ[٦] ، فأيّـ — ـامُك فيه الأوضاحُ والغُرَرُ[٧]

---

(١) أول القصيدة :

ثاروا فأدتك منهم الذكر — ومثلتهم لقلبـك الفكر

راجع ص ٧٧ .

(٣) النهل : أول الشرب . والعلل : الشرب بعد الشرب . والغمر : الماء الكثير . والصدر : الرجوع .

(٢) غير الدهر : أحداثه .

(٤) انتاشه : اخرجه .

(٥) الحندس : الظلمة .

(٦) البهيم : الأسود .

(٧) الأوضاح : جمع وضح ، وهو بياض الصبح . والغرر جمع غرة ، وهى بياض فى الجبهة .

واجْتناها بنتَ يومها ، ثمّ عُمْرُ الدَّ … هرِ ، حتى يَفنى، لها عُمُرُ
يضُوعُ منها فى كلِّ قُطرٍ من الأر … ض ثناءٌ كأنَّه قُطُرُ[1]
ولو رأى الجوهريُّ ألفاظَها الغُرَّ … لَما شَكَّ أنَّها دُرَرُ
هَذَا، وفيها، إن رُمتُ شكرًا لإنعا … مِك أو حَصْرَ بعضِه، حَصَرُ

(٣٠٢)

وقال :

سأرحَلُ عن جَنابِكَ غيرَ قالٍ … بِشُكرٍ يفْغَمُ الآفاقَ نَشْرَا[2]
وما شُكرِى لما أوليتَ كُفءٌ … ولكنِّى سأُبلى فيهِ عُذرَا[3]

قافية السين

(٣٠٣)

وقال :

لِلّهِ درُّكَ من فتًى أبدَتْ به … أيامُنَا بِشرَ الزَّمانِ العَابِسِ
صَدَقَتْ أمانِى الخيرِ فيه ، فلم تَدَعْ … صَدرًا يُضَمُّ على فُؤادٍ آيِسِ
نالَ[4] العُلاَ ، حتّى أقرَّ بفضلِهِ … وعُلاهُ كُلُّ معاندٍ ومُنافِسِ
جُودٌ كماءِ المُزنِ طلقٌ خالصٌ … من مَنِّ منَّانٍ ومنعِ مُماكِسِ[5]
ومَواهبٌ لو قُسِّمت بين الوَرى … ما كانَ يوجَدُ فيهِمُ من بَائِسِ
ونَدَى يدٍ لو أنَّها مبسوطةٌ … فى الأرضِ أثمرَ كلُّ عودٍ يابسِ

---

(١) القطر بالضم : العود الذى يتبحر به . وضاع المسك : تحرك فانتشرت رائحته .
(٢) قلاه : أبغضه . وفغمه الطيب : سدّ خياشيمه . والنشر : الريح الطيبة .
(٣) أبلاه عذرا : أداه إليه فقبله .
(٤) بهامش الديوان (حاز) رواية .
(٥) ماكسه فى البيع : شاحه .

قافية الطاء

(٣٠٤)

وقال فى الملك الصّالح من قصيدةٍ مضَى أوّلها[١] :

ومن عَلِقَتْ بالصَّالِحِ المَلْكِ كفُّهُ … فَلَيس له دُونَ العُلاَ والغِنَى شَرْطُ
ومن دُونه،إن رابَ خطبٌ،ذَوابلٌ … وبيضٌ ، وجردٌ ، لاالقَتادَةُ والخُرْطُ[٢]
أثارَتْ جُدودِى مذ عَلِقتُ بحبلِه … وكان لها فى خطب عَشوائِها[٣] خَبَطُ
له نائلٌ يَسرِى إلى كلِّ آملٍ … "إذا جيرةٌ سمِوا النّوالَ فلم يُنطُوا[٤]"
على كلِّ وجهٍ نَضرةٌ من نوالِه … وفى كلِّ جيدٍ من صنائعه قُرطُ
وكم أملٍ جعْدٍ أتَى اليأسُ دونَه … تلقَّاه من إنعامه نائلٌ سَبطُ
وكنتُ أرجِّى منه ما دونَه الغِنَى … إذا ما غَدا فى كفِّه الرَّفعُ والحطُّ
فلمَّا ورَى زندُ المعالى بِكفِّه … وقال نَداه للوفُودِ : ألا حُطُّوا
نأتْ بِى اللَّيالِى عنه ، لكنَّ جُودَه … أتَانى ، ولم يَحجُزه نأىٌ ولا شَطُّ
كذا الغيثُ يَسرِى طالِبًا كلَّ طالبٍ … فكلٌّ له من فيضِ وابله قسطُ
وإنعامُه كالشمس يَغشَى ضياؤُها … لمن زَاغَ ، أو حاذَاه من أفقها خَطُّ
فأنزَرُ حَظِّى من مواهبه الغِنَى … وأيسرُ تخويلى[٥] العشيرةُ والرَّهطُ

---

(١) مطلع القصيدة :

أجيرة قلبى إن تدانوا وإن شطوا … (راجع ص ٧٨ ، ٢١١)

(٢) القتاد : شجر صلب له شوكة كالإبر . والخروط : الدابة الجموح تجتذب رسنها من يد ممسكها ، ثم تمضى ، والجمع : خرط . والذوابل : الرماح ، والجرد : الخيل القصيرة الشعر .
(٣) العشواء : الظلمة .

(٤) مطلع قصيدة أبى العلاء المعرى :

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا … يظللهم ما ظل ينبته الخط

وأنطى : أعطى .

(٥) خوله : أعطاه متفضلا .

حبَانِي نُفُوسًا ، لا نَفِيسًا من اللُّهى[١] ... ونـولَّنى ما لم يَنـلْ مَلِكٌ قَطُّ
وما النَّـاسُ إلّا آلُ رُزِّيكَ ؛ إنّهمُ ... همُ الذَّادةُ الشُّبَّانُ ، والسَّادةُ الشُّمطُ[٢]
بنُو الحربِ فى يوم الوغَى ، وبنو النَّدَى ... إذا ما بلادُ النَّـاس جرَّدها القحطُ
إذا مَا احْتبَوْا[٣] فالراسياتُ رجاحةً ... وإن ركبوا فالأسدُ هيجتْ ، لها نَحطُ[٤]
لهم جبلٌ ، لا زعزعَ الخطبُ رُكنَه ... به تُؤْمَنُ الأحداثُ والميتةُ العَبْطُ[٥]
أقرَّ الورَى أن ليس كُفئًـا لمُلكِه ... سـواهُ ، فقد زال التّنافُسُ والغَبطُ
فلا زالت الأقـدارُ تجرِى بأمرِه ... وفى يدِه حَلُّ الممـالكِ والرَّبطُ

فأجابه محرضا على الجهاد[٦] :

هى البدرُ ، لكن الثُّرَيَّا لهـا قُرطُ ... ومِن أنجُمِ الجوزاءِ فى نحرِها سِمطُ[٧]
مشَتْ ، وعليهَـا للغمامِ ظَلائلٌ ... تُظِلُّ ، ومن نسج الرَّبيعِ لهـا بُسطُ
تَـؤُمُّ صريعـاً فى الرِّحالِ كأنَّه ... من السُّقمِ ، والأيدى تقلِّبه ، خَطُّ
فمـا اخضَرَّ تُربُ[٨] الأرضِ إلا لأنَّها ... عليهِ ، إذا زارَت ، بأقدامها تَخطو
ولا طابَ نَشرُ الروضِ إلا لأنَّه ... يُجَرّ عليـه من جلابِيبِها مِرطُ[٩]
ولا طَارَ ذِكرُ الظَّبي إلا لأنَّه[١٠] ... يَصدُّ كما صدَّت ، ويعطُو ، كما تَعطُو[١١]
من البيضِ مثلَ الصُّبحِ ، ما للظَّلامِ فى ... محاسنِها ، لولا ذَوائبُها ، قسطُ

---

(١) اللهى بالضم : العطايا ، مفرده لهوة .

(٢) جمع أشمط . والشمط : بياض يخالط سواد الشعر . (٣) احتبى بالثوب : اشتمل به .

(٤) نحط ينحط نحيطا ، والنحاط : تردد البكاء فى الصدر من غير أن يظهر كالنحط ، والنحط شبه الزفير .

(٥) مات عبطة : شابا صحيحا .

(٦) النص بعضه فى الخريدة المطبوعة ١ : ١٧٦ ، والروضتين ١ : ١١٩ . وثلاثة أبيات منه فى عقد الجمان : القسم الثانى ، ومرآة الزمان جـ ٨ . (٧) السمط : القلادة .

(٨) فى العقد والمرآة : ثوب . (٩) المرط بالكسر : كساء من صوف أو خز ، جمعه مروط .

(١٠) فى الخريدة : وقد غدا . (١١) العطو ، رفع الرأس واليدين .

إلى العَـربِ الأمحَاضِ[١] يُعزَى قبيلُها ... وقد ضمَّها فى الحسنِ مع يُوسفٍ سِبطُ[٢]
ولـمـا غَدت كالعَاجِ ، زُيِّن صدرُها ... بِحُقَّين منه ، قــد أجادهما الخَرطُ
وأرســلَ فوق الخدّ صُدغٌ مكلَّلٌ ... كما انساب فى الرّوضاتِ حيّاتُها الرُّقطُ[٣]
ذوائبُ زَارَ الخَــصرَ منهنَّ فاحمٌ ... تَحَدَّرَ ، لا جَعـدُ النَّباتِ،ولا سَبطُ
يُنافى سنَا الكافورِ إن مُشِّطَت به ... ويُخفِى سوادَ المسك، فهولَهـا خلطُ
ولمَّـا نأت عنَّـا على كلِّ حَالةٍ ... تَساوى الرّضاوالسّخطُوالقربُوالشّحطُ[٤]
فأذكرَنَا ذاك البِعَـادُ مَعـاشِرًا ... نَأَوْا ، فكأَنَّا ما لقيناهُـــمُ قَطُّ
وألقَوْا ، وقد شَطُّوا ، فؤادَ مُحِبِّهم ... إلى بحـــر شَوقٍ ما لِلُجَّتِـــه شَطُّ
وليس تَشُقُّ السُّفنُ أمواجَه ، ولا ... بساحله للعِيسِ رفـعٌ ولا حطُّ
أأحبَابَنا بالشَّام ، عفتمُ جــوارَنا ... لِجاورَكُم فى أرضهَا الخوفُ والقحطُ
وما كان بعدَ النِّيلِ ، والنِّيلِ زاخرا ... بمصر لِيُغْنى عنــكم ذلك الخُطُّ[٥]
وقد عشتمُ فيهـا زمانًا ، فما اعتَرى ... رضاكُمُ بهـا ، لولا تخوُّفكُم، سُخطُ
وكنتُم لنـا دونَ الأقارب أسرةً ... ونحن لكم ، من دُون رهطكم، رَهْطُ
وإنَّا أُناسٌ ، ليس يَبرحُ جَارُنا ... يحـكّمُ فى الأَموالِ منَّـا ، فيشتَطُّ[٦]
ويمتَاحُنا[٧] زُوَّارُنا ، فكأنّمـا ... غَدا لهمُ شرطٌ علينا ، ولا شَرطُ
ويُصبِحُ بَسطُ الكفِّ بالمَال عندنا ... وكلُّ مليكٍ عندَه القبضُ والبسطُ
وتَخرِقُ شرقَ الأرضِ والغربَ خيلُنا ... عليهَا الشَّبابُ المردُ ، والجلَّةُ الشُّمطُ[٨]
وظلمـاءَ للشُّهبِ الدَّارِى إذا سَرتْ ... هناكَ مع السَّارِين فى جُنحِها خَبطُ

(١) الأمحاض : جمع محض وهو الخالص .
(٢) فى الخريدة : سمط .
(٣) الرقطة : سواد يشوبه نمط بياض أو عكسه .
(٤) الشحط : البعد .
(٥) الخط بالضم : موضع الحى .
(٦) اشتط : جاوز الحد .
(٧) المتح : الاستقاء .
(٨) جمع أشمط . والشمط : بياض شعر الرأس يخالط سواده . والجلة : جمع جليل .

كما أوَّلُ الفَجرينِ سَقطُ[1] يُسلُّ من ... حشَاها، كذاكَ البرقُ فى جوِّها سَقْطُ
سَلَلْنَا بها بيضَ السّيوفِ، فلاحَ فى ... شبَابِ الدُّجى، لمَّا بدَا لمعُها، وخطُ[2]
سيُوفٌ لها فى كل درعٍ وجُنَّةٍ[3] ... إذا ما اعتلَتْ قَدٌّ، أو اعترضت قَطُّ[4]
ذَخَرْنَا سُطاهَا للفَرنجِ؛ لأنَّها ... بِهِم دونَ أهلِ الأرضِ أجدرُ أن تَسطُو
لَهم قِسطُهم فى الحَربِ منها، وما لَها ... عليهم لدَى الهيجاءِ عدلٌ ولا قَسطُ[5]
وقد كاتَبوا فى الصُّلحِ، لكن جوابُهم ... بحضرتِنا ما يُنبتُ[6] الخطُّ[7] لا الخطُّ
سُطُورُ خيولٍ لا تُغِبُّ ديارَهُم ... لها بالموَاضِى والقَنَا الشَّكلُ والنَّقطُ
وحربٌ لها الأرواحُ زَاهِقَةٌ، لما ... تُعايِن، والأصواتُ من دَهَشٍ لَغَطُ
إذا أرسلتْ فَرعًا من النقعِ فاحمًا ... أُثيثًا[8]، فأسنانُ الرِّماحِ لها مُشطُ
كأنَّ القَنا فيهَا أناملُ حاسِبٍ ... أجدَّ بها فى السُّرعة الجمعُ واللَّقطُ
رَدَدْنَا بها ابنَ الفُنْشِ عنَّا، وإنَّما ... يُثبِّتُهُ فى سَرجه الشَّدُّ والربْطُ
فقولُوا لنورِ الدّين: ليس لجَائف الـجِرَاحاتِ إلّا الكىُّ فى الطّبِّ والبطُّ[9]
وحَسمُ أصولِ الدّاءِ أولَى لعاقلٍ ... لبيبٍ، إذا استولَى على المُدنفِ الخِلطُ[10]
فَدعْ عنكَ ميلاً للفَرنجِ وهُدنَةً ... بها أبدًا يُخطِى سواهم، ولم يُخْطُوا
تأمَّلْ، فكَم شرطٍ شرطتَ عليهمُ ... قديمًا، وكم غَدرٍ به نُقِضَ الشَّرطُ
وشَمِّر، فإنّا قد أعنَّا بكلِّ مَا ... سألتَ، وجَهَّزنا الجيوشَ، ولن[11] يُبطُوا

---

(١) السقط: ما سقط بين الزندين قبل استحكام الورى. (٢) وخطه الشيب: خالطه. أو فشا شيبه.
(٣) الجنة: كل ماوقى. (٤) القد: الشق طولا. والقط: القطع عرضا.
(٥) القسط بالفتح: الجور والعدول عن الحق. (٦) فى الخريدة: يكتب.
(٧) الخط: سيف البحرين ومرفا السفن بالبحرين وإليه نسبت الرماح. والخط الثانية المراد بها الكتابة.
(٨) أث النبات يئث. كثر والتف. وهو أثيث. كثير عظيم.
(٩) بط الجرح وغيره يبطه بطا وبجه بجا: إذا شقه. (١٠) الخلاط بالكسر: أن يخالط الرجل فى عقله.
(١١) فى الروضتين: لم.

ودُونَكَ، مجدَ الدّينِ، عذراءَ ، زفَّها　　إليك الوفاءُ المحضُ والكَرَمُ السَّبطُ[١]
هَديًّا[٢] تَهادَى بين حُسن وفائنا　　وإنعامنا، ذا التَّاجُ زانَ ، وذَا القُرطُ
على أنَّها تَشتطُّ إن هى ساجَلت[٣]　　(أجيرةَ قلبى ، إن تدَانوا وإن شطُّوا)[٤]

قافية العين

(٣٠٥)

وقال أيضا فى الملك الصالح :

لئن شتَّتَتْ أيدى الحوادثِ شَملنَا　　بُجُود أبى الغارات للشملِ جَامعُ
هو المَلِكُ الجزلُ النَّدى الصّالحُ الَّذى　　بحارُ نَداهُ كلُّهنَّ شرائعُ[٥]
يجودُ بلا منٍّ[٦] على عُظْمِ مَنِّه[٧]　　كأنَّ عطاياهُ لديه ودائعُ
يحكِّمُ مُشتَطَّ المنُى فى نَواله　　فتعجبُ من جَدوى يديه المطامِعُ

(٣٠٦)

وقال فيه من قصيدة :

فإليكَ بنتَ الفِكر، من بُعد المَدَى　　تُهدَى ، فَشرِّفها بحُسن سَمَاعِ
وصداقُها الإكرامُ، لا ما سِيقَ فى　　نِحَلِ الكرائم : من لُهًى[٨] ومتَاعِ
فهى الكريمةُ ، ليس فى أعْرَاقِها　　عرقٌ إلى الأطماعِ بالنَّزَّاعِ[٩]

---

(١) السبط : السخى . (٢) الهدى : العروس . (٣) ساجله : باراه .
(٤) مطلع قصيدة أسامه السابقة . راجع ص ٧٨ . (٥) الشريعة : المورد .
(٦) مننت عليه : عددت له ما فعلته من الصنائع . (٧) المنّ الإنعام .
(٨) اللهى جمع لهوة وهى العطية . والنحلة بالضم : مهر المرأة . والاسم النحلة بالكسر .
(٩) نزع إلى الشىء : ذهب إليه .

قافية الفاء

(٣٠٧)

وقال :

هو الجوادُ الذى يلقاهُ مادحُه وإن غَلا، فوقَ ماأثْنَى وما وَصَفَا
مَعذَّلٌ فى النَّدَى ، لكنَّ راحَتَه تأبَى مع العَذْلِ إلّا البَذْلَ والسَّرفَا
صَعبُ الإباء ، إذا ماهجت سَورتَه[1] نزرُ الرِّضا ، فإذا استَعطَفْته عَطَفَا
بَادى الحُقُودِ على أعدائه ، فإذا نَالتْهُمُ قدرةٌ منه حَبا[2]، وعَفَا
نَغْشَى مواردَ من أخلاقه كَرُمتْ وِردًا ، ونرتادُ منها روضةً أُنُفَا[3]
مستَهتَرٌ[4] بالمعالى، لا يزالُ على تقلُّبِ الدّهرِ مشغوفًا بها كَلِفَا
إن أخلَفَ الغيثُ لم تُخلِف مواهبُه أو فَظَّ دهرٌ على أبنائه لَطُفَا
عَدلُ القضيَّة إلّا فى مواهبِه لم يقضِ فى المالِ إلا جارَ واعتَسفَا
تَعُمُّ نُعماه ذا نقصٍ وذا شرفٍ كأنّه البحرُ يحوى الدُّرَّ والصَّدفَا
منزَّهُ الخلقِ عن فعلٍ يُعاب به فما تَرى لكمالٍ عنه مُنْصَرَفَا

(٣٠٨)

وقال من قصيدة فى الملك الصّالح ، ذكر أوّلها[5] :

من كانَ لى من حماهُ خِيس[6] ذى لِبدٍ ضَارٍ ، ولى من نداهُ روضةٌ أُنُفُ[3]
من لَمْ يزل لِيَ من جدوَى يديه غِنًى وفى ذُراه من الأيّامِ لى كَنَفُ

---

(١) السورة : الحدة والبطش . (٢) حبا : أعطى .
(٣) روضة أنف : لم ترع . (٤) استهتر بكذا : فتن به ، وذهب عقله ، وانصرفت همه إليه .
(٥) مطلع القصيدة : أذكرهم الود إن صدوا ، وإن صدوا . . . راجع ص ٨٥ .
(٦) الخيس : موضع الأسد .

المِلكُ الصّالحِ الهادى الذى شهدت … بفضلِ أيامه الأنباءُ والصُّحفُ
مَلْكٌ أقلُّ عطاياهُ الغِنَى ، فإذا … أدناكَ منه ، فأدنى حظّك الشَّرفُ
أغرُّ ، أروعُ ، فى كفيه سُحْبُ نَدًى … تمتارُ[1] سُحبُ الحيا منها ، وتَغترفُ
هو الوزيرُ الذى يأوِى إلى وَزَرٍ[2] … منه الأنامُ ، فيُكْفَوا كل ما كَلِفُوا
تُريه آراؤه فى يومِه غَدَهُ … فيحسِمُ الخطبَ فيه قبلَ يَكتَنِفُ[3]
بصيرةٌ كشَفت مافى القلوب لَه … وأطلعَته عليه قبلَ يَنْكشِفُ
سعتْ إلى زهدِه الدُّنيا برغبتِها … طوعاً ، وفيها على خُطّابِها صَلَفُ
ولم تُزَفَّ إلى كفءٍ سواهُ ، وما … زالت إلى مجده تصبُو ، وتَشْترفُ[4]
حَبرٌ ، إذا الليلُ آواهُ بحندسه[5] … بحرٌ من العِلمِ طامٍ ليس يُنْتَزَفُ
ومحربٌ[6] ما أتَى المحرابَ مُبتهلا … إلا وأدمعُه من خشيةٍ تَكِفُ[7]
مُسَهَّدٌ ، وعيونُ الخلق هاجعةٌ … على التَّهَجُّدِ والقرآن معتكفُ
وتشرقُ الأرضُ من لألاءِ غُرَّتِه … فى دَسْته[8] ، فتكادُ الشمسُ تنكسِفُ
لم يدرِ ما القصدُ[9] فى جُود ، ويُعجبه … فى بَذْلِ أمواله الإفراطُ والسَّرَفُ
إذا حَبَا[10] عادَت الآمالُ راضيةً … وإن سطَا كادَت الآفاقُ ترتجفُ
يأيها المِلكُ الموفِى بِذمّتِه … ومن تجلَّى عن الدّنيا به السَّدَفُ[11]
إليكَ يا عادلًا فى حكمه ، وعلى … أمواله من قضايَا جُوده الجَنَفُ[12]
أشكُو زمانًا قضَى بالجورِ فىَّ ، ولم … يَزَلْ يجورُ على مِثلى ويَعتسفُ
لَحَت[13] نوائبُه عُودى ، وأنْفدَ مو … جُودى ، وشتَّتَ شملى ، وهو مؤتَلِفُ

---

(١) الميرة : جلب الطعام .
(٢) الوزر : الملجأ والمعتصم .
(٣) اكتنفه القوم : كانوا منه يمنة و يسرة .
(٤) فى المصباح : استشرفت الشىء : رفعت البصر أنظر إليه .
(٥) الحندس : الظلمة .
(٦) المحرب : رجل الحرب الشجاع .
(٧) تكف : تقطر .
(٨) الدست : صدر البيت — معرب .
(٩) القصد : الاقتصاد .
(١٠) حبا : أعطى .
(١١) السدف : الظلمة .
(١٢) الجنف الجور . (١٣) لحا العود : قشره .

وقد دعوتُكَ مظلوماً ومُرتجياً   وفى يديكَ الغنَى، والعدلُ، والخَلَفُ
فاجمعْ بجودك شملاً كان مجتمعا   فعادَ بعد ائتلافٍ، وهو مختلفُ
وانشر بمعروفِك المعروفِ ميِّتَهم   وشُكرَ من هو بالإحسانِ مُعترِفُ
فهو القريبُ موالاةً ومُعتقَداً   وإن أتت دُونه الغبراءُ والنُّطَفُ[1]
وعش علَى رغم من يَشْنَاكَ[2] مُقتدراً   فى دولةٍ، مالها حدٌّ ولا طَرَفُ

فأجابه :

آدابُك الغُرُّ بحرٌ، ماله طَرَفُ   فى كل سمعٍ بَدا من حُسنه طُرَفُ
نقولُ، لمـا أتانَا ما بَعثْتَ به :   هذا كتابٌ أتى، أم روضةٌ أُنفُ[3]
خطٌّ تنزَّهت الأزهارُ حين بدا   كأنَّه الدُّرُّ، عنه فُتِّح الصَّدفُ
إن نظْمه طرقَ الأسماعَ كان لها   وإن حوت عَطَلًا من حليةٍ، شَنَفُ[4]
رقَّت حَواشِى كلامٍ أنت ناظِمُهُ   فيه، فجاءَ كزهرِ الرَّوضِ يُقتطَفُ
وردتَ بحرَ القَوافِى فاغترفتَ. كما   قد حلَّ يوما بمدِّ النِّيلِ مُغتَرِفُ
زهَت على البدرِ نوراً، إذ أتت بسوا   دِ النِّقْسِ[5] يشبهه من خدِّه كَلَفُ[6]
قَرْطَست[7] رَميا، وكم رامٍ بأسهُمِه   إذا تُحقِّق منـــه يَسلم الهَـــدَفُ
بخاطرٍ فاق غُزْر العَدِّ، لا وَشَلٌ   ولا بَبرْضٍ[8] إذا ما حُلَّ يُنتزَفُ
إذا تَطلَّعَ فوق الأرضِ ذُو أدَبٍ   فأنت منه على العيُّوقِ[9] تَشترِفُ

---

(١) النطفة بالضمة : الماء الصافى ، قل أو كثر والجمع نطاف ونطف .
(٢) شناه : أبغضه .
(٣) روضة أنف : لم ترعَ .
(٤) الشنف بالفتح : القرط .
(٥) النقس : المداد .
(٦) الكلف : سواد فى صفرة .
(٧) قرطس : أصاب القرطاس ، وهو أديم ينصب للنضال .
(٨) البرض : القليل . والوشل : الماء القليل .
(٩) العيوق . نجم .

و إن تَعَرَّى دَعِيٌّ من فَضائله ... فأنت مُــدَّرِعٌ منها ومُلتَحف

إذا تَخَــفَّى لقُبْحٍ[1] وجهُ قافيــةٍ ... فعنْ قَوافيك شيلَت دوننَا السُّجُفُ[2]

لأَعينِ الناسِ نَهبٌ من محاسنِها ... كما القــلوبُ تُلاقيها فتَختطفُ

إذَا ذكرْناكَ مجدَ الدينِ ، عاوَدَنا ... شوقٌ تجدَّد منه الوجدُ[3] والأَسَفُ

ودونَ ما قــد وجدْناهُ لفُرقتكم ... يحيطُ بالقلبِ من أرجائه التَّلفُ

ولو عرفتَ الذى فى القلبِ منكَ لمَا ... إن[4] كنتَ عنَّا على الأحوالِ تختلفُ

ولا عجيبٌ إذا حافَ الزّمانُ على ... حُرٍّ ، وكلُّ قَضاياهُ بهـا جَنَفُ[5]

فلا تكُن جازعًا ، إن التَّجاوُزَ عن ... إنفاقِكَ الصبرَ فى شَرع الهوى سَرَفُ

فإنْ حصَلتَ على الصَّبر احتويتَ على ... الأجرِ الجزيلِ ، وفى إحرازِه شَرَفُ

يا مَن جفَانا ، ولو قد شاءَ كان إلى ... جَنَابِنا[6] دونَ أهلِ الأرضِ ينعطفُ

وحقِّ مَن أمَّه وفدُ الحجيجِ ، ومَن ... ظلَّت إلى بيتِه الرُّكبانُ تختلفُ

إنَّا لنُوفِى على حالِ البعــادِ ، كما ... نُوفى لمن ضمَّه فى قربِنـا كَنَفُ[7]

ونَغفرُ الذنبَ إن رامَ المسىءُ بنا ... عفوًا ، ونسترُه فى حينِ ينكشفُ

و إن جنَى مَن رأى أنَا نعاقبــهُ ... يردُّنا الصَّفحُ أو يعتاقُنا الأنَفُ[8]

نَعم ، ونحفظُ عند الغيبِ صاحبَنَا ... وليس يُدرِكُنا كِبرٌ ولا صَلَفُ[9]

فما لإيعَادِنَا يوم الوغَى مَيَلٌ ... ولا لموعدِنا يومَ النَّدى خُلُفُ

فعندنا جَنَّــةٌ تدنو الثمــارُ بها ... إذا دنَا مُجتنٍ منها ، ومُقتَطفُ

هَدَى مُصاحِبَنَا ضوءُ النهارِ ، وكم ... قد ضَلَّ من فى ظَلامِ الليلِ يعتَسفُ[10]

---

(١) فى الأصل (لفتح) تحريف .

(٢) السجاف : الستر .

(٣) الوجد : شدة الحزن .

(٤) إن زائدة بعد ما .

(٥) الحيف : الظلم . والجنف : الميل والجور .

(٦) الجناب : الفناء والناحية .

(٧) الكنف : الجانب والظل والناحية .

(٨) الأنف : الاستنكاف .

(٩) الصلف : أن تتمدح بما ليس عندك .

(١٠) اعتسف : خبط على غير هداية .

فَـلْ إلينَا بآمالٍ محقّقَـةٍ وكُفَّ غَرْبَ[1] دموعٍ لم تزل تَـكِف
كَفَى اغترابًا ، فعجِّل بالإياب لنـا فمنكَ لا عِوضٌ يُلْقَى ولا خَلَفُ
وقد أجبْنا إلى ما أنت طالبُـه فالآن كيفَ تُروِّى[2] فيه أو تَقِفُ
فرأيُنَا فيك قد أضحَى علانيـةً والجُندُ قد عرفُوا منه الذى عَرفُوا
وقُدِّمَت لك تمهيـداتُنَا ، وبها وحْشُ الفَلاةِ ، إذا ماروِّعت ، ألُفُ
كأنَّنَا حين تجرِى ذكرةٌ لكُمُ على اضطرامِ لهيبِ النّارِ نعتكِفُ
فإن يبـالغ أناسٌ فى الثنـاء على أوصافكُم قصَّروا فى كلِّ ما وصَفوا
فخُـذ نظامًا على قدْرِ الذى كتَبَت يداكَ إذ عددُ النّظمين مؤتلِفُ

(٣٠٩)

وقال فيه من قصيدة تقدّم أوّلهـا[3] :

دَع ذا ، وقل لبَنِي الآمالِ : قد وَضَحَت لـكم سبيلُ الأماني وانجلَى الأسفُ
وأينَعتْ دوحةٌ للجُودِ دانيةُ القُـطوف ، يُجنى الغنَى منها ، ويُقتطَفُ
أُمّوا بآمالِـكم مصرًا ، فإنّ بها سَحابةً من نَدَاها السُّحبُ تغـترفُ
أجرَى بهـا اللهُ نيلاً زائدا أبدًا فليس ينقُص فى وقتٍ ، ولا يَقِفُ
مياهُه من نُضارٍ جامدٍ ، وعلى أرجائه ، للأمَاني ، روضـةٌ أُنُفُ
علَت بها رايةٌ للعـدلِ ، قاصدُها يقتَصّ من دهرِه الجاني ، وينتصِفُ[4]
سعَى بها أروعُ[5] فى الرَّوع[6] ذو وَرَعٍ فى السِّلمِ ، حتّى تجلّى الجورُ والجنَفُ
وجادَ بالمـالِ ، حتّى لم يدَع أملاً ما الجُودُ والفضلُ إلّا البذلُ والسَّرفُ

(١) الغرب : الحدّة والنشاط والتمادى . (٢) روّى فى الأمر : نظر وفكر .
(٣) انظر مطلع القصيدة : «ما منهم لك معتاض ولا خلف» ص ٨٦ .
(٤) انتصف منه : استوفى حقه منه . (٥) الأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته .
(٦) الروع : الفزع .

الملكُ الصالحُ الهـادى الذى كشَف الـــغَمَّاءَ[1] ، إنَّ الدُّجى بالصبح مُنكشفُ

مَن فيه عن زُخْرُفِ الدُّنيا وزينتِهـا مُذْ راودته على عَليائه . ظَلَفُ[2]
جوابُه نعَـمٌ ، فى إثرها نِعَـمٌ ولا تُلائمُ فاهُ اللامُ والألِفُ
يُغنى العُفـاةَ[3] ، ويلقاهُم بمعذرةٍ كأنمـا عاتَبوه ، وهو مُقـترِفُ[4]
ما يبلغُ الشُّكْرُ ما يوليـه من مِنَنٍ إنعـامُه فوقَ ما نُثْنِى وما نَصِفُ
لـكن مواهبُه فى الخَلقِ شاهدةٌ بشـكرِ إنعامه ، والشكرُ يختلفُ
كالرَّوضِ إن لم يُطِق شكرَ السحابِ إذا هَمَى فَنَضرتُه بالفَضْـل تعترفُ
يا كافِىَ الخلقِ بالنُّعمَى ، وكافلَهم حتَّى لقــد أمِنُوا فى عدلِه وكُفُـوا
رأيتُ مجــدَكَ يُعلى قدرَ واصفه فكيفَ لا يَتَعالى قدرُ من تَصِفُ
قلَّدتَنِى أنجُمَ الجوزاءِ ، قد نُظمت عِقداً ، فحَقَّ[5] لمثلِى الفخرُ والشَّرفُ
أعلَتْ مَحلِّى ، فقد أصبحتُ من شَرفٍ بها على المشترى[6] أسمُو ، وأشترِفُ
حلَا بسمعِى ، وحلَّاه ، فمنه به الـ بُشرى ، بإدراكِ ما يرجُوه والشَّنَفُ[7]
جعلتُ نظمِى له ، ضَنًّا بفَاخرِه وِقَايةً ، ووقاءُ الجوهرِ الصَّــدفُ
لأصرِفَ العينَ عنه ، إنهـا أبداً عن الكمالِ برؤيا النَّقصِ تَنصرفُ
يا كاشفَ الغُمَّةِ ، اسمع دعوةً كَمَلت شكراً ، تظلُّ له الأسماعُ ترتشفُ
مِن نازحِ الدَّارِ بالإخلاصِ مقتربٍ حُرٍّ ، برقِّك دونَ الخلقِ يَعترفُ
إذا رأى بُعدَه عن بابِ مالـكه يكادُ يقضِى عليــه الهَمُّ والأسَفُ
لو حاوَل الخلقُ جمعاً حملَ مالكَ من مَنٍّ عليه ، وأدنى شكرِه ، ضَعُفُوا

(١) الغماء : الكرب .
(٢) يقال ظلف نفسه عن الشيء يظلفها : منعها من أن تفعله أو تأتيه أو كفها عنه .
(٣) العفاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف .
(٤) اقترف الذنب : أتاه .
(٥) حق الأمر : وجب .
(٦) المشترى : أحد الكواكب السيارة .
(٧) الشنف : القرط .

كم فَاجأتنىَ مِن نُعماك عارفةٌ ... سبيلُها عن سبيلِ الوعدِ مُنحرفُ
بها عَنِ الوعْدِ كبرٌ ، كلّه كرمٌ ... وعن تَقاضيه تِيه ، كلّه أنَفُ[١]
وجمعُ شَملِي بمن لى فى ذُراك، وإن ... أضحى لهم من نَدَاكَ البِرّ واللُّطُفُ
مُجَدَّدٌ لِيَ مَا أوليتَ من نِعَمٍ ... مازال لى تالدٌ منها ، ومطَّرِفُ
فابرِد بهم حرَّ قلبٍ ليس يبْرِده ... سواهمُ ، وحشًا من ذكرهم يجِفُ
وارحَم ضعافاً وأطفالا إذا ذَكَروا ... بُعدى عَصَبتهم، ففاضتْ أدمعٌ ذُرُفُ
لَهم نَشِيجٌ[٢] وإعوالٌ إذا نَظَرُوا ... من حَالِهم غيرَ ما اعتادوا وما الِفُوا
فنظرةٌ منك تُحييهم ، وتجعلُهم ... محمولةً عنهم الأثقالُ والكُلَفُ
ولَيس لى شافِعٌ إلاّ مكارِمُك الـــلاّتى إذا استُعطفَت للفضلِ تنعطفُ
واسلَم ، لتحيا بك الدنيا وساكنُها ... ما اغبرّتِ البيدُ، أوما اخضرّتِ النُّطَفُ[٣]
والقَ الأعادِى بجدٍّ لا يخُونك إن ... خانت غداةَ اللقاءِ البيضُ والزَّغفُ[٤]

فأجابه :

عُلومُكَ البحرُ غَمراً[٥] ليس تُنتزَفُ[٦] ... أسماعُنا لمعانِى دُرّها صَدَفُ
فان يجِد فَلْتَةً فى الدهرِ ذُو أدَب ... تجِده من بحرِكَ الزَّخَّارِ[٧] يَغترفُ
تُجيلُ فكرَكَ فى روضِ العُقول، فَلَا ... تزالُ تختارُ ما تجنِي ، وتقتطفُ
بعثتَ منها هَدِيّاً[٨] فى الورَى، جُلِيَتْ ... فالحسْنُ وقفٌ عليها ليس ينصرفُ

(١) الأنف : الاستنكاف .
(٢) نشج الباكى نشيجا : غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب . والإعوال رفع الصوت بالبكاء.
(٣) النطفة بالضم : الماء الصافى .
(٤) الزغف : الدرع اللينة الواسعة المحكمة أو الرقيقة الحسنة السلاسل .
(٥) الغمر : الماء الكثير .
(٦) نزف ماء البئر : نزحه كله .
(٧) زخر البحر كمنع : طمى وتملأ .
(٨) الهدى بكسر الدال وتشديد الياء : العروس تهدى إلى زوجها .

عذراءَ ، تُثبتُ فضلَ الواصِفينَ لها ... فقد أفادتْ جمالاً كلَّ مَن يَصِفُ
بَعثتَها دِيَماً[1] تُروى بها عَطَش الصَّـــادي[2]، ومسكُنها في سيرها الصُّحفُ
تَرَوى القلوبُ بها بعد العُيونِ، فَلا ... قلبٌ ، ولا عينَ إلَّا وهو يَرتشِفُ
ألهتْ عن الحسنِ والإحسانِ أجمعه ... إذ استبَان بها عن غيرِها أَنَفُ[3]
حسناءُ تَبرز في عِرنينِها[4] شَمَمٌ ... من الجمالِ ، وفي أجفانِها وَطَفُ[5]
كأنَّ أسماعَنَا ، لما أصخْن لهَا ... عُجْباً، أُتِيحَ لها من حَلْيِها شَنَفُ[6]
بَدَت لنا كمصابِيحِ الظَّلامِ ، وفي ... رأيِ العيونِ أتتنا الروضةُ الأُنُفُ[7]
قد برهَنَتْ بالمعاني عن فؤاد شَجٍ ... قد هَاضَه[8] الأثقلانِ: الهمُّ ، والأسفُ
إن يَبتسِم غلطةً في الدهرِ ، عاتبَه ... قلبٌ مدامعُه في صدرِه تَكِفُ[9]
ورُبَّ صعبٍ بدا ، من بعدِ شدَّته ... لأضعفِ النَّاسِ حَوْلاً[10]، وهو مُنعطِفُ
وكم مصابٍ جنته فرقةٌ ، فغدا ... سحابُه بنسيمِ القُربِ ينكشِفُ
وكُربةٍ نُزِعَت عنها ملابسُها ... والقلبُ منها بثوبِ الهمِّ مُلتحِفُ
وحينَ تُشرِق أنوارُ الشُّموسِ ، فما ... يَضرُّ ماضِي ليالٍ عمَّها السَّدَفُ[11]
أحوالُ ضُرِّك ، مجدَ الدين ، واضحةٌ ... قد كانَ للدهرِ في توكيدِها سَرَفُ
بَرقُ اليقينِ بدا منَّا إليكَ فما ... يَغُرُّ خُلَّبُه[12] ، بل سُحبه تَكِفُ
لا نُخلِفُ الوعدَ منَّا بالنَّجاحِ لمنَ ... لنا بآمالِه في القَصْدِ يَختلِفُ[13]
يقولُ حاسدُنا ، والحقُّ أنطقَه ... إذ شمسُه ، لا كمثلِ الشمسِ تنكسِفُ:
أولادُ رُزِّيكَ لا فخرٌ كفخرِهم ... حازُوا المفاخرَ في الدُّنيا وهم نُطَفُ

(١) ديم : جمع ديمة ، وهي المطر يدوم في سكون .
(٢) الصادي : العطشان .
(٣) أنف منه كفرح : استنكف .
(٤) العرنين : الأنف .
(٥) الوطف محركة : كثرة شعر الحاجبين والعينين .
(٦) الشنف : القرط .
(٧) الروضة الأنف : التي لم ترع .
(٨) هاضه : كسره .
(٩) وكف : قطر .
(١٠) الحول : الحذق والقدرة على التصرف .
(١١) السدف : الظلمة .
(١٢) البرق الخلب : المطمع المخلف .
(١٣) اختلف إليه : تردد .

وكم أرادَ الورَى إحصاءَ فضلِهِمُ   فى المكُرمات فما اسطاعوا، ولا عرفوا
لكنَّهم أخذُوا ما تَستقلُّ به   أفهامُهُم، وإلى حيثُ انتهَوْا وقفُوا
نُدنِى الغنَى من يدَىْ ربِّ المُنَى، فلَنا   به المطىُّ إلى أوطانِهم تَجِفُ[1]
فى غيرِنا تَخجلُ الآمالُ إن قصدَتْ   وما يَخيبُ رجاءٌ عندنَا يَقِفُ
وقد قضَى اللهُ بى تأليفَ شملِكمُ   وكانَ ظنُّكُم أنْ ليس يأتَلِفُ
وقد أساءَ لكم دهرٌ مضى، فإذا   شئتم مِن الدَّهرِ فاقتصُّوا، أو انتصفُوا
واقضُوا ديُونَ الهوَى عَن مدّةٍ سلفَت   تَشاكياً، وعلى المستأنَف اسْتَلِفُوا
وقد بدأْنَا، وتمَّمنا، فهل أملٌ   يدعُو، وهل مدمعٌ قد عادَ ينذَرِفُ[2]
نحن الزُّلالُ، دفعنا غُصَّةً عرضَتْ   لكُم، فلما عَرضْنَا لم تكن تقفُ
وعندنا أهلُكُم، كانوا لعيشِهمُ   كأنَّهُمْ عنك ماغابُوا، ولا انصرفُوا
كم جَهدُ ذى الهمِّ أن يبقَى تجلُّدُهُ   عليه، والهمُّ فى استمرارِه التَّلَفُ
لا تأسفنَّ على فقدانِ غيرِهمُ   غنَى الملاوم[3] قد جُرَّت له عُطَفُ
قومٌ إذا ارتفعوا قدراً، هوَوْا همماً   فالمكُرماتُ لعَمْرِى بينهم طُرَفُ[4]
ولا تقُل إن تذكرتَ البِلادَ أسًى   بأنَّ قلبكَ بالأشواقِ يُختطَفُ
وإن دولتَنا كنتَ الوحيدَ بها   فضلاً، فكيف يُرَى منكم بها خَلَفُ
عليكُمُ بِدَعُ[5] الآدابِ قد وُقفَتْ   فمالها عنكُمُ فى الدَّهرِ مُنْحرَفُ
مَن ناشدٌ عهدَ ذاكَ الإجتماعِ لَنا   فقد أضاعته منكُم نِيّةٌ قُذُفُ[6]
هُنّيتَ أهلَكَ مجدَ الدّين، فانجعِ الأ   فراحَ، وانظر، فإنّ الخير مؤتنَفُ[7]

(١) الوجيف: ضربٌ من سيرِ الخيل والإبل.
(٢) ذرفت العين دمعها: أسالته.
(٣) الملاوم: جمع ملامة.
(٤) الطرفة: المال المستحدث.
(٥) البدع بالكسر: الأمرُ الذى يكون أولا.
(٦) نية قذف: بعيدة.
(٧) الائتناف: الاستئناف والابتداء.

قافية القاف

(٣١٠)

وقال :

تَهمِى مواهبه والسُّحْبُ جَامدةٌ   فمِن يدَيه مَصَابُ الوَابِلِ الغَدَقِ[١]
نُعماهُ تُطلِقُ أسرَى ، ثُمّ تأسِرُهُمُ   له ، وكم مِنَّة أغنتَ عن الرُّبَقِ[٢]

(٣١١)

وقال[٣] :

مثلَ مُنْهَلّ أنعُمِ الملكِ الصا   لح : يَروَى دانٍ به وسَحِيقُ
سُحُبٌ ، وَبْلُهَا النُّضارُ وللأء   داءِ فيها صواعقٌ وحَرِيقُ
ملكٌ زاده التواضعُ للّـ   ـهِ جلالاً ، يروعُ ، ثم يَروقُ
سَطواتٌ تُخشَى ، وحلمٌ يُرَجّى   ونَوالٌ طلقٌ ، ووجهٌ طليقُ
من حكَى بِي وُرق الحمائمِ فى الأفـ   ـنانِ : جِيدِى حالٍ ، وغُصنى وَرِيقُ
وثَنائِى كَشدْوِهِنَّ مدَى الأيّـ   ـامِ ، يحلُو سَماعُه ، ويروقُ
رونقُ الصِّدقِ فيهِ بادٍ ، وما زَا   لَ إلى الصِّدقِ كلُّ سمعٍ يتُوقُ[٤]
يا أميرَ الجيُوشِ ، ما زال للإسـ   ـلامِ والدينِ منك ركنٌ وثيقُ
أسمعَتْ دعوةُ الجهادِ ، فلبَّا   هَا مليكٌ بالمكرماتِ خَليقُ

---

(١) مصاب : انصباب . والوابل : المطر الشديد الضخم القطر . وغدقت العين : غزرت . وجمد : بخل .

(٢) الربق : جمع ربق وهو حبل فيه عدة عرى يشد به البهم كل عروة ربقة .

(٣) أول هذه القطعة قوله : كم إلى كم يلحى المحب المشوق . . . راجع القطعة ٢٥٤ ص ١٣٦ .

(٤) تاق إليه : اشتاق .

ملكٌ عادلٌ ، أنَار به الدّينُ ، فعمَّ الإسلامَ منــه الشُّروقُ

ما لَه عن جِهاده الكُفرَ والعــد   لِ وفعلِ الخيراتِ شُغلٌ يعــوقُ

هو مثلُ الحُسامِ : صدرٌ صقيلٌ   ليِّنٌ مسُّه ، وحدٌّ ذَليــقُ[1]

ذو أناةٍ يخالُهـا الغِرُّ إهما   لاً ، وفيها حتفُ الأعادى المُحيقُ[2]

فاسلمَا للإسلام كَهفين[3] ماطرَ   زَ ثوبَ الظـلامِ برقٌ خَفوقُ

قافية اللام

(٣١٢)

وقال فى الشيخ أبى ترابٍ حَيدرةَ بنِ نجمٍ الكاتبِ ، وقد عُزِل عن الكتابة :

أبا تُرابٍ ، دهرُنا جاهلٌ   يَرفع للشُّبـهِ ذَوِى الجهْلِ

كأنَّه الميزانُ : يعـلُو به   ذوالنَّقْصِ عن رُتبة ذى الفضلِ

وما يضرُّ العزلُ مَن لم يَزَلْ   من فضلِه الباهرِ فى شُغلِ

(٣١٣)

وقال :

أبا حسنٍ فى طيِّ كلِّ مساءَةٍ   من اللهِ صنعٌ للعباد جميـلُ

كرِهتُ لك التَّرحالَ أمسِ، وربَّما   أفادَ الفتى طولَ المُقامِ رَحيلُ[4]

وقد يكرَهُ الشيءَ الفتَى ، وهو خَيرهُ   لَه ، ويحبُّ الشّيءَ وهو وَبِيلُ[5]

---

(١) ذليق : حاد . وصقله : جلاه .

(٢) أحاف به : أحاط به .

(٣) الـكهف : الوزر والملجأ .

(٤) يشير إلى قول الشاعر :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا   وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

(٥) الوبيل : الوخيم .

ولو لَمَ تُفِد إلاّ الجِهَادَ ، فإنّه ثوابٌ ، كما نصَّ الكتابُ ، جزيلُ
فكيف وقد أصبحتَ جاراً لماجدٍ يجــودُ ، على عِلاّتِه ، ويُنيــلُ
كريمٍ كايلٍ[١] الطَّرفِ عن عيبِ جارِه وما طَرفُهُ عِنــد السؤّالِ كَايلُ
شرَى الحمدَ بالأموال ، لا يَستقيلُ فى شِراهُ ، ولا عندَ البِيَاعِ[٢] يُقيلُ
ومَنْ كمُعينِ الدين ، أمَّا جنَــابُه فرحبٌ ، وأمّا ظِلّه فَظَليــلُ
إذا وَرَدَت آمالُنـا بَحـرَ جُوده صَدَرنَ رِواءً[٣] ، ما بِهِنَّ غَليلُ
فـكُنْ واثِقًا باللهِ ثم بِجــُودِه فإنّى بمــا أمَّلتُ منــه كَفيلُ

(٣١٤)

وقال فى نصر بن الأفضل[٤] :

يا مُستقبــلَ الغِنَى فيما تجــودُ به ومَن مواهبُــهُ كالعَارِضِ[٥] الهَطِلِ[٦]
ومَن إذا جادَ بالدُّنيـا لآمــلِه قالَت معا [رفُه][٧] حاشاك من بَخَلِ
ومَن إذا جرَّد البيضَ الصّوارمَ فى الــهَيجاء [أسكنها][٧] فى الهـام والقُلَلِ[٨]
قد كنتُ أخضَعُ فى الخطبِ الملِمّ ، فمذُ ولِّيتَ يانَصرُ عاد [الخطبُ][٧] يخضع لى
وبَعدُ ، لى فيكَ آمالٌ ، وظَنِّيَ فى عُلاكَ [أنّك][٧] تُوفى بى على أملى[٩]

---

(١) كل بصره : نبا .
(٢) بايعه مبايعة وبياعا : عارضه بالبيع . وأقلته : فسخته . واستقاله : طلب إليه أن يقيله .
(٣) رواء : جمع ريّان . (٤) راجع مقدمة الديوان .
(٥) العارض : السحاب المعترض فى الأفق . (٦) الهطل : تتابع المطر العظيم القطر .
(٧) سقط بالأصل ولعل ما أكملنا به يستقيم به الوزن والمعنى .
(٨) القلة : أعلى الرأس . والهامة : الرأس . (٩) أوفى عليه : أشرف .

(٣١٥)

وقال من قصيدة :

فَتِي ألتَجِى إليه من الخَطْـب، وذُخرِى إن غَالَ وَفْرِىَ غولُ[1]
بعلاهُ أسمو ، ومن فضلِ ما نـوَّل أقضِى فَرضَ العُلاَ وأُنيلُ
ملكٌ يذكرُ المواعيدَ والعهـدَ ، ويُنسيه فضلهُ ما يُنيلُ
مُلكهُ ملكُ رحمـةٍ ، وقضـايَا ـهُ بما جاءَنا به التَّـنزيلُ

ومنها :

أنتَ حلَّيتَ بالمكارمِ أهـلَ الـعصرِ حتَّى تعـرَّف المجهـولُ
وعلاَ خاملٌ ، وحَامَى جبانٌ ووَفَى غَادرٌ ، وجادَ بَخيـلُ
وحميتَ البلادَ بالسَّيفِ ، فاستصـعبَ منهَا سهلٌ ، وعزَّ ذليلُ
وقسمتَ الفَرنجَ بالغـزوِ شطريـن : فهذَا عانٍ[2] ، وهذَا قتيلُ
والذَّى لم يَحِن[3] بسيفِكَ مِن خَو فِكَ أمسَى وعقـلهُ مخبـولُ
مثَّـلَ الخوفُ بين عينيهِ جيشًا لكَ فى عُقـرِ دارهِ ما يزولُ
فالرُّبى عندَه جيوشٌ ، وموجُ الـبحرِ فى كلِّ لُجَّـةٍ أسطـولُ
وإذا مَا أغفَى[4] أقضَّ[5] به المضـجعَ فى الحُلمِ سيفُكَ المسلولُ
فابقَ للمسـلمِينَ كهفاً ، وللإفـرنجِ حَتفًا ، ما أعقب الجيلَ جيلُ
بين مُلكٍ يدومُ ما دامت الدُّنيـا وحالٍ فى الفضـلِ ليست تَحولُ[6]
ثابتَ الدَّستِ فى اعتلاءٍ وجَدٌّ وعطاياكَ فى ألبـلادِ تَجولُ
بَالغَ العبدُ فى النِّيابةِ والتّحـريضِ ، وهو المفَوَّهُ المَقبـولُ

(١) غاله : أهلكه . والوفر : الغنى . (٢) العانى : الأسير .
(٣) حان : هلك . (٤) أغفى : نام نوما خفيفا .
(٥) أقضّ المضجع : خشن . وأقضه الله ، لازم ومتعد (٦) تحول : تتحول .

فرأى من عَزيمةِ الغَزوِ ما كا　　دت له الأرضُ والجبالُ تميــلُ

وأجابتْه بالصَّليلِ سُـــيوفٌ　　ظَامئاتٌ ، وبالصَّهيلِ خُيــولُ

ورأى النَّقعَ راكدًا دون مجرى الشَّـــمسِ ، والأرضَ بالجيوشِ تَسيلُ

كلُّ أرضٍ فيها من الأُسدِ جيشٌ　　سائرٌ فوقَه من السُّمرِ غيلُ[1]

وإذا عاقَت المقاديرُ فاللَّـــهُ إذاً حسبُنَا ، ونِعم الوكيلُ

(٣١٦)

وقال :

زدنى عُلًا ، لا أرتضَى باللُّهى[2]　　حَسبِىَ ما نولْتَ : مِن مَالِ

أغنيتَ نفسى ويدَى ، فاستوَى　　حَالىَ فى العفَّـةِ والمَـالِ

فلِى نوالٌ وندًى سَيْبُه[3]　　يُرجَى ، ومن فضلِك إفضالِى

وإنَّمـا أبغِى العُلا ، لا الغنَى　　ومثلُهـا يَبغيــه أمثـالِى

(٣١٧)

وقال :

والجَـــوْرُ فى حكمِ الصبابةِ جائزٌ　　بخلافِ أحكامِ المليــكِ العادِلِ

الصَّالِـحِ الهـادِى الذى فى عدلِهِ　　ساوَى انخفاضُ الزُّجِّ[4] صدْرَ العَامِلِ[5]

---

(١) الغيل : الشجر الكثير الملتف ، والأجمة . والسمر : الرماح . (٢) اللهى : العطايا .

(٣) السيب : العطاء . (٤) الزج : الحديدة أسفل الرمح .

(٥) عامل الرمح : صدره .

قافية الميم

(٣١٨)

وقال :

وسِر إلى بحـرٍ خِضَمٍّ له ... من عَزمِه سيفٌ وعَمّى مِخذَمُ[1]
حتّى إذا أنطقَك العــدلُ فى ... جلاله والخُلُقُ الأكرمُ
قل لأمير المسلمين الَّذى ... به استَنَار الزَّمنُ المُظلمُ :
أنتَ الّذى ما جُرتَ يوماً ، ولا ... جَرى على سيفكَ ظُلماً دَمُ
ساويتَ فى عدلكَ بين الورَى ... حتّى تَساوَى الزُّجُّ واللَّهــذَمُ[2]
وقُمْتَ فى اللهِ احتساباً فقــد ... وَقَمْتَ[3] من يطغَى ومن يُجرِمُ
وكُلُّ أهلِ الشامِ أوسعْتَهم ... عدلًا ، فمالى دونَهم أُحرَمُ !
أطعتَ فى حكمكَ فىَّ الهَــوَى ... وما كذا يفعَــلُ مَن يحكُمُ
من ينصِفُ المظلومَ منَّا إذَا ... كنتَ ، وحاشَاك ، الذى يَظــلِمُ
وأنت ظــلُّ اللهِ فى أرضِــه ... تردَعُ من يظــلِمُ أو يَغشِمُ[4]
فلا يشُبْ أجرَ الجهـاد الذى ... فُــزتَ به دونَ الورَى مأثَمُ

(٣١٩)

وقال :

دعوتُك يا عُمَــرَ المكرُماتِ ... لأمرٍ عرَا ، ومهــمٍّ أَلَمْ
وأنت السّريعُ إلى مَن دعَاك ... بذاكَ قضى لك إرثُ الكرَمْ
وإن نَامَ حظِّى عمّا عهدتُ ... فإن اهتمامَكَ بى لم يَنَمْ

---

(١) مخذم : قاطع . (٢) اللهذم : القاطع من الأسنة . (٣) وقمه كوعده : قهره وأذله .
(٤) الغشم : الظلم .

(٣٢٠)

وقال :

لو استطعتُ ، ولو مُلِّكْتُ أمرِىَ فى ... قضاء فرضِكَ عمّا فَاتَ من خَدَمِ
مشَيْتُ أحمِلُ أثقالَ الثَّناء إلى ... جنابِك الخضِلِ[1] الأكنافِ كالقَلمِ

(٣٢١)

وقال من قصيدة مضى أولها[2] :

خُلُقٌ تحلَّى به سَلمانُ[3] بذِكرك من ... أخلاقك الغُرِّ يا ذا البأسِ والنِّعمِ
مَولَى عُلاكَ ، وكم قد عَاد شانئَه[4] ... بيأسه من ملوكِ العُربِ والعَجَمِ
يُقرُّ بالمُلك للمَلكِ الذى نَشَر الـ ... ـرَّحمنُ أيّامَه ظلًّا على الأُمَمِ
للصَّالحِ الملكِ الميمونِ طائرُه ... بجيدِه طوقُ مَنٍّ غيرُ منفَصِمِ
حَمَى ذَويه ، وكم من باسطٍ ليدٍ ... لولا حماهُ ، وكم من فاغرٍ لِفَمِ
وذادَ عنهم صروفَ الدَّهرِ إذ كَلِبَت ... عليهمُ ، وهُمُ لحمٌ على وضَمِ
ونالَهم من توالى سُحبِ نائله ... ما نال نبتَ الثَّرى من وابلِ الدِّيَمِ
يا حاسديه ، اكظِموا جِرّاتِكم فأنا النّـ ... ـذيرُ من أخذه ، إن هَمَّ ، بالكَظَمِ[5]
إيّاكُمُ عثَرَاتِ البغيِ ، إنّ لمن ... يبغيه يومًا يُوارى الشَّمسَ بالظُّلَمِ
حَذَارِ من مصرعِ الباغِينَ قبلكمُ ... فالسَّيفُ منصلتٌ فى كفِّ مُصطَلِمِ[6]
وفى تَميمٍ ومَن والاه موعظةٌ ... إنذارُها يُسمع الأمواتَ فى الرَّجَمِ[7]

---

(١) الخضل : كل شىء ند يترشف نداه .

(٢) مطلع القصيدة : أجب دواعى الهوى بالأدمع السجم ... راجع القطعة (٩٠) ص ٤٤ .

(٣) سلمان الفارسى : صحابى جليل .

(٤) شاد فلانا : أصابه بالعين ، وحسده .

(٥) الجرة : ما يفيض به البعير ، فيأكله ثانية . وكظم البعير : أمسك عن الجرة . والكظم محركة الحلق أو الفم أو مخرج النفس .

(٦) السيف المنصلت : الصقيل الماضى . واصطلمه : استأصله .

(٧) الرجم : القبر .

توهَّموا أنَّ ضارِى الأُسْدِ ينفرُ عن ... عَرِينه لحشُودِ البُومِ والرَّخَمِ
وما دَرَوْا أنَّه فى جَحفلٍ لَجِبٍ[1] ... من بأسِه ، غيرُ هيَّابٍ ولا بَرِمِ
مُغامِرٌ ترهبُ الآجالُ سطوتَه ... وتَفرَقُ[2] الأسدُ منه فى حِمَى الأجَمِ
يستقبلُ الحربَ بسَّامًا ، وقد كشَرتْ ... بها المنيَّةُ عن أنيابها الأُرُمِ[3]
يلقَى الأُلوفَ ويَحبُوها ، ففى يَدِه ... من العَطا والسُّطا بحرَاندَى ودَمِ
ما غرَّكُم بصَدوقِ الظَّنِّ يُخبرُه الرّ ... أىُ الصحيحُ بما فى الصدْرِ من سَقَمِ
يرى الضَّغائنَ فى قلبِ الحسودِ له ... تدبُّ مثلَ دبيبِ النّارِ فى الفَحَمِ
فإن سطَا عن يقينٍ ، أو عفا كرَمًا ... فإنَّه خيرُ ذى عفوٍ ومنتقمِ
أدناكُم ، فاعتليتُم عن ذَوِى رحِمٍ ... وحاطكُم ، فاغتديتم منه فى حَرَمِ
وعمَّكم سيبُ جودٍ منه نبَّه ذا الـ ... خُمولِ منكم ، وأغنَى كل ذى عُدُمِ
كم غُمَّةٍ كشفتْ عنكم صوارمُه ... ولم يزل كاشفَ اللأْواءِ[4] والغُمَمِ
لولاه ، لا زالَ عنكُم ظلُّه أبداً ، ... علمتُم كيف تأتى جفاةُ النِّقَمِ
إن رابهُ منكمُ أمرٌ ، فلا وَزَرٌ ... لكُم ، ولا عاصمٌ من سيله العَرِمِ[5]
يامالكًا مالكًا رِقِّى بأنعُمِه ... ومِلْكُ مثلِىَ لا يُبتاعُ بالقِيَمِ
ما الشكرُ كُفءٌ لما أوليتَ من مِنَنٍ ... وإن تسهَّل لى مستوعَرُ الكَلِمِ
وإن أكُنْ كزُهيرٍ فى الثّناء ، فقد ... علوتَ مجدًا وجُوداً عن مدَى هَرِمِ[6]
وإن تكُن مِدَحِى وقفاً عليكَ فلا ... تظنَّ أن ثَنائى منتهَى هِمَمِى
ففى يمينِك منِّى صارمٌ خَذِمٌ ... يَفْرِى ، إذا كَلَّ حدُّ الصّارمِ الخَذِمِ[7]

---

(١) اللجب : الجلبة والاضطراب . (٢) فرق : فزع .
(٣) أرم ما على المائده : أكله فلم يدع شيئا . والشيء : شده .
(٤) اللأواء : الشدة . (٥) العرم : الشديد .
(٦) هرم : ممدوح زهير بن أبى سلمى . (٧) يفرى : يشق . والخذم : القاطع .

فى حدّه حتفُ من ناوَاك وهو لمن ... والَاك مُنبجسٌ بالبارِدِ الشَّبِمِ
فمُر بما شئتَ ، ألقَ الأمرَ ممتثلاً ... بهمَّةٍ ما اعترتها فترَةُ الهِمَمِ
مجرِّبًا طاعتى تجريبَ مُختبِرٍ ... إنّ التجاربَ تجلو شُبهةَ التُّهم
فبذلُ نفسِىَ عندى فى رضاكَ ، فلا ... حُرمتُه ، بعضُ ما أنويه من خِدَمى
وحَقّ ذاكَ لمن أنشَرتَ أسرتَه ... من بعدِ ما عدَّهم من ناخرِ[1] الرِّمَمِ
صرفتَ صرفَ اللّيالى دون غَشْمِهِمُ[2] ... وكفَّ بأسُك عنهم كفَّ مُهتضِمِ
وأوصلتْهم صِلاتٌ من نَداك إلى ... أرضِ الشّامِ ، لقد أغربتَ[3] فى الكَرَمِ
وما الذى نِلتُ من نعماك غايةُ آمالى ، ولا منتهى حظّى ولا قِسَمى
نيلُ العُلا دونَ ما أرجوهُ منك ، كما ... أنّ الغنَى دون ما تحبوهُ من نِعَمِ
شرّفتنى ، فاعتلَى قدرى ، وأصحبَ[4] لى ... دهرى ، وأصبحَ فيما رُمتُ من خَدَمى
وطُلْت[5] عمَّن يُساميني ، ففخرُهُمُ ... أن يبلغوا ، إن سَمت هاماتهم ، قَدَمى
للهِ درُّ طُروسٍ ضُمِّنت دُرَرًا ... أكرِمْ بمنتثرٍ منها ومُنتظِمِ
أضحت على مَفرِقى تاجًا ، وفى عُنقى ... تميمةً من عَوادِى الخطبِ والعُدُمِ
لفظٌ أرقّ من الشّكوى ، وألطفُ مِلْ عُتبى ، وأشهى من الإبلال فى الألَمِ
جرت لطافتُه من قلبِ سامعه ... مجرَى الهوَى من فؤادِ المغرَمِ السَّدِمِ[6]
فصاحةٌ أسمعتْ مَن كانَ ذا صَمَمٍ ... وحُسنُ معنًى أفاد الفَهمَ ذا اللَّمَمِ[7]
ووشىُ خَطٍ حكى زهرَ الربيع سرَت ... أكمامُه عن بديعِ الفضلِ والحِكَمِ
لو كان حالِكُه لونَ الشّبابِ لما ... حالَت نَضارتُه بالشيبِ والهَرَمِ

---

(١) الناخر : البالى المتفتت . والرمة : العظام .
(٢) الغشم : الظلم . والاهتضام : الظلم .
(٣) أغرب : أتى بالغريب .
(٤) أصحب : انقاد .
(٥) طاولنى فطلته : كنت أطول منه .
(٦) السدم محركة : الهم أو مع ندم ، أو غيظ مع حزن .
(٧) اللمم : الجنون .

يزيدُ سامعَها تكرارُها شغَفا بها ، وكم جَلَبَ التكريرُ من سَأَمِ
ياموجدَ الفضلِ والإفضالِ إذعُدما حتى لقد أصبحَا نارين فى عَلَمِ
مملوكُكَ الأصغرُ القِنُّ المبالغُ فى الإخلاص ، والسَّيرُ مقدودٌ من الأَدَمِ[١]
لو نَالَ ما يتمنّى مِن مشيئته مشى إليك خُضوعا مِشيةَ القلمِ

وكان كتب هذه القصيدةَ المتقدّمة إلى الملك الصالح جواباً عن قصيدة نونية، كتبها إليه ، وهى هذه :

وردَتْ إلينا منكَ "مجدَ الدّين" بيضاءُ تخطرُ فى الثّيابِ الجُونِ[٢]
حرّرتَ منها حُرّةً برزَت لنا حُسناً كنظمِ اللؤلؤِ المكنونِ
خَرساءَ صامتةً ، ولكن أخبرت منها الفصاحةُ عن لسان حَزينِ
غرّاءَ ، يُلقىَ الشّكُّ عند قُدومها فتظلُّ تكشفه بصبحِ يَقينِ
تشكو صبابتَكَ التى آلت إلى داءِ تَضرَّم[٣] فى الفؤاد دفينِ
أبدتْ إلى الكرمِ اللُّبابِ[٤] تمسُّكاً بندًى كفيلٍ بالنّجاح ضَمينِ
قد علّمت سُمرَ القَنا أخلاقُه فلذاك منها شدّةٌ فى لِينِ
إنْ منَّ لم يُتبِع صنائعَ جوده منّا ، وليس نَداهُ بالمَمنونِ[٥]
تأتى القوافى ، وهى أبكارٌ له قصْدا ، فتخجَلُ للأيادى العُونِ[٦]
حتى إذا وفَدت علينا لم تَجِدْ بابا لعمرُك مغلقاً من دُونِى
وجوابُنا هذا عَقيبَ هلاكِ من وردَ المنيَّةَ راغمَ العِرنينِ[٧]
أمست أكاذيبُ المُنَى تقتادُه حتَّى رمته إلى حضيضِ الهُونِ
إذ ظنّ أنَّا مثلُ مَن عَن مُلكه قد راحَ منه بصفقة المغبُونِ[٨]

---

(١) الأدم : جمع أديم ، وهو الجلد المدبوغ .
(٢) الجون : الأسود يريد الخط .
(٣) تضرم : اشتد حره .
(٤) اللباب : الخالص .
(٥) منّ : أنعم . والمنّ : الامتنان . والممنون : المقطوع .
(٦) العوان من النساء : التى كان لها زوج .
(٧) العرنين : الأنف .
(٨) المغبون : المخدوع .

خَلَّى حَلائلَه ، وقال لِنفسه : منْ بِاكِ من صرفِ الرَّدى[١] يَكفيني

أملٌ لعمرُكَ زيَّنَتْــهُ لِعَينِــهِ خُدَعُ الغُرورِ ، وسَكرةُ المفتُونِ[٢]

حتى إذا شيطانُه قال : ابتَدِرْ في سرعةٍ للمُلكِ والتَّمكينِ

ورأى بأنَّ الحَشْدَ صائنُ عزِّه مِن أن يُذَالَ[٣] ، فلم يكن بمصُونِ

نُدبتْ إليــه عِصابةٌ من قبلِها لم تسرِ أسادُ الشَّرَى بِعَريِنِ[٤]

من آلِ رُزِّيكَ الذين بجُودهم وبباسِهم خَلَطوا مُنًى بِمَنُــونِ[٥]

صَحِبتْ من الأصحاب كلَّ سَميذَعٍ[٦] يَجْــرِى إلى الهيجا بغيرِ قَرينِ

وإذا بَدا ليلُ الحوادثِ داجياً[٧] جلَّته غُرَّةُ وجههِ الميمــونِ

لم يلبثُوا ، حتى بدا متَخبِّطاً بدمائهِ ، كتخبُّطِ المجنــونِ

فلجَا من الحَشْدِ الذى قد غَرَّه عَدداً ، لِحصنٍ لم يكن بحَصينِ

وأتَوْا برأسٍ فارغٍ لمَّا يكُن من قبلِ ان يَعلُو القَنَا برزينِ

أُسِرَ ابنُــه ، وتُوزِّعَتْ أموالُه حتَّى لقــد بلَغَتْ بلادَ الصِّينِ

وعَقيبهُ فَتَحَ الإلهُ بلُطفِــه بابَ الظُّهور على عُداةِ الدِّينِ

ما بينَ مقتُولٍ ورامِى نفسِــه غَرَقاً ، ومجروحٍ ، وبينَ طَعينِ

واستهلَكَ الأسطولُ من لم يَلْقَه بالنَّفسِ منه على الظُّبَا[٨] بِضَنِينِ

قُرِنَ النِّسـاءُ إلى الرِّجالِ ، فأشبَهوا خَلْطَ القَساورِ[٩] بالظِّبـاءِ العِينِ[١٠]

والعِدَّةُ العظمى من العُدَدِ التى تضفُو[١١] ملابسُ سَردِها الموضُونِ[١٢]

بصَــوارمٍ قد أطلعَتْهــا للوَغَى عند الصِّقالِ لهـا أكفُّ قُيونِ[١٣]

---

(١) صرف الردى : نوائبه . (٢) المفتون : الضال . (٣) أذاله : أهانه .

(٤) العرين : مأوى الأسد . والشرى : جبيل بتهامة كثير السباع . (٥) المنون : الموت .

(٦) السميذع : السيد الكريم الموطأ الأكناف والشجاع . (٧) داجيا : مظلما .

(٨) الظبا : جمع ذابة وهى حد سيف أو سنان أو نحوه . (٩) القساور : جمع قسورة : الأسد .

(١٠) العين : جمع عيناء ، وهى حسنة العينين واسعتهما . (١١) الضفو : السبوغ والكثرة

(١٢) وظن الشيء : ثنى بعضه على بعضه . والسرد : اسم جامع للدروع وسائر الحلق . (١٣) القين : الحداد .

فلأخذهم فى كلِّ قلبٍ موقعٌ من دُونِه فى القَدْرِ فتحُ حُصون
والطَّودُ[١] لايُنجِى امرأمن حَيْنِه[٢] فلذاكَ لا يُنجِيــه عُلُو سَفِــينِ
والشكرُ للهِ الكريمِ ، لحمــدُه متواصــلٌ مِنّى لما يُولِيــنِى
فلو انَّنِى رمتُ السماء بحولِ ربِّ العالَمِين لطلتُها بيمِينى
فى كلّ أرضٍ لى ثناءٌ لم يَزَلْ يُعتــادُ منــهُ نفحةُ النِّسرِينِ[٣]
ولطالَمَا[٤] أولى الأمير يدًا إلى قلبٍ بكلّ مسرّةٍ مَشحــونِ
مانَــا لنُعلِمــه بذاكَ ، لأنّه فى وُدِّنا ما زال غيرَ ظَنِــينِ[٥]
وله التّوسّعُ فى المقَــالِ ، وشأنُه فى نَظمِه والشِّعــرِ غيرُ شُئُونِى
والأهلُ قد ساروا إليه ، ورأينُــا طابُ افتكاكِ فؤاده المرهُــون
لم يبَق ، مجدَ الدّين ، وجدٌ[٦] فاغتنِم فَرحًا أُتيحَ لقلبكَ المحــزُون
واسألهمُ إن شئتَ عن أخبارِهم وابثُثْهُم من شجــوِك[٧] المخزُونِ
وأفِض علينــا من فنونِك مَلبَساً عند النَّشاطِ ، فأنت ربُّ فنُون

(٣٢٢)

وقال :

يا مُنعِمًا ، مَــورِدُ إحســانِه سَهلٌ ، فمَــا فى مَنّه[٨] مَنٌّ[٩]
قد اقتَدى بالمُزنِ[١٠] فى جُودِهِ بل بنِــداهُ يَقتدى المــزنُ
بَسطتَ كفًّا فى النّدى والوغَى ما كَفَّها بُخــلٌ ولا جُبنُ
فاســلَمَ من الدّهرِ ، فنِيه على كلِّ كريمٍ ماجِدٍ ضِغــنُ[١١]

---

(١) الطود : الجبل . (٢) الحين : الهلاك . (٣) النسرين : ورد .
(٤) الشطر الأول فى الأصل هكذا : ولعلما أول الأمير بذا إلى... ولعل ما اخترناه أقرب إلى الصواب .
(٥) الظنين : المتهم . (٦) الوجد : الحزن . (٧) الشجو : الحزن .
(٨) منه : إنعامه . (٩) مننت عليه : عددت ما قدمته إليه من نعم . (١٠) المزن : السحاب .
(١١) الضغن : الحقد .

ما قاله مفتخرا ، وتمدّح به متأثرا

قافيـــة الراء

(٣٢٣)

أظَنَّ العِـدَا أنَّ ارتحالِيَ ضائِرى ... ضَلالاً لما ظَنُّوا . وهل يكسُد التِّبرُ
وما زَادنِى بُعدِى سِوَى بُعدِ همَّةٍ ... كما زاد نُورا فى تباعُده البَـــدرُ
ولو كانَ فى طُولِ الثَّواء فضيلةٌ ... لما انتقلتْ فى أفقِها الأنجمُ الزُّهْرُ
ولو لَزِمت أغمادَها البيضُ ما انجلتْ ... بها غمراتُ الحربِ ، واتَّضحَ النَّصرُ
وهلْ فى ارتحالِى عن بلادٍ تنكَّرتْ ... لمثلِىَ أو للسَّاكنينَ بها فخــرُ
و إنّ بلادًا ضاق عنّى فضاؤُها ... لأرحَبُ من أكنافِها للعُــلا فترُ
وأرضًا نَبَتْ بى ، وهى آهلَةُ الرُّبا ... هى القَفرُ، لا ، بل دُون وحشتِها القَفْرُ
وهل يُنكِرُ الأعداءُ فضلِى ، و إنَّه ... لأَشْهَرُ ذكرا أن يواريه الكُفْرُ[١]
ألستُ الذى ما زال كهلًا و يافعًا ... له المكرماتُ الغُرُّ ، والنّائل الغَمْرُ[٢]
وخائضَ وقْعاتٍ ، بوارقُها الظُّبَا ... ووابلُ هاتِيكَ البروقِ دمٌ هَمْرُ[٣]
يهولُ الرَّدى منِّى تَقحُّمِىَ الرَّدى ... و يَعتادُه من جأشِىَ الرابطِ الذُّعرُ
ولو حكَمتْ بينِى و بينَهم الظُّبَا ... رضيتُ بما تَقضِى المهنَّدةُ البُتْرُ[٤]
ولـكن تولَّى الحاكمانِ قضاءَنا ... فكان أبُو مُوسى[٥] لنا ، ولهمُ عمرُو

---

(١) الكفر : الستر والتغطية . (٢) النائل : ما نلته . والغمر : الكثير .
(٣) همر : منهمر . (٤) البتر : السيوف القاطعة .
(٥) يريد أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص المحكمين فى وقعة صفين .

(٣٢٤)

وكتب إليه الملكُ الصّالحُ قصيدة أوّلها :

أبى اللهُ إلّا أن يَدينَ لنا الدّهرُ ويَخدُمَنا فى مُلكنا العِزُّ والنّصرُ

وهى طويلةٌ ، يذكر فيها وقائعهُ وسراياهُ إلى الفرنج ، وتَسييرَه الجيوش ، وأسماءَ مُقدّميها ، ويصفُ نَجدتهم ، فوقف عليها الملكُ العادلُ رحمه الله ، وخرج عالي أمرِه إلى الأميرِ مجدِ الدّين بالإجابةِ عنها ، بمعانٍ وقعت الإشارةُ إليها ، فقال هذه القصيدةَ ، وذكر فيها بعض الفُتوحات :

أبى اللهُ إلّا أن يكونَ لنا الأمرُ لِتحيا بنا الدُّنيا ، ويفتخرَ العصرُ
وتخدُمَنا الأيّامُ فيما نَرُومُهُ وينقادَ طوعًا فى أزِمّتنا[1] الدّهرُ
وتخضعَ أعناقُ الملوكِ لعِزّنا ويُرهِبَها منّا على بُعدِنا الذّكرُ
بحيثُ حَلانا الأمنُ من كلِّ حادثٍ وفى سائرِ الآفاقِ من بأسنا ذُعرُ
بطاعتِنا لله أصبحَ طوعَنا الأنامُ ، فما يُعصَى لنا فيهم أمرُ
فأيمانُنا فى السِّلمِ سُحبُ مَواهبٍ وفى الحربِ سُحبٌ وبلُهنّ دمٌ همرُ[2]
قَضتْ فى بنى الدُّنيا قضاءَ زمانِها فسُرَّ بها شطرٌ ، وسِيء بها شَطرُ
وما فى ملوكِ المسلمينَ مُجاهدٌ سِوانا ، فما يَثنيه حرٌّ ولا قُرُّ
جعلنا الجهادَ همّنا واشتغالَنا ولم يُلهِنا عنه السَّماعُ ولا الخَمْرُ
دماءُ العدَا أشهى من الرّاحِ[3] عندنا ووقعُ المواضى[4] فيهمُ النّايُ والوتَرُ
نُواصِلُهم وصلَ الحبيبِ وهم عِدًا زِيارتُهم يُحَطّ عنّا بها الوِزرُ

(١) أزمة : جمع زمام .
(٢) همرة : صبه . والوبل : المطر الشديد الضخم القطر .
(٣) الراح : الخمر .
(٤) المواضى : السيوف الباترة .

وفى سِجننا ابن الفُنشِ خيرُ ملوكهم   وإن لم يكُن خيرٌ لديهم ولا بِرُّ
أسرناهُ من حصن العرِيمة[١] راغماً   وقد قُتِلت فرسانه فهـمُ جُزرُ[٢]
وسل عنهمُ الوادِى بإقليس[١] إنَّه   إلى اليومِ فيه من دمائِهم غُدرُ
هم انتشروا فيه لردّ رَعيلنا[٣]   فمن تُربه يومَ المَعاد لهم نَشرُ
ونحنُ أسرنا الجوسَلين[٤] ولم يكُن   ليخشَى من الأيَّام نائبةً تَعْرو
وكانَ يظنُّ الغِرُّ أنَّا نَبيعُه   بمَالٍ ، وكم ظَنٍّ به يهلِكُ الغِـرُّ
فلما استَبحنا مُلكَه و بلادَه   ولم يبقَ مالٌ يُستباحُ ولا ثَغْـرُ
كحلناهُ ، نبغى الأجرَ فى فعلِنا بِه   وفى مثلِ ما قَد نَالَه يُحرز الأجرُ
ونحن كسرنا البَغدَوينَ[٤] ومَا لمن   كَسرنَاه إبلالٌ يُرَجَّى ولا جَبْرُ
فَسلْهُ اللعينَ الحائنَ[٥] الخائنَ الَّذى   له الغدرُ دِينٌ : ما به صنعَ الغَـدرُ
وقد ضاقَتِ الدنيَا عليه بُرحْبِها   فلم يُنجِه بَرٌّ ، ولم يُنجِـه بَحرُ
أفى غَدرِه بالخيلِ بَعدَ يمينِه   بإنجيـله بين الأَنامِ له عُذْرُ
دَعته إلى نكثِ اليمينِ وغَدرِه   بذمَّته النَّفسُ الخسيسةُ والمكْرُ
وقد كانَ لونُ[٦] الخيل شتَّى فأصبحَت   تُعادُ إلينا ، وهى من دَمِهم شُقْرُ
توهَّم عجزاً حِلمَنا وأناتَنَا   وما العجزُ إلّا ما أتى الجاهلُ الغمرُ
فلما تَمادى غيُّـه وضلالُه   ولم يَثْنِه عن جهلِه النُّهى والزَّجرُ
برزْنَا له كالليثِ فَارقَ غِيلَه   وعادَتُه كسرُ الفرائِس والهَصْرُ[٧]
وسِرنا إليه حين هابَ لقاءَنا   وبانَ لهُ من بأسِنَا البؤسُ والشَّرُّ

---

(١) اسم موضع .   (٢) جزر : مخفف جزر بضمتين وهى جمع جزور وهى الناقة المجزورة : الذبيحة
(٣) الرنيل : الجماعة المتقدمة من الخيل .   (٤) أحد ملوك الفرنج الصليبيين .
(٥) الحائن : الأحمق .   (٦) فى الحاشية نقلا عن ولده مرهف «وكانت شيات الخيل شتى ...» .
(٧) الهصر : الكسر .

وثيرُ حشايانَا السُّروجُ، وقُصُننَا الدُّ ... روعُ ، ومَنصوبُ الخيامِ لنا قَصْرُ
ترى الأرضَ مثلَ الأُفقِ، وهي نجومُه ... وإن حَسدَتْها عِزَّها الأنجمُ الزُّهرُ
وهمُ الملوكِ البيضُ والسُّمرُ كالدُّمَى[1] ... وهِمَّتُنا البيضُ الصوارمُ والسُّمْرُ
صوارمُنَا حمرُ المضاربِ من دَمٍ ... قوائمُها من جُودنا نَضرةٌ خُضرُ
نسيرُ إلى الأعداءِ[2] والطَّيرُ فوقَنا ... لهَا القُوتُ من أعدائِنا، ولنا النَّصرُ
فبأسٌ يذوبُ الصَّخرُ من حرِّ ناره ... ولُطفٌ له بالماءِ ينبجسُ[3] الصَّخرُ
وجيشٌ إذا لاقَى العدوَّ ظننتَهم ... أُسودَ الشَّرى عنَّت لها الأُدمُ[4] والعُفْرُ
تَرى كلَّ شَهمٍ في الوغَى مثلَ سَهْمِه ... نُفوذاً ، فما يَثنيه خوفٌ ولا كُثْرُ
هم الأسدُ من بيضِ الصَّوارمِ والقَنا ... لهُم في الوغَى النَّابُ الحديدةُ والظُّفْرُ
يرَوْن لهم في القتلِ خُلداً ، فكيف بالـ ... ـبقاء لقومٍ قتلهُم عندهم عُمْرُ
إذا نُسِبوا كانُوا جميعاً بني أبٍ ... فطعنُهُم شَزْرٌ ، وضَربُهم هَبْرٌ[5]
يظنُّون أنَّ الكفرَ عصيانُ أمرِنَا ... فما عندَهم يوماً لإنعامِنَا كُفْرُ
لَنَا منهمُ إقدامُهُم وولاؤُهمْ ... ومنَّا لهم إكرامُهم والنَّدى الغَمْرُ
بِنا أُيِّدَ الإسلامُ ، وازدادَ عزّةً ... وذَلَّ لنا من بَعدِ عزَّتِه الكُفرُ
قتلنَا البِرنْسَ ، حِينَ سارَ بجهله ... تَحفُّ به الفُرسانُ والعَسكرُ المَجْرُ[6]
ولم يَبقَ إلاَّ مَن أَسرْنَا ، وكيفَ بالـ ... ـبقَاء لمن أَخنَتْ عليه الظُّبا البُتْرُ[7]

---

(١) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقشة من الرخام . والتمثال . (٢) فى هامش الديوان : الهيجاء .
(٣) انبجس : تفجر . (٤) الأدم من الظباء : المشربة بياضا . والأعفر من الظباء : ما يعلو بياضه حمرة .
(٥) طعن شزر : شديد صعب . وضرب هبر : يسقط الهبر . والهبرة : بضعة لحم لا عظم فيها .
(٦) المجر : الجيش العظيم . (٧) أسنة السيوف القاطعة .

فولّى يُبارى عائراتِ سِهامِنَا ... وفى سَمعه من وقع أسيافِنَا وَقرُ[١]
وخلَّى لنا فُرسانَه وحُماتَه ... فَشطرٌ له قتلٌ ، وشطرُ له أسرُ
وما تَنْثَنِى عنه أعنّةُ خيلِنَا ... ولو طارَ فى أفقِ السَّماءِ به النَّسرُ
إلى أن يَزورَ الجوسلِينَ[٢] مُساهِماً ... له فى دِياجٍ ، ما لِلَيْلتِهَا فَجْرُ
ونرتَجِعَ القدسَ[٣] المُطهَّرَ منهمُ ... ويُتلَى بإذنِ الله فى الصَّخْرةِ الذِّكرُ
كأفعالِنَا فى أرضِ من حانَ[٤] منهمُ ... فلم يَبق منهَا فى مَمالِكِهم شِبرُ
إذا استَغْلقتْ شُمُّ الحصونِ فعندنَا ... مَفاتِحُها : بيضٌ ، مضاربُها حُمرُ
وإنْ بلدٌ عزَّ الملوكَ مَرامُه ... ورُمناه ، ذلَّ الصّعبُ واستُسهِلَ الوعرُ
وأضحَى عليهِ للسِّهامِ وللظُّبَا ... ووَقعِ المذاكِى[٥] الرعدُ والبرقُ والقَطرُ
بنَا استرجَعَ اللهُ البلادَ وأمَّنَ الـ ... ـعبادَ ، فلا خَوفٌ عليهم ولا قَهرُ
فتَحنا الرُّهَا[٦] حين استباحَ عِداتُنا ... حِماها ، وسَنَّى مُلكَها لهم الختْرُ[٧]
جعلْنَا طُلى[٨] الفُرسان أغمادَ بيضِنا ... وملَّكَنَا أبكارَها الفتكةُ البِكرُ
ونحنُ فتَحنا تلَّ باشرَ[٩] بعدَها ... وقد عَجزت عنه الأكاسرةُ الغُرُّ
أتَى ساكنُوها بالمفاتيحِ طاعةً ... إلينا ، ومَسراهُم إلى بابِنا شَهرُ
وما كُلُّ مَلْكٍ قادرٍ ذو مَهابةٍ ... ولا كلُّ ساعٍ يَستتبُّ له الأمرُ
وتلُّ عِزازٍ[٩] ، صبّحتهُ جُيوشُنَا ... فلم تَحمِه عنَّا الرِّجالُ ولا الجُدْرُ
ومِلْنا إلى بُرجِ الرَّصاصِ[٩] وإنَّه ... لَكالسَّدِّ ، لكن الرَّصاصَ له قِطرُ[١٠]

---

(١) العائر : كل ما أعل العين ، والوقر : ثقل فى الأذن . (٢) أحد ملوك الصليبين .
(٣) فى الهامش « البيت المقدس » . (٤) حان : هلك .
(٥) المذاكى من الخيل : التى أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان . (٦) عاصمة إمارة صليبية بالشام .
(٧) سناه : سهله . والختر : الغدر والخديعة . (٨) الطلى : الأعناق .
(٩) موضع بالشام . (١٠) القطر : النحاس الذائب .

وأضحتْ لأنطاكيّةٍ[١] حارمٌ[٢] شَجًى   وفيها لهَا والسَّاكنينَ بها حَصرُ
وحِصنُ كَفَرْ لاتَا وهَابَ[٤] تدانيَا   لَنَا ، وذُراها للأَنُوقِ[٣] به وَكْرُ
وفى حِصن باسُوطَا وقَورَصَ[٤] ذَلّتِ الصّعابُ لنا ،والنّصرُ يقدُمُه[٥] الصّبرُ
وفَامِيةٌ[٦] والبَارةُ[٤] استنقذَتْهما   لنا هِمّةٌ من دونِها الفَرْغُ والغَفرُ[٧]
وحصنُ بسَرفُودٍ[٤] وأنّبُ[٤] سُهّلَتْ   لَنا، واستحالَ العُسرُ ، وهو لَنا يُسْرُ
وفى تلّ عمّارٍ[٤]، وفى تلّ خَالدٍ[٤]   وفى حِصْن سلقينٍ[٤] لمملَكةٍ قصرُ
وما مثلُ رَاونْدانَ[٤] حصنٌ وإنّه   لَممتنعٌ ، لو لم يسهل له القَسرُ
وكم مثلِ هذا من قلاعٍ ومن قرًى   ومُزدَرَعاتٍ[٨] لا يحيطُ بها الحصرُ
فلمّا استعدنَاها من الكُفرِ عنوةً   ولم يَبقَ فى أقطارِهَا لهمُ أثْرُ
رَدَدْنَا على أهلِ الشآمِ رِباعَهم   وأملاكَهُم، فانزاحَ عنهم بها الفَقرُ
وجاءتْهُم من بعد يأسٍ وفاقةٍ   وقد مسّهم من فقدها البؤسُ والضُّرُّ
ومرّ عليها الدّهرُ ، والكُفرُ حاكمٌ   عليها ، وعُمْرٌ مرّ من بعده عُمْرُ
فنالهمُ من عَوْدِها الخيرُ والغنَى   كما نالنَا من ردّها الأجرُ والشُّكْرُ
ونحنُ وضعنا المكْسَ عن كلّ بلدةٍ   فأصبحَ مسرورًا بمتْجره السَّفرُ
وأصبحتِ الآفاقُ من عدلِنا حِمًى   فكُدرُ قَطاها[٩] لا يُروّعها صَقرُ
فكيف تُسامِينَا الملوكُ إلى العُلا   وعزمُهُم سرٌّ، ووقعاتُنَا جَهرُ

(١) أنطاكية : مدينة كانت قصبة العواصم من الثغور الشامية ، موصوفة بالحسن ، وطيب الهواء ، وعذوبة الماء ، وكثرة الفواكه (ياقوت) .
(٢) حارم : مدينة بالشام .
(٣) الأنوق كصبور : العقاب .
(٤) موضع بالشام .
(٥) قدم القوم كنصر : تقدمهم .
(٦) مدينة حصينة من سواحل الشام ، وكورة من كور حمص .
(٧) فرغ الدلو المقدم والمؤخر : منزلان للقمر . والغفر : منزل للقمر أيضا .
(٨) ازدرع : زرع .
(٩) القطا : طائر . والكدرى : ضرب من القطا غبر الألوان ، رقش الظهور ، صفر الحلوق .

وإن وَعدُوا بالغـــزوِ نظماً ، فهذه   رءوسُ أعاديهم بأسيافنا نَــثرُ
سنلقىَ العِدَا عنهم ببِيضٍ صقالهَـا   هَدَاياهُم ، والبُــتر[1] يرهفُها البَترُ[2]
وما قولنـا عن حاجةٍ ، بل يسوءُنا   إذا لم يكُن فى غزوِنَا لَهُمُ أجرُ
خزائنُنَا ملأى ، ومَا هِى ذُخرُنا الــ   ــمُعَدُّ ، ولـكنَّ الثوابَ هو الذُّخرُ
ملـكنَا الذى لم تَحوِهِ كفُّ مالكٍ   ولم يَعـرُنَا تِيهُ الملوكِ ولا الـكِبرُ
فنحن ملوكُ البأسِ والجودِ، سُوقَةُ التَّـــ   ــواضُع ، لا بذخٌ لدينـا، ولا فَخرُ
عزَفنا[3] عنِ الدُّنيا، على وجدِهَا بِنَـا   فمنها لنـا وصلٌ ، ومنّا لهـا هَجرُ
وأحسنُ شىءٍ فى الدُّنَا زُهدُ قادرٍ   عليهَا ، فمـا يُصبِيه مُلكٌ ولا وَفـرُ[4]
ولولَا سؤالُ اللهِ عن خلقِهِ الَّذى   رعيناهُمُ حفظًا إذا ضمّنَـا الحَشرُ
لَمِلْنَا عن الدُّنيا، وقُلنا لهـا: اغرُبِى[5]   لكِ الهجرُ منَّا ، ماتمـادى بنا العُمرُ
فمـا خيرُ مُلكٍ، أنتَ عنه محَاسَبٌ   ومملكةٍ[6] ، من بعدها الموتُ والقبرُ
فقُل لملوكِ الأرضِ: ما الفخرُ فى الَّذِى   تعدُّونَه من فعلِكم، بَل كذا الفَخرُ

قافية الفـاء

(٣٢٥)

وقال :

يأبَى احتمالَ الضيمِ لى خُلقٌ   فيـه على ما رابَنِى صَلَفُ
سهلُ العريكةِ حين تُنصِفُه   صعبُ المَقَادَةِ حين يُعتَسفُ[7]

(١) البتر : السيوف القاطعة . (٢) البتر : القطع . (٣) عزف عنه : زهد فيه .
(٤) الوفر : الغنى . (٥) اغربى : ابعدى .
(٦) فى هامش الديوان «وسلطنة» . (٧) إعتسفه : ظلمه .

خُلقٌ نَمـاهُ أغَرُّ أروعُ ميــمونُ النقيبَة ماجدٌ أَنِفُ[١]
من معشرٍ طابت مغارسُهُم فَسَما لهم فوق السُّها[٢] شَرفُ
قومٌ إذا عُدّتْ مناقبُهــم كادت لهنَّ الشمسُ تنـكَسِفُ
لو حاولُوا الأفلاكَ ما قَصُرتْ عنها أكفُّهمُ ، ولا ضَعُفُــوا
لا عيبَ فِيهمْ ، غير أنَّهُمُ فى جُودِهم لعُفَاتِهم[٣] سَرَفُ
أُثْنِي بِعلمى فيهمُ ، وهُمُ فوقَ الثَّناء ، وفوقَ ما أصفُ

قافيـــة اللام

(٣٢٦)

وقال :

جُودِى بموجُودِى علَى النكباتِ فى مالِى أَبَى لِى أن أُعَدَّ بَخِيلَا
أَهَبُ الكَثيرَ من الكثيرِ ، فإن لَحَتْ[٤] عُودِى وهَبتُ من القَلِيلِ قَلِيلَا
كَىْ لا أُكذِّبَ فى رجَائى آملًا إنَّ البخيلَ يُكذِّبُ التأمِيلَا

---

(١) النقيبة : الطبيعة . وأنف كفرح : استنكف . والأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره ، أو بشجاعته . والميمون : المبارك . ونماه : رفعه . (٢) السها : نجم .
(٣) العفاة : جمع عاف ، وهو طالب المعروف . (٤) لحا العود : قشره .

ما قاله فى الحماسة ، ووصف به شجاعته وبأسه

قافية الهمزة

(٣٢٧)

قال :

قَتلنا بقتلانَا من القوم مثلَهُم مراراً ، ولكن ما الدماءُ سَواءُ
ولكن شَفَينَا النّفس من لاعجِ الأسَى بقتلهمُ ، إن كان منه شِفاءُ

قافية البـاء

(٣٢٨)

وقال ، وقد عرض له ألم فى رجله منعه من الرّكوب :

رِجلاىَ والسبعون قد أوْهَنَتْ قُواى عن سَعيِ إلى الحَربِ
وكنتُ إن ثوّبَ[1] داعِى الوغَى لبّيتـهُ بالطَّعنِ والضَّربِ
أشقُ بالسَّيفِ دُجَى نقعِها شقَّ الدَّيَاجى مرسَلُ الشُّهب
أنازلُ الأقرانَ يُرديهمُ من قَبل ضَربِى هامَهُم رُعْبِى
فلم تَدَعْ منّي اللّيالى سوَى صَبرِى على اللأْوَاء[2] والخَطبِ
ألقَى الرّزايَا رابطَ الجأش فى أحداثِها مجتمِعَ اللُّب
ما خَانَنِي عزمِى ، ولا عزَّنِى[3] صَبرِى ، ولا ارتاعَ لهَا قَلبى

---

(١) التثويب : الدعاء .

(٢) اللأواء : الشدة .

(٣) عزنى : غلبنى ، فلم يطعنى .

قافيـــة الجيم

(٣٢٩)

وقال ، ما كتبه على طَوق خُوذَة :

أنَا تَاجُ فُرسانِ الهِيَاجِ[١]،ومن بِهِمْ ثَبتتْ أوَاخِى[٢] مُلكِ كلِّ مُتوَّجِ
قومٌ إذا لَبِسُوا الحَديدَ عجبتَ مِن بَحرٍ تدافَعَ فى لَظًى مُتوهِّجِ
صُبُرٌ إذا ما ضاقَ مُعترَكُ القَنا فَرَجتْ سيوفُهمُ مَضِيقَ المَنهَجِ
وإذا رجوتَهُمُ لنصرٍ صدَّقُوا بعظيمِ بأسِهِمُ رجاءَ المُرتجِى

قافية الحـاء

(٣٣٠)

وقال :

لخمسَ عشرةَ نازلتُ الكُماةَ إلى أن شِبتُ فيها،وخيرُ الخيلِ ماقَرَحَا[٣]
أخوضُها كشهابِ القَذفِ مبتَسِماً طلقَ المُحيَّا ، ووجهُ الموت قد كَلَحَا
بِصارِمٍ ، من رآهُ فى قَتام وغًى أفرِى به الهامَ[٤]،ظنَّ البرقَ قد لَمَحَا
أغدُو لنارِ الوغَى فى الحرب إن خَمَدت بالبِيضِ فى البَيْض والهامات مُقتَدِحَا[٥]
فسل كُمَاةَ[٦] الوغَى عنِّى ، لتعلم كم كُرَبٍ كشفتُ،وكم ضِيقٍ بِى انفَسحَا

---

(١) الهياج بالكسر : القتال .

(٢) الأخية كأبية ويشدد ويخفف : عود فى حائط أو فى حبل يدفن طرناه فى الارض و يبرز طرفه كالحلقة تشد فيها الدابة ، الجمع أخايا و أواخى . والأخية : الطنب .

(٣) قرح الفرس كمنع : انتهت أسنانه ، فهو قارح ، وذلك عند إكمال خمس سنين .

(٤) القتام : الغبار . والوغى : الحرب . وأفرى : أشق . والهام : جمع هامة : وهى الرأس .

(٥) اقتدح : رام الإيراء . والبيض : جمع بيضة ، تتخذ من الحديد ، وتلبس فى الرأس .

(٦) الكمى : الشجاع ، أو لابس السلاح .

قافيــة الدال

(٣٣١)

وقال من أبيات تقدَّمتْ[١] :

ولكنَّنِي ألقَى الحوادثَ وادِعاً   بقلبٍ أريبٍ بأسُه يتوقَّدُ
أبِيٍّ على عذلِ الزّمانِ وجَوره   غنيٍّ عن الأعوانِ إن قَلَّ مُسعدُ[٢]
فما هُوفى خَطبٍ وإنراعَجازِعٌ   مَروعٌ ، ولا فى حادث مُتَبَلِّدُ

(٣٣٢)

وقال من قصيدة تقدّم أوّلها[٣] :

يا عجبًا من وشْكِ بَينٍ ما رَغَتْ[٤]   فيه مطايانَا ولا الحادى حَدَا
نرَى الجِمَالَ المصحِباتِ[٥] بينَنَا   مُهمَلاتٍ ، والرجالَ بَدَدَا[٦]
مَوقف تَوديعٍ ترى البيضَ به   شُهبًا ، وهَابِى النَّقعِ ليلاً أسودَا
وللطِّعانِ فى الكُماةِ أعينًا   تَهمِى على السَّردِ[٧] نجيعاً مُزبِدَا
فياله من مَوقفٍ رقيبُــه   كَتَائبُ الأعداءِ ، والوَاشى الرَّدَى
لو لم تـكُن عادَتِىَ الإقدامَ فى   أمثاله ، قضيتُ فيه كَمَدَا

ومنها :

لا تَحسَبَنَّ الرُّزءَ أوهَى جَلَدِى   إنّ النَّسيمَ لا يفُضُّ[٨] الجَلْمَدَا
وهل يَروعُ الخطْبُ قلبَ أروعٍ   إن كَلِبَ[٩] الدَّهرُ عليه أَسِدَا[١٠]

---

(١) انظر القطعة (١٢٨) صفحة (٦٢) .
(٢) المسعد : المعين .
(٣) راجع ص ٦٦ .
(٤) رغا البعير رغاء بالضم : صوت فضبح .
(٥) أصحب : انقاد .
(٦) بددا : متفرقة .
(٧) السرد : اسم جامع للدروع . والنجيع : دم الجوف .
(٨) الفض : الكسر بالتفرقة . والجلمد : الصخر .
(٩) كلب : سفه .
(١٠) أسد : صار كالأسد .

مَتَى رآنى الشَّامتون ضَرِعًا ... لنكبةٍ تعرُقُنِي عَرق المُــدَى[1]
هُم يَعلمون أنَّنى أصلَبُ من ... صُمِّ الصَّفَا[2]، فما عدَا مما بدَا
هل بزَّنِي الخطبُ سِوى وفرِى الذى ... كان مُباحًا للنَّوالِ والنَّــدَى
إنْ جمَعوا المـالَ فأوعَوْا أتلفَتْ ... يَدى طريفَ ما حوتْ والتَّلدَا
هُمُ يَرَوْن المـالَ ذُخرًا باقيًا ... وإنّما ذُخرُ الفَتى أن يُحمَدَا

قافية السين

(٣٣٣)

وقال[3] :

سَلْ بى كُماةَ الوغَى فى كلّ مَعركةٍ[4] ... يضيقُ بالنّفس فيها صدرُ ذى الباسِ
ينبِّئوكَ بأنِّى فى مَضايِقِها ... ثَبتٌ، إذا الخوفُ هزَّ الشَّاهقَ الرَّاسِى[5]
أخوضُها كشهابِ القَذْفِ ، يصحَبُنِى ... عَضبٌ كبرقٍ سَرى أو ضوءِ مقْباسِ[6]
إذا ضربتُ به قِــرنًا أُنازِلُه ... أوحاهُ[7] عن عائدٍ يغشـاهُ أو آسِى[8]

قافية الطاء

(٣٣٤)

وقال من قصيدة مضى أكثرها[9] :

ولـكن قضتْ فينا اللّيـالى بجَوْرِهَا ... وعادتُهـا كُفرُ الفَضـائلِ والغَمطُ
حكى حكمُهَا الميزانَ ، لادرَّ درُّها : ... فذُو النّقصِ يَستعلِي،وذو الفضلِ ينحطُّ

(١) الضرع : الخاضع الذليل المستكين . وعرق العظم : أكل ما عليه من اللحم . والمدى : جمع مدية، وهى السكين .
(٢) الصفا : جمع صفاة ، وهى الحجر الصلد الضخم لا ينبت . وحجر أصم : صلب .
(٣) هذه القطعة رواها أسامة أيضا فى كتابه : لباب الآداب ص ١٩٥ . (٤) فى لباب الآداب : " معترك "
(٥) الجبل . (٦) العضب : السيف . والمقباس : شعلة ار تقتبس من معظم النار .
(٧) أوحاه : أعجله . وفى لباب الآداب «أوجاه» بمعنى زجره ، ونحاه ، ورده . (٨) الآسى : الطبيب .
(٩) راجع ص ٧٨ ، ١٧٤ .

وعِندى على ماراب من حِدْثَانِهـا صريمَةُ عزمٍ ، مَالمـا عَقَلَتْ نَشطُ[١]
تُهَوِّن عندى الخطبَ،والخطبُ هائلٌ وتقبِضُ عنّى كفَّهُ ، ولهـا البَسطُ

قافية الفـاء

(٣٣٥)

وقال[٢] :

إن يَحْسُدُوا فى السِّلْمِ منْـــزِلتى من العـــزِّ المُنِيفِ[٣]
فبما أُهينُ النّفسَ فى يومَ الوغَى بين[٤] الصّفوف
فلطالمـا[٥] أقدمتُ إقدَامَ الحُتوفِ[٦] على الحُتوف
بعزيمـــةٍ أمضَى على حدِّ السيوفِ من السُّيوفِ

قافية القــاف

(٣٣٦)

وقال[٧] :

قَلبى وصَبرِى إلفـان مُذ خُلِقـا تقاسَمـا صَادِقَين: لا افـترقا
(أمشى الهُوَيْنى،والخطبُ فى طلبِى يُوضِـــعُ طورا ، وتارة عنَقـا)[٨]
ما يطمعُ الدّهرُ أن أذِلّ،ولاَ تمـــلأُ قَلبى أهوالُه فَـــرَقا[٩]

---

(١) حدثان الدهر : نوبه . والصريمة : العزيمة . وعقل : شد البعير بالعقال . والنشط : الحل .
(٢) هذه القصيده مما روى لأسامة فى الخريده ١ : ١٠٤ ولباب الآداب ص١٨٤ .
(٣) المنيف : العالى المشرف . (٤) فى لباب الآداب « يوم » .
(٥) فى الخريدة « وطالما » . (٦) الحتف : الموت .
(٧) هذه القطعة رواها أسامة أيضا فى لباب الآداب ص ٢٠٢
(٨) ورد هذا البيت فى موضعه هذا فى لباب الآداب . ولم يرد فى أصل الديوان . وأوضع : أسرع . والعنق : السير الفسيح . (٩) هذا البيت ساقط فى لباب الآداب .

أحنُو ضُـلوعى فى كلِّ نائبَةٍ[1] على فـؤادٍ لا يَعـرفُ القَلَقَـا
لا يزدهيه[2] خوفُ الحِمَامِ ، ولا عَهِـدتُه فى مُلِمَّـةٍ خَفَقَـا

(٣٣٧)

وقال

قالُوا ترشَّفَتِ الليـالِى ماءَهُ واغتَـالَه بعــد التَّمَامِ مَحَاقُ
هُوَ جمــرةٌ أفنى الزّمانُ لهيبَهَـا فتضـاءَلت ، وطباعُهـا الإحراقُ

قافيـــة اللام

(٣٣٨)

وكتب إليه الملك الصّالح[3] :

قُل لابن مُنقِــذٍ الذى قد حازَ فى الفضلِ الكمَالاَ
فَلِذاك قـد أضحَى الأنا مُ على فضائِلِه[4] عِيـالاَ
وقَرِيضُه عنــد الظَّما يُنسيهِمُ المـاءَ الزُّلاَلاَ
كالدُّرِّ واليـاقوتِ ، ما سكنَ البحارَ ، ولا الجِبالاَ
لـكن يُجاوِرُ فيضَ أيمــانٍ ، وأحلاماً ثِقـالاَ :
ما كان ظَنِّيَ أن يُحـــرِّمَ منه لِى السِّحرَ الحَلالاَ
كلَّا ، ولا يشـكُو لحمــلِ رسائِلٍ مِنِّى كَلالاَ[5]
كم قَد بعثنـا نَحوك الأشــعارَ مُسرعة عِجــالاَ

(١) فى لباب الآداب : حادثة .
(٢) الازدهاء : الاستخفاف .
(٣) النص فى الروضتين أيضا ١ : ١١٧ .
(٤) فى الروضتين : مكارمه .
(٥) الكلال : الإعياء .

مثلَ الحِسان الغِيـد[١] تَا   هَتْ فى محاسنِهـا دَلَالَا
بذَلت لك الممنوعَ ، ثُـم   مَ منحتَها منك ابتِـذالَا[٢]
وَصددتَ عنهـا ، حينَ را   متْ من محاسنك الوِصالَا
ما كان مُرسِلُهـا ، وحقِّـ   ـكَ ، يستحقُّ بهـا المَلالَا
هلَّا بَذلتَ لنـا مقـا   لًا ، حين لم تَبذُلْ فِعالَا
مع أنَّنـا نُوليكَ صبْـرًا   فى المودَّةِ واحتمالَا
ونبثُّكَ الأخبـارَ، إن   أضحَتْ قِصارًا أو طِوالَا
سارَت سرايَانَا لقصـ   ـد الشَّام، تعتَسِفُ الرِّمَالَا[٣]
تُزجى إلى الأعداء جُر   دَ الخيل أتبـاعًا[٤] تَوالَى
تَمضى خِفافًا للمُغَـا   رِ[٥] بِهـا ،وتأتينا ثِقـالَا
حتَّى لقـد رامَ الأعا   دِى من ديارِهمُ ارتحالَا
وعلى الوُعيرَة[٦] معشَرٌ   لم يعهدُوا فيهـا القِتالَا
لمّـا نأت عمَّن يُحِـ   ـفُّ بها يمينًـا أو شِمالَا
نهضتْ إليهـا خيلُنـا   من مصرَ تحتملُ[٧] الرِّجالَا
والبِيضَ لامعـةً ، وبيـ   ـضَ الهِندِ، والأَسَلَ النِّهـالَا[٨]
فَغدت كأن لم يعهدُوا   فى أرضهـا حيًّـا حِلالَا[٩]
هَـذا ، وفى تلِّ العُجو   لِ[١٠]،ملأْن بالقَتلى التِّـلالَا

---

(١) الغيد : جمع غيداء ، وهى المتثنية لينا . (٢) الابتذال : ضد الصيانة .

(٣) اعتسف الطريق : خبط على غير هداية . (٤) أتباع : يأتى بعضها خلف بعض .

(٦) المغار : الإغارة . (٦) الوعيرة : اسم حصن .

(٧) احتمله : حمله . (٨) النهال : جمع ناهلة وهى المختلفة إلى المنهل . والأسل : الرماح . والبيض : السيوف .

(٩) جمع حلة وهى القوم النزول ، وجماعة بيوت الناس . (١٠) موضع بالشام .

إذ مَرَّ مُرِى[١] لَيس يَلــوِى[٢] نَحو رُفقته اشتِغَالاَ
واشْــتَاق عسكرُنَا له أهلاً يُحِبّهــمُ وَمَالاَ
وسَرِيةُ ابنِ فُرِيجِ الطَّــا نِيُّ طالَ بهــا وَصالاَ
سارَت إلى أرضِ الخليــلِ ، فلم تَدع فيها خِلالاَ[٣]
فلو انَّ نُورَ الدّين يجـ عَلُ فعالَنا فيهم مِثالاَ
ويُسـيِّرُ الأجنادَ جهــرًا ، كى يُنازِلَهم[٤] نِزَالاَ
ويَفِى لنـا ، ولأهل دَو لَته بما قد كان قَالاَ
لرأيتَ للإفــرنج طُــرًّا فى معاقلها اعتِقالاَ
وتجهَّزوا للسَّــيرِ نحــوَ الغَربِ أو قصدوا الشِّمالاَ
وإذا أبَى إلاّ اطّــراحًا للنَّصيحةِ واعتزالاَ
عُــذْنا بتسليمِ الأمــورِ لحُــكمِ خالقِنا تعالَى

فأجابه :

يا أشرفَ الوُزراء أخــلاقًا ، وأكرَمَهم فَعــالاَ
وأعزَّهُم جارًا ، وأمـ نَعهم حِمًى ، وأجــلَّ آلاَ
وأعَمَّهم جُودًا ، إذَا جادُوا ، وأكثَرَهم نَوالاَ
فلِذاكَ قــد أضحَى الأنا مُ على مكارِمِه عِيالاَ
وحَمَى البــلادَ بسيفِه عن أن تُذَال[٥]، وأن تُدالاَ
وأحَلَّ بالإفــرنج فى برٍّ ، وفى بحــرٍ نَكالاَ[٦]

---

(١) مرى : أحد ملوك الفرنج الصليّبيين .
(٢) يلوى : ينتظر .
(٣) الخلال : جمع خل بالفتح ، وهو الطريق .
(٤) هذه رواية الروضتين . وفى الأصل : تنازلهم .
(٥) أذاله : أهانه . والدولة : انقلاب الزمان . وأداله . أى جعل الزمان ينقلب به .
(٦) النكال ما نكلت به غيرك بأن تصنع ما تحذره به .

حتّى لقد سَئموا لِقَا ءَ جيوشِ مصرٍ والقِتالَا
نَبَّهتَ عبداً طالمَا نَبَّهتَه[1] قدراً وحالَا
وعتَبْتَه ، فأنلْتَه شرفاً ومجداً لن يُنالَا
وكسوتَه شَرفاً ، إذا ما طاولتْه الشُّهْبُ طالَا[2]
لكنّ ذاك العتبَ يُشْعِلُ فى جوانحه اشتعالَا
أسفاً بجَدٍّ مالَ عنه إلى مَساءَتِه ، ومالَا
وحماهُ ، وهو الحائمُ الظمآنُ ، أن يَرِدَ الزُّلالَا
وأجَرَّ مقْولَه[3] فصرنَ الحادثاتُ له عقَالَا
فلو استطاعَ السَّعىَ ، وهو الفرضُ ، لم يرضَ المقَالَا
لكنَّها الأيامُ تُوسِعُنَا مطالًا واعتلالَا
وتُسوِّفُ الرَّاجى ، وتُوردُ ذا الصَّدى الظَّمآنَ آلَّا[4]
والدَّهرُ لا ينفكُّ يَبرِى ، أو يَريشُ لنا النِّبالا[5]
ويصدُّنَا عما نُحا وله جِهاراً واغتيالَا[6]
وإذا حمِدناه على حَالٍ تنكَّرَ واستَحالَا[7]
وذُنوبُه مغفورةٌ لو كاثَرتْ فينا الرِّمالَا
بالصالحِ المَلِكِ الذى جمع المهابةَ والجَلالَا
مَلِكٌ إذا زُغنَا أقَا لَ ، وإن سألناهُ أنالَا
فيُبيحُ جَاهلَنا وسائلَنا نوالًا واحتِمالَا
فإليه معذرةُ المقصِّرِ ، من إساءَتِه استقَالَا

(١) نبّه باسمه : نوّه .
(٢) طاولنى فطلته : كنت أطول منه .
(٣) أجرّ مقوله : شق لسانه .
(٤) الصدى : العطش . والآل : السراب .
(٥) برى السهم : نحته . وراش السهم : ألزق عليه الريش . والنبال : السهام .
(٦) اغتاله : أهلكه .
(٧) استحال : تحوّل وتغير .

وبفضلِ مَالِكه تَعوَّ ذَ أن يَظُنَّ به المَلاَلا
أو أنه يشكُو الكلاَ لَ، لسَمعِه السِّحرَ الحَلاَلا
وهو النَّهوضُ بما تحمَّـلَه ، ولو حَمَل الجبالاَ
أمّا السَّرايَا حين تر جعُ بعد خِفَّتِها ثِقالاَ
فكذَاك عادَ وفُودُ با بِك مُثقَلينَ ثَنـًا[1] ومَالاً
ومسيرُها فى كلِّ أرضٍ تبتغِى فيهَا المجَالاَ
فكذاكَ فضلُك مثلُ عد لِك فى الدُّنَا، سارًا وَجَالاَ
فاسلَمْ لنا ، حتى نرى لك فى بَنِي الدّنيا مثَالا
واشدُد يَدَيْك بودِّ نُورِ الدين ، والقَ به الرِّجَالاَ
فهو المُحامى عن بلا د الشامِ جمعاً أن تُذَالاَ[2]
ومبيدُ أملاكِ الفرنْـج وجمعَهم حالاً فَحالاَ
ملِكٌ يتيه الدّهرُ والـدُّنيا بدولته اختيالاَ
جمع الخِلالَ الصّالحاتِ فلم يَدع منها خِلاَلاَ
فإذا بدَا للنّاس لم يَرَ رأت عيونُهمُ ، الكَمالاَ
فَبقِيتَما للمسلمينَ حِمىً ، وللدُّنيا جَمالاَ

وكتب إليه الملكُ الصالح من قصيدة تقدم أولها[3]

ذَاكرينَ الفَتحِ الذى فتَح اللّهُ علينا ، فالصنعُ منه جميلُ
لم يزَل فعلُنا له خالصاً ، وهو لما شاءَ فى الأنامِ فَعولُ

---

(١) الثّنا : ما أخبرت به عن الرجل . وثنا الحديث : حدث به وأشاعه .
(٢) أذاله : أهانه . (٣) انظر صفحة ١٤٠ .

جاءَنا بعد ما ذكرناهُ فى كُتْبٍ أتاكُم بهنَّ منّا الرسولُ

أنَّ بعضَ الأسطُولِ نالَ من الإفرنجِ ما لا ينالُه التأميلُ

سارَ فى قِلّةٍ ، ومازَال بِاللّهِ ، وصِدقِ النياتِ يَنْمى القَليلُ

وبقَايَا الأسطُولِ ليس له بَعْدُ إلى ساحل الشّآمِ وُصُولُ

نَحْوى مِن عكّا وأنطَرْطُوسَ[1] عِدّةٌ لم يُحِط بها التَّحصيلُ

جَمعِ دِيوِيَّةٍ[2] بهم كانَت الإفرنجُ تسطُو على الورَى وتَصولُ

قيدَ فى وسْطِهم مقدَّمُهم ، يُهْدَى إلينَا ، وجيدُه مَغلُولُ

بعدَ مثْوَى جماعةٍ هَلَكَتْ بِالسّيفِ ، منها الغريقُ والمقتولُ

هَذِهِ نعمةُ الإلهِ وتَعدِيدُ أيادِى الإلهِ شىءٌ يطولُ

فابلغَنْ قولَنا إلى الملكِ العادِلِ ؛ فهو المرجوُّ والمأمولُ

قُل له : كم تُماطِلُ الدِّينَ فى الكفّارِ ، فاحذَر أن يغضبَ المطولُ

سِر إلى القُدسِ ، واحتسِب ذَاكَ فى اللهِ ، فبالسَّيرِ منك يُشْفَى الغليلُ

وإذا ما أبطا مَسيرُكَ فاللّهُ إذن حَسبُنا ، ونعمَ الوكيلُ

(٣٣٩)

وقال[3] :

بُجهّلُ فى الإقدامِ رأْيِى مَعَاشِرٌ[4] — أراهُم إذا فَرُّوا من الموتِ أجهلَا

أَبَرجُو الفتَى عند انقضاءِ حَياتِهِ — وإن فَرَّ عن وردِ المنِيّة مَزْحَلَا[5]

---

(١) أنطرطوس : بلد ساحلى بالشام . (٢) الديوية : لقب لطائفة من الصليبيّن .

(٣) ذكر أسامة هذه الأبيات أيضا فى لباب الآداب صفحة ٢٢٥ .

(٤) فى أصل الديوان « رأى معاشر » بالإضافة والتصويب للأستاذ الشيخ أحمد شاكر فى لباب الآداب .

(٥) زحل عن مكانه كمنع : زال .

إذا أنَا هِبتُ الموتَ في حومةِ الوغَى[١]   فلا وجَدَتْ نفسى من الموت مَوئلا[٢]
وإنّى إذا نازلتُ كَبشَ[٣] كتيبةٍ   فلستُ أُبالِى أيُّنا ماتَ أوّلا

(٣٤٠)

وقال :

قُل للخطوبِ : إليكَ عنّى ، إنَّ لى   فى الخَطبِ عَزمًا مثلَ حدّ المُنصُلِ[٤]
لا يستكِينُ لحادثٍ مِن نكبةٍ   طرقَتْ ، ولا يَعيا[٥] بأمرٍ مُشكِلِ
يَلقى الخطوبَ ، إذا دَجَت أهوالُها   بالصَّبرِ حتى تَضمحلَّ وتَنجلِى
تنجابُ[٦] عنه الحادثاتُ إذا عَرتْ   عن قُلَّبٍ ثبتِ العزائمِ حُوَّلِ[٧]
قد جرَّبَ الأيامَ حتى خِلتَه   يُبدى له الماضى خَفِىَّ المُقبلِ

قافية الميم

(٣٤١)

وقال :

إذا ضاق بالخطِّىِّ[٨] مُعترَكُ الوغَى   وهالَ الرّدَى وقعُ الظُّبا[٩] فى الجماجمِ
سَل الموتَ عنّى ، فهو يشهدُ أنّنى   على خَوضِه فى الحربِ ثبتُ العَزائمِ

(٣٤٢)

وقال :

مُعينَ الدِّينِ ، كم لك طوقُ مَنٍّ   بجيدى ، مثلُ أطواقِ الحَمامِ
تَعبَّدنِى لك الإحسانُ طَوعًا   وفى الإحسان رِقٌّ للكرامِ

---

(١) حومة الوغى : أشد موضع فيه . والوغى : الحرب .   (٢) الموئل : الملجأ .
(٣) الكبش : سيد القوم وقائدهم .   (٤) المنصل بضمتين وكمكرم : السيف .
(٥) عيى بالأمر : لم يهتد لوجه مراده ، أو عجز عنه ولم يطق إحكامه .
(٦) انجاب : انكشف . وعرا : غشى .   (٧) حول قلب : محتال بصير بتقلب الأمور .
(٨) الخطى : الرمح .   (٩) الظبا : جمع ظبة ، وهى حد سيف أو سنان أو نحوه .

فصـــارَ إلى مودَّتِكَ انتسابِى ... على أنِّى العِظامىّ العِصـــامِى[١]
ألم تَعـــلم بأنى لانْتمائِى ... إليكَ رَمى سوادىَ[٥] كلُّ رَام
ولولا أنتَ لم يُصحِب[٣] شِمَاسِى ... لِقَسر[٤] دُون إعذارِ[٣] الحُســـام
ولـكن خِفتُ من نارِ الأعادى ... عليـكَ فـكنتُ إطفاءَ الضِّرام[٦]

(٣٤٣)

وكتب إليه الملك الصّالح :

ألَا هكَذا فِى الله تُمضَى العزائِمُ ... وتَمضِى لدى الحربِ السّيوفُ الصّوارِمُ
وتُستَنزَلُ الأعداءُ مِن طَوِدِ عِزّهم ... وليس سِوى سُمرِ الرِّماج سَلَالِم
وتُغزَى جيوشُ الـكُفرِ فى عُقرِ دَارها ... ويُوطَا حِماها ، والأنوفُ رَواغِمُ
ويُوفِى الكرامُ الناذرون بنـذرِهِم ... وإِن بُذِلت فيـه النُّفوسُ الكَرائمُ
نَذَرْنا مسيرَ الجيشِ فى صَفَرٍ، فما ... مَضَى نصفُه ، حتى انْثَنى وهو غانِمُ
بعثْناهُ من مصرٍ إلى الشَّام ، قاطِعاً ... مفاوزَ[٧] وَخدُ العيسِ[٨] فيهنَّ دائِمُ
ونَاهيكَ مِن أرضِ الجفارِ[٩] إذا التَظَى ... بجنبيه مَشبوبُ[١٠] من القيظ جاحِمُ[١١]
وصارَت عُيونُ الماء كالعَينِ عِزّةً[١٢] ... إذا ما أتَاهَا العســكرُ المتزاحِمُ
فما هالَهُ بُعــدُ الدّيار ، ولا ثنَى ... عزيمتَـه جَهــدُ الظَّما والسّمائِمُ[١٣]
يهجّرُ[١٤] والعصفورُ فى قَعــرِ وَكرِه ... ويَسرى إلى الأعداءِ، والنجمُ نائِمُ

---

(١) عظامى عصامى : شريف المنصب والنفس . (٢) السواد : الشخص . (٣) أصحب : انقاد . وشمس الفرس : استعصى على راكبه . (٤) القسر : القهر . (٥) أعذر : أنصف . (٦) أضرم النار : ألهبها .
(٧) المفاوز : جمع مفازة وهى الفلاة لا ماء بها . (٨) العيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة . والوخد : الإسراع . (٩) الجفار : أرض بين فلسطين ومصر ، أولها رفح كلها رمال بيض . (١٠) من شبت النار : اتقدت . والتظى : تلهب . (١١) الجاحم : الجحيم . (١٢) عز الشىء : قل . (١٣) السموم : الريح الحارة تكون غالبا بالنهار ، الجمع سمائم . (١٤) هجر : سار فى الهاجرة ، وهى نصف النهار ، عند زوال الشمس .

إذا ما طَوى الراياتِ وقْتَ مَسيرِهِ غَدَت عوضًا منها الطَّيورُ الحَوائِمُ
تُبارى خُيولاً ما تزالُ كأنَّها إذا مَا هىَ انقضَّت نُسورٌ قَشاعِمُ[1]
فإن طَلَبتْ قصدًا تَساوِينَ سُرعةً قوادمُها[2] فى جوِّها والقَوائِمُ
هى الدُّهمُ[3] ألوانًا وصِبغَ عَجاجَةٍ فإن طَلَبت أعداءَها فالأدَاهِم
تُصاحِبها علمًا بأن سوف نَغتدى بها ، ولهَا فى الكافِرينَ مَطاعِمُ
كما أنَّ وحشَ القَفرِ ما زال منهمُ مدَى الدّهرِ أعراسٌ لهمُ وولائِمُ
خيولٌ إذا ما فارقَت مصرَ تبتغى عدًا ، فلها النَّصرُ المبينُ مُلازِمُ
يَسير بها ضِرغامُ[5] فى كل مأزِق وما يصحَبُ الضِّرغامَ إلّا الضَّراغِمُ[6]
ورُفقتُه عينُ الزّمان ، وحَاتِمٌ ويَحيَى[7] ، وإن لاقَى المنيّةَ ، حَاتِمُ
مضَى طاهرَ الأثواب من كلِّ ريبة شهيدًا ، كما تمضى السَّراةُ[8] الأكارِمُ
هنيئًا له يُسقَى الرّحيقَ[9] ، إذا غَدتْ تُحيّيه فى الخُلد الحسانُ النَّواعِمُ
ولو أنَّنا نبكى على فَقْدِ هَالكٍ لقلَّت له منَّا الدّموعُ السَّواجِمُ
ولكنَّنا بِعنَا الإلَهَ نفوسَنا ورُحْنَا ، وما مِنَّا على البيعِ نَادِمُ
تهُون علينَا أن تُصاب نفوسُنا إذا لم تُصبنا فى الحياةِ المآثمُ
وما خَامَ[10] إذ لَاقى هُمامٌ وصِنوهُ عشيةَ أصواتُ الرجالِ هَماهِمُ[11]
وبرقيةٌ[12] شاموا السيوفَ فلم يعش لبارقِها فى ساحة الشامِ شَائِمُ

(١) القشعم : المسن من النسور والضخم . (٢) القوادم : ريشات فى مقدّم الجناح .
(٣) الدّهم : جمع دهماء وهى السوداء . (٤) الأداهم : القيود .
(٥) ضرغام : قائد مصرى آلت اليه الوزارة فى أيام العاضد الفاطمى .
(٦) الضراغم : جمع ضرغام : الأسد . (٧) أسماء قواد ثلاثة . (٨) السراة : السادة .
(٩) الرحيق : الخمر ، أو أطيبها . (١٠) خام عنه يخيم : نكص وجبن .
(١١) الهمهمة : الكلام الخفى وتردد الزئير فى الصدر من الهم وكل صوت معه بحح .
(١٢) برقية : طائفة من الجيش المصرى قدم أصولهم من برقة .

وأفناءُ[1] جُندٍ لو توجَّهَ جمعُهم | لروميَّـةٍ جالَت عليها المقاسِمُ
وجمعُ مماليكٍ بأفعالِنا اقتَـدَوْا | فكلُّهم بالطَّعنِ والضربِ عالِمُ
وسِنْبِسُ[2] قد شادُوا المعالِي بفعلهم | وليس لهُمُ إلاّ العوالى[3] دعائمُ
وثَعلبةٌ[2] أضحَوْا بنا قد تأسَّدُوا[4] | فما لهُمُ فى المشركين مُقاوِمُ
وإنّ جُذاماً[2] لم يزل قطُّ منهـمُ | قديمًا لحبلِ الكُفر بالشامِ جاذمُ[5]
جيوشٌ أفدنَاها اعتزامًا ونجدةً | فطاءُننا منهـم ، ومنّا العزائمُ
إذا ماأثارُوا النَّقعَ ، فالثغرُ عابسٌ | وإن جرَّدُوا الأسيافَ فالثغرُ باسِمُ
ولمّا وَطُوا أرضَ الشآم تحالفَت | فأضحتْ جميعاً عُربُها والأعاجمُ
وواجههُمْ جمعُ الفـرنجِ بحملةٍ | تهونُ على الشُّجعانِ منها الهزائمُ
فلقَّوْهُمُ زُرقَ الأسنّة ، وانطوَوْا | عليهم ، فلم يَنْجُمْ من الكُفرِ ناجِمُ[6]
وما زالتِ الحربُ العَوانُ[7] أشدُّها | إذا ما تلاقى العسكرُ المتصادمُ
يُشبِّهُهم من لاحَ جمعُهُم له | بلجَّةِ بحـرٍ موجُها متلاطِمُ
وحسبُك أن لم يبقَ فى القومِ فارسٌ | من الجيشِ إلاّ وهو للرمحِ حاطِمُ[8]
وعادُوا إلى سلِّ السيوفِ ، فقطَّعَتْ | رءوسٌ ، وحُزّت للفرنجِ غلاصِمُ[9]
فلم ينجُ منهـم يومذاك مخبِّرٌ | ولا قيلَ : هذا وحدَه اليومَ سالِمُ
كذلكَ ما ينفكُّ تُهدَى إلى العدَا | وللوحشِ أعراسٌ لهم ومآتمُ
وتَسرِى لهم آراؤُنا وجيوشُنا | بداهيةٍ تبيضُّ منها المقادِمُ[10]

(١) الأفناء من الناس : الأخلاط .
(٢) اسم فرقة من الجيش .
(٣) العوالى : أعالى الرماح .
(٤) أسد كفرح : صار كالأسد .
(٥) جذمه : قطعه .
(٦) نجم : ظهر .
(٧) الحرب العوان : هى التى قوتل فيها مرة .
(٨) الحطم : الكسر .
(٩) الغلصمة : اللحم بين الرأس والعنق أو رأس الحلقوم .
(١٠) مقدم العين كمحسن ومعظم : ما يلى الأنف ، ومن الوجه ما استقبلت منه .

نُقتِلُهم بالرّأى طوراً ، وتارةً ... تدوسُهُم منا المَذاكِى الصَّلادمُ[١]
وما العازمُ المحمودُ إلا الذى يُرى ... مع العَزمِ فى أحوالهِ ، وهو حَازمُ
وقــد غَرَّق الـكفَّارَ منه بقطرَةٍ ... سحـابُ انتقـامٍ عنـدنا مُتراكمُ
فكيفَ إذا سالَت عليهم سُيولُنا ... وجاشَت لنا تلك البحارُ الخضَارمُ[٢]
وما نحنُ بالإسلامِ للشِّركِ هَـازِمٌ ... ولـكنّنَا الإيمانُ لِلكُفر هادمُ
فقُولوا لِنور الدّين ، لا فُلَّ حـدُّه ... ولا حكَمَت فيه اللّيالى الغَواشمُ.[٣]
تجهَّزْ إلى أرض العـدوِّ ولا تَهِنْ ... وتُظهرفُتُوراً أَن مَضت منك حَارمُ[٤]
فما مثلُها تُبـدِى احتفالاً به ،ولا ... تُعَضُّ عليهـا للــلوكِ الأباهمُ[٥]
فعنـدَك من ألطافِ ربِّك مابِهِ ... علمنـا يقينًـا أنّه لكَ راحمُ
أعادكَ حيًّا بعد أن زعَم الورَى ... بأنّك قد لا قَيتَ مـا اللهُ حاتمُ
بوقتٍ أصابَ الأرضَ ماقد أصابَها ... وحلَّت بها تلك الدَّواهى العظائمُ
وخيَّم جيشُ الـكفر فى أرض شَيزرٍ ... فسِيقت سَبايا ، واستُحِلّت محَارمُ
وقد كانَ تاريخُ الشاّمِ وهُلكهُ ... ومن يحتويه أنَّه لك عَـادمُ
فَقُم ، واشكر اللهِ الكريمَ بنهضةٍ ... إليهمْ ، فشكرُ اللهِ للخلق لازمُ
فنحنُ على ما قد عهدتَ: نَروعُهُم ... ونحِلفُ جَهــداً أنّنـا لا نُسالمُ
وغَاراتُنـا ليست تَفَتَّرُ[٦] عنهمُ ... وليس يُنجّى القومَ منهـا الهَزائمُ
وأسطولُنا أضعافُ ما كان سائِراً ... إليهم فلا حِصنٌ لهمُ منه عاصِمُ

(١) الصلدم كزبرج : الأسد ، والصلب الشديد الحافر . والمذاكى من الخيل : ما أتى عليها بعد قرحها سنة أو سنتان .
(٢) الخضارم : جمع خضرم ، وهو الكثير من كل شىء .
(٣) الغشم : الظلم .
(٤) حارم : مدينة بالشام .
(٥) الأباهم : جمع إبهام بالكسر (وهذا كناية عن الندم) .
(٦) تفتّر : تنقطع وتضعف

وَنرجو بأن نَجتاحَ[١] باقِيَهم بِهِ ... ونحوِى الأُسارى منهمُ والغَنائمُ
على أنَّنا نِلنا مِنَ المجدِ مَا بِهِ ... نُفاخِرُ أملاكَ الورَى ونُقاوِمُ
ولكنَّنا نبغى المثوبةَ جَهدَنا ... وطاقَتَنا ، واللهُ معطٍ وحَارمُ
ونَختِمُ بالحُسنى الفَعال ، وإنَّما ... تُزَيِّن أعمالَ الرِّجال الخَواتمُ

فأجابه بهذه القصيدة :

لكَ الفضلُ من دون الورَى والمكارمُ ... فَمَنْ حاتمٌ ، ما نَالَ ذا الفخرَ حاتِمٌ
وصَلتَ ، فأغنيتَ الأنامَ عن الحَيَا ... وصُلْتَ ، نَخافَت من سُطاك الصَّوارِمَ
وجُدتَ على بُخل الزَّمان ، فأين من ... نَداكَ [السكوب[٢]] المُستَهِلّ[٣] الغَمائمُ
تكفَّلتَ الإسلام أنكَ مَانِعٌ ... حِماهُ ، مبيحٌ ما حَمَى الكفرُ هَادمُ
فأصبحتَ تَرعى سرحَه بصَريمة[٤] ... من العزمِ ، لم تبلُغ مَداها العَزائمُ
وأيّدتَه بالعــدْل ، والبذل ، والتُّقَى ... وضربِ الطُّلى[٥] ، والصالحاتُ دَعَائمُ
فَعــدلٌ مُزيلٌ كلَّ ظُلْمٍ وُجودُه ... وجُودٌ مُذيل[٦] ما تَصُون الخَواتمُ
رميتَ العدا بالأُسد فى أجَمِ القَنا ... على الجُرد ، تقتادُ الرَّدى وهو رَاغِمُ
بمثلِ أتِيِّ[٧] السَّيلِ ، ضاقَ به الفضَا ... وضَاق على الأعداء منه المَخارِمُ[٨]
يُبارين شُهبَ القَذف يَحملن مثلَها ... من الحَتْف ، للباغى الرّجيم رَوَاجِمُ
سرايَا كَموجِ البحرِ ، فى لَيـل عِثْيرٍ[٩] ... بِهِ مِن عَوالِيهِمْ[١٠] نجومٌ نَوَاجِمُ
تسيرُ جيوشُ الطَّير فوق جيوشِها ... لَهَا كلَّ يوم من عِــداها ولائِمُ

(١) الاجتياح : الإهلاك والاستئصال .
(٢) سقط بالأصل ولعله [السكوب] أو كلمة على وزنها وبمعناها . (٣) استهل المطر : اشتد انصبابه .
(٤) من صرم السيف : احتد . (٥) الطلى بالضمة : الأعناق . (٦) أذاله : أهانه .
(٧) الأتى : السيل يأتى من موضع بعيد . (٨) المخارم : الطرق . (٩) العثير : التراب .
(١٠) العوالى : جمع عالية وهى أعلى القناة ، أو رأسه ، أو النصف الذى يلى السنان .

فإن خفَضَ الفُرسانُ للطّعنِ في الوغَى ... رِماحَهمُ انقضَّت عليها القَشاعِمُ[١]
تعرَّض منها فَوق (غزَّة) عارضٌ ... سحابُ المنايـا فوقَه مُتراكِمُ
فلَلنَّقعِ سُحبٌ ، والسيوفُ بوارقٌ ... وللدّمِ وَبْلٌ ، والنّباتُ جَماجِمُ
بوارقُ منها الغوثُ ، لا الغيثُ ، يُرتجى ... أشَائمُ[٢] ، لا يَرَوى بها الدهرَ شَائمُ[٣]
فليس لراجٍ غيرَ عفوِك ملجأٌ ... وليس لعاصٍ لم يُنِبْ ، منك عَاصِمُ
تنزّهتَ عن أموالِ مَن أنت قاتِلٌ ... فقد جُهلَتْ بين الجيوشِ المَقاسِمُ
فَنَهبُك أرواحٌ تُنفِّلُها[٤] الظُّبَـا ... وسُمرُ العَوالي ، والبلادُ مغـانمُ
فلا موردٌ إلاّ يُمازجُه دمٌ ... ولا مرتَعٌ إلاّ رعته المَناسِمُ[٥]
فسيفُك للخَصمِ المعاندِ خاصِمٌ ... وعـدلُك للشكوى وللجَور شَاكِمُ[٦]
خلطتَ السّطا بالعَدل ، حتّى تآلَفتْ ... أسودُ الشَّرى والمُطفِلاتُ الرَّوائمُ[٧]
يُشُنُّ أبو الغارات غاراتِ جُوده ... على ماله ، وهو المطيعُ المُسَالِمُ
ويبعثُها شُعثَ النّواصي[٨] ، كأنّها ... ذئابُ الفَلا تُردى ، عليها الضَّراغِمُ
تُلِظُّ[٩] بأرض المشركين ، كأنّها ... صوادٍ إلى وِردٍ ، حوانٍ[١٠] حَوائمُ
فَويحَ العدَا من بأسِها ، إنما سَرى ... إليها ، ولم تَشعُر ، رَدًى وأداهِمُ[١١]
فهم جُزُرٌ[١٢] للبيض ، والبيضُ كالدُّمى ... سبايًا تُهادى ، والبـلادُ معالِمُ
غزوتَهمُ في أرضِهم وبلادِهمْ ... وجحفلُهمُ في أرضها متزاحِمُ
فأفنيتَهم قَتلاً وأسرا بأسرِهم ... فناجيهمُ مُستسلِمٌ أو مُسالِمُ
فلمّا أبادتهم سيوفُك ، وانجلت ... عن الأرضِ منهمْ ظُلمةٌ ومظالِمُ

---

(١) القشاعم : النسور . (٢) الأشائم : ضد الأيامن . (٣) من شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر .
(٤) نفله : أعطاه إياه . (٥) المناسم : جمع منسم كمجلس : خف البعير . (٦) خصمه : غلبه . وشاكم : ملجم .
(٧) المطفلات الروائم : يريد بهن الظباء . (٨) النواصي : جمع ناصية وهي قصاص الشعر . والتشعث : تلبد الشعر .
(٩) اللظ : اللزوم والإلحاح . (١٠) من حنى ظهره : عطفه . والحوائم : جمع حائم ، وهو العطشان .
(١١) الأداهم : القيود . (١٢) الجزر : جمع جزرة وهي الشاة المذبوحة .

غزوتَهم فى البحرِ ، حتّى كأنما الــأساطيلُ فيه موجُه المتلاطِمُ

بِفُرسانِ بحرٍ ، فوق دُهْمٍ(١) ، كأنَّها على الماءِ طيرٌ ، ما لهنَّ قوادمُ(٢)

يصرِّفُها فُرسانُها بأعنَّةٍ جرت ، حيثُ لم توصل بهنّ الشَّكائمُ(٣)

إذا دَفعُوها قلتَ : فُرسانُ غارةٍ سَرَوْا بجيادٍ ، ما لهَن قوائمُ

يَسوقُ أساطيلَ الفرنجِ اليهمُ حِمامٌ ، وطيرٌ للفرنجِ أشائمُ

دماؤُهمُ فى البحرِ حُمْرٌ سوائحٌ وهامُهمُ فى البرِّ سُحْمٌ(٤) جواثمُ

فلم يَخفَ فى فجٍّ من الأرضِ هاربٌ ولم ينجُ فى لُجٍّ من الماءِ عائمُ

وعادَ الأسارى مُردَفين(٥) ، وسُفْنُهم تُقادُ ، كما قاد المهارى الخزائمُ(٦)

وقد شمَّر المَلْكان فى الله ، طالبَىْ رضاه ، بعزمٍ لم تعقْه اللوائمُ

بجِدٍّ ، هو العضبُ الحسامُ ، وحدُّه لعاديةِ الأعداءِ والكفرِ حاسمُ

وقامَا بنصرِ الدّين ، واللهُ قائمٌ بنصرِهما ، مادَام للسيفِ قائمُ(٧)

وما دُون أن يفنَى الفرنجُ ، وتُفتَحَ الــبلادُ ، سوى أن يُمضىَ العزمَ عازمُ

فيا مَلِكاً ، قد أحمد اللهُ سعيَه ونيّتَه ، واللهُ بالسرِّ عالِمُ

تهنَّ ثناءً ، طبَّق الأرضَ نَشرُه هو المسكُ ، لا ما ضُمِّنته اللطائمُ(٨)

ثَناءٌ به يَحدو الحُداةُ ، ويُنشدُ الــرُّواةُ ، وتَشدو فى الغصونِ الحمائمُ

يسيرُ مع الركبانِ ، أنَّى تيمَّموا على أنّه فى ساحةِ الحىِّ هاجمُ(٩)

أميرَ الجيوشِ ، اسمَع مقالةَ بائحٍ بشكرِكَ ، يُبدى مثلَ ماهو كاتِمُ

---

(١) يريد السفن السود . (٢) القوادم : ريشات فى مقدم الجناح . (٣) الشكائم : جمع شكيمة ، وهى فى اللجام : الحديدة المعترضة فى فم الفرس . (٤) سحم : جمع أسحم ، وهو الأسود . (٥) من أردفه : إذا أركبه خلفك . (٦) الخزائم : جمع خزامة ، وهى حلقة من شعر تجعل فى ثقب أنف البعير . (٧) قائم السيف : مقبضه . (٨) اللطائم : جمع لطيمة ، وهى وعاء المسك . (٩) من هجم : إذا دخل بغير إذن .

بِفضلِكَ آلَى صادقًا : إنَّ فكرَه لَعاصٍ له فى نظمِ ما هو ناظِمُ
كأنَّ بَديعَى شعرِه وبيانِهِ حروفُ اعتلالٍ ، والهمومَ جوازِمُ
على أنه كالصُّمِّ (١) : صبرًا، وقسوةً تَحُزُّ المُدى فى قلبِه ، وهو كاظِمُ
فما يَعرف الشَّكوى ولا يَستكينُ للـ ـخُطوبِ ، ولا تُوهى قواهُ العَظائمُ
ولو كانَ سَحبانًا أجرَّ لسانَه (٢) (ألَا هكذا فى الله تُمضى العزائمُ)
هىَ السِّحرُ، لاماسارَ عن أرضِ بابلٍ هى الدرُّ ، لا ما ألَّفته النَّواظِمُ
فريدةُ دهرٍ ، للقلوبِ تهافُتٌ عليها ، وللأسماعِ فيها تَزاحُمُ
إذا أُنشِدَتْ فى مَحفلٍ قال سامعٌ: أنفثةُ سِحرٍ ، أم رُقًى ، وتمائمُ
ولولَا رجاءُ الصَّالحِ المَلكِ الَّذى بدولَته الدَّهرُ المقطِّبُ باسِمُ
وأنِّى أُمَنِّى النفسَ لثمَ بنانِه وما كانَ قبلِى للسحائبِ لاثِمُ
ففيها مَنايا للأَعادى قَواصِمٌ وفيها بحارٌ للعطايا خَضارِمُ
وحَطِّى رحالَ الشكرِ عنِّى بِبابه بحيثُ اعتِدَا الآمالِ فى المالِ حاكِمُ
ويعجبُ منِّى الناسُ، حتى يقولَ من رآنِى : إلى الجنَّاتِ قد عادَ آدَمُ
قضيتُ، لبُعدى عن ذُراه، ندامَةً ولا عجبٌ إن ماتَ بالهمِّ نادِمُ
أتتك ابنةُ الفكرِ الحسيرِ (٣)، وإنَّها تسيرُ مَسيرَ البَدرِ ، والليلُ عاتِمُ
بمدحٍ بديعٍ من ولِىِّ مُمَدَّحٍ جَديرٍ بأن يُغلى به السَّومَ سائمُ
تَسومُ (٤) جميلَ الرأى، لا المالَ، إنَّه بذولٌ له فيما قضَتْه المكارمُ
تَضمَّنَ روضًا، زهرُه مدحُ مجدِك الـ ـعَلِىِّ ، وأوراقُ الكتابِ كمائمُ
فدُمتَ ، ودامتْ هالةٌ، أنت بدرُها ومُلْكُكَ ، ما كرَّ الجديدانِ ، دائمُ

---

(١) الصُّم : جمع أصم ، يريد به الحجر .
(٢) أجرّ لسانه : منعه من الكلام .
(٣) من حَسِر إذا أعيا
(٤) سام : أراد .

قافية النون

(٣٤٤)

وقال[1] :

إليكِ ، فما تَثْنى شئونُكِ[2] شَأنِى ⁂ ولا تملك العِـينُ الحسانُ عِنَانِى
ولا تجزَعى من بَغتَةَ البينِ، واصبرِى ⁂ لعــلَّ التَّنائِى مُعْقِبٌ لتــدانِى
ولا تحمِلِي[3] همَّ اغترابِى ، فلم أزل ⁂ غَريبَ وفاءٍ فى الورَى وبَيانِ
وفيًّا ، إذا ما خَان جفنٌ لناظرٍ ⁂ ولم ترْعَ كفٌّ صحبةً لبنَانِ
فللأُسدِ غِيلٌ حيثُ حلّت،وإنمـا ⁂ يهابُ التَّنائِى قلبُ كلِّ جَبانِ
ولا تَسأَلِينِى عن زَمانى ، فإنَّنى ⁂ أُنَزِّهُ عن شكوَى الخطوبِ لِسَانِى
ولـكن ، سَـلِى عَنِي الزّمانَ ، فإنَّه ⁂ يُحدِّث عن صَبرى على الحَدَثانِ
رمَتنى الليـالى بالخُطوبِ جَهَالةً ⁂ بصبرِى على ما نَابنِي[4] وعَرَانِى
فما أوهَنَتْ عظمى الرَّزَايا ، ولاَ لهَا ⁂ بحُسنِ اصطبارى فى المُـلِمِّ يَدانِ
وكم نـكبةٍ ظَنَّ العدا أنَّها الرَّدى ⁂ سمَتْ بى ، وأعلَت فى البرِّية شَانِى
وما أنَا ممن يستكِينُ لحـادِثٍ ⁂ ولا يملأُ الهولُ المخوفُ جَنَانِى
وإن كان دَهرِى غَال[5] وَفرِى فلم يَغُل ⁂ ثَنَائِى ، ولا ذكْرِى بكل مَكانِ

---

(١) رويت هذه القصيدة فى تاريخ دمشق لابن عساكر ٥ : ١٧٤ .

(٢) الشئون : الدموع .

(٣) هذا البيت والبيت الذى بعده وردا فى ابن عساكر بعد قوله " فللأسد "

(٤) فى ابن عساكر " نالنى " .

(٥) غال : أهلك .

وما كانَ إلّا للنَّوالِ وللقِرَى   وغَوثًا للمَلْهوفِ ، وفِدْيةَ عانِ[1]
حُمِدتُ على حالَىْ يَسارٍ وعُسرةٍ   وبَرَّزتُ فى يومَىْ ندًى وطِعانِ
ولم أدَّخِر للدَّهرِ ، إن نابَ أو نَبَا[2]   وللخَطبِ إلّا صارِمِى وسِنَانِى
لأنَّ جميلَ الذكرِ يَبقى لأهله   وكلُّ الذى فوقَ البسيطة فَانِ

قافية الهاء

(٣٤٥)

وقال :

كم تَغُصُّ الأيّامُ منّى ، وتأبَى   هِمَّتِى أن تنالَ منّى مُنَاهَا
أنَا فى كفِّها بجذوة نارٍ   كلَّما نُكِّست تَعالَى سَنَاهَا

(١) العانى : الأسير .   (٢) نبا : قبح .

باب الأدب

قافية الباء

(٣٤٦)

قال :

لا تجزَعنَّ لخطبٍ   فكلُّ دهرك خطبُ
وحادثاتُ الليالى   مُمِلَّةٌ ، ما تُغِبُّ
تَروحُ سَلمًا ، وتَغدُو   على الفَتَى ، وهى حَرَبُ
ولا تَضِق باصطبارٍ   ذَرعًا ، إذا اشتدَّ كربُ
فصبرُ يومِكَ مرٌّ   وفى غدٍ هو عَذْبُ
كم صابَرَ الدهرَ قوم   فأدركُوا ما أحبُّوا
وكلُّ نارِ حريقٍ   يُخشى لظاها سَتَخبُو

(٣٤٧)

وقال :

أيَحسَبُ دَهرىَ أنّى جزِعتُ ، لما غَال من نَشَبِى[١] وانتَهَبْ
فقد أخلَصَتْنِى أحداثُه   وبالنَّارِ يَبدُو خَلاصُ الذّهبْ
وما حَطَّنِى أخذُه ما استَعادَ ، ولا زَادنى رِفعةً ماوَهبْ
وما أنا إلا كضوءِ الشِّهاب ، إذا نكَّسوه اعْتَلَى والتَهَبْ[٢]

(١) النَّشب : المال الأصيل .

(٢) عبر عن هذا الخاطر بالبيت السابق ص ٢٢٩ ، وهو :

أنا فى كفها بجذوة نار   كلما نكست تعالى سناها

(٣٤٨)

وقال :

لأصبِرنَّ لدهري صــبرَ مُحتَسِبٍ ... حتَّى يَرى غيرَ ما قد كانَ يَحسَبهُ
وأستَميتُ لمـا تأتِي الخطوبُ به ... لِيعلَمَ الخطبُ أنّي لستُ أرهبُه
إن غَالَبَتْنِي على وفرِي نوائبهُ ... فحُسْنُ صَبرىَ فى اللأْواءِ يغلبهُ[١]
أو أبعدتْنىَ عن أَهْلِى وعن وطَنى ... فأبعَــدُ الفَرجِ المرجوِّ أقربه
والدَّهرُ يَهدِمُ ما يَبنِى ، ويُخمِدُ ما ... يُورِى[٢] ، ويُبعِدُ ما يُدْنِى تَقلُّبه

(٣٤٩)

وقال من أبيات :

دَعْ ذَا ، فما عُذرُ الفَتى ... فى غَيِّه ، والفَودُ[٣] شَائِبْ
والأرْيحِيَّــةُ تمنــعُ الــ ... ـكُرمَاءَ أن يغشُوا المعايِبْ
والجهلُ يأبى أن يكُو ... نَ لهُ أخو السِّتِّين صَاحِبْ

(٣٥٠)

وقال أول قصيدة كتبها إلى الملك الصالح تقدّمت[٤] :

كفَّ عنِّى واشٍ ، وأغضَى رقيبُ ... ونَهانى عن التَّصابى المشيبُ
وأرتْنِى السِّتونَ نَهجى ، وقد كَا ... نَ عَفَا ، وهو مَهْيَعٌ[٥] ملحُوبُ[٦]
وانقضَت شِرَّتِى[٧] ، وشدَّ لِى الحِــلمُ حُبًا[٨] ، لا يَحُلُّها ما يَرِيبُ

(١) الوفر : الغنى . واللأواء : الشدة .
(٢) أورى الظد : أوقدها .
(٣) الفود : معظم شعر الرأس مما يلى الأذن .
(٤) انظر صفحة ص ٧ .
(٥) طريق مهيع : بين .
(٦) لحب الطريق : بينه .
(٧) شرتى : نشاطى .
(٨) احتبى بالثوب : اشتمل ، أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها . والاسم الحبوة ويضم .

وخبرتُ الأيّامَ حتى لقَالَ النّاسَ : هذَا هو الخبيرُ الأريبُ
وعزيزٌ علَيَّ أنِي وقد جرَّبتُ دَهرى ، لم يَهدنِى التَّجريبُ
وإذا حُمَّت المقاديرُ أخطَا المرءُ فى الرّأىِ ، حيث كان يُصيبُ

قافية الحاء

(٣٥١)

وقال[1] :

لا تُنكرنْ مُرَّ العتاب ، فتحتَه شهدٌ ، جَنَتْه يدُ الوِداد النَّاصح
وتَطَلَّبِ المحبوبَ فى مكرُوهِه فالدُّرُّ يُطلَبُ فى الأُجاج المالح

(٣٥٢)

وقال :

اصبِرْ على ما تختَشِى ، أو ترتَجِى تَظفَرْ بحُسنِ سَكينةٍ ونَجاح
أَوَ مَا تَرى السّارين لمّا صَابَروا ظُلَمَ السُّرى أفضَوْا إلى الإصْباح

قافية الخاء

(٣٥٣)

وقال :

نزّهتُ نفسِىَ عن مَنِ الرجالِ ، وإنْ عَلَتْ بهم رُتَبُ الدّنيا ، وإن شَمَخُوا
إذا المطامعُ قادتْنِى إلى طَمعٍ يُزرى[2] ، فماذَا أفاد الشَّيبُ والشَّيَخُ

---

(١) هذان البيتان مما يرويهما مسالك الأبصار لأسامة ١٠ : ٥٠٧ .
(٢) أزرى : عاب .

(٣٥٤)

وقال :

مِزْعَن بلادِهِمُ فقد سَئِمتْ بِهَا   عِيسى مَحُولَ مُعرَّسِى ومُنَاخِى[١]

ودَعِ الأمانى ، إنّها غَرَّارَةٌ   ووعودُها للطّامعين أَواخِى[٢]

ما عِندَها للوارِدِين سَرَابَها   غيرُ المِطَالِ بمَوعِدٍ مُتراخِى

قافية الدال

(٣٥٥)

وقال :

أُنظُر بعيشِكَ ، هل تَرَى   أحداً يدُوم على المـودّةْ

لِـتَرى أخلّاءَ الرَّخَا   ءِ عِداً ، إذا نابتك شِـدّةْ

ولكلِّ ماتأْبَى وتَهْـوَى   إنْ صَبَرت ، مَدًى ومُدّةْ

(٣٥٦)

وقال :

عِندىَ للأيّامِ إنْ أقبلَتْ   علىَّ فعلُ الخيرِ والجُودُ

وإنْ تولّتْ ، فَفؤادى، كما   علمتَ ، فى اللأْواءِ[٣] ، جلمودُ

يُصابرُ الأيّامَ ، أو تَنقضِى   خُطوبُهن البيضُ والسُّودُ

---

(١) معرسى : من عرّس القوم نزلوا فى آخر الليل للاستراحة . والمناخ فى الأصل : مبرك الإبل . والمحول المكان الجدب .

(٢) الأواخى : جمع أخية وهى عود فى حائط أو فى حبل يدفن طرفا . فى الأرض و يبرز طرفه كالحلقة تشد فيها الدابة .

(٣) اللأواء : الشدّة .

(٣٥٧)

وقال :

تَيقَّظْ ، فمن يَشْناك يسهرُ ليلَه　　وقد يخدَع اليقظانَ مَن هو راقدُ
ولا تحتَقِر كيدَ الضَّعيفِ ، فإنّما　　تَقُدُّ شِفارَ المرهَفَاتِ المبارِدُ
وتُلْقَى الأسودُ بالخديعةِ فى الزُّبَى[١]　　ولَو جُوهِرتْ لم يَنْجُ منهنّ صائدُ
وإهمالُ مايُخشَى من الأمرِ مُهلكٌ　　ومَصرعُ رِضوانٍ بما قُلتُ شاهِدُ

(٣٥٨)

وقال [٢]

سأُنفِق وَفْرى[٣] فى اكتسَابِ مكارِمٍ　　أَظَلُّ[٤] بها بعد المَماتِ مخلَّدَا
وأسعَى إلى الهيجاء ، لا أرهبُ الرَّدى　　ولا أتخَشَّى عَامِلا[٥] ومهنَّدَا
بكلِّ فتًى يلقى المنِيَّةَ ضاحِكاً[٦]　　كأنّ له فى القتلِ[٧] عَيشاً مُجَدَّدَا
فإن نلتُ ما أرجُو فالجودِ[٨] ، ثُمّ لى　　وإن مِتُّ خَلَّفتُ الثناء المؤبَّدا

---

(١) الزبى جمع زبية : حفرة للأسد .
(٢) هذه القطعة رواها أسامة أيضا فى كتابه : لباب الآداب ص ٢٠٢
(٣) فى لباب الآداب " مالى " .
(٤) فى المصدر نفسه "أعيش" .
(٥) عامل الرمح : صدره . والمهنّد : السيف .
(٦) فى المصدر السابق " باسما "
(٧) « « " فى الموت " .
(٨) « « « " فالمجد" .

(٣٥٩)

وقال :

لا ترغَبَنْ فيمَن إذا شاهدتَه   وخبَرْتَه ، لم تُلفِه بالشَّاهد
ومتَى أردتَ تكثُّراً بدنُوّه   فاعلَم بأنّكَ لم تَزد عن وَاحد

(٣٦٠)

وقال :

تَلَقَّ ذَوِى الحاجات بالبِشرِ ، إنّه   إلى كُرماء النَّاسِ أشهى من الجَدَا[1]
عَسى من يُرجّى سيبَكَ اليوم يَغْتَنِي   فتُصبِحُ فيمن تَرتَجِى سيبَهَ[2] غَدَا

(٣٦١)

وقال :

ارضَ الخمُولَ ، تَعش به فى نَجْوَةٍ   ممـا تخافُ ، ومن مُعَانَدَة العدَا
دُونَ المعالى عُدوةٌ[3] إن خُضتَها   متقَحّماً[4] أوردتَ مُهجتَك الرَّدَى
وإذا سَلِمتَ ونلتَ أيسرَ بُغيةٍ   منهَـا جعلتَ لك البريَّة حُسَّدَا
فاسمَعْ نصيحَةَ مَن يكادُ لعلمه   بالدّهرِ يدرى اليومَ بالآتِى غَدَا

(٣٦٢)

وقال :

ما كفَّ كفِّىَ عن جُودى بموجُودى   نوائبٌ ، وملمّـاتٌ لحَتْ[5] عُودى
فى اليُسرِ أبذُل مَيْسُورى ، وأبذُلُ فى   عُسرِى لطالبِ رفدى شَطْرَ مَوجُودى

---

(١) الجدا : العطية .
(٢) السيب : العطاء .
(٣) العدوة : المكان المرتفع .
(٤) متقحّما : من تحم فى الأمر : رمى نفسه فيه بغتة بلا روية .
(٥) لحا العود : قشره .

قافيـــة الراء

(٣٦٣)

وقال :

إن فَاجَأتْكَ اللَّيـالِي   بمـا يسوءُ ، فَصَبْرَا
فالدهرُ يُرهِقُ عُسرا   ويُتْبِـعُ العُسَرَ يُسرَا
لو دَام ما سَاءَ منـه   لدَامَ ما كانَ سَرَّا

(٣٦٤)

وقال[1] :

الْقَ الخطُوبَ إذا طَرَقْــنَ بقلبِ مُحتسِبٍ صَبُورِ
فَسينقَضِى زمنُ الهمو   مِ ، كما انقَضى زمنُ السّرور
فَمِن المُحالِ دوامُ حَا   لٍ فى مدى العمر القَصِير

(٣٦٥)

وقال[2] :

أُسترُ هُمومَكَ بالتَّجمُّلِ[3] ، واصطَبِرْ   إنّ الـكريمَ على الحوادث يَصبرُ
كالشَّمع ، يُظهر نورَه مُتجمِّلاً   خوفَ الشّماتِ ، وفيه نَارٌ تُسعَرُ

---

(١) هذا الشعر مما روى لأسامة فى الخريدة ١ : ١٠٤ ، وياقوت ٥ : ٢٦٤ .

(٢) هذا الشعر مما روى لأسامة فى المسالك ١٠ : ٥٠٨ .

(٣) التجمل : التصبر .

(٣٦٦)

وقال :

لا تَأْمَنَنْ كَيْدَ العــدوِّ ، فأَمْنُ كيدِهِمُ غَرَرْ[1]
كُن منه إن كان القَوىَّ ، أو الضَّعيفَ، على حَذَرْ
فالمـاءُ يُطفِئ النـارَ طبــعًا، فى الصَّفاء وفى الـكَدَرْ

(٣٦٧)

وقال :

عش واحدًا، أو فالتمَس لك صَاحبًا   فى مَحتِدىٰ وَرعٍ وطيبِ نِجَـار[2]
واحذَر مُصَاحَبةِ السَّفيه ، فشَرُّ ما   جلبَ النَّدامةَ صحبــةُ الأشْرارِ
والنَّاسُ كالأشجار: هَـذى يُجتنَى   منها الثمــارُ ، وذى وَقودُ النَّار

قافيـــة السين

(٣٦٨)

وقال :

يقُولُون لى : أفنيتَ كلَّ ذخيرةٍ   وأنفقتَ مالًا لا تجودُ به النَّفسُ
فقلتُ: نعم ، فرقتُ ما جمعت يَدى   وأرجُو غدًا يأتى بما أذهبَ الأمسُ

---

(١) غرر بنفسه : عرضها للهلكة . والاسم الغرر .
(٢) المحتد : الأصل والطبع . والنجار : الأصل .

قافيـــة الشين

(٣٦٩)

وقال :

إيَّاكَ والسلطانَ لا يُدنيكَ من ... أبوابِه مُتكسَّبٌ ومَعَــاشُ
واعلَم بأنَّهمُ ، على ما كانَ من ... أحوالِهِم، نارٌ ، ونحن فَراشُ

قافية الضـاد

(٣٧٠)

وقال :

كلُّ مستقبَلٍ من الــهَمِّ يُنْسَى إذا مَضَى
والَّذى ساءَ من زما ... نِكَ سهلٌ مع الرِّضَا
وأخُو الحزمِ مَنْ إذا ... أعضَلَ الأمرُ فَوَّضَا

(٣٧١)

وقال :

أصبحتُ كالنَّسرِ خَانَتْهُ قوادمُه ... لا تَستِقلُّ[1] جنَاحَاهُ إذا نَهضَــا
أروحُ من نائباتٍ لا تُغبُّ ومن ... هُموم عيشٍ كما لا اشتهى غَرَضَا
لكنَّنى قد حَلبتُ الدهرَ أشْطُرَهُ[2] ... فما يَرانى لخطبٍ نابَ مُنقَبضَا
ألقى الحوادثَ بالصبرِ الجميلِ، ومَقــــدورَ القضَاء بتسليمٍ لَه ورِضَا
علماً بتغييرِ أحوالِ الزمانِ ، فكم ... رأيتُ مُبرمَ أمرٍ عادَ مُنتَقَضَــا

---

(١) استقله : حمله ورفعه . واستقل الطائر : ارتفع .

(٢) حلب فلان الدهر أشطره : مر به خيره وشره .

قافيـــة العين

(٣٧٢)

وقال :

لا تستكِنْ للهمِّ ، واثنِ جِماحَه ... بعزيمةٍ فى الخطْبِ لا تتَضَعْضَعُ
فإذا أتَى ماليَس يُدفعُ فالقَــه ... بالصَّبر ، فهو دَواءُ مالاَ يُدفَعُ

قافية الفـاء

(٣٧٣)

وقال :

قل للّذين يسَرُّهم ما ساءَنَا : ... لا زَايلَتكُم حسرةٌ وتلهُّفُ
شَملِي ، بحمدِ الله بعد تَشتُّتٍ ... وتفرُّقٍ ، منجمِّعٌ متألِّفُ
والمـالُ إن غالَ الزمانُ تِلادَه ... وسَلمتُ،سدَّ مكانَه المستطرَفُ

قافيـــة اللام

(٣٧٤)

وقال :

إلى كَم ترتجِى عطفَ الملُولِ ... وتستجْدِى نوالاً من بخيــــلِ
كأنّكَ فى الّذى حاولتَ سَاعٍ ... لجمـعِ ضُحَى نهارِك بالأصيلِ
لقــد أوقعتَ قلبكَ فى عَناءٍ ... كبيرٍ فى رجاءِ جدًا[1] قليــلِ

---

(١) الجدا : العطية .

وفى الأطماعِ للمعــــتزِ ذُلٌّ   وحُسنُ اليأسِ عزٌّ للذَّليــلِ
فلا تعصِ النُّهى؛ فالحزمُ ناهٍ   لمثلكَ عن طِلابِ المستحيلِ
تَناسَوْا، أو نَسُوا عهدى، ومالُوا   إلى نجْد الهــوى كلَّ المَميلِ
ولمَّـا أن رَأَوا حَسَنِي قبيحًا   رأوا غَمْطَ الجميلِ من الجميلِ
سلَوْا، وتبدَّلُوا بك، فاسلُ عنهُمْ   ودَعْ ما رابَ منهم للبديلِ
ولا تتطلَّبِ الأعواضَ عنُهم   فكلُّ النـاسِ من أبناء جِيلِ
ولا تجزَعْ لغَدرٍ من خَليلٍ   فقد نُسخ الوفاءُ من الخليلِ
وأغضِ على القَذى عيناً، وسكِّن   حشاكَ على جَوَى الهمِّ الدخيلِ

(٣٧٥)

وقال :

وإنِّى لعصَّاءُ العواذل، لا أرىَ   على شَعَثٍ(١) الخلاَّن مستبدلًا خلَّا
ضنينٌ بمن صاحبتُ، أحسَبُ أنَّه   إذا بانَ، لا ألقى له أبدًا مثلَا

(٣٧٦)

وقال :

أيّها الرّبْعُ المحيلُ   جَدَّ بى عنك الرّحيلُ
لستَ بالدَّارِ، ولا فيــــكَ لمن يَضْحَى مَقيلُ(٢)
غابَ عنِّى الرُّشدُ فى   قَصدِيكَ والرأىُ الأصيلُ
غَلطةٌ كانت، ولُطفُ اللهِ ما زالَ يُقيــــلُ

---

(١) شعث : تغير .
(٢) ضحى كسعى : أصابته الشمس . وقال يقيل : نام فى وسط النهار . واسم المكان : مقيل .

ما مُقامُ الحرِّ فى أر ضٍ بها النّاسُ قايلُ
بلد فيه عزيزُ القوم مقهورٌ ذليلُ
لستُ أرجوكَ وقد لا حَتْ لعينَىَّ المَحُولُ
إنما يرتادُ أرضَ المَحْلِ مغرورٌ جَهولُ

(٣٧٧)

وقال[١] :

أئن[٢] غَضَّ دهرٌ من جماحىَ ، أو ثَنَى عِنَانِىَ ، أو زلَّت بأخمَصِىَ النَّعلُ
تظاهرَ قومٌ بالشَّماتِ ، جهالةً وكم إحْنَةٍ[٣] فى الصّدرِ أبرزها[٤] الجهلُ
وهل أنا إلاَّ السّيفُ فلّل حدَّه قراعُ الأعادى ، ثم أرهفَه الصّقلُ

(٣٧٨)

وقال :

تَوالى إلىَّ السَّائلُون ، وإنَّنى لانفُ ألا يُدرك السُّؤلَ سَائِلِى
ولكنَّ مستُورى كظاهِرِ حَالِهِم فما حيلتى ، والحظُّ حربُ الفضائل
ولو بَسطتْ أيدِى الحوادثِ من يدِى تلقتْهُمُ قبلَ السّؤال بنَائِلِى

---

(١) روى هذا الشعر فى خريدة القصر ١ : ١٠١ و ياقوت ٥ : ١٩٩ .

(٢) رواية الخريدة و ياقوت « لئن غض » . (٣) الإحنة : الحقد والغضب

(٤) فى الخريدة « آزرها » .

(٣٧٩)

وقال :

علامَ أخضعُ فى الدُّنيا لمن رفَعَتْ ... وما بأيديهمُ رِزْقِى ولا أجَلِى
ما قَــدَّر اللهُ لا أسطيعُ أدفعَــهُ ... وما لهم فى سوى المقدُور من عَمَلِ

(٣٨٠)

وقال :

إن سرَّ أعدائِىَ أن عَضَّنِى ... دَهرِى بمـا أذهَبَ من مَالِى
فهمَّتِى بالنّجـمِ معقــودةٌ ... ما حطَّهـا ما حَال من حَالِى
كالنَّـارِ إن نكَّسها قابسٌ ... لم يتنـكَّس نورُها العَـالى

قافية الميم

(٣٨١)

وقال :

سلوْتُ عن كلِّ حالٍ كنتُ ذا شغَفٍ ... بها ، ولم أسلُ فى حالٍ عن الـكَرَمِ
ماغالَ دهرِىَ وفرِى فى تقلُّبِهِ ... إلاّ جعلتُ النَّدى سِتراً على العَدَمِ

(٣٨٢)

وقال :

لنَـا هَجمةٌ[١] للحقِّ إن ناب ، والقِرى ... وللجَـارِ ما تنفكُّ نَهباً[٢] مقسَّمَا
إذا هى لم يَعْجَل إلى الضيفِ دَرُّها ... أدرَّ اليمـانى من عَراقِبِها الدِّمَا

(١) الهجمة من الإبل أولها أربعون إلى ما زادت . (٢) النهب : الغنيمة .

قافية النون

(٣٨٣)

وقال :

لاتُودعَنْ سمعَ أخٍ شكيَّةً فالقلبُ أولى بالذى أَجَنَّا[1]
وكلُّ مانشكُوه من زمانِنَا نزولُ عنه ، أو يَزولُ عنَّا

قافية الهاء

(٣٨٤)

وقال :

ظلمتُ شعرِى ، وليس الظُّلمُ من شِيَمى يُطيعُنِى حينَ أدعُوه ، وأعصِيه
يَهُمُّ أن يذكرَ القومَ اللئامَ بما فيهم ، فأزجُره عنهم ، وأثنِيه
وليَس من خُلُقِى ثَلبُ الغَنِىِّ ، وإن جَنَى ، ولا ذكرُ ذى نَقص بما فِيه

قافية الياء

(٣٨٥)

وقال :

لمّا رأيتُ صروفَ هـذَا الدّهرِ تلعبُ بالبرايَا
يعلُو بها هذَا ، ويهبِطُ ذَا ، وقَصْرُهمُ[2] المنَايَا

---

(١) أجن : ستر . (٢) قصرهم : غايتهم .

ورأيتُــه مُســترجِعًا نَزْرَ المواهب والعطايَا

مُتغـايرَ الأحوالِ مخــتلفَ الضرائِبِ[1] والسَّجايَا

لا نعمــةٌ فيــه تدو مُ ،ولا تدومُ به البَــلايَا

لم أغتَبِط فيــه بفَائــدةٍ ، ولم أخشَ الرَّزايَا

---

(١) الضرائب : جمع ضريبة وهي الطبيعة ،

في الشواهد والأمثال ، وما ينسج على هذا المنوال

قافية الباء

(٣٨٦)

قال :

لو صبَرنا على البلاءِ احتِسَاباً   لرَجونَا عنه جزِيلَ الثَّوابِ
غير أنَّ اصطبارَنا صبرُ عجزٍ   واضطرارٍ ، كذاكَ صبرُ الدَّوَابِ
فلحَى[١] اللهُ أنفُسًا ترتِضي العيــــشَ ، إذا كان فيه ذُلُّ الرِقاب

(٣٨٧)

وقال :

حَسبِي من العيشِ خيرُ العيشِ يُدرِكه   سَوَايَ بِي ،ولِيَ الأوصابُ[٢] والنَّصَبُ
كأنّنِي البوُّ[٣] تُستَمرَى[٤] العجولُ[٥] به   وإنَّمـا لسوَاهُ الدَّر والحلَبُ

(٣٨٨)

وقال[٦] :

[بُعدًا لمن][٧] شَرُّه أعمَى ، يُصيب ولا   يَرى مكان الأعادى من ذوِى النَّسبِ
[كالنار تحرق][٧] طبعًا ، لا تُميِّزُ بيَــــنَ المَنْدَلِ[٨] الرطِبِ ، في الإحراق ، والحطَبِ

---

(١) لحى الله فلانا : قبحه ولعنه .   (٢) الوصب : المرض . والنصب : الإعياء والتعب .
(٣) البّو : جلد الحوار يحشى تبنا ، فيقرب من أم الفصيل ، فتعطف عليه ، فتدرّ .
(٤) من مرى الناقة : مسح ضرعها لتدر .
(٥) العجول : الثكلى والواله من الإبل .
(٦) البيتان من مختارات المسالك لأسامة (١٠ : ٥٠٦) .
(٧) سقط بالأصل . والتكلة من مسالك الأبصار .
(٨) المندل : العود ، أو أجوده .

(٣٨٩)

وقال :

ألفتُ الكجاوَةَ[1] بعد النُّفور ، وطابَتْ ، وما خلتها لى تطيبُ
وصرفُ الزّمانِ ، كما قد علمتَ ، أمَنَكَ اللهُ منهُ ، عجيبُ
يُعيدُ صديقَك ، وهو العدوُّ ويَنْأى بغيضُك وهو الحبيبُ

(٣٩٠)

وقال :

أما ترى الماجدَ المفضالَ ترفَعُه أيّامُه ، وهو بالإحسانِ مقترِبُ
طوعَ القيادِ كغُصنِ البانِ يَجذبُه مرُّ النَّسيمِ ، على ضَعف ، فينجذِبُ

(٣٩١)

وقال وقد رأى نملاً يجاذب زهرةً ، كلّما أخذتها نملةٌ انتزعتها منها أخرى :

شاهدتُ نملًا قد تجاذَب زهرةً ذا قد تَمَلَّكها ، وهَذا يَسلِبُ
مثلَ الملوك تجاذَبُوا الدُّنيا ، فمَا حصَلتْ لمغلوبٍ ولَا مَن يغلِبُ

قافية الجيم

(٣٩٢)

وقال :

يا آلِفَ الهَمّ ، لا تَقْنَط ، فأيأَسُ ما تكونُ يأتيكَ لُطفُ اللهِ بالفَرَجِ
ثِق بالذى يَسمعُ النَّجوى ، ويُنجى من الـ ـبَلْوى ، ويَسْتنقذُ الغَرقَى من اللُّجَجِ

---

(١) الكجاوة (بالفارسية) : الهودج . فلعله يريد هنا : الانزواء والبعد عن الناس .

(٣٩٣)

وقال :

ثِقَـــلى إذا نَادَيْتنِي لِمُلِمَّـةٍ أجْدى من المتسَرِّع الهلبَاجِ[1]
إنّ الأناةَ من الخبيرِ بما أتَى تغْنيكَ عن سَيْرٍ ، وعن إدلاَجِ[2]
ما فى شَرار النَّـارِ نفـعٌ يُرتَجى والجمــرُ فيه فضيلةُ الإنضَاجِ

قافية الحـاء

(٣٩٤)

وقال

لولا الَّذى جرت الأقــلامُ قبلُ به ما نالَ ذو الجهلِ،دون الحازِم،المنَحَا
لكنَّ للحظِّ ميزاناً تَرفَّــع ذُو النــــقصان فى وزْنه ، والحظُّ من رَجَحَا

قافية الدال

(٣٩٥)

وقال[3] :

قالُوا : نهتْه الأربعون عن الصِّبـا وأخُو المشيِب يجورُ ثُمَّتَ يهتَــدِى
كَمْ ضلّ[4] فى ليــل الشَّباب ، فدلَّهُ وَضَحُ المشيبِ على الطَّريقِ الأقْصَـد
واذا عَـــددْتُ سنِيَّ ثم نقصتُهـا زَمَنَ الهمومِ فتلك ساعةُ مَولِدِى

---

(١) فى القاموس : الهلباجة : الأحمق .

(٢) الدلج : السير من أول الليل .

(٣) هذا الشعر مما روى فى خريدة القصر ١ : ١٠٠ ،ومعجم الأدباء ٥ : ١٩٥ ،ومسالك الأبصار ١٠ : ٥١٠ .

(٤) رواية ياقوت وخريدة القصر « جار » .

(٣٩٦)

وقال :

أصبحتُ فى زَمنٍ يَشيبُ لجَوْرِه ... فودُ الجنينِ، ويَهْـرَمُ المولُودُ
وإذا شـكوْنا اليومَ، ثُم أتَى غدٌ ... قُلْنا : ألا ياليتَ أمسِ يعـودُ

(٣٩٧)

وقال :

ودّعْ أخا العزمِ مِصرًا، لا لَميسَ، وخُضْ ... بالسَّابحاتِ بحارَ المَهْمَـهِ البيدِ[1]
وبِرْ عَن الأرض تَنْبو بالـكرامِ، فقد ... طَال انتظارُ الجَنَى من يَابِس العُودِ

(٣٩٨)

وقال :

صـديقٌ لِى، تنـكَّرَ بعد وُدّ ... وأُمُّ الغَـدرِ فى الدّنيـا وَلُودُ
أراهُ مَـلالُه حَسَنِى قبيحًا ... فصـدّ، وأيسَرُ الغَدرِ الصُّـدودُ
وذَمّ اليـومَ ما حمَـدتْه منّى ... تجارِبُه، وأمس بِه شهيـدُ
ولستُ ألـومُه فيما أتَاه ... أساء، فرابَهُ الفعـلُ الحميدُ
وقد يَجِـدُ المريضُ المـاءَ مرًّا ... بفيـهِ، وهو سلسـالٌ بَرودُ

---

(١) المهمه : المفازة البعيدة . والبيد : جمع بيداء وهى الفلاة .

(٣٩٩)

وقال :

مَضَتْ لِداتى[1] وإخوانِى ، وأفردَنى دهرِى ، فعشتُ وحيدًا ميّتا كَمَدَا
وما أرى لِى بحُسنِ الصبرِ بَعْدهُم وإن تجلَّدتُ خوفَ الشَّامتين ، يَدَا
والقَبرُ أرفقُ مسكونٍ ونكرَهُه إذ كانَ يسكنُه الإنسانُ منفرِدَا

(٤٠٠)

وقال :

تَنظُر العاجزَ الحظوظُ فيستَعلِى، وتَعمَى عن حازِمٍ محدُودِ[2]
فى اعتلاءِ الشَّرارِ عن راكِدِ الجمرِ دليلٌ أنّ العُلا بالجُدود[3]

قافية الراء

(٤٠١)

وقال :

إن يستُروا وجهَ إحسانِى بكُفرهمُ فالشَّمسُ أدنَى سحابٍ عَنَّ[4] يَستُرُهَا
وإن هُمُ كدَّرُوا صفوِى بغِشّهِمُ فالعينُ أدنَى القذَى[5] فيها يكدِّرُهَا

(٤٠٢)

وقال :

إن كنتُ فى مصرَ مجهولاً، وقد شُهرت فَضائلِى بينَ بَدْوِ النَّاسِ والحَضَرِ
فما على الشَّمسِ من عارٍ تُعابُ به إذا اختَفى ضوءُها عن غيرِ ذى بَصَرِ

---

(١) اللدات : جمع لدة ، وهو الترب . (٢) المحدود : المحروم والممنوع من الخير .
(٣) الجدود : الحظوظ . (٤) عن : ظهر . (٥) القذى : ما يقع فى العين .

(٤٠٣)

وقال :

كفى حَزَنَا أنّ الحوادثَ قصَّرتْ   يَدِي ولسانِي عن نَوالٍ وعن أمْرِ
فما يَخْتَشِي الأعداءُ بأسِى وسَطوتِي   ولا يرتَجِي الإخوانُ نفعى ولا نَصْرِى
إذا نابَهُم خطبٌ فكلُّ استِطاعَتِي   تلهُّبُ[1] أنفاسٍ أحرَّ من الجَمرِ
ولا خيرَ فى الدُّنيا لِمِثْلى ولو صَفَتْ   إذا كان لا يُرجى لنفعٍ ولا ضَرٍّ

(٤٠٤)

وقال[2] :

سهلٌ على العارِفِ بالدَّهرِ   مانابَ من مُستصْعَبِ الأمْرِ
وكلُّ ما استُعظِمَ من حَادِثٍ   مُستَصْغَرٌ فى جانبِ الصَّبْرِ

(٤٠٥)

وقال[2] :

أُنظُرْ إلى حسنِ صَبرِ الشَّمعِ، يُظهِر للـ   رّائين نُورًا ، وفيه النّارُ تَستعرُ
كذا الكريمُ: تراه ضاحِكًا جَذلًا   وقلبه بدخيل الهمِّ[3] مُنفَطِرُ

---

(١) فى هامش الديوان " تضرم " رواية .

(٢) هذان البيتان مما روى لأسامة فى الخريدة ١ : ١٠١ ، و ياقوت ٥ : ١٩٩ .

(٣) رواية ياقوت " الغم " .

(٤٠٦)

وقال :

اصْبِرْ على مَا كَرِهتَ تَحْظَ بما   تَهْوَى ، فما جَازِعٌ بمعذُورِ
إنَّ اصطبارَ الجَنينِ فى ظُلَمِ الأحـ   ـشاء أفضَى به إلى النُّـــور

(٤٠٧)

وقال :

إنِّى لأعرِفُ من وجهِ العدوِّ وإن   أبدَى المُداجاةَ[1] ، ماتُخفى ضَمائرُهُ
كالخطِّ يلحَظُه القَارِى، فيُوصِلُ معـــناهُ   إلى قَلْبِهِ فى الوقت نَاظِرُهُ

قافية الزاى

(٤٠٨)

وقال :

اصْبِرْ تَنَلْ ما تُرَجِّيهِ ، وتَفضُلُ مَنْ   جارَاكَ شَأوَ العُلا سَبقًا وتَبريزَا
فالتِّبْرُ أُحرِقَ بالنيرانِ مُضْطَبِراً   على لظَاهَا ، إلى أن عادَ إبريزَا[2]

---

(١) المداجاة : المداراة .

(٢) التبر : فتات الذهب . والإبريز : الذهب الخالص .

قافية السين

(٤٠٩)

وقال :

اصبرْ إذا نابَ خطبٌ، وانتظرْ فرجًا ... يأتى به اللهُ بعدَ الرَّيْثِ[1] واليَاسِ
إن اصطبارَ ابنةِ العُنقودِ، إذ حُبِسَتْ ... فى ظُلمةِ القَارِ، أدَّاها إلى الكَاسِ

(٤١٠)

وقال :

الضُّرُّ فى أيّامنا هَذِه ... كالليلِ يَغْشَى سائرَ النَّاسِ
وكلُّهم راضٍ، وفوقَ الرِّضَا ... ببُلْغَةِ الطَّاعِمِ والكَاسِى
وَدُونَ مايرجُونَه مانِعٌ ... يلْقَى وجُوهَ الناسِ باليَاسِ

قافية الطاء

(٤١١)

وقال :

أرانى أستطيلُ مَدى حَياتى ... وما فى مَفرِقى للشيبِ وَخْطُ
ولو أسْقَطتُ منه زَمانَ هَمِّى ... لقَالَ الناسُ: هذا الشَّخصُ سقْطُ

(١) الريث : الإبطاء .

قافية العين

(٤١٢)

وقال :

لا تُخدعَنّ بأطماعٍ تُزَخرِفُها ... لكَ المُنَى بحديثِ المَينِ[1] والخُدَعِ
فلو كَشَفتَ عن المَوتى بأجمعِهم ... وجدتَ هُلكَهمُ فى الحِرصِ والطَّمَعِ

(٤١٣)

وقال :

ومُماذقٍ[2] رَجْعُ النِّداءِ جَوابهُ ... فإذا عَرَا خطبٌ فأبعدُ مَن دُعِى
مثلُ الصَّدَى ، يَخفَى علىَّ مكانُه ... أبدًا ، ويملأُ بالإجابَةِ مِسمعِى

قافية القاف

(٤١٤)

وقال :

قومٌ يموتُ النّاسُ عندهمُ ... ضُرًّا ، وهُمْ منهُم على فَرَقِ[3]
كالبَحرِ يهلِكُ فيه راكبُه ... عَطَشًا ، ويخشى الموتَ بالغَرَق

---

(١) المين : الكذب .
(٢) مذق الود : لم يخلصه .
(٣) الفرق : الخوف .

(٤١٥)

وقال :

لنا صديقٌ يغُرُّ الأصدقاءَ، وما رأيتهُ قطُّ في وُدّ امرئٍ صَدَقَا
صديقُه أبدًا منه على وَجَلٍ[1] كراكبِ البحرِ، يخشى دهرَه الغَرقَا

(٤١٦)

وقال :

لا تقربَنْ بابَ سلُطانٍ، وإن ملأتْ هِباتُه غيرَ ممنونٍ بها الطُرُقَا
فإنَّ أبوابَهُم كالبَحرِ : راكبُهُ مروَّعُ القَلبِ، يَخشى دهرَه الغَرَقَا

(٤١٧)

وقال :

أُسترُ بصبرك ما تُخفيه من كَمَدٍ وإن أذَابَ حَشَاكَ الهمُّ والحُرَقُ
كالشَّمعِ يُظهر أنوارَ التَّجمُّلِ، والدُّ مُوعُ منهلَّةٌ ، والجسمُ مُحتَرِقُ

قافية الكاف

(٤١٨)

من رُزِقَ الصبرَ نال بُغيَتَهُ ولاحظَتْه السعودُ فى الفَلَكِ
إنَّ اضطبارَ الزُّجاجِ للسَّبكِ والنّـ ـيرانِ أدناهُ من فَمِ الملكِ

---

(١) الوجل : الخوف .

قافيـــه اللام

(٤١٩)

وقال [١] :

أُنظُرإلى صَرفِ دهرِى ، كيفَ عَوَّدنى بعدَ المشيبِ سِوى عادَاتِيَ الأولِ
وفى تغَايُرِ صرفِ الدَّهرِ معتَبرٌ وأىُّ حالٍ على الأيامِ لم تَحُلِ
قد كنتُ مِسْعرَ حَربٍ ، كلما خَمدَتْ أضرمتُها باقتداحِ البيضِ فى القُلَلِ [٢]
هَمِّى منازلةُ الأقرانِ ، أحسَبُهم فَرائِسى ، فَهُمُ منّى على وَجَلِ
أمْضِى على الهَولِ من ليلٍ ، وأهْجُمُ من سَيْلٍ ، وأقدمُ فى الهيجاء من أجَلِ
فَصرتُ كالغَادةِ المِكسالِ : مضجَعُها على الحشَايا وراءِ السَّجفِ [٣] والكِلَلِ
قد كدتُ أعفَنُ من طُولِ الثَّواءِ كما يُصدِى المهنَّدَ طولُ المكثِ فى الخِلَلِ [٤]
أروحُ بعد دُروعِ الحربِ فى حُللٍ من الدَّبيقِى [٥] فبؤساً لى وللحُلَلَ
وما الرَّفاهَةُ من رأيِى ولا أرَبى ولا التَّنعُّمُ من هَمِّى ولا شُغُلى
ولستُ أهوى [٦] بلوغَ المجد فى رَفَهٍ ولا العُلَا دُون حَطْمِ البيضِ والأسَلِ

---

(١) رويت هذه القصيدة لأسامة فى تاريخ دمشق لابن عساكر : ٥ : ١٧٤ .

(٢) القلل : الجماعات من الناس . والقلة بالضم : أعلى الرأس والجمع قلل . والبيض : السيوف . وسعر الحرب : أوقدها .

(٣) السجف : الستر .

(٤) الخلة : جفن السيف المغشى بالأدم والجمع خلل

(٥) الدبيق : كأمير بلد بمصر منها الثياب الدبيقيه .

(٦) فى هامش الديوان « أرضى » .

(٤٢٠)

وقال [1] :

إذا ما عَرا خطبٌ من الدَّهرِ فاصطَبِرْ   فإنَّ اللَّيالِي بالخطوبِ حَوامِلُ
فكلُّ [2] الذى يأتِي بِهِ الدّهرُ زائِلٌ   سَريعا ، فلا تجزَع لما هو زائِلُ

(٤٢١)

وقال :

كُلُّ شيءٍ تراهُ فى هَذه الدنـ   يا خيالٌ إذا انتبهتَ يَزولُ
ما يدُومُ النَّعيمُ فيها ، ولا البُؤْ   سُ ، متاعُ الدّنيا متاعٌ قَليلُ
والذى يَصرِفُ الهمومَ إذا ما   ضقتَ ذَرعًا بهنّ صبرٌ جميلُ

(٤٢٢)

وقال [3] :

إنِّى وثِقتُ بأمرٍ غرَّنِى أَمَلِى   فيه ، وقد قِيل: كم من واثِقٍ خَجِلِ
عادَت إلىَّ الأمَانِى منـه آيسةً   فيا حيـاءَ المنى من خَيبة الأمل

---

(١) روى البيتان فى تاريخ ابن عساكر ٥ : ١٧٤ .

(٢) رواية ابن عساكر « وكل » .

(٣) روى هذان البيتان فى مسالك الأبصار ١٠ : ٥٠٨ .

(٤٢٣)

وقال :

لا دَرَّ دَرُّكَ من رجَاءٍ كاذبٍ   يغـــترُّنَا بورُودِ لامِع آلِ[1]
أبداً يُسَوِّفُنَا بنُصرة خاذِلٍ   ووفاء خَــوَّانٍ ، وعَطفَة قَالِ[2]
ونَرى سبيلَ الرُّشدِ ، لكن مالَنَا   عزمٌ مع الأهـــواء والآمالِ

(٤٢٤)

وقال :

لا تَعتِبَنْ مَنْ ملَّ ، إنَّ عتَابَه   كَثِقَافِ[3] مُعوجِّ الظلالِ المـائِلِ
يَلقَ العِتابَ بسمعٍ لاهٍ صادِفٍ[4]   ويرى الخُضوعَ بطرفٍ ساهٍ غافِلِ
فإذَا أقمتَ دليــلَ قُبحِ فعالِه   دفعَ العيانَ بِحُجة المتجَاهِلِ

(٤٢٥)

وقال :

لا يُؤسِفَنَّك ما غالَ الزَّمانُ ، فَمَا   يَرضى بما[5] غَالَ : من وَفرٍ ومِن مَالِ
وإنما هُو بالتَّدريجِ ينقُلنَا   نَقلَ المُخادعِ من حَالٍ إلى حَالِ
وليسَ يرضَى بما دُون النفوسِ . ومَا   تُفدَى إذا غَالَهَا ، حاشَاك ، بالغَالى

(١) الآل : السراب .
(٢) القالى : المبغض .
(٣) ثقفه : سوّاه .
(٤) صدف : أعرض .
(٥) فى الأصل (إذا) تحريف .

(٤٢٦)

وقال :

يا جاعلَ الأشغالِ عُذْ رًا فى مُدافعَتِى ومَطْلِ
شُغْلِى إليكَ إذا اشتَغَلْتَ ، فإذ[1] فرغتَ فأنتَ مثلى

(٤٢٧)

وقال :

إلى كم أجوبُ الأرضَ مالِى مُعَرَّسٌ ولا لمسيرى فى البلادِ قُفُولُ
كأنِّىَ فى الدُّنيا قَذَاةٌ بمقْلَةٍ تَرَدَّدُ فى أرجائها ، وتَجولُ
أشيمُ بها برقَ الحيَا[2] ،وهو خُلَّبٌ وأرتادُ أرضَ الروضِ، وهى مَحولُ
وما مِن تكاليفِ الحياةِ وبُؤسِها خَلاصٌ بغير الموت ، وهو مَهُولُ

(٤٢٨)

وقال :

زهَّدنى فى العقلِ أنِّى أرَى عنايةَ الأيامِ بالجَهْلِ
والدَّهرُ كالميْزانِ : ذو الفَضْل ينحَطُّ ، وذُو النقصانِ يَستَعْلِى

(٤٢٩)

وقال :

رَفْعُ الحظُوظ لمن أصَبْنَ ، وحطُّ مَن أخطأْنَه ، فيه يَحارُ العَاقِلُ
يُعطَى الغَبِىُّ ،ويُحرمُ النَّدبُ[3] الفتَى كالدِّيكِ تُوِّجَ ، والبُزاةُ عَواطلُ

---

(١) فى الأصل (فإذا) . تحريف .

(٢) الحيا : المطر . والخلب : المطمع المخلف .

(٣) النَّدب : الخفيف فى الحاجة الظريف النجيب .

قافيه الميم

(٤٣٠)

وقال[١] :

بِ مَوْلًى صَحِبْتُهُ مُذهَبَ العُمْـــــر[٢] ، فلم يَرْعَ حُرمتى وذِمَامى
ظَنَّنِي ظِلَّهُ أُصاحِبُهُ الدهـــــرَ على غيرِ نائلٍ واحْتَرَامِ
فافتَرَقْنَا كأنّه كان طَيفًا وكأنّى رأيتُـــهُ فى المَنَام

(٤٣١)

وقال :

لو كانَ رزقُ الفتَى بقوّتِهِ نازلتُ ضَارِى الأسُودِ فى الأَجَم
لكنّه عن مشيئَةٍ سَبقتْ فى الخَلقِ تَجرِى فيهم على القِسَمِ

(٤٣٢)

وقال :

لَحَى اللهُ أرضًا يرشُفُ المرءُ رِزقَه بها مُكرَهًا رشْفَ الذُّعَافِ من السَّمّ
تُشَيِّبُ حبـاتِ القلوبِ بجَوَرِهَا وتُهرِم إنسانَ العيُونِ من الهَمّ

---

(١) رويت هذه الأبيات الثلاثة فى الخريدة ١ : ١٠٦ ومسالك الأبصار ١٠ : ٥٠٧ .
(٢) أى العمر الذاهب .

(٤٣٣)

وقال :

لاتأسفَنّ لذاهِبٍ أو فائتٍ يُرجَى ، ولا تُتْبِعه زفرةَ نادِم
واصبِر على الحَدَثَانِ صبرَ مُسلِّمٍ مُتيقِّنٍ أنْ ليسَ منه بسَالِمِ
فغضارَةُ الدُّنيا كظِلٍّ زائلٍ والعيشُ فِيها مِثلُ حُلمِ النّائمِ
والدّهرُ يَمنحُ ، ثم يَمنعُ نزرَ ما أعطى ، ويَجْزُلُ بالسُّرورِ الدّائمِ
والناسُ من لم يَضْطبِرْ لِمصَابِهِ صبرَ الرِّضا صَبَرَ اصطبارَ الرّاغمِ

(٤٣٤)

وقال :

قل للرَّجاء : إليكَ ، قَـــد أتعبتنى بَعد الـــكِرَامِ
قد عمَّ داءُ البُخلِ ، حـــتّى شاعَ فى كلِّ الأنامِ
فأكفُّهُم بالبُخلِ مُقـــفَلَةٌ على سُحتٍ[1] الحُطامِ
فإلامَ ترتادُ المَحُـــولَ ، وترتَجى رىّ الجَهام[2]

(٤٣٥)

وقال :

ياأخى الشّاكِي لمـا أشـــكُوهُ والحَامـلَ هَمِّى
ونسيبَ الـــوُدِّ لا نِســبةَ آبــاءٍ وعَمِّ

---

(١) السحت : الحرام .
(٢) الجهام : السحاب لاماء فيه .

ظلمتْنِي دولةُ العــــد ل ، فمن يكشِفُ ظُلمِى
ومتَى يُحْكَمُ لى بالعــــد ل ، والحاكِمُ خَصْمى

(٤٣٦)

وقال :

لاتُطلِعَنَّ لسانَ شَكْوى بَائِحٍ ضَجَرًا على سرِّ الفؤاد الكاتِمِ
واعلمَ بأنّ جَميعَ ما فيه بنُو الدُّ نيا يزولُ زوالَ حُلمِ النّائِمِ

قافيه النون

(٤٣٧)

وقال :

اصطبِر للزّمانِ إن حافَ حِينَا أو تلقَّاكَ بالمخَاوِف حِينَا
إنّ صبرَ الكليِم[1] وهو طَريدُ الـ خَوفِ أفضَى بِهِ إلى طُورسِينَا

(٤٣٨)

وقال :

مَن ملَّ فاهجُرهُ ، فقــــد أبدَى لك اليأسَ المُبينا
أعيا شماسُ أخِى التّلوُّ ن والمَـــلالِ الرّائِضينا[2]
لن يرجعَ الفخّارُ بعــــد تَلافه بالكسرِ طينَا

---

(١) الكليم : موسى عليه السلام .
(٢) الشماس : عدم الانقياد . ورواض الفرس : ذلله .

(٤٣٩)

وقال :

يا شاربَ الخمرِ بعدَ النُّسكِ والدّينِ وبعدَ ما تابَ عما رابَ مُذ حِينِ
أفسدتَ دينَكَ، والسبعونَ أفسدتِ الـ ـدُّنيا ، فلستَ بذى دُنيا ولا دينِ
وإنّما أنتَ نخّـار تكسّرَ ، لَا يُرجى لنفعٍ ، ولا يُعتدُّ فى الطّينِ

(٤٤٠)

وقال :

كم تقصدُ الماجِدينَ الفاضِلين، وكم تُعلِّمُ الكرماءَ البُخلَ يازمنُ
إذا توالت عليهم نائباتُك، واجـ ـتاحَت[1] فواضلَ ما يُولونه المحنُ
فكيفَ بالجُودِ والأحداثُ تسلبُ ما يُولَى به العرفُ، أو تُسدَى به المِنَنُ
شُغْلُ الزّمان بأهلِ النقصِ يرفعُهم حتّى يُثمّرَ للـوُرّاث ما خَزَنُوا
ألهاهُ عن كُرماءِ النّاسِ ، فهو عَلَى ذَوى المكارِمِ والأفضَالِ مُضطَغِنُ[2]

قافيـة الهاء

(٤٤١)

وقال :

لاتخضَعَنْ رَغَباً ولا رَهَباً، فما الـ ـمرجوُّ والمخـشىُّ إلّا اللهُ
ما قَد قضاهُ اللهُ مالكَ من يَدٍ بِدفاعِه ، وسواهُ لا تخشاهُ

---

(١) الاجتياح : الاستئصال والإهلاك .
(٢) اضطغن : انطوى على الحقد .

(٤٤٢)

وقال :

نِلتُ فى مصرَ كلَّ ما يرتجِى الآ ملُ : لمن رفعةٍ ، ومالٍ ، وجاهِ
فاستردَّتْ ما خوَّلَتْنى[1] ، وما أسـرعَ نقْصَ الأمورِ عند التَّناهى
كنتُ فيهَـا كأنَّنى فى مَنامٍ زالَ منه ما سرَّ عـند انْتِبَاهى

---

(١) خوله الله مالا : أعطاه .

فى الكبر والمشيب وخلع رداء الشّباب القشيب

قافية البـــاء

(٤٤٣)

قال :

وشائمـــةٍ برقًا بفودىَّ راعَهَا ... وما كلُّ برقٍ لاحَ يُؤذِنُ بالخِصبِ
رأت شَعَراتٍ أخلقت بعـد جِدَّةٍ ... ونفساً سلت بعد الغَوايةِ فى الحُبِّ
فقالَت : نهاكَ الشيبُ عن مَرَحِ الصِّبَا ... وردَّاك بعد الجَونِ دهرُك بالعَصْبِ[1]
فقلتُ : نعَم أصبحتُ طَوعَ عَواذِلى ... وأصبحتُ لا أصبُو للهوِ ولا أُصبي
ولا عجبٌ : لَيـــلٌ تبلَّج بفجرِه ... وحِلمٌ رمَى شيطانَ جهلىَ بالشُّهبِ
وهمٌّ ورَى بين الجوانح زَنْدهُ ... أضاءَ له فى مَفرِقى لامعُ اللَّهْبِ

(٤٤٤)

وقال :

أما ترى الشّيبَ قد ردَّاك بعد دُجَى ... فَودَيْكَ ، واهًا لِذاكَ اللّيلِ ،بالعَصَبِ
وأسمعتك الليـــالى فى مواعظِها ... أنّ ابنَ سبعين من وِرد على قُرُبِ
أعرضتُ عن صبوَاتٍ كنتُ ذاشَغفٍ ... بها ، وجانبتُ مايُدنى من الرِّيَبِ
وسرتُ طوعَ النُّهى،تُرضَى أنَاتِيَ فى ... سَيرى ، ومَرّىَ فى شَدّى وفى خَبَبِى[2]

---

(١) الجون : الأسود . والعصب : ضرب من البرود يظهر أنه أبيض .

(٢) الشدّ : العدو . والخبب : ضرب منه .

(٢٤٥)

وقال[١] :

لو كان صَدَّ مغاضباً[٢] ومُعاتِبَـا … أعتبتُه[٣] ، ووضعتُ خَدِّى تَائبَـا
لـكن رأَى تلك النَّضارةَ قد ذَوت[٤] … لـمـا غَدا ماءُ الشَّبيبةِ نَاضِبَـا[٥]
وتعـاقُبُ الأيَّامِ أعقَب لِمَّتِى[٦] … من حالكٍ جَثْلٍ[٧] شَكيراً[٨] شَائِباَ
ورأى النُّهى بعـد الغَوايةِ صَاحِبِى … فَثَنى العِنَـانَ ، يُرِيغُ[٩] غَيرِى صَاحِبَا
وأبيـهِ ، ما ظَلَمَ المشيبُ ، وإنَّه … أمَلِى ؛ فقلتُ: عَساه عنِّىَ راغِبَا
أنا كالدُّجَى، لمـا انتهَى نشرت لَه … أيدِى الصَّباحِ من الضِّياءِ ذوائبَـا
خمسونَ من عُمرِى مضتْ لم أتَّعظ … فيهـا ، كأنِى كُنتُ عنها غَائبَا
لم أنتَفـع بتجَارِبِى فيهـــا عَلى … أنِّى لقيتُ من الزَّمانِ عجَائبَـا
وأتَتْ علَىَّ بمصرَ عشرٌ بعــدَها … كانت عظاةً كلُّهـــا وتَجـارِبَا
شاهدتُ من لَعِبِ الزمانِ بأهلِه … وتَقلُّبِ الدّنيـا الرقُوبِ[١٠] عجَائبَـا

قافية التـاء

(٤٤٦)

وقال :

صحَـا ، وللجهلِ أوقاتٌ وميقاتُ … وللغَـــوايات والأهواءِ غاياتُ
رأى المشيبَ كبيضِ الهند لامعةً … لها علَى فَودِه الغربيبِ[١١] إصلاتُ[١٢]

---

(١) روى ياقوت في معجم الأدباء ٥ : ١٩٧ والخريدة ١ : ١٠٠ البيت الأول والأبيات من الثالث إلى السادس .
(٢) في ياقوت والخريدة « معاتبا ومغاضبا » . (٣) أعتبته : طلبت إليه العتبى وهى الرضا .
(٤) ذوى الغصن : ذبل . (٥) نضب الماء : غار . (٦) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن .
(٧) الجثل : الشعر الكثير الملتف . (٨) الشكير : الشعر اللين الرقيق . (٩) يريغ : يريد .
(١٠) الرقوب : التى لا يعيش لها ولد . (١١) الغربيب : الشديد السواد . (١٢) أصلت السيف : جرده .

فراجعَ الحلمَ، وانجابَت[١] غَوايتُه ... وفى النُّهى للهوى المُـرْدى نهاياتُ
والشيبُ شُهبٌ رمت شيطانَ شرتّه[٢] ... فأقصدَتْه[٣]، وكم تنجو الرَّميّـاتُ
لله درُّ الصِّبا، لو دَام رونقُه ... فما كأوقاتِه فى العُمرِ أوقاتُ
ولا رَعى الشّيبَ من زَوْرٍ[٤] إذا نزل الـ ... ـمَثْوى نأَتْ، وسَرت عنه المسرّاتُ
طَوالعُ الشَّيبِ إن رَاقتك واضحةً ... طلائعٌ قدَّمتهنّ المنِيّاتُ

(٤٤٧)

وقال :

مالى رأيتُ الثَّلجَ عمَّ شيبُـهُ ... قُلَلَ[٥] الرُّبا، فزهت بحسن نبَاتِهـا
رَاق العيونَ، وشَيبُ فودى رَاعَها ... حتّى كانّ الشَّيبَ وخْزُ[٦] قَذَاتِها

قافيـة الجيم

(٤٤٨)

وقال :

دعْ ما نَهى الشّيبُ والسبعونَ عنه، فتِرْ ... بَاكَ : الصِّبا، والشَّبابُ الغضُّ قد دَرَجا[٧]
واعتضتَ من فَتْكِ أخدانِ الصِّبا ورَعًا ... ومن جَهَالةِ أيامِ الشَّبابِ حِجـا
عُذرتَ، إذ جُرتَ فى ليلِ الشبابِ، فهَلْ ... عُذرٌ، وشيبُكَ قد أذكى لك السُّرُجَا
وما أساءت بك الأيامُ إذ جَعلتْ ... فَوديك دُرًّا ، وكانا[٨] قبلَه سبَجَا[٩]

---

(١) انجاب : انكشف .
(٢) شرة الشباب : نشاطه .
(٣) أقصد فلانا : طعنه فلم يخطئه .
(٤) الزور : الزائر .
(٥) قلل : جمع قلة وهى أعلى الجبل والربوة .
(٦) الوخز : الطعن لا يكون انفذا .
(٧) درج : مات .
(٨) فى الأصل (كانت) تحريف .
(٩) السبج : خرز ، لعله أسود .

قافيـــة الدال

(٤٤٩)

وقال ، وقد غسل رأسه فى بركة ، فرأى شعرا أبيض قد سقط من رأسه على وجه المـاء :

أرى شعَراتٍ يَنتَبِذن[1]، كأنَّهـا على المـاء صَدْعٌ فى الزُّجاجةِ بادِ
وعَهدى بها فيما مَضَى ، وكأنَّها على الفِضَّةِ البيضاء نقشُ سَوَادِ

(٤٥٠)

وقال :

إذا ما جَلا اللَّيلَ النهارُ بنُورِه تعقَّبـه ليلٌ أحمُّ[2]ركُودُ
فما لى أرى لَيلَ الشبابِ إذا جَلا وجاء نهارُ الشيب لَيس يَعودُ

(٤٥١)

وقال

نَظَرتْ بياضَ مفارقى ، فاسترجَعتْ أسفًا ، وقالت: أين ذَاك الأسْوَدُ
قلت : اضمحلَّ ، فأطرقَتْ ، وتنفَّست نفسًا تُصعِّـده حشًـا تَتَوقَّدُ
قالت : فَهَلْ من مَوعِدٍ للقائنا فأرى نذيرَ البَين ، قُلت : الموعدُ[3]

(١) الانتباذ : التنحى . (٢) الأحمّ : الأسود من كل شىء .
(٣) يريد بالموعد يوم القيامة .

قافية الراء

(٤٥٢)

وقال :

يقولون : جارَ عليك المشيبُ ... ومَن ذا يُجيرُ[١] إذا الشيبُ جَارَا
وما كنتُ مغتبطًا بالشَّباب ... وهل كان إلا رداءً مُعارَا
ولكنَّنى ساءَنى فَقـدُه ... فواهًا له ، أىَّ همٍّ أثارَا
وما سَاءَنى أن أحالَ الزّمانُ ... لَيلى نهارًا ، وجَهلى وقَارَا
ولكن يقولُون : عَصرُ الشَّبابِ ... يكونُ لكلِّ سرورٍ قَرارَا
وما زلتُ مُنذ تردّيتُهُ ... تخَابِط ليـلٍ أعانِى العثَارَا
أكابِدُ دهرًا يُشيب الوليدَ ... وهمًّا يَشُبُّ بأحشاىَ نارَا
فوجْدىَ أنّىَ فارقتُه ... ولم أبْلُ[٢] ما يزعمون اختِبارَا

(٤٥٣)

وقال :

تَصامَمْتُ عن لَومِ العذولِ ، كأنَّما ... رَمى الوجدُ يومَ البينِ سمعِىَ بِالوَقْرِ[٣]
وقد كنتُ معذورًا بِآنِفَةِ[٤] الصِّبَا ... فهَل لى بَعد الشَّيبِ فى الجهلِ مِن عُذرِ
وغيرُ ملومٍ مدلجٌ[٥] ضلَّ ، إنما ... يُلام إذا ما ضَلَّ فى وَضَحِ الفَجرِ

---

(١) أجار : أنقذ . (٢) أبلو : أختبر . (٣) الوقر : ذهاب السمع .
(٤) آنفة الصبا : ميعته وأوليته . (٥) الدلج : السير من أول الليل .

(٤٥٤)

وقال :

رأيتَ ما تلفِظُ الموسى، فآسفَنى إذ عادَ حالِكُهُ كالثَّلج منثُورَا
فقلتُ إذ رابَنِي تغييرُ صِبْغتِه: سبحانَ من ردَّ ذاك النَّدَّ كافُورَا[1]

(٤٥٥)

وقال :

إذا تقوّس ظهرُ المرءِ من كِبَرٍ فعاد كالقوسِ يمشى، والعصَا الوتَرُ
فالموتُ أروحُ آتٍ يستريحُ بِهِ والعيشُ فيه له التَّعذيبُ والضَّررُ

(٤٥٦)

وقال :

إذا عَاد ظهرُ المرءِ كالقَوسِ ، والعصَا له حينَ يمشى، وهى تقدُمهُ ، وَتَرْ
وملَّ تكاليفَ الحياةِ وطُولَهَا وأضعَفَهُ من بعد قُوّتِهِ الكِبَرْ
فإنَّ لَه فى الموتِ أعظمَ راحةٍ وأمنًا من الموتِ الذى كان يُنتظَرْ

(١) الند : العنبر . والكافور : طيب خشبه أبيض هش .

قافية القاف

(٤٥٧)

وقال :

لِدَتِى وإخوانُ الشَّبابِ مضَوْا قَبلِى ، وكَمْ من بعدهم أبْقَى
كُنَّا كأفراسِ الرِّهان جَرَوْا فى غَايةٍ ، فتقدَّمُوا سَبْقَا
وهُمُ إذا بلغُوا المدَى وقَفُوا حتى تَضُمَّ الحلْبَةُ[1] الحَلْقَا

(٤٥٨)

وقال :

ثَلَجَ النَّباتُ فراق لونُ مشِيبه فعلامَ لونُ الشَّيبِ ليس يروقُ
ما ذَاكَ إلاَّ أنَّ ذَا داعٍ إلى طيبِ السّرورِ ، وذاك عنه يَعُوقُ
وإذا أخُو الشَّيبِ استَجاب للذَّةٍ ومسرَّةٍ ، فسرورُه مسروقُ

قافية اللام

(٤٥٩)

وقال :

لم تترك السبعونَ فى إقبالهـا مِنِّى سـوى مالاَ عليه مُعَـوَّل
حَتَّى إذا ما عامُها عَنِّى انقضَى ووطِئتُ فِى العامِ الذى يُستقبَلُ

(١) الحلبة : مجال الخيل للسباق .

حَطَمتْ قوَاىَ، وأوهَنتْ من نَهضتى ... وكَذا بمَنْ طلبَ السّلامَةَ تفعلُ

كَم قد شهدتُ من الحرُوبِ، فليَتنى ... فى بعضِها مِن قبلِ نَكسِى أُقتلُ

والقتلُ أحسنُ بالفَتى من قبلِ أن ... يَبلَى، ويُفْنِيَه الزّمانُ، وأجملُ

وأبيكَ ما أحجمتُ عن خَوضِ الرَّدى ... فى الحرَبِ، يَشهدُ لِى بذاكَ المُنْصُلُ[1]

وإذا قضاءُ اللهِ أخّرنى إلى ... أجَلِى المؤقتِ لِى فماذا أعْملُ

(٤٦٠)

وقال :

وضحَ الصباحُ لناظِرِ المتأمّلِ ... فإلامَ توضِع فى الطريقِ المجْهلِ[2]

أوَ ما نهتكَ السنُّ عن مَرَحِ الصِّبا ... والخوضِ فى غىِّ الزّمانِ الأولِ

نَزّه بياضَ الشَّيبِ عن دَنَسِ الهوَى ... فقد ارتديتَ الدرَّ غير مُفَصَّلِ

واعفِ العذولَ عن المَلامِ، فلومُه ... غيرُ الملِمّ بِسمع من لم يجْهلِ

(٤٦١)

وقال :

نَضَا[3] صِبغُ الشَّبابِ، فلستُ أدرى ... لِصبغِ حالَ، أم تغييرِ حَالِ

وما أبيضَّ الغرابُ الجَونُ إلاّ ... لينعَبَ بانتقالٍ وارتحالِ

(١) المنصل : السيف . (٢) أرض مجهل كمقعد : لا يُهتدى فيها . وأوضع : أسرع فى سيره .

(٣) نضا : ذهب .

(٤٦٢)

وقال :

إن ضَعُفَت عن حملِ ثِقلِى رجْلِى   ورَابَنى عِثـارُها فى السَّهـل
أَمشى كما يمشى الوَجِى[1] فى الوَحْلِ   مَشْىَ الأسيرِ مُثـقَلاً بالـكَبْلِ[2]
فللعصَـا عِندىَ عُذْرُ المُبْـلِى[3]   إن عَجَزتْ ،أو ضعُفت عن حَمْلى

قافية الميم

(٤٦٣)

وقال :

قالت وأحزَنَهَـا بياضُ مفَارِقى :   ماذَا ؟ فقلتُ : تريكَةُ[4] الأيَّام
فبَكَتْ . وقالَت : هل لهَا من وَاردٍ   أو رائدٍ يوما ؟ فقلت : حِمَـامِى

(٤٦٤)

وقال :

أُنظـر إِلى لَعِبِ الزمانِ بأهلِه   فكأنَّهـم وكـأنَّه أحـلامُ
قد كانَ كَفِّى مألفًـا لمهنَّـدٍ   تُعرَى[5] القلوبُ له وتُفرى[6] الهامُ
ولأسْمرٍ لدْنِ الـكعوبِ، وِجارُه[7]   حيثُ استمرَّ الفـكرُ والأوهامُ

---

(١) الوجى : الحفا . وجى كرضى وجى فهو وج ووجى . (٢) الكبل : القيد .
(٣) أبلاه عذرا : أداه إليه فقبله . (٤) التريكة : روضة يغفل عن رعيها .
(٥) تعرى من العروى وهى : الرعدة . (٦) فراه يفريه : شقه .
(٧) الوجار فى الأصل : جحر الضبع وغيرها .

نَتَزايلُ الأبطالُ عَنّى ، مثلَمَا   نَفَرت من الأُسْـدِ الهصور نَعامُ
فرَجعتُ أحمِل بعد سبعينَ العصَا   فاَعجب لمـا تأتى به الأيّامُ
وإذا الحِمـامُ أبى مُعاجلَةَ الفتى   لحياتِه . لا تـكْذَبَنَّ[1] ، حمـامُ

(٤٦٥)

وقال مخاطبا لصديق :

من مُبْلِغٌ عنى فـلا   نَ الدِّيـن . والأنباءُ تَنْمى
أنِّى هجرتُك لا كَظـنِّكَ   طائعا ، لـكن برغمى
أوهَتْ خطوبُ الدهرِ من   هِمَمِى ، وفلّت حدّ عَزمى
ورمتْـنِيَ الأيامُ عن   قوسى ، فأردتنى بَسهمِى
وغدَا الذيـن بهم أسـ   لّى الهـمَّ حين يُـلِمُّ ، همِّى

(٤٦٦)

وقال ، وقد رزق ابنة ، سمّاها أمّ فروة ، بعد أن تجاوز أربعا وسبعين سنة

أفكّرُ فى فُرَيّةَ مـا تُلاقى   من الُّدنيـا فتغشانِى الهُمومُ
وتَصعدُ زفرتِى أسفًا ، لعلمى   بمـا يَلقَى من البؤسِ اليَتيمُ
وقـد أودعتُها ربًّا كريمًـا   وما يَنْسَى وديعتَـه الـكريمُ

(١) كُذِب الرجل : أُخبِر بالكذب .

قافية النون

(٤٦٧)

وقال فى المعنى أيضا :

لما تخطَّتنىَ السبعونَ معرِضةً ... وساوَر الضّعفُ بعد الأَيدِ[1] أركانى
وأُدخلَتْ كان فى شُكرى وفى صفتِى ... واسترجَع الدّهرُ ماقد كان أعطانِى
رُزِقت فروةَ ، والسّبعون تُخبرها ... أن سوف تيْتَمُ عن قُربٍ ،وتنعانِى
وهى الضّعيفَةُ ، ماتنفكُّ كاسفةً ... ذليلةً ، تمترى[2] دمعى وأحزانِى
ما كان ، عمَّا ستلقاهُ وعن جَزَعى ... لما ستلقاه ، أغنَاها وأغنَانِى

(٤٦٨)

وقال :

حمَلَتْ ثِقلىَ فى السَّهلِ العَصا ... ونَبتْ بى ، حينَ حاولت الحزُونَا
وإذا رجلىَ خانَتْنى ، فَلا ... لومَ عندى للعَصا فى أن تَخونَا

(٤٦٩)

وقال ، وكتبَها بخط يده :

نُكِّستُ فى الخلقِ ، وحطَّتنِىَ الس ... بعونَ لمَّا أنْ علت سِنِّى
وغيَّرت خَطِّى ، فأضحَى كما ... تَرى ، وكم قد غيَّرت منِّى
والموتُ فيه راحةٌ من أذَى الدُّ ... نيا ، فما أغفَلَه عَنِّى

(١) الأيد : القوة .   (٢) امترى الشىء : استخرجه .

قافية الهاء

(٤٧٠)

وقال :

نَظَرَتْ مُبيضَّ فَودِى ، فبَكَتْ　　ثمّ قَالت : ما الَّذى بَعدى عَرَاهُ
قُلتُ : هَـذى صِبغةُ اللهِ ، وَمَن　　يصبُغُ الأسودَ مبيضًّا سِواهُ

(٤٧١)

وقال :

حَمَّلتُ ثِقلَى بعد ما شِبتُ العَصا　　فَتَحَمَّلته تَحمُّـلَ المُتَكَارِهِ
ومَشَت به مشىَ الحَسيرِ[1] بِوِقْرِه[2]　　لَايَستقِلُ[3]، مقيَّـدًا بعِثاره
ما آدَها[4] ثِقلِى، ولـكن ثِقلُ مَا　　أبقَى الشّبابُ علَىَّ من أوزَاره
ورجاىَ معقودٌ بمن أعطَى أخَا السَّبعينَ　　عُهـدةَ[5] عتقه من نَاره

---

(١) حسر كضرب وفرح : أعيا ، فهو حسير .
(٢) الوقر بالكسر : الحمل الثقيل .
(٣) يستقل : ينهض .
(٤) آده الأمر : بلغ منه المجهود .
(٥) العهدة : كتاب البيع .

فى الزهد والاعتبار ، والمواعظ والإنذار

قافية البـاء

(٤٧٢)

قال :

يارِبِّ حُسْنُ رجائى فيكَ حسَّنَ لى ... تضييعَ وقتىَ فى لهوٍ وفى لعبِ
وأنتَ قلتَ لمن أضحى على ثِقَةٍ ... بحسن عفوِكَ : إنِّى عند ظنِّكَ بى

قافية التـاء

(٤٧٣)

وقال :

ياغافلينَ عن الأمرِ الذى خُلِقُوا ... له ، أفيقُوا ، فللنُّـوَّام هَبَّـاتُ
مَاذَا السّكونُ إلى دُنيَا حَوادِثُها ... لهَا على الخلقِ غَدْواتٌ وَعَدْوَاتُ
كيف البقاءُ بدارٍ للفناء بها ... على الخلائقِ كَرَّاتٌ وغاراتُ
وأنتَ ، يأيُّها المغرورُ ، مالكَ فى الدُّ ... نيـَا من النـاسِ غيرَ البعدِ مَنْجَاةُ
يسرّكَ البشرُ منهم حينَ تُبْصِرُهم ... ولو خَبَرْتَ لساءتْكَ الطَّوِيَّاتُ
فاقطع حِبالكَ من كلِّ الأنامِ، فهمْ ... فى كلِّ حالاتِ مَنْ دانَوْا حِبالاتُ[1]

---

(١) حبالة ككتابة : المصيدة .

واحذَرْ من النّاسِ ، إنّى قد خَبرتُهمُ ولا يغرَّنْكَ خِبٌّ [1] فيه إخباتُ [2]
لا تَرْجُهُم فى مُلِمّاتِ الزّمانِ ؛ فما تُلِمُّ إلّا مِنَ النّاسِ المُلِمّاتُ
وكلّهمْ، وهمُ الأحياءُ ، إن بُعِثُوا [3] على الحياءِ وفعلِ الخيرِ ، أمواتُ
وقد سمِعْنا بأنَّ الأرضَ كانَ بها ناسٌ كرامٌ ، ولكن قيلَ : قد ماتوا
ولستُ أدرى صحيحًا ما تضَمَّنَت الـكُتْبُ القديمةُ أم فيها ضَمانَاتُ [4]
وأغلبُ الظّنِّ أنَّ القومَ قد جَمَعُوا للبَاخلينَ حديثَ البُهْت [5] : أى هَاتُوا
لو كانَ ما جَمَعُوا يَبْقَى لَهُمْ لَقَضَتْ عليهمُ بالمُواساةِ المروءَاتُ
فكيفَ ، وهىَ عَوَارٍ تُسْتَرَدُّ ، وأفْيَاءٌ [6] تُنقِّلُها فى النّاس دَوْلَاتُ

قافيــة الحــاء

(٤٧٤)

وقال :

لا تَرْتَجِ الخلقَ ؛ فالأبوابُ مُرْتَجَةٌ دُونَ الحُطامِ ، وبابُ اللهِ مفتوحُ
والرّزقُ لو كان فى أيدى الأنامِ أبَوْا أنْ يشرَبَ الماءَ مِنْ طُوفانِه نوحُ
لكنّه فى يَدَىْ مَنْ فضلُه أبدًا للطائعينَ وللعاصينَ مَمْنُوحُ

(١) الخب : الخداع .
(٢) أخبت : خشع وتواضع .
(٣) بعثه على الشىء : حمله على فعله .
(٤) الضمنة بالضم وكسحاب وسحابة : المرض .
(٥) البهت بالضم : الكذب .
(٦) أفياء : جمع فىء وهو الظل .

قافيـة الدّال

(٤٧٥)

وقال :

مُـذْ بَصَّرَتْنِي تَجَـارِبِي ، ونَبَّهَنِي خُبْرِى بدهرِى ، فقدتُ العيشةَ الرَّغَدَا
كأنّنِي كنتُ فى حُلْمٍ ، فأيقظَنِى خَوْفِى، وآلَى على جفنىَّ لارَقَدَا

(٤٧٦)

وقال :

عجزتُ عن الدنياَ ، فما لىَ من يدٍ بِهـا ، ولىَ الايدَ[1] المساعدُ واليدُ
ولكنّنِى لم أَسْلُ عنهـا، فأرْعَوِى ولا نِلتُ منها ما أَوَدُّ ، وأقصدُ
شَقِيت بهـا أحرزتُه: من فضائلٍ بأيسرِها يحظَى الشـقىُّ ويسـعَدُ
وفى النّفسِ، إن نَاجَيْتُها باطِّراحِها وبالزُّهدِ فِيهـا ، فـترةٌ وتردُّدُ
فيـاربِّ ألهِمْـها الرشادَ بترِكها فإنَّكَ تهـدِى من تشـاءُ وتُرْشِد

(٤٧٧)

وكتب على حائطِ مسجدٍ ، بظاهر منبجَ ، وهو متوجهٌ إلى الحجازِ :

نزلنَا بهِ ، حتَّى إذَا يومُنـا انقضَى رحلنا على العيسِ النّجائبِ والجُرْدِ[2]
نؤمُّ بهـا البيتَ العتيقَ ، ونبتغِى من النّارِ عتقًا جاءَ فى سابقِ الوعدِ
فيـا مَنْ قصدْنَا بيتَـه ونبيَّـه بك العَوْذُ ، يامولاَى،من خَيْبَةِ القَصْدِ

---

(١) الأيد : القوة .

(٢) فرس أجرد : قصير الشعر رقيقه . والعيس : الإبل البيض يخالط بياضها شقرة .

(٤٧٨)

وقال من قصيدة تقدمت[١] :

أما رأوْا تقلُّبَ الدنيـا بِنَـا ... وفتكَها بمَنْ إليهَـا أخْـلَدَا[٢]
كم نَسَفَتْ أيدِى الخطوب جَبَلاً ... وصيرَتْ لُجَّـةَ بَحْرٍ ثَمَـداً[٣]
وكم أعَادَتْ ذَا ثَرَاء مُعْـدمًا ... وذَا قَبِيـلٍ وعَدِيدٍ مُفْـرَدَا
عَلِمْتُ مَا لم يَعْلَمُوا ، ونَظَرَتْ ... عَيْنَاى دَهْرِى مَصْدَرًا ومَوْرِدَا
فمـا رأيتُ غيرَ ظِـلٍّ زائِلٍ ... كلٌّ يَمُـدُّ نَحْـوَهُ، جَهْلاً، يَدَا

(٤٧٩)

وقال[٤] :

مَثُوبَةُ الفَـاقِدِ عَن فقـدِهِ ... بِصَبْرِه أنْفَعُ من وَجْـدِه
يَبْكِيه من حُزْنٍ عليه ، فهلْ ... يطمعُ فى التَّخليدِ مِن بعـدِهِ
ما حيلةُ النّاسِ؟!وهلْ من يدٍ ... لهمْ بدفعِ الموتِ أو صَدِّهِ
وُرُودُهُ لابدَّ منـهُ ، فلِمْ[٥]. ... تُنْكِرُ ما لا بدَّ مِن وِرْدِهِ[٦]
سِهامُهُ لم يَسْتَـطِعْ ردَّهَا ... داودُ بالمُحْكَمِ من سَرْدِه

(١) أول القصيدة : أتهم فيكم لائمى وأنجدا ... وما أفاد سلوة إذ فندا! ... راجع ص ٦٦ .

(٢) أخلد إليه : مال .

(٣) الثمد : الماء القليل .

(٤) رويت هذه القصيدة فى خريدة القصر ١ • ١٠٤ .

(٥) رواية الخريدة "فما".

(٦) ينظر فيه إلى قول المتنبي : نحن بنو الموتى، فما بالنا ... نعاف ما لابد من ورده

ولا سليمانُ ابنُـــه ردَّهَا بمُلْكِه والحشدِ من جُنْـده
عدلٌ تساوَى الخلقُ فيه ، فما يُمَـيِّزُ المالكُ عن عبدِه
كلٌّ له حَدٌّ ، إذا ما انتهى إليـــه وافاه على حَدِّه
تجمعُنا الأرضُ، فكلُّ[1] امرئ فى لَحْده كالطِّفلِ فى مَهْدِه
أمَا ترى وُرَّادنَا[2] عَرَّسُوا[3] بمنزلٍ دانٍ على بُعْـــده
تبوَّءُوا الأرضَ ، ولم يُخبِروا عن حَرِّ مَثْوَاهُم ولا بَرْدِه
لِحَادِثٍ أسكتَهم أمسكُوا عن ابتـــداء القولِ أو رَدِّه
لو نطَقُوا قالُوا : التُّقَى خيرُما تزوَّدَ المرءُ إلى لَحْـــدِه
فارجِعْ إلى اللهِ ، وثِقْ بالذى وَافاكَ فى الصَّادِقِ من وَعْدِه
للصَّابرينَ الأجرُ،والأمْن مِنْ عَذابِهِ ، والفوزُ فى خُلْدِه

(٤٨٠)

وقال :

تبارَكَ اسمُكَ ، كم من آيةٍ شهِدَتْ بأنَّكَ الواحدُ المستعلِى الصَّمَدُ
مايصبغ الأسودَ الغِربيبَ غيرُك مُبْـــيَضًّا ، ولا يتعاطَى صِبغَه أَحَدُ

---

(١) فى الخريدة "وكل" .
(٢) فى المصدر نفسه " أسلافنا " .
(٣) عرّس القوم فى المنزل : إذا نزلوا .

قافيـــة الراء

(٤٨١)

وكَتَب على حائِط دارٍ بصور[1] :

اخذَرْ من الدُّنيـا ، ولَا   تَغْتَرَّ بالعمُـــرِ القَصيرْ
وانظُرْ إلى آثارِ مَنْ   صَرَعَتْه منَّـا بالغُرُور
عَمَرُوا ، وشادُوا ما ترا   هُ : من المنازِلِ والقصور
وتحوَّلُوا من بعد سُكْـــنَاها إلى سُكْنَى القبور

(٤٨٢)

وقال :

لا تَغْتَبِط بسرورِ دنـ   ـيَا ، ما يدومُ بهـا سُرُورُ
وكذاكَ لا تَجْزَع لِحَـا   دِثَةٍ تَضيقُ بهـا الصُّدورُ
بجميعُ ما فيـــهِ الأَنَا   مُ ، أَلَيْسَ آخِرَه القبورُ

(٤٨٣)

وقال :

أَرَى العينَ تَستحلِي الكرَى ،وأَمَامَها   كَرًى ليس تَقضيه إلى داعى الحشْرِ
وليس ينَـامُ الخائفون ، فمالَهَـا   تنَـامُ على عُظْمِ المخافةِ والذُّعْرِ

---

(١) روى هذا الشعر فى كتاب الروضتين ١ : ١٢٧ ، وقد ذكر أن أسامة كتب هذا الشعر بمدينة صور حين دخل دار ابن أبى عقيل محمد بن عبد الله بن عياض صاحب صور ، فرآها تهدمت ، وتغير زخرفها ، فكتب هذه الأبيات على لوح من رخام .

(٤٨٤)

وقال :

دنيـاىَ ناشِزةٌ[1] ، فإن فارقتُهـا طوعاً ، وإلا فارقَتْنِي كـارِهَا
إنَّا لَنُنْكِر ســـوءَ عاقبة الورَى فيهـا ، ونَهْوَاها على إنكـارِها
كلٌّ بهـا كَلِفٌ ، ومن يزهدْ يكنْ فى زُهْـــده متكلِّفاً مُتَكَارِها
أذْكَرتُ نَفْسِى مَصْرَع الآباءِ منْ قَبْلِي ، فَمَـا أصْغَتْ إلى إذْكَارِها
وعجِبْتُ منها ، كَيْفَ لم يَجْرِ الذِى خُلِقَتْ له يَوْمًا عَلى أفْـكَارِها
والمَوتُ إن لم يأتِ فى إمسائهـا وَافَى مع الإصْباح فى إبْكَارِها
وأمَامَهـا السّفرُ البَعيدُ ، وقَطْعُه بِالْـبِرِّ ، لا بِقُرُومِها[1] و بِكَارِها[2]
والدّهرُ يَطْرُقُ بالخطوبِ ، ومالَنَـا بعَوانِهـا[3] أَيْدٌ ، ولا أبْكارِها
والتُّربُ أوكـارُ الأنامِ ، وكأنَّـا كالطّير ، رائحةً إلى أوْكارِها

(٢٨٥)

وقال ، وكتبها على حائطِ مسجد سَبْرِينَ ، بظاهرِ مدينة حلب[4]

لك الحمدُ يا مولاىَ ، كمْ لكَ منّةً علَّى ، وفضلًا[5] لا يقومُ به شُكْرِى
نزلت بهذا المسجدِ العـامَ قافلاً من الغَزْوِ ، موفورَ النّصيب من الأجرِ

---

(١) نشزت المرأة : استعصت على زوجها .

(١) القرم : بالفتح الفحل ، وجمعه قروم .

(٢) البكرة بفتح وسكون و يحرك : الجماعة الفتية من الإبل ج بكار .

(٣) العوان من النساء : من كان لها زوج . والأيد : الشدة والقوة .

(٤) روى هذا الشعر فى الروضتين ١ : ٢٧٠ ، وقد كتبها أسامة سنة ٥٥٧ هـ .

(٥) هذه رواية الأصل وفى الروضتين "وفضل" .

ومنه رحلتُ العيسَ فى عامىَ الّذى مضَى نحوَ بيتِ اللهِ ذى الرّكن والحِجْر
فأدّيتُ مفروضِى، وأسقطتُ ثِقْلَ ما تحمَّلتُ من وِزرِ السِّنينَ على ظَهرى

(٤٨٦)

وقال :

أيُّها الظّالمُ ، مهلاً أنتَ بالحاكمِ غِرّ
كلُّ ما استعذَبْتَ منْ جَوْرك تعذيبٌ وجَمْرُ
ليس يلقَى دعوةَ المظلومِ دونَ اللهِ سِتْرُ
نَخفِ اللهَ ، فما يَخْفَى عَلَيْه منهُ سِرّ
يجمعُ الظّالمَ والمَظلومَ بعد الموتِ حَشْرُ
حيثُ لا يَمْنَعُ سُلْطَانٌ ، ولا يُسْمَعُ عُذْرُ
أوَ مَا ينهاكَ عن ظُلمِك موتٌ ، ثمّ قَبْرُ
بعضُ ما فيه من الأهوالِ فيه لكَ زَجْرُ

قافية الطاء

(٤٨٧)

وقال :

النّاسُ كالطّيرِ، والدّنيا شِباكُهمُ وهُمْ بها بَيْنَ ركّاضٍ ومُختَبِطِ (١)
والموتُ قَنّاصُهم، يأتِى على مَهَلٍ يُهْلِكهم بَيْنَ مَذْبوحٍ ومُعْتَبَطِ (٢)

(١) الخبط ـ السير على غير هدى .
(٢) اعتبط الذبيحة : نحرها من غير علة ، وهى سمينة فتية .

وقـــد شُغلنا بدُنيـانا وزُخْرفِها   فالخلقُ ما بين مَحزونٍ ومُغتبِط
هـــذا يُسرُّ بحـالٍ لا تدومُ ، وذا   يبكِى على الفَوتِ من دنياهُ والفَرَط
وليس يَسوَى[1] الذى نالَ الملوكُ من الدّ   نيـا ، فدَعْ غيرَهُم ، كفًّا من العَبَط[2]

(٤٨٨)

وقال :

ما زلتُ فى غِبطةِ عيشِى عالِمًا   أن سيزُولُ بالهموم ما غَبَطْ[3]
وأنَّ صرْفَ الدّهرِ يأتى بالّذِى   ساء اعتيادًا ، وبما سرَّ غَلَطْ
بينـا الفتَى تعـــلُو به جُدودُه   إذْ أسلَمَتْـــهُ للرّزايا ، فهَبطْ
حتَّى يرِقَّ حاســـدٌ لحـاله   من بعد ما نافَس فيهـا ، وغَبَطْ[4]

قافية العين

(٤٨٩)

وقال :

مَن مبلغُ المعترِّ[5] والقَانِع   وابنِ السَّبيلِ النَّـازحِ النَّـازعِ[6]
أنَّ النَّدى قدمات . فاستعصِمُوا   باليأس . من دَانٍ . ومن شَاسِع

---

(١) يسوى : يساوى . (٢) العبط : البعر اليابس القديم .

(٣) غبطَ : سر . والغبطة : النعمة والسرور .

(٤) غبط هنا بمعنى حسد ، يقال غبط الرجل يغبطه غبطا وغبطة : حسده .

(٥) المعتر : الضيف الزائر ، والمتعرض للسؤال من غير طلب . (٦) النازع : المشتا

لا يبذُلَنْ ذُو فَاقَةٍ وجهَه ... لذِى ثراءٍ باخلٍ بَاخِعِ[1]
ما يظفَرُ الرَّاجِى ندَى كَفِّه ... بغيرِ ذُلِّ الخاشعِ الخاضِعِ
هل ينفعُ الظامِى إذا ما طَمَا ... أُجَاجُ بحرٍ ليسَ بالنَّاقِعِ[2]
لله درُّ اليأسِ من نَاصحٍ ... ليس بِغَــرَّارٍ ، ولا خَادِعِ
ولا سَقَى الأطماعَ صوبُ الحَيَا ... فإنَّهـا مَهلَــكَةُ الطَّامِعِ
لا ترجُوَنْ خَاقاً ، فكلُّ الورَى ... يقبضُ كَفَّ المانِــعِ الجَامِعِ
وما حوَتْ أيديهِمُ فَهـــو فى ... مثلِ لَهَاةِ[3] الأسَــدِ الجَائعِ
قـــد سَمِعُوا بالجُودِ ، لكنَّه ... لبخلِهم ما لَذَّ للسَّامِعِ
وكلُّهُمْ إنْ أنت كشَّفتَهم ... مثلُ سرابِ القِيعَةِ[4] اللاَّمِعِ
فدعْهُمُ ، واطلُبْ من اللهِ ما ... ضَنُّوا به : من فضله الوَاسِعِ
فَمَا لِمَا يقطَعُ من وَاصِلٍ ... ولا لِمَا يوُصِلُ من قَاطِعِ
قد قَسَّمَ الأرزاقَ بين الورَى ... فى مُتعَبٍ سَاعٍ ، وفى وَادِعِ
كلُّهُمُ يأتيــهِ من رِزقه ... كفايةٌ ، لو كانَ بالقَانِعِ
لكنَّهُم من حِرصِهم قد عَمُوا ... عن الطَّرِيق المَهْيَعِ[5] الشَّارِعِ
لو أيقَنُــوا أنَّ لهم رازِقاً ... ليس لِما يُعطِيه مِن مَانِعِ
ولا لِما يرفَعُ من خافِضٍ ... ولا لِما يخفِضُ من رافِعِ
ما طلَبوا من غير مُعْطٍ ، ولا ... دَعَوْا إذا اضْطُرُّوا سوى السَّامِعِ

---

(١) الباخع : المبالغ ، يريد المفرط فى البخل .

(٢) الناقع : القاطع للعطش .

(٣) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق .

(٤) القاع : أرض سهلة مطمئنة انفرجت عنها الجبال والآكام ، ج قيع ، وقيعة وقيعان .

(٥) المهيع : البين .

(٤٩٠)

وقال :

أيُّها الغافِلُ ، كم هَذَا الهجوعُ ... أعانَ الدَّاعِى ، فهل أنت سَمِيعُ
أنت عَمَّا هو آتٍ غافـــلُ ... وكأَنْ قد فاجأَ الخطبُ الفَظِيعُ
نحن فرْعٌ لأصولٍ ذَهبتْ ... كم تُرى من بَعدها تبقى الفُروعُ
وزُروعٌ للمنـايا ، حُصِدَتْ ... بيدَيْها قبلَنَـا منا زُروعُ
بادرِ الخوفَ ، وقَدِّم صالحًا ... ما لِمنَ مات إلى الدُّنيا رجُوعُ
نحن سَفْرٌ سارَمِنَّا سلَفٌ ... وعَلى آثارِهم يمَضِى الجميعُ
وإلى المورد ميعـادُهُمُ ... يلتقِى فيـــه بطِىٌّ وسريعُ
أُمُنَا الدُّنيَا رَقوبٌ[1]، يستوِى ... عندَها فى الفقد كهلٌ ورضيعُ
مارأَيْنَا ثاكلاً مِن قبْلهـا ... مالَها فى إِثْرِ مفقودٍ دُموعُ
كلُّنَا منها ، ومنَّا كلُّهـا ... فهىَ لا تشبَعُ أَوْ نحنُ صَرِيعُ
بئست الأمُّ رمَتْ أولادَها ... برزَايَاها ، ألا بئسَ الصَّنيعُ
ما هنـاهُم فوقَها نوَمُهـــمُ ... فهمُ فيها إلى الحشرِ هُجوعُ
أبداً تجفُـــو علينَا ، ولنَـا ... نحوَهَا الدّهرَ حنينٌ ونزوعُ
هى ليـلَى ، والورَى أجمعهُم ... قَيسُها ، كلٌّ بهـا صبٌّ وَلُوعُ
جِدَّ يا مطلوبُ ، من جدَّ نجَا ... إنّ ذَا الطَّالبَ مدراكٌ تبوعُ

---

١) رقوب : لا يبقى لها ولد .

ليس يُنْجِى الجحفلُ الجرَّارُ من يدهِ الطُّولى ، ولا الحصنُ المنيعُ
يأخذُ السلطانَ ذَا الجمعِ ، فَلا يدفعُ السلطانُ عنه ، والجموعُ
ليسَ يرعَى حرمَةَ الجارِ، ولا يُنقذُ الشَّاسِعَ فى البُعدِ الشُّسوعُ[1]
ما مع السَّبعينَ تسويفٌ ، فلا يخدعَنْكَ الأملُ الواهى الخَدوعُ
قد تحمَّلتَ على ضعفِك من ثِقْلِ أوزارِك مالا تَستطيعُ
وتَقَصَّتْ[2] عنك أيامُ الصِّبا وعلى مفرِقك الشَّيبُ الشَّنيعُ
ثمّ أفضَتْ مدّةُ الشَّيبِ إلى هرمٍ يُعقِبُه الموتُ الذَّريعُ
صوَّحَ[3] المرعَى ، فماذا ترتجى بعد ما صوَّح مرعَاك المَرِيعُ[4]
هل ترَى إلّا هشيماً ذاويا تجتويه[5] العينُ إن ولَّى الربيعُ

قافية القاف

(٤٩١)

وقال ، وقد تتابعت الزلازل بحماة[6] .

أيها الغَافلُونَ عن سَكرةِ المو تِ ،وإذْ لا يسوغُ فى الحلقِ ريقُ
كَمْ إلى كَمْ هــذا التَّشاغُلُ والغفْــلةُ ، حارَ السَّارِى ، وضلَّ الطَّريقُ
إنَّما هزَّتِ الزّلازلُ هذى الأ رضَ ، بالغافلين ، كى يَستَفيقُوا

(١) الشسوع : البعد . (٢) من القصو وهو البعد . (٣) صوّح : جف .
(٤) المريع : الخصيب . (٥) اجتواه : كرهه .
(٦) كان ابتداء هذه الزلازل ، كما فى الروضتين (١ : ١٠٥) فى شهر رجب سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وهلك بها نحو من عشرة آلاف نسمة .

قافيــة الـكاف

(٤٩٢)

وقال :

سلوتُ عن صَبوَاتٍ كنتُ ذَا شَغَفٍ　　بهـا ، ومِلتُ إلى الإخباتِ[١] والنُّسُكِ
لـكنْ لِقلبيَ مِن تَذكارِهَا قَلَقٌ　　ونزوَةٌ ، كاختبـاطِ الطَّيرِ فى الشَّرَكِ
هذى عقابيلُ[٢] داءٍ ، كانَ يمطُلُنى　　ولم أزَلْ مُشْفِيًا منـــه على الهُلُكِ
حتّى إذا الشّيبُ ردَّانِى تصرَّمَ ذا　　كَ الدّاءُ عن شائبِ الفودَيْنِ مُحتَنَكِ[٣]

قافيــة اللام

(٤٩٣)

وقال :

أرى الموتَ يستقرِى[٤] النفوسَ، ولاأرى　　سِوَى مانعٍ ما فى يدَيه بخيــلِ
فيــا عجبًا للبـاخلينَ ، وإنّمـا　　قليلُهُـــمُ للإرثِ بعـــدَ قليل

---

(١) الإخبات : الخضوع لله والخشوع .　(٢) العقابيل : بقايا العلة .

(٣) حنكته السن وحنكته الأمور : عاد مجربا فاحتنك ، ورجل محتنك ومحنك .

(٤) يستقرى يتتبع .

قافية الميم

(٤٩٤)

وقال :

إذا ما عَرا مَالا أطيقُ دفَاعَه ... وأرْمَضَنِي[١] الفكرُ المسهِّد[٢] والهَمُّ
دعوتُ الذى نادَاه مُوسى لدفع ما ... يحَاذِرُ من فِرعونَ، فانفرَق اليَمُّ[٣]
وناديتُ مَن نَاداه ذُو النُّونِ واثِقاً ... به فى ظلامِ البَحر، فانكشَفَ الغَمُّ[٤]

(٤٩٥)

وقال من قصيدة تقدمت[٥] :

فَليس بَعد الموتِ دَارٌ سِوَى ... جنَّةِ عَــدنٍ ، أو لَظًا تَضرَمُ[٦]
والموعدُ الحشرُ، ونُجزَى عن الأَ ... عمــالِ ، والغبنُ لمن يَندَمُ
ويُنْصَفُ المظلومُ من خَصمِه ... ويَستوى السُّلطانُ والمُعدِمُ
ويشخَصُ الخلقُ إلى حَاكمٍ ... يحكُمُ فيهم بالَّذى يَعــلَمُ
ولِليَــالِى واعظٌ صامتٌ ... يُسـمعنا ، لو أنَّنـا نَفهـمُ
والنَّاسُ فى الدُّنيـا نيامٌ ، وما ... أسرعَ ما يستيقظُ النُّــوَّمُ
ويقدَم الخلقُ على وِزرِ ما ... تَقــلَّدوا أو أُجرِ ما قَدَّمُوا

---

(١) أرمضه : أوجعه وأحرقه .   (٢) المسهد : المؤرق .
(٣) راجع القرآن الكريم سورة الشعراء، الآية ٦٣ .   (٤) راجع القرآن الكريم سورة الأنبياء، الآية ٨٧ و ٨٨ .
(٥) لعل أول القصيدة قوله ، ما أنصفوا فى الحب إذ حكموا... راجع القطعة (٩١) ص ٤٤ .
ثم انتقل من الغزل إلى المدح فقال : ومر إلى بحر خضم له... راجع القطعة (٣١٨) ص ١٩٣ .
(٦) ضرم كفرح . اشتد حره .

(٤٩٦)

وقال فى الزّلازل المتتابعة بحماة[1] :

نِمنَا عن الموت والمعَاد ، فأصبحْـــناَ نظُنُّ اليقــينَ أحلامَا
فحرّكتنا هذى الزّلازلُ أنْ تيقّظُوا ، كَم ينَامُ من نَامَا

(٤٩٧)

وقال .

فوّض الأمرَ رَاضيًا جفّ بالكائن القلَمَ
لَيس فى الرّزقِ حيلةٌ إنّما الرِّزقُ بالقِسَمْ
دلّ رزقُ الضعيفِ وهـــو كَلَحمٍ على وضَمْ
وافتقارُ القوىّ ترهَــبُه الأُسدُ فى الأجَمْ
أنّ للخلقِ خالِقاً لا مَردَّ لِما حكَمْ

(٤٩٨)

وقال .

أوبقْتَ[2] نفسَك يا ظلو مُ بمَا احتقَبتَ[3] من المَظَالِمْ
أظنَنتَ أنّ المـالَ لا يَفنَى ، وأنّ الملكَ دائِمْ
هيهـاتَ ، أنتَ وما جمعـــتَ كِلاكما أحلامُ نائمْ

---

(١) انظر ما سبق ص ٢٨٧ . (٢) أوبق : أهلك . (٣) احتقب : اذخر .

تَفنى ، ويَفنى ، والَّذى يَبقى الخطايا والمآثمْ
وغدًا يُناقشُك الحسابَ على الحقيرِ مِن الجرائمْ
ملكٌ تُناجيه القلوبُ من الذُّنوب بِما تُكاتِمْ
عدلُ القضاء ، بكلِّ ما تُخفِي صُدورُ الخلقِ عالِمْ .

(٤٩٩)

وقال :

مَاذا الوقوفُ على دارٍ بِذِى سَلَمِ عجماءَ ، أو قد عراها عارضُ البَكَمِ
أحالهَا الدهرُ عما كنتَ تَعهَدُه وغَال مستوطِنيها غائلُ الأُمَمِ
حتى لقد أظلمتْ من بَعدِهم، ولقد غَنُوا[1] بها ، وهمُ الأقمارُ فى الظُّلَمِ
بلُوا كما بَلَيتْ آثارُهم ، وَلَكَمْ أبلى ديارًا وأهلًا سالفُ القِدَمِ
أملى الزّمانُ لهم حيناً ، وغرَّهم ما خُوِّلوه من الدنيا ، فلم يَدُمِ[2]
مضَوْا،وما استصحبُوا مالا ولا نعَماً ونُوقِشوا عن حساب المالِ والنِّعَمِ
لم يَحصُلوا حِين وافَاهم حِمامُهمُ من كلِّ ما حَصّلوا إلا علَى النَّدمِ
وصبوةُ النّاسِ بِالدُّنيا وشُغلُهم عما سيبَقى بِما يَفنى من اللَّمَمِ[3]

قافية النون

(٥٠٠)

وقال :

لا تَغبِطنْ أهلَ بيتٍ سَرَّهمْ زمنٌ فسوفَ يَطرُقُهم بالهمِّ والحزَنِ
يُعيرُهم كلَّ دُنياهم ، ويَنهَبُ ما أعارَهم بيد الآفاتِ والمحَنِ

---

(١) غنى بالمكان كرضى : أقام به .
(٢) أملى له فى غيه : أطال وأمهل . وخولوه : أعطوه . (٣) اللم : الجنون .

حتى يَرُوحوا بِلا شيء ، كما خُلِقوا　　كأنَّ ما خُوِّلوه أمسِ لم يكنِ
لا يصحبُ المرءَ مما كان يملكه　　فى ظُلمةِ اللّحدِ إلّا خِرقةُ الكفن
يُستنزَعُ المالُ منه، ثم يُسألُ عن　　جميعِه ، يالها من حسرة الغَبَنِ[1]

قافية الهاء

(٥٠١)

وقال[2] :

أيها المغرورُ ، مهلاً　　بلغَ العمرُ مداهُ
كَمْ عسَى من جاوزَ السّبعينَ يبقى ، كم عساهُ
أنَسيتَ اللهَ[3] ، أم أمّنكَ اللهُ لَظاهُ
[تظلمُ][4] الناسَ لمن ترجوه، أو تخشَى سُطاهُ
أنتَ كالتَّنُّور : يَصلَى النّارَ فى نفعِ سِواهُ

(٥٠٢)

وقال :

أُفٍّ للدُّنيا ، فما أوبا[5] جَنَاها　　لَيس يخلُو مَنْ رآها مِنْ أذاها
خَدعَتنَا بأباطيلِ المُنَى　　فارتَكَسْنا[6] فِى هوانا لهواها
واستمالَتْنا بِوعدٍ كاذبٍ　　فتمسَّكنا بِواهٍ مِن عُراها

---

(١) غبنه غبنا ويحرك : خدعه .
(٢) رويت هذه القطعة فى خريدة القصر ١ : ١٠٥ .
(٣) فى الخريدة « أنسيت الموت » .
(٤) سقط بالأصل والتكملة من الخريدة .
(٥) وبئت الأرض : كثر فيها المرض .
(٦) ارتكس : انتكس ووقع .

وعدَتْنَا باللُّهى[1] لاَهيةً فاشتَغلنا بتقَاضِينا لُهَاهَا
وهى إن جادَ بنَزْرٍ يومُها غَدُها مسترجِعٌ نَزْرَ جَدَاهَا[2]
بِئست الأمُ رَقُوبٌ[3] أكثَرتْ وُلدَها ، ثم رمَتْهم بِقِلاَهَا[4]
وغدًا تنقُلُنَا منها إلى مُظلِمِ الأرجاءِ ضنكٍ[5] من ثَرَاهَا
والذى يتبعُنَا من سُحتِها[6] تَبعاتٌ مُوبقات[7] مِنْ شَذَاهَا[8]
وتحوزُ المالَ بالإرثِ ، ومَا حازَت الميراثَ من أمٍّ سِواهَا
فإذا اللّهُ رعَى والدةً ذاتَ برٍّ وحنوٍّ ، لا رَعاهَا
أوردتْنا النَّارَ ، لا مأوَى لنا من لَظَاها ، ويحَ من يَصلَى لَظَاهَا
أمرَتنا بالمعَاصى ، فإذا وفَّق اللهُ امرأً منَّا عَصاهَا
آه من تفريطِنا ، شُغلاً بها عن فَعال الخير والطَّاعة ، آهَا

---

(١) اللُّهى : العطايا . (٢) الجدا : العطية . (٣) الرقوب : التى لا يبق لها ولد .
(٤) القلى : البغض . (٥) الضنك : الضيق .
(٦) السحت : ما خبث من المكاسب فلزم عنه العار . (٧) موبقات : مهلكات .
(٨) الشذى : الأذى . (٩) صلى النار : قاسى حرها . واللظى : لهب النار .

باب المراثى

قافية البـاء

(٥٠٣)

قال :

قَد كنتُ أسمَعُ ، لـكن خِلتُه مثلاً: أنّ اللّيالِي يَصِدْن الصَّقَر بالحَرَبِ[١]
وأن أَيدِيَها شَلَّتْ ، ولا انبسطَت إذا ضَربنَ كَسرْن النّبعَ[٢] بالغَرَبِ[٣]
حتّى رأيتُ النّعامَ الرُّبدَ[٤] قد قتلتَ اسْدَ العرين ، فيا لَلنَّـاس لِلعجَبِ
كأنّ سقبَ[٥] المنَـايا وسْطَ جمعِهمْ رغَا ، فمَـاتُوا جميعًا جيرةَ الصَّقَبِ[٦]
لم تُغنِ نجدتُهم[٧] ، إذ حانَ[٨] يَومُهمُ عنهم ، ولم تَحمِهم من سطوةِ النُّوَبِ

(٥٠٤)

وقال ، وكتب بها من مصرَ إلى أخيه عزّ الدّولة ، وقد ماتَت له بنتٌ بشَيزر ، وهو غائب عنها بدمشق ، وأعمامُها وأخواها غُيَّبٌ :

وَيْحَ الغَريبــةِ ، والدِّيارُ دِيارُها لم ترتَحِل عنهـا ، ولم تَتَغَــرَّبِ
ماتت غريبةَ وحدةٍ : من تِربِهـا وشقيقِها ، ومن العُمومةِ، والأَبِ
فهى الوحيـدةُ، والأقاربُ حولَهَـا وهى البعيــدةُ فى المحلِّ الأقــربِ
فاذا تضرَّمَ[٩] فى الجـوانِحِ ذكرُها قال الأَسَى : باللهِ يا عينُ اسكُبى

(١) الحرب محركة : ذكر الحبارى . والشطر مقتبس من المتنبي .
(٢) النبع : شجر للقسى والسهام ينبت فى قلة الجبل .
(٣) الغرب بالتحريك : شجر . وهو مقتبس من المتنبي أيضا .
(٤) الربدة بالضم : لون إلى الغبرة .
(٥) السقب : ولد الناقة .
(٦) الصقب : القرب .
(٧) النجدة : الشجاعة .
(٨) حان : جاء وقتهم .
(٩) تضرمت النار : اشتعلت .

(٥٠٥)

وقال فى ولده أبى بكرٍ ، وقد توفِّى صغيرا :

لَهْفَ نَفسى لِهــلالٍ طالعٍ ... ما استوى فى أُفقه حتَّى غَرَبْ
لو رأى ما حلَّ بِى مِن بعدِهِ ... مِن هُمومٍ غَشِيتْنَى وكُرَبْ
لَبكَى لى تحتَ أطباقِ الثرى ... وبكاءُ الميتِ للحىِّ عَجَبْ
أنا ميتٌ مثلُه ، لكنَّه ... مستريحٌ ، ومماتى فى تَعَبْ

(٥٠٦)

وقال :

يا نفسُ ، أينَ جميلُ صبـ ... ـرِك حينَ تطرقُك الخُطوبُ
أينَ احتمالُكِ ما تكا ... دُ الرَّاسياتُ لَه تَذُوبُ
وثَباتُ جَأْشِكِ حين تَضــ ... ـطربُ الجَوانحُ والقُلوبُ
ماذا دَهَاكِ ، إلى متَى ... هــذا التَّأسُّفُ والنَّحيبُ
كيف استزَلَّكِ[١] بَعد صد ... قِ يَقينِك الأملُ الكَذوبُ
أرَجَوتِ أن سيَرُدُّ مَن ... غال الرَّدى دَمعٌ سَكُوبُ
أم خِلتِ أنَّ نوائبَ الدُّ ... نيا لغيرِكِ لا تَنوبُ
هيهاتَ ، كلُّ الخلقِ مِن ... نكَباتِها لهُمُ نَصيبُ
وبكلِّ قَلبٍ من حَوا ... دِثِها ، وأسهُمِها نُدوبُ[٢]
من ذَا الذى يَبقى على ... مَرِّ الزَّمان له حَبيبُ

(١) زلت قدمه : زلقت . واستزله غيره .
(٢) ندوب : جمع ندبة ، وهى أثر الجرح الباقى على الجلد .

لكن يُسلّي النفسَ أنّ لحاقَنا بهمُ قريبُ
وإليهمُ ، من بعدِ غَيْبتِهمْ، وإن طالتْ ، نئُوبُ

(٥٠٧)

ومن قصيدة الملك الصالح المتقدّمة[١] :

لَهفَ نَفسى عَلى ديارٍ من السُّكّان أقوتْ[٢]، فليسَ فيها عَرِيبُ[٣]
ولَكَمْ حلّها ، فأنْسَته أوطانَ صِباهُ والأهلَ يوماً ، غَرِيبُ
فاحتَسِب ما أصابَ قومَك مجدَ الدّين ، واصبِر ، فالحادثاتُ ضُروبُ
هكذَا الدّهرُ: حكمُه الجورُ،والقصدُ ، وفيه المكْرُوهُ ، والمحبوبُ
إن تخَصَّصْكمُ نوائبُ ما زَالَت لكمُ دون مَن سِواكم تَنُوبُ
فكذَاك القَناةُ : يُكسَرُ يوم الرّوعِ منها صدرٌ ، وتَبقى كُعوبُ

قافية التاء

(٥٠٨)

وقال :

يا دهرُ ، كم هذَا التّفرُّقُ ، والتّغرُّبُ ، والشّتاتُ
ابدًا على سيرٍ كأَنّى الشّمسُ،لَيس لها ثَباتُ
متقلقلُ العزَماتِ كالمطلوبِ أفرقَهُ[٤] البيَاتُ
ناءٍ عن الأهلِينَ والأوطانِ ،والأترابُ[٥] ماتُوا

---

(١) راجع ص ٧ و١٥٣ و ١٦٤ .
(٢) أقوت الدار : خلت .
(٣) ما فيها عريب : ما فيها أحد .
(٤) أفرقه : أفزعه .
(٥) الأتراب : جمع ترب ، وهو من ولد معك .

وَلَبِئْسَ عيشُ المرء فَا رقَه الأحِبَّةُ واللَّذَاتُ
فإلامَ أشــقَى بالبقَا ء ، وكَمْ تُعذِّبنى الحياةُ

قافية الراء

(٥٠٩)

وقال فى ولده أبى بكر :

إلى اللهِ أشكُو رَوعتِي[1] ورزِيَّتِي وحُرقةَ أحشائِي لفقــد أبى بكرِ
خَلا نَاظِرِى منه ، وكان سوادَه ولم يَخْلُ من حزنى ووجدى به صَدْرى
خَشِيتُ عليه اليُتمَ ، لـكنَّ ثُكْلَه ولوعَتَه لم يخطُرَا لى على فِكْرِ
فياليتَه لاقَى الذى كنتُ أختَشى عليه ، وأنِّى دُونَه صاحبُ القَبْرِ
فما فى حياتِى بعدَه لِىَ رَاحةٌ فيا طولَ حُزنى إن تطاولَ بى عُمرِى
ولم تُسْلِنِى الأيامُ عنه ، وإنَّما سُلُوِّى بما أرجُو من الأجْرِ فى الصَّبرِ

(٥١٠)

وقال فيه :

أعاتِبُ فيكَ الدّهرَ ، لو أعتبَ[2] الدّهرُ وأستنجِدُ الصَّبرَ الجميلَ ، ولا صَبرُ
وأسألُ عن نَهجِ السُّلُوِّ ، وقد بَدَا لعينَىَّ ، إلَّا أنَّ مسلَكه وعرُ
وكيف التَّسلِّى ، والحوادثُ جمَّةٌ إذا ما انقضَى أمرٌ يسوءُ أتى أمرُ
رمَتْنِى فى عشرِ الثَّمانِينَ نـكبةٌ من الثُّكل يُوهِى حملُها مَن له عَشْرُ
على حينَ أفنَى الدّهرُ قومى ، ولم تَزَلْ لهم ذِروةُ العلياءِ والعدَدُ الدَّثْرُ[3]

(١) الروعة : الفزعة .
(٢) أعتب : أعطى العتبى ، وهى الرضا
(٣) الدثر : الكثير من كل شىء .

إذا حاربُوا فالأُسدُ تحمى عرينَها ... وإن سالمُوا كان التّبتُّلُ والذِّكرُ
تُبيحُ وتَحمِى منذ كانت سيوفُهم : ... يُباحُ بها ثَغرٌ ، ويُحمى بها ثَغرُ
مَضَوْا ، وانطوَتْ دُنياهمُ، وتَصرَّمتْ ... كأنَّهمُ ما عُمِّرُوا ، ولهَا نَشرُ
فلم يبقَ إلّا ذكرُهم ، وتأسُّفِى ... عليهم ، ولَن يبقى التأسُّفُ ، والذِّكرُ
وأصبحتُ لا آلٌ يُلبُّون دعوتى ... ولا وطنٌ آوى إليه ، ولا وفْرُ
كأنِّىَ من غير التُّرابِ ، فليسَ لى ... من الأرضِ ذاتِ العرضِ دُونَ الورى شِبرُ
رُزِئتُ أبَا بكرٍ ، على شَغَفِى به ... فيا لَهفتَا ، ما ذا جَنى الحادثُ البِكْرُ
لِسبعٍ مَضتْ من عُمرِه، غالَه الرَّدىَ ... وكنتُ أُرجِّى أن يطولَ به العُمْرُ
وقلتُ : عتيقٌ من خُطوبِ زمَانِه ... عتيقٌ بهذا يخبرُ الفألُ والزّجْرُ
فعاجلَه قبل التَّمام حِمامُهُ ... ولا عجبٌ ، قد يُخْضَدُ[1] الغُصنُ النَّضْرُ
و يأمرُنِى فيه الأخِلّاءُ بالأُسَى[2] ... وهَيهاتَ ، مالِى بالأُسَى بعده خُبْرُ
يَقولون : كَم هذَا البكاءُ ، ولو بدَا ... ضَميرُ الَّذى بى ، رَقَّ لى ، وبكَى الصّخرُ
وكنتُ أظنّ الدّمعَ يبرِدُ غُلّتِى ... إلى أن بَدا لى أنّ دمعَ الأسى جَمرُ
أبا بكر ، ما وجدى عليك بمنقَضٍ ... طَوالَ اللَّيالى ، ماانقضَى اليومُ والشَّهرُ
أطلتَ علىَّ اللَّيلَ ، حتى كأنَّما ... زَمانىَ ليلٌ كلُّه ، مالهَ فَجرُ
و إنّى لأستَدعِى الكرَى ، وهو نافرٌ ... به من جُفونى أن يُلِمَّ بها ذُعرُ
لعلَّ خيالاً منك يَطرقُ مضجَعى ... فأشكُو إليه ما رَمانِى به الدَّهرُ
تُمثِّلُك الأفكارُ لى كلَّ ليلةٍ ... وتُؤنِسُنى أشباهُكَ الأنجمُ الزُّهرُ

---

(١) خضد العود : كسره .
(٢) جمع أسوة : وهى القدوة .

إذا لجَّ بي شوقٌ أتيتُكَ زائرًا ... فأرجعُ كالمخبولِ دلّهَه السِّحرُ
وما القُربُ من قبرٍ أجَنَّكَ نافعِى ... إذا كانَ فيما بيننا للثرى سِترُ
أقولُ لنفسى ، حينَ جدَّ نزاعُها : ... عليكِ بحُسنِ الصّبرِ ، إنْ أمكَنَ الصَّبرُ
ألسنَا بنى الموتَى ، إليهم مآلُنا ... بلا مِريةٍ ، والفرعُ يجذبُهُ النَّجرُ[1]
فنحن كسَفْرٍ عرَّسُوا ، ووراءَهم ... رفاقٌ ، إذا وافَوْهُمُ رحَلَ السَّفْرُ
من الأرضِ أُنشئْنَا ، وفيها مَعادُنَا ... ومنها يكون النَّشْرُ ، والبعثُ والحشْرُ
هى الأمُّ ، لا برٌّ لديها ، وردُّنَا ... إلى بطنها بعد الوِلَادِ هو البِرُّ
ثكولٌ ، ولا دمعٌ لها إثرَ هالكٍ ... وكلُّ رَقوبٍ[2] ثاكلٍ دمعُها هَمْرُ[3]
أضلَّ الورى حبُّ الحياة ، فحازمٌ ... خبيرٌ سواءٌ فى الضَّلالةِ والغِرُّ
فَلا يأمنَنْ غدْرَ الليالِ آمنٌ ... وإن امهلَتْه ، إنَّ إمهالَها خَتْرُ[4]
تُعِيرُ ، وبالقَسرِ العنيفِ ارتجاعُها ... ولا خيرَ فى عاريَةٍ ردُّها القَسرُ
ونحنُ عليها عاكفُونَ ، وليسَ فى ... مواهِبِها عُقبَى تَسُرُّ ، ولا يُسرُ
فما بالُنَا فى سَكرةٍ من طِلابِها ... ومنْ نالَها منَّا يَزيدُ به السُّكرُ
مضَى مَن مضَى مِمَّن حَبته ، فأكثرَتْ ... وراحتُـه من كلِّ ما جَمَعت صِفرُ
وما نَال أيّامَ الحياةِ من الغِنى ... عن[5] الفقر ، فى يوم المَعادِ هو الفقرُ
يُحاسَبُ عن قِطميرِه[6] ونَقيرِه[7] ... ولم يتْبعه منه كُثرٌ ولا نَزرُ

(١) النجر : الأصل كالنجار بكسر النون وضمها .
(٢) الرقوب كصبور : المرأة التى لا يبقى لها ولد أو مات ولدها .
(٣) همر : منهمر .
(٤) الختر : الخديعة .
(٥) فى الأصل (هو) ولعل ما اخترناه أولى .
(٦) القطمير : القشرة الرقيقة التى على النواة بين النواة .
(٧) النقير : النكتة فى ظهر النواة والتمر .

وهذا هو الُخسرُ المبينُ ، فما لنا حراصٌ على أمرٍ عَواقِبــهُ خُسْرُ
وقد كان فى آبائنا زاجرٌ لنا يُبَصِّرُنا ، لو كان يردعُنا الزَّجْرُ
تفانَوْا ، فبطْن الارضِ مِن بعدِ وحشةٍ بهم آهِلٌ مَستأنِسٌ ، وخَلا الظَّهرُ
وقد دَرَستْ آثارُهم وقبـورُهم كما دَرسوا فيها ، فليس لها أُثْرُ[1]
فهل لِيَ فى هَذى المواعِظِ وَاعِظٌ يُبَرِّدُ مايُخفى من الكَمَدِ الصَّدرُ
يَحُثُّ على الصَّبرِ الجميلِ ، فإنَّه يُنالُ به حُسنُ المعوَّضةِ والاَجرُ
ومَن نَزعَت أيدى المنيةِ مِن يَدَى هو الذّخرُ لى ، فى يومِ يَنْفَعُني الذُّخرُ

(٥١١)

وقال فيه :

أزورُ قبرَكَ مشتاقاً ، فيحجُبُني ماهيلَ فوقَك من تُربٍ وأحْجَارِ
فأنْثَنِي ،ودُموعِى مِن جَوَى كَبِدى تَفيضُ، فاعجب لماءٍ فاضَ من نَارِ

قافية الزاى

(٥١٢)

وقال :

تخرَّمَتِ[2] الأيامُ أهلَ مودَّتِي فَنَفْسِىَ عَن أُنْسِ المسرَّاتِ ناشِزُ
وأُفرِدْتُ منهم ، فارتياعِى لِفَقْدِهم كروعةِ ثَكلَى أوجعتْها الجنَائِزُ
بَرَتْهُم كَبَارِى القوسِ، جَذَّالذى انحنى عليها ، إلى أَن نَالها وهى بَارِزُ
فقد أبرزَتْني للحوادث ، لَيس لِى إذا مارَمَتْنِي حاجزٌ أو مُحاجِزُ

---

(١) الأُثر بضم الهمزة : ماء الوجه ورونقه .

(٢) تخرمتهم الأيام : أخذتهم واستأصلتهم .

قافية العين

(٥١٣)

وقال [1] ووصله كتاب بموت صديق :

صَبرِى على فَقد إخوانى وفُرْقتِهمْ غَدْرٌ، وأجملُ بى من صَبرِىَ الجزَعُ
تَقاسَمتْهم نَوىً شطَّت بهم، وردًى فالحىُّ كالميْتِ، ما فى قُربه طَمَعُ
وأصبحَتْ وحشَةُ الغبراء [2] دُونَهم من بعد أُنسِى بهم، والشَّملُ مجتمِعُ
وعشتُ منفرداً منهم، وأقسم ما يكاد مُنفردٌ بالعيشِ ينتفِعُ

(٥١٤)

وقال :

وقفتُ على رسمٍ ببيدَاءَ بلقعٍ [3] خلٍ من النَّادى صَمُوتٍ إذا دعى
نَبتْ عنه عَينى، ثم قال لهَا الهَوى: هى الدَّارُ، فاستمرِى شُئونَكِ [4]، وادمعى
ولا تُنكرى للدَّهرِ إخلاقَ [5] جِدَّةٍ وتَشتيتَ أُلَّافٍ، وإيحاشَ مجمَعِ
فللموتِ سُكَّانُ الديارِ، وللبلَى منَازِلُهم، وشَملُهم للتَّصَدُّعِ
فصبراً فإن عزَّتْ [6] نوائبُ دهرِنا وأحداثُه حُسنَ التَّصبُّرِ فاجزعِ

قافية الفاء

(٥١٥)

وقال فى ولده أبى بكر [7] :

أزورُ قبرَكَ ، والأشجانُ تمنعُنى أن أهتَدى لطريقٍ حينَ أنصرِفُ
فما أرى غيرَ أحجارٍ مُنضَّدَةٍ قد احتوتْك، ومأوَى الدُّرَّة الصدفُ

---

(١) هذه القصيدة مما روى لأسامة فى الخريدة ١ : ١٠٤ .
(٢) الغبراء : الأرض .
(٣) البلقع : الأرض القفر .
(٤) مرى الشىء : استخرجه . والشئون : الدموع .
(٥) أخلق الجديد : أبلاه .
(٦) عزه : غلبه .
(٧) هذه القصيدة مما روى لأسامة فى خريدة القصر ١ : ١٠٥ .

فإنني ، لستُ أدرى أين مُنقلَبى   كأنني حائرٌ[1] فى اللّيلِ مُعتَسِفُ[2]

إن قصّر العمرُ بى عن أن أرى خَلفاً   له ، ففى الأجرِ عنــد اللهِ لى خَلَفُ

أقولُ للنّفسِ إذ جد النّزاعُ بها :   يا نفسُ ويحَكِ ، أين الأهلُ والسّلفُ

أليسَ هذا سبيلَ الخلقِ أجمعِهِــم   وكلُّهــم بورُودِ الموتِ مُعترفُ

كم ذا التّأسُفُ ، أم كم ذا الحنين ، وهل   يردُّ مَن قَد حَواهُ قبرُه الأسفُ

قافيــة الـكاف

(٥١٦)

وقال[3] :

أصبحتُ لا أشكُو الخطوبَ ، وإنّمـا   أشكو زماناً لم يَدع لى مُشتكَى

أفنى أخِلاّنِى وأهـــلَ مودّتى   وأباد إخوانَ الصّفاء وأهلَكا

عاشُوا براحَتِهم ، ومِتُّ لِفقــدهم   فعلىَّ يبكِى ، لا عليهم ، مَن بَكَى

بقيتُ بعــدَهُمُ كأنِّى حائِرٌ   بمفَازَةٍ ، لم يلقَ فيهـا مَسْلَكَا

(٥١٧)

وقال فى ولده أبى بكر :

وسَّع صبرِى عن عتيقِ الإسى[4]   من بَعدِ ما ضاقَ بىَ المَسلَكُ

أسلَمتُه ، إذ لم أجِد لى يداً   بدفعِ من يَطلبُ ما يَملكُ

---

(١) فى الخريدة (خائف) .   (٢) المعتسف : الخابط على غير هدى .

(٣) هذا الشعر روى لأسامة فى خريدة القصر ١ : ١٠٤ .   (٤) الإسى : جمع إسوة وهى القدوة .

عارِيَّةٌ كانت ، وما كلُّ مَا يُعارُ ، يُستَقْنَى[١] ، ويُستَمْلَكُ
أعارَه مُشترِطاً ردَّه والشرطُ ما بينَ الورَى أملَكُ

قافية اللام

(٥١٨)

وقال فيه :

كيفَ أنساكَ يا أبا بكرٍ ، ام كيفَ اصطِبارِى؟ماعنكَ صَبرِى جَميلُ
أنت، حيثُ اتجهتُ، فى أسَوَدَىْ عينِى وقلبِى ، ممثَّلٌ ، لا تزولُ
وعلامَ الأَسَى ؟ ونحن كَسَفْرٍ بعضُنا سائرٌ ، وبعضٌ نُزُولُ
عرَّس الأوّلُون، والآخرالتَّالِى إليهِم عما قليلٍ يئُولُ
وإلى حيثُ عرَّس السَّلفُ الأوَّلُ ميعادُنا ، ومنه القُفُولُ

(٥١٩)

وقال أيضا فيه :

أُحدّثُ عنكَ بالسُّلوانِ نَفسِى وهَل تَسلُو مُوَلَّهَةٌ ثَكولُ
إذا نَاجيتُها بالصَّبرِ حَنَّتْ كَما حَنَّتْ إلى بَوٍّ عَجولُ[٢]
إذا نَظَرتْ إليه أنكَرَتْهُ وتَعطفُهُا الصّبابةُ والغَليلُ
ولى فى الموتِ يأسٌ مُستبينٌ ولكن حَالُ وَجدى لا تَحولُ
أحِنُّ إلى أبى بكرٍ ، ومَا لِى إلى رؤُياهُ فى الدّنيا سبيلُ

(١) القنية بالضم والكسر : ما اكتسب ، الجمع قنى . وقنى المال : اكتسبه .

(٢) البو : جلد الحوار يحشى تبنا فيقرب من أم الفصيل فتعطف عليه فتدر . والعجول : الواله من الإبل .

فيا للهَ من يأسٍ مُبينٍ ... يخالفُ حالَه الصبرُ الجميلُ
يغالبُني على عَقلِي حنينٌ ... إليه ، لاتُغَالِبهُ العقولُ
فيُنسيِني يقينَ اليأسِ منه ... كما تُنسى مُعاقِرَها الشَّمولُ[1]
ويَلحَانِي العَذولُ، ولَيس يدرى ... بما أُخفِي من الكَمَد العَذولُ
إذا نامَ الخلىُّ أراحَ[2] همِّي ... وأسهرَ ليلِيَ الحزنُ الدّخيلُ
كأنَّ نجومَ ليلِي مُوثَقاتٌ ... فليسَتْ من أماكِنِها تَزولُ
وما فى الصُّبح لى رَوحٌ[3]، ولكن ... به يتعلَّلُ[4] الدَّنِفُ العَليلُ
نَهارى لا يلائمِني سُلوٌّ ... وليلى لا يُفارقني العويلُ

(٥٢٠)

وقال فيه :

لعمرُكَ ما يُنسِيني الدّهرُ روعَتى[5] ... بِفَقد أبي بكرٍ حَياتى، ولا يُسلِي
خَشيتُ عليه اليُتم بعدى، فليتَني ... رُميتُ بما أَخشَى، ولم أُرْمَ بالثُّكل
فكلُّ بعيدٍ يُرتَجى جَمعُ شَملِه ... وبُعدُ المنايا غيرُ مُجتمِع الشَّمْل

(٥٢١)

وقال ، يندب وطنه وأهله الهالكين فى الزلازل بحصن شيزر[6] :

حيَّا رُبوعَك ، من رُبًى ومنازلٍ ... سَارى الغَمام بكلِّ هامٍ هَامِلِ
وسَقَتْكِ يادارَ الهوَى بعد النَّوَى ... وطَفاءُ[8] تَسفَحُ بالهتُون الهاطل

---

(١) الشمول : الخمر . ومعاقرها : المدمن على شربها .
(٢) أراح الحزن همى : أى أعاد الحزن همى على عشية ، من أراح الراعى الإبل على أهلها .
(٣) الروح . الراحة . (٤) تعلل بالأمر : تشاغل به . والدنف : المريض .
(٥) الروعة : الفزعة . (٦) انظر ما سبق ص ٢٨٧ . (٧) هملت عينه : فاضت .
(٨) سحابة وطفاء : مسترخية لكثرة مائها ، أو هى الدائمة السح .

حتَّى تُرَوِّضَ[١] كلَّ ماحٍ مَاحِلٍ   عافٍ ، وتُروِىَ كلَّ ذاوٍ ذَابِلِ
أبكيكِ ، أم أبكِى زمانى فيكِ ، أم   أهليكِ، أم شَرْخَ الشبابِ الرَّاحِلِ
ماقدرُ دَمعى أن يقسِّمَه الأسَى   والوجدُ بين أحبَّةٍ ومنازلِ
أنفقتهُ سَرَفاً ، وها أنا ماثِلٌ   فى ماحِلٍ ، أبكِى بجَفنٍ مَاحِلِ[٢]
وإذا فَزِعْتُ إلى العَزاءِ دعوتُ مَن   لا يَستجيبُ،ورُمتُ نُصرةَ خَاذلِ
أين الظِّباءُ عهدتُهُنَّ كوَانِساً   بِكِ فى ظلالِ السَّمهرىِّ الذَّابِلِ[٣]
النَّافراتُ من الأنيسِ تكرُّماً   والآنساتُ بكلِّ ليثٍ بَاسِلِ
من كلِّ مكروهِ اللِّقاءِ مُنازِلٍ   رحبِ الفِناءِ لطارقٍ أو نَازلِ
متمنِّعٍ صعبٍ على أعدائه   سهلِ المَقادَةِ للخليلِ الوَاصلِ
عزُّوا على الدُّنيا ، وخالفَ فِعلُهم   أفعالَهَا ، فبَغَتْهُــمُ بغَوائلِ[٤]
حتَّى إذا اغتالَتْهُمُ بخطوبِهـا   ورمتهــمُ بحوادثٍ وزَلازِلِ
دَرَستْ منازِلُهم ، وأوْحَشَ مِنهمُ   مأنوسُ أنديةٍ وعزُّ محَافِلِ
واهاً لهم من عَالِمٍ ومعَــالِمٍ   وَمُمَنَّعَــاتِ عَقَــائِلٍ ومَعَــاقِلِ
كانُوا شَجىً فى صدرِ كل مُعَانِدٍ   وقذىً يجول بعينِ كلِّ مُحَـاوِلِ
غَوْثاً للملهوفِ ، وملجأً لاَجِىءٍ   وجِــوارَ رَبِّ جَرائرٍ وطَوائلِ[٥]
ذهبُوا ذهابَ الأمسِ ما من مُخبِرٍ   عَنهمُ ، وزالُوا كالظِّلالِ الزَّائلِ
وبقيتُ بعدهمُ حليفَ كَآبَةٍ   مستُورَةٍ بتجمُّــلٍ[٦] وتَحامُلِ
سعدُوا براحَتِهم ، وها أنَا بعدهم   فى شَقْوةٍ تُضنِى ، وهمٍّ دَاخِلِ
فاعجب لشَقوةِ مُتعَبٍ بمقَـامِهِ   من بعد أُسرتِهِ ، وراحة رَاحِلِ

---

(١) روّض المكان : جعله روضة . (٢) يريد بماحل الأولى : المنزل الجدب . وبماحل الثانية الجامد الذى لايدمع .
(٣) كنس الظبي : دخل فى كناسه وهو مستتره فى الشجر . والسمهرى : الرمح الصلب . والذابل : الرقيق .
(٤) الغوائل : الدواهى . (٥) الجريرة : الجناية . والطائلة : الترة (٦) التجمل : التصبر .

دعَ ذا ، فأنتَ على الحوادث مَروةٌ[1] تلقَى الرّزايا عالمًا كالجاهل
واصبِر ، فما فيما أصابَك وصمةٌ كُلُّ الورَى غرضٌ لسهم النّابل[2]

قافية النون

(٥٢٢)

وقال فى المعنى أيضا :

حمائمَ الأيكِ[3] هيَّجْتُنَّ أشجانَا فليبكِ أصدقُنا بثًّا وأشجانَا
كم ذَا الحنينُ على مرّ السّنينَ؟! أما أفادكُنَّ قديمُ العهدِ نِسيانَا
هل ذا العويلُ على غيرِ الهَديلِ[4] ، وهل فقيدكُن أعزُّ الخلقِ فقدانَا
ما وجدُ صادحَةٍ فى كلّ شارقَةٍ تُرجّعُ النَّوحَ فى الأفنان ألحانَا
كما وجدتُ على قومى تخوّنَهم ريبُ المَنونِ ودهرٌ طَال ما خَانَا
إذا نَهى الصّبرُ دَمعى عند ذِكرهمُ قال الأسَى : فِض ، وجُدْ سحًّا وتَهتانَا
قالوا : تأسَّ ، وما قالوا بِمَنْ ، وإذَا أُفردتُ بالرُّزءِ ما أنفكُّ أَسوانَا[5]
ما حدثتنِيَ بالسُّلوانِ بعدهمُ نَفسى ، ولا حانَ سُلوانِى ولا آنَا
ما استدرجَ الموتُ قومى فى هلاكهمُ ولا تخرَّمَهمْ[6] مَثْنَى ووُحدانَا
فكنتُ أصبرُ عنهم صبرَ مُحتَسِبٍ وأحملُ الخطبَ فيهم عزَّ أو هانَا
وأقتَدى بالورَى قبلِي، فكم فَقدوا أخًا ، وكم فارقُو أهلاً وجيرانَا

---

(١) المرو : حجارة بيض براقة .
(٢) النّابل : صاحب النّبال . والوصمة : العار .
(٣) الأيك : الشجر الملتف الكثير .
(٤) الهديل : فرخ حمام زعموا أن جارحا من الطير صاده فما من حمامة إلا وهى تبكى عليه .
(٥) الأسوان : الحزين .
(٦) تخرمهم : استأصلهم .

لـكنّ سقبَ[١] المنايا وسطَ جمعِهمُ رغَا ، فخرّوا على الأذْقان إذعانَا
وفاجأتْهم من الأيام قارعةٌ سقتهمُ بكئوسِ الموتِ ذَيْفانَا[٢]
ماتُوا جميعًا كَرجعِ الطَّرف، وانقرضُوا هل ما تَرى تاركٌ للعين إنسانَا
أعزِزْ عليَّ بهِم من مَعشرٍ صُبُرٍ عند الحفيظةِ إنْ ذُو لُوثةٍ[٣] لانَا
لم يترك الدهرُ لى من بعدِ فقدِهمُ قلبا أُجشّمُه صــبرًا وسُــلوانَا
فلو رأَونى لقالوا : مات أسعدُنا وعاشَ للهمِّ والأحزانِ أشقانَا
لم يترك الموتُ منهم من يُخبِّرنى عنهم ، فيُوضِحُ ما لاقَوه تِبيـانَا
بادُوا جميعا ، وما شادُوا ، فوا عجباً للخطبِ ، أهلكَ عمّارًا وعُمرانًا
هذى قصورُهمُ أمست قبورَهمُ كذاكَ كانوا بها من قبلُ سُكّانَا
ويحَ الزّلازلِ ، أفنَت معشرِى ، فإذا ذكرتُهم ، خِلتُنِى فى القوم سَكرانَا
بَنِى أبِى ، إن تَبيدُوا ، أن عدَا زَمنٌ عليكمُ دون هذَا الخلقِ عُدوانَا
فلن يَبيدَ جوًى[٤] قَلبِي ولا كَمَدى عليكمُ أو يُبيدَ الدهرُ ثَهــلانَا[٥]
أفســدتُمُ عمْرِيَ الباقى علىَّ ، فما أنفكُّ فيه كئيبَ القَلبِ ولْهانَا
أُفردتُ منكمْ ، وما يَصفُو لمنفردٍ عيشٌ ، ولو نال من رِضوانَ رِضوانَا
فليتنِي معَهم ، أوليتَ أنّهمُ بَقُوا ، وما بينَنَـا باقٍ كما كانَا
لقيتُ منهم تبَاريحَ[٦] العُقوقِ ، كما لقيتُ من بَعدِهِم همًّا وأحزانَا

---

(١) السقب : ولد الناقة .
(٢) الذيفان بفتح الذال و بكسرها : السم القاتل .
(٣) اللوثة بالضم : الاسترخاء والبطء والضعف . وهو عجز بيت لقريط بن أنيف العنبرى .
إذا لقام بنصرى معشر خشن عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا
(الحماسة ١٤)
(٤) الجوى : شدة الوجد .
(٥) ثهلان : جبل .
(٦) تباريح العقوق : شدته .

لولا شَماتُ الأعادى عند ذكرِهمُ ... لغَادَرتْ أدمُعِى فى الأرض غُدرانَا
أرُدُّ فَيضَ دُموعى فى مَسالِكها ... فتستحيلُ مياهَ الدَّمع نِيرانَا
لا ألتقِى الدَّهرَ من بعد الزَّلازلِ ما ... بقيتُ إلّا كسيرَ القَلب حَيْرانَا
أَخْنَتْ على مَعشرِى الأدنَيْنَ، فاصطلَمَتْ(١) ... منهم كهولًا، وشبّانا، وولدانَا
كم رامَ ما أدركتْهُ منهمُ مَلِكٌ ... فعادَ باليأسِ مما رامَ لَهفانَا
لم يَحمِهم حِصنُهم منها، ولا رَهِبَتْ ... بأسًا تَناذَرَه(٢) الأقرانُ أزمانَا
أتَاهُم قَدَرٌ لم يُنْجِهم حذَرٌ ... منه، وهل حَذَرٌ مُنجٍ لمن حَانَ(٣)
إن أقفرت شيزَرٌ منهم، فهم جَعَلُوا ... منيعَ أسوارِهَا بيضًا وخُرصانَا(٤)
هُمُ حَمَوْهَا، فلو شاهدتَها، وهُمُ ... بها، لشاهدتَ آسادًا وخَفَّانَا(٥)
كانوا لمن خافَ ظُلماً أو سُطَا مَلِكٍ ... كهفًا، وللجانِى المطلوبِ جيرانَا
عَلَوْا بمجدهمُ سيفَ بنَ ذى يَزَنٍ ... كما علت شيزرٌ فى العزِّ غُمْدانَا(٦)
كانُوا مَلاذًا لأيتامٍ وأرمَلةٍ ... وبائِسٍ فاقدٍ أهلاً وأوطانَا
إذا أتيتَهمُ ألفيتَ شطرَهمُ ... مُسترفِدين(٧) وزُوارًا وضيفانَا
تراهُمُ فى الوغَى أُسدًا، ويومَ نَدًى ... غيثاً هتونًا، وفى الظلماءِ رُهبانَا
حاولتُ كِتمانَ بثِّى بعدَ فقدِهمُ ... فلم يُطِقْ قلبِىَ المحزونُ كِتمانَا
لعلَّ مَن يعرفُ الأمرَ الذى بَعُدت ... بَعدَ التَّصاقُبِ من جرّاهُ دارانَا
يقولُ بالظَّنِّ، إذ لم يَدرِ ما خُلقِى ... ولا مُحافَظتى من حَانَ(٣) أو بَانَا:
أسامةٌ لم يَسُؤْهُ فقدُ معشرِهِ ... كم أوغروُا صَدرَه غيظاً وأضغانَا(٨)

---

(١) اصطلمه: استأصله.
(٢) تناذروا: أنذر بعضهم بعضا.
(٣) حان: هلك.
(٤) البيض: السيوف. والخرصان: الرماح.
(٥) الخفان: مأسدة.
(٦) سيف بن ذى يزن: أحد ملوك اليمن. وغمدان: قصر ضخم باليمن.
(٧) مسترفدين: طالبين للرفد، وهو العطاء والصلة.
(٨) الأضغان: جمع ضغن، وهو الحقد.

وما درَى أنَّ فى قلبِى لفقدِهمُ نارًا تلظَّى ، وفى الأجفانِ طُوفانَا
بنو أبِى ، وبنُو عمِّى ، دَمى دمُهُم وإن أَرَوْنى مُناواةً وشَنْآنَا[1]
كانوا جَناحى ، لحَصَّنَه[2] الخطوبُ ، وإخـــوانى ، فلم تُبقِ لِى الأيّامُ إخوانَا
كانوا سُيوفى ، إذا نازلتُ حادِثةً وجُنَّتِى ، حين ألقَى الخطبَ عُريانَا
بهم أصولُ على الأمرِ المهولِ ، إذاَ عرا ، وألقَى عَبُوس الدهرِ جذْلانَا
فكيف بالصبرِ لى عنهم ، وقد نَظَموا دَمعى على فَقدِهم دُرًّا ومَرجانَا
يُطَيِّبُ النفسَ عنهم أنَّهم رحَلُوا وخلَّفونِى على الآثارِ عَجْــلانَا[3]
سقَى ثرًى أُودِعُوه رحمةً ملأتْ مثوَى قُبورِهِمُ روْحًا وريْحانَا
وألبسَ اللهُ هَاتيكَ العظامَ ، وإن بَلِينَ تحتَ الثَّرى ، عفوًا وغُفرانَا

(٥٢٣)

وقال :

حَسْبِى من العيشِ ، كمْ لاقيتُ فيه أذًى أَقَلُّهُ فقــدُ أترابِى وخُلَّانِى
لم يَبقَ لى مُشتكًى بثِّ أحمِلُهُ همِّى ، ولا مَنْ إذا استصرختُ لبَّانِى
وصُمَّ عنِّى صدَى صوتى ، وأفردَنِى ظلِّى ، وملَّ الكَرَى والطيفُ غِشيانِى
وما نظرتُ إلى ما كان يُبهجنى إلّا شجَانى ، وآسانِى[4] ، وأبكانِى

---

(١) الشنآن : البغض .
(٢) الحص : حلق الشعر .
(٣) العجلان : الثاكل الواله .
(٤) شجاه : حزنه ؛ والأسا : الحزن .

(٥٢٤)

وقال :

نَاحت ، فباَحت فى فُروعِ البانِ عن لوعتِى وعن جَوَى أحْزانِى

بخيلةُ العينينِ بالدَّمع ، ولِى عينٌ تجودُ بالنجيع[1] القَانِى

إذا دعَتْ أجبتُها بروعةٍ[2] وُرقٌ[3] تداعت فى ذُرا الأغصانِ

وحَسْرَتِى أنَّ الزمانَ غَالَ مَنْ كنتُ إذا دعوتُه لبَّانى

آخر ما تضمنته الأبواب المذكورة من شعره

---

(١) النجيع : دم الجوف .

(٢) الروعة : الفزعة .

(٣) الورق : جمع ورقاء ، وهى الحمامة .

مسمّطات من شعره أفردت عن الأبواب المذكورة

(٥٢٥)

قال مسمطا[1] شعرا لقيس بن ذَرِيح :

كعهدِكَ باناتُ الحِمَى فوقَ كُثْبِها
ودارُ الهوَى تحمِى العدَا سرحَ سِربِها
أقولُ ، وسُمرُ الخَطِّ جُنْبٌ لحجبِهَا :
سقى طَلَلَ الدّارِ التى أنتمُ بها حَنَاتِمُ[2] وَبْلٍ صَيِّفٌ وربيعُ

بدارِكِ مابى : من بِلَى الشّوقِ،والهوَى
وبِى ما بِهَا : من وحشةِ البينِ ،والنَّوى
سأُرْوِى ثَرَاها من دُموعى إن ارتوَى
وخَيْماتُكِ اللاتِى بمُنعرَجِ اللِّوَى بلِينَ بِلًى لم تَبْلَهُنَّ رُبوعُ

وما الجَوْرُ عن نهجِ السُّلُوِّ أعَاجَنى
على ذِى أثَافِ[3] كالحمَامِ الدَّواجِنِ
ولٰكنْ وفاءٌ ، وِرْدُهُ غيرُ آجِنِ[4] :
ولو لم يَهجْنِي الظّاعنونَ لهَاجَنِي حمائمُ وُرْقٌ فى الدِّيار وُقُوعُ

(١) التسميط : أبيات تجمعها قافية واحدة مخالفة لقوافى الأبيات .
(٢) الحناتم : السحائب السود .
(٣) الأثافى : جمع أثفية ، وهى الحجر يوضع عليه القدر .
(٤) الآجن : الماء المتغير الطعم واللون .

هَوَاتِفُ يُذْكِرْنَ الشَجِىَّ أَخَا الجوَى
زمانَ التَّدانِى قبــلَ رائعةِ النَّوَى
وطيبَ ليــاليهِ الحميــدةِ باللّــوَى
تداعينَ، فاستَبْكَيْنَ مَنْ كَانَ ذَا هوىً نوائحُ لم تَذْرِفْ لهنَّ دُمُوعُ

إِذَا مَا نسيمٌ هبَّ من جانبِ الحِمَى
أَقُــولُ، وأَشَــواقِى تَزِيدُ تَضَرُّمَا:
عسى وطنٌ يدنو بِهِم ، ولَعَلَّمَــا
وإِنَّ انهمالَ الدَّمعِ يَا ليلُ كلَّمــا ذكرْتُكِ وحدى خاليًــا لَسَرِيعُ

ولَوْ عادَ يومٌ منكِ يا ليلَ ، قَدْ خلاَ
بِعُمْرِىَ أو شرخِ الشبيبة مَا ثَلاَ
وقد عزَفَت نفسِى عنَ الهَجْرِ والقِلَى
وسوفَ أُسلِّى النفسَ عنكِ، كمَا سَلاَ عنِ البلدِ النَّائِى المخوفِ نَزِيعُ[1]

أَيَرْجُو لِىَ اللاَّحِى من الحبِّ مَخْلَصَا
وقَلبِى إِذَا مَا رُضْتُــه بالأَسَى عَصَى
وَلَوْ أَنَّ مَا بِى بِالحصَى فُلِقَ الحصَى
إِلى اللهِ أشــكو نِيَّةً شَقَّت العَصَــا هِىَ اليومَ شَتَّى ، وهىَ أَمْسِ جَمِيعُ

(١) النزيع : الغريب ، كالنازع .

أطَاعَتْ بنـا ليـــلَى افتراءَ التَكذُّب
وصَـــدُّ التَّجَنِّي غيرُ صَـــدِّ التَّعَتُّبِ[1]
فيَالَكَ من دَهرٍ كثيرِ التَّقَلُّب

مضَى زمنٌ ، والناسُ يستَشْفِعونَ بِي   فهَل لي إلَى لَيْلَى الغَـــدَ شَفيعُ

ألاَ نغبَةٌ[2] من بَرْدِ أنيابِهـا العُلَى
وردُّ زمانٍ كالأَهِلَّةِ يُجْتَـــلَى
فقُولاَ لهَـا : جَادَتْك واهيَةُ الكُلَى[3]

أراجِعةٌ يا ليـــلُ أيامُنَا الأُلَى   بِذِى الرِّمْثِ[4] أَمْ لاَ،مَا لَهُنَّ رُجوعُ

أعَاذلَتِي ، مَالِي ، هُدِيتِ ، وَمَالَك
لقَـــدْ سَاءَنِي أنِّي خطَرْتُ ببـالك
ذرِينِي ، فَلَوْمِي ضَلَّةٌ من ضَلالك

لَعَمْرُكِ ، إنِى يومَ جرعاءِ[5] مالكٍ   لَعَـاصٍ لامرِ العاذلاتِ مُضَيِّعُ

أعِدْ ذكرَها ، أَحْبِبْ إلَيَّ بِذِكْرِهَا
وَدَعْ ذَنْبَهَا ، فَالحُبُّ مُبْـــدٍ لِعُذْرِها
فَمَا زِلْتُ فى حالَىْ وفائِى وغَدْرِها

إذَا أَمَرتْنِي العاذلاتُ بهجـــرِهَا   هَفَتْ كَبِدٌ عمَّـا يَقُلْنَ صَديعُ[6]

---

(١) تجنى عليه : ادّعى ذنبا لم يفعله . والتعتب : مخاطبة الأدلال . (٢) النغبة : الجرعة و يضم ، أو الفتح لمرة والضم للاسم .
(٣) كلية السحاب : أسفله . (٤) الرمث فى الأصل : مرعى للإبل من الحمض ، وشجر يشبه الغضى ، وهنا مكان .
(٥) الجرعاء : الأرض ذات الحزونة تشا كل الرمل ، أو الكثيب جانب منه رمل وجانب حجارة .
(٦) هفا : ذهب فى إثر الشيء . وصديع : مشقوقة .

يَزِيدُ هوَى ليــلَى رضَاها، وعتبُهــا
وبُعــدُ نَواهَا، إِنْ تناءتْ، وقُرْبُها
ولَمْ ينَهَنى صــدقُ اللواحِى، وكذْبُهـا
وكيفَ أطيعُ العاذلاتِ، وحُبُّهــا يُؤرِّقنى، والعــاذلاتُ هُجُــوعُ

(٥٢٦)

وقال يسمِّط شعرا للمجنون :

أيا لائمى فى وِقفةِ المُــتلوِّذِ[1]
عَلَى عَرَصَاتِ الدّارِ، بالجمرِ مُحْتَذِى
أُقَلِّبُ فى عِرفَانِها النّاظرَ القذِى
لعمْرُكِ، إنَّ البيتَ بالظاهرِ الذِى مررتُ، فلم أُلْمِمْ بِهِ، لِىَ شَائِقُ
يُراجِعُ قلبِى عندَ رُؤْيَاه جَهْلَه
ويركَبُ صعبَ الأمرِ فيه وسهلَه
ويَسْفحُ فيـه مَدْمَعِى مُسْتَهِــلَّه
وإِنَّ مُرورِى، لا أكَلِّمُ أهله أشدُّ من الموتِ الذى أنَا ذَائِقُ
وفِى ذلكَ البيت الذى أتعزَّلُ
حذارَ وُشَاةِ الحيِّ أدماءُ مُغْزِلُ[2]
يَجِــدُّ هواهَــا بالنفوسِ وتَهْزِلُ
وبِالجزْعِ من أعلَى الجُنَيْنَةِ مَنْزِلٌ فسِيحٌ، شجِى صدرى بِه متضايِقُ

---

(١) لاذ به : لجأ ، ولاوذ ملاوذة : استتر .

(٢) الأدمة فى الظباء : لون مشرب بياضا . وظبية مغزل : ذات غزال .

سأُعْلِنُ ، والمصدورُ لا بدَّ يَنْفُثُ
ضَمَانَةَ[1] حُبٍّ بالجوَانِـح تَضْبِثُ[2]
يُقاسِمُنِى صبرِى عليهَـا ويَحْنَثُ
وماذَا عسَى الواشُون أنْ يَتَحَدَّثُوا   سِوَى أنْ يَقُولُوا : إنَّنِي لَكِ عَاشِقُ
هَوًى فى عَفَافٍ لم تُدَنِّسْه ريبةٌ
كَمَا كَان يهوَى قيسُ لُبنَى وتَوْبةُ
أقُولُ ، وللوَاشِى سهَـامٌ مُصيبـةٌ :
أَجَلْ، صَدَقَ الوَاشونَ ، أَنتِ حبيبةٌ   إلَىَّ ، وإنْ لمْ تصفُ مِنكِ الخلائقُ
سأخضعُ للطيفِ المـلِمِّ بعتْبِكم
وأُلْصِقُ خدِّى فى الدِّيارِ بتُرْبِكُمْ
وما زلتُ فى حالَىْ نَواكُم وقُربِكم
يضمُّ علىَّ الليلُ أوصالَ حبِّكم   كما ضمَّ أطرافَ القميصِ البنَائقُ[3]
هى الدّارُ ، مَنْ لِى أنْ أسُوفَ[4] تُرابَهَا
وأبكى لَيَالِينَا بهـا وانقلابَهَـا
وسُمْرًا بها تحمى الأعادِى قِبابَهَا
كأنَّ على أنيابِها الخمرَ شَابَهَـا   بماءِ النّدَى من آخِرِ اللّيلِ غابقُ[5]

---

(١) الضمنة بالضم ، وكسحاب وسحابة : المرض .
(٢) ضبث به يضبث : قبض عليه بكفه .
(٣) البنيقة : جيب القميص .
(٤) السوف : الشم .
(٥) الغبوق : ما يشرب بالعشى — غبق : سقاه ذلك .

نَأَوْا ، وَعَسَى تدنُو بِهِمْ نِيَّةٌ، عسَى
بِشمسٍ تردَّتْ فى الظَّهيرةِ حِنْدِسَا[١]
كَأَنَّ بِفِيها الروضَ ليلاً تنفَّسا
وما ذُقْتـــهُ إلاَّ بعينِى تفرُّسَـا   كَمَا شِيمَ مِنْ أعْلَى السّحابةِ بَارِق

(٥٢٧)

وقال مصرعا قصيدة مهيار[٢] :

أسائقَهَـا للبـــينِ وهوَ عَجُولُ
تأَنَّ ، فمَا هذَا المســيرُ قُفُولُ
وقلْ لِى ، فإنَّ المُسْتَهَامَ سَئُول:
لِمَنْ طالعاتٌ فى السَّرابِ أُفولُ   يقوِّمها الحادُون ، وَهْىَ تَمِيلُ
تَجَانَفنَ عَنْ وَعْثِ الطّرِيقِ وسَهْلِه[٣]
وَأَعْرَضْنَ عن خِصْبِ المرَادِ[٤] ومَحْلِهِ
فَهُنَّ عَلَى جَوْرِ الغَـــرامِ وعَدْلِهِ
نَواصِلُ[٥] من "جَوٍّ"[٦] خوائضُ مثلِه   صُعُــودٌ على حكمِ الطّرِيقِ[٧] نزُولُ

---

(١) الحندس : الظلمة . (٢) رويت هذه القصيدة فى جمهرة الإسلام جـ ٢ ص ٢٥٥ مخطوطة دار الكتب ٩٣٢٣ أدب وذكرها تحت الباب الثالث من المخمس . وقصيدة مهيار بديوانه المطبوع بدار الكتب ٣ : ١٨٨ .

(٣) فى الجمهرة « مهله » تحريف . وتجانف : تمايل . والوعث : الطريق العسر .

(٤) المراد : موضع الارتياد وهو طلب الكلأ . (٥) فى الجمهرة «فواصل» تحريف . ونصل : خرج .

(٦) جو : موضع . (٧) فى ديوان مهيار (الزمان) .

إِذَا أُجْفِلَتْ فى البِيدِ جُفِّــلَ نَعَامُهَا
كأَنَّ أفَاعِى الرَّمْــلِ ثِنْىُ زِمَامِها
ثَنَتْ لِيتَها[١] نَحــو الصَّبا وانتِسامِها
هوَاها ورَاها ، والسُّرى عَن[٢] أمَامِها   فهنَّ صَحِيحاتُ النّواظر حُــولُ
بِهــا مثــلَ ما بالظاعِنِينَ كآبَةٌ
وصبرُهُمَــا بعدَ الفــراقِ خِلابَةٌ[٣]
وللشَّوقِ منهَــا ، ما[٤] دعاها ، إجابَةٌ
تَضَاغَى[٥] ،وفى فَرْطِ التَّضَاغِى صَبَابةٌ   وتَرغُو ، وفى طُولِ الرُّغاء غَلِيــلُ
أهِلَّةُ بيــدٍ ، والأهِلَّةُ فوقَها
إذَا لَحَتْ أَجْبـالَ سَلمَى ورَوْقَها[٦]
كَفَى شوقُها شلَّ[٧] الحُداة وسَوْقَها
تُرادُ على "نجدٍ" ، ويَجْذِبُ شَوْقَها   مَظَلٌّ عِراقِىُّ الثَّرى وَمقِيــلُ
ألَا قلَّمَــا تصفُــو مع البينِ عيشةٌ
وفى الشَّوْقِ للنّــائِى هُمُومٌ مُطيشةٌ
ولو أنَّ أوطانَ المُفارِقِ بِيشَةٌ[٨]
وما جَهِلَتْ أن "العراقَ"[٩] معيشةٌ   وروضٌ تُربَيه صَبًا وقَبُــولُ[١٠]

---

(١) الليت بالكسر : صفحة العنق .
(٢) فى الديوان (من) .
(٣) خلبه : خدعه .
(٤) فى الجمهرة(إذ) .
(٥) تضاغى : تصيح .
(٦) الروق : مقدم البيت ورواقه .
(٧) الشل : الطرد ، وفى الجمهرة نس. ، ونساه : زجره ، وساقه .
(٨) واد بطريق اليمامة مأسدة .
(٩) فى الديوان (الحجاز) .
(١٠) القبول : ريح الصبا .

وفى الرَّكبِ مسلوبُ العــزاء فقيدُه
يزيدُ إذا هبَّ النَّسيمُ وَقُــودُه
وما كلُّ أسبـابِ الغَــرامِ تقودُه
ولـكنَّ سحرًا "بَابِلِيـًّا" عقُــودُه تُحـلِّلُ ألبـابٌ به وعُقُــول
وقد حَمَلَتْ لَدْنَ القوامِ رشيقَه
حكى المسكُ فَاه،والمُدامةُ ريقَــه
فأضحَى بهـا نَائِى المحلِّ سحيقَــه
نجائبُ إنْ ضلَّ الحمـامُ طريقَه إلَى أنْفُسِ العُشَّاقِ فَهْىَ دَلِيــلُ
وَإنِّى لَأشْكُو مِنْ فِرَّاقِكَ هزَّةً
وروْعَةَ شَــوْقٍ للحشَا [1] مُسْتَفِــزَّةً
وَقَــدْ وقَرْت فى القلبِ عيسُك حَزَّةً
حملْنَ وُجُوهًا فى الخدورِ أعِزَّةً وكُلُّ عزيزٍ يومَ رُحْنَ ذَلِيــلُ
كَتَمْتُ هَوَى ظَمْيَاءَ [2] كتمانَ مُعْلِنِ
ونَهْنَهْتُ دمعًا عاصيًـا غير مُذْعِنِ
وَقَدْ قَالت الأظعانُ للسَّلوةِ : اظعَنِى
قَسمْنَ [3] العُقولَ فى السُّتورِ [4] بأعينٍ قواتلَ ، لا يُودَى [5] لَهُنَّ قَتِيلُ

---

(١) فى الجمهرة (فى الحشا) . (٢) الظمياء من الشفاه : الذابلة فى سمرة .

(٣) هذه رواية الديوان ، وفى الأصل (يسمن) تحريف .

(٤) فى الجمهرة (كالستور) . تحريف . (٥) يودى : تدفع ديته .

مُحبٌّ إذَا مَا اللّيـلُ غارَت نجومُه
تأوَّبَه[١] بثُّ الهـوَى وهمومُـه[٢]
وفى الخِـدرِ بدرٌ آفلٌ ، لا يَريمُه[٣]
وفيهنّ حاجاتٌ ودَيْنٌ غريمُـه مليٌّ[٤] ، ولـكنّ المَلولَ[٥] مَطولُ
لُبَانةُ[٦] نفسٍ مستمرٌّ عناؤُها
عياءٌ على مرِّ الليـالى دواؤُها
قضَى حبُّـا ألا يصابَ شِفاؤُها
يَخِفُّ على أهـلِ القِبابِ قضاؤُها لنَـا ، وَهىَ منّـا فى الرِّقابِ ثقيلُ
وَقَفْتُ على ربعٍ لظمياءَ أقفرَا
سقتْه دموعِى ما أراضَ ونوَّرا
فقلت لحِـدنىَّ الخليلَيْنِ أعذِرا
أبى الرّكـبُ "بالبيضاء" إلا تنكُّرا[٧] وقد تُعْرَفُ الآثارُ ، وهى مُحُولُ
سَأَلْتُ سَيالاتِ[٨] الحمى ، فتمَايلَت
كمُوحَدَةٍ من جيرَةٍ قد تَزَايَلَتْ
ففاضَتْ دموعٌ كالغُروبِ تَساجَلَت[٩]
ولمـا وقَفْنَا بالدِّيار تشَـاكَلَتْ[١٠] جُسُـومٌ بَرَاهُنّ البِـلَى وطُـلُولُ

---

(١) تأوبه : أتاه ليلا .
(٢) ورد هذا الشطر فى الجمهرة متأخرا عن تاليه .
(٣) لايريمه : لايبرحه .
(٤) الملى : الغنى .
(٥) فى الديوان (الملى) .
(٦) اللبانه : الحاجة .
(٧) هذه روايه الديوان . وفى الأصل (تذكرا) .
(٨) السيال كسحاب : ما طال من السمر .
(٩) فى الجمهرة «تسايلت» والغروب جمع غرب وهو الدلو .
(١٠) فى الديوان (تشابهت) .

دعانَا الهوَى واستوقَفَتْنَا المَعَـارفُ
وأدمَى الحَشَا ، والشَّوقُ للكَلْمِ[1] قَارفُ
حمـائمُ ورقٍ فى الغصونِ هواتفُ
فبـاكٍ بداءٍ بين جَنْبيـه عَارفُ ... وباكٍ بمـا جرَّ الفراقُ جَهُـولُ

نَعَمْ ، هذِه الأطْلالُ ، قَفرٌ فَأَرْبِـعِ[2]
وجَدِّدْ بِهَـا عَهْدَ المَشُوقِ المَودِّعِ
سأُسْقِي ثَرَاها الرِّيَّ من سُحْبِ أدْمُعِي
وأسألُ عن ظمياءَ[3] صمـاءَ لاَ تَعِى ... فأرضَى[4] بما قالَتْ ، ولَيْسَ تَقُول

تُصَدِّقُ ظَمْياءُ العَذُولَ إذَا افْتَرَى
وأُكْذِبُ سَمْعِى فِى هَوَاهَا وَما أَرَى
وأَقْنَـع منَهـا بالخَيَـالِ إذا سَرَى
ويُعْجِبُنِي منهَـا بُزخرفِهَـا الـكَرَى ... دُنُوٌّ إلىَ طُـولِ البِـعادِ يَئُولُ

مَلِلْتِ ، فمَـا تُدْنِى إليـك شَفَاعَةٌ
وَعنـدَكِ للواشِـين سَمْعٌ وطاعةٌ
وحفظُ عهـودِ الغـادرينَ إضَاعَةٌ
وما أنتِ يا ظمـياءُ إلا يرَاعَةٌ[5] ... تميـلُ مع الأَرْوَاحِ حيثُ تَمِيلُ

---

(١) الكلم : الجرح . والقرف : النكس فى المرض . (٢) ربع كمنع : وقف وانتظر وتحبس .
(٣) الظمياء من الشفاه : الذابلة فى سمرة .
(٤) فى الأصل « فترضى » . وروايه هذا البيت مضطربة فى ديوان مهيار . (٥) اليراعة : القصبة .

لَأَنْتِ لِنَفْسى دَاؤُها ودَوَاؤُهَا
ورَاحَتُها ، لَو نِلتُها وشِفَاؤُها
إذَا بِنْتِ ضَاقَتْ أرضُها وسماؤُها
فإنْ كان سؤلًا للنفوسِ بلاؤُها فإنّكِ لَلبَلْوَى ، وإنّكِ سُولُ

(٥٢٨)

وقال يُسَمِّط قَصيدتَه الميميّةَ التِي تقدَّمتْ فى مَظَانِّها من هذا الدِّيوانِ[1] :

تَوهُّمٌ مَا أَرَانى الدّهرُ ، أَمْ حُلُمُ
وصَبْوَةٌ كُلُّ هذَا الوجدُ أَمْ لَمَمُ[2]
أَحببتُ قوماً ، وإفراطُ الهوَى نَدَمُ
وَلُوا ، فَلمَّا رجونا عدلَهم ظلمُوا فليتَهم حكمُوا فينَا بما عِلمُوا

سَاوَى حُضورَهُمُ عِندى مغيبُهم
وصنتُهم فيهمَا عمَّا يَعيبُهُم
ومُنذُ قالَ الورَى : هذَا حبيبُهم
مَا مرَّ يومًا بفكرِى ما يَرِيبُهم ولا سَعَتْ بِى إلى ما سَاءَهُمْ قَدَمُ

كَمْ رُضْتُ نفسىَ بالسُّلوانِ ، فامتَنَعَتْ
وكَمْ أضاعُوا مواثيقَ الهوَى ، ورعَتْ
فما نقمتُ عليهِمْ غَدرَةً، فَضَعَتْ[3]
ولا أضَعْتُ لهم عهدًا ، ولا اطَّلَعَتْ على وَدَائِعِهِمْ فى صَدْرِىَ التُّهَمُ

(١) راجع ص ٤٠

(٢) اللم : الجنون .

(٣) ضعا : اختبأ واستتر .

مِنْ فَرْطِ وجدى بِهِمْ أَحبَبْتُ غَدْرَهُمْ
واللَّوْمُ فيهم لِسَمْعِي مِنْهُ ذِكْرُهُمُ
وصُنْتُ حتَّى عن الأَوْهَامِ سِرَّهُمُ
فليت شِعرِى بِمَا استَوْجَبْتُ هَجْرَهُمُ   مَلُّوا ، فَصَدَّهُمُ عن وَصْلِىَ السَّأَمُ

مَاصَرَّحُوا لِى بِأَسبَابِ القِلَى ، وكَنَوْا
إِلَّا وَقَالَ الهَوَى : مَهْلًا،سِواكَ عَنَوْا
وَكُلَّمَا أَهْمَلوا حِفْظَ الهَوَى ، وَوَنَوا
حَفِظْتُ ماضيَّعُوا،أَغْضَيْتُ حين جَنَوْا   وَفَيْتُ إِذْ غَدَرُوا،وَاصَلْتُ إِذْ صَرَمُوا

كَمْ قَدْ سَعَيْتُ حرِيصًا فى مُرَادِهِمُ
وَكَمْ رَعَيْتُ هَوَاهُمْ فِى بِعَادِهِمُ
لَحِينَ أَصبَحْتُ طَوْعًا فى قِيَادِهِمُ
حُرِمْتُ مَا كُنتُ أَرْجُو:من وِدَادِهِمُ   مَاالرِّزْقُ إِلَّا الذِى تَجرِى بِهِ القِسَمُ

أَوْطَنْتُهم خِلْبَ(1)قلبِى،دُونَ مَوْطِنِهِم
فَأَحْرَجُوا(2) بِالتَّجَنِّي رَحْبَ مَسْكَنِهِم
حَتَّى لَعِنْدَ مُسِيئِهِم ومُحْسِنِهِم
مَحَاسِنِي ، مُنْذُ مَلُّونى ، بِأَعْيُنِهِم   قَذًى ، وَذِكْرِىَ فى آذانهم صَمَمُ

هُمْ أَباحُوا الضَّنَى جِسْمِى ، وكَانَ حِمَى
وأَمْطَرُوا مُقْلَتِى بعدَ الدُّموعِ دَمَا
ومَا رَعَوْا فى الهَوَى عَهْدًا ولا ذِمَمَا
وبعدُ ، لو قِيلَ لِى: ماذَا تُحِبُّ ، ومَا   مُنَاكَ من زِينة الدُّنيَا ، لَقُلْتُ هُمُ

(1) الخلب : لحمة رقيقة تصل بين الأضلاع ، أو الكبد .

(2) أحرجوا : ضيقوا .

رَاعُوا فُؤَادِىَ بِالهِـجرانِ حينَ أمن
وَكَانَ بالوَصْلِ منهُم ، لَوْ رَعَوْه ، قَمِن[١]
وَلَوْ تعوَّض عنهُم بالشَّـباب غُبِن
هُمُ مجالُ الكرَى من مُقْلَتِيَّ، ومِنْ   قَلبى محلُّ المُنَى، جارُوا، أو اجْتَرَمُوا
لَمْ يَتْرُكِ الوَجْدُ لى فى غيرِهِمْ أمَلَا
ولَمْ أُطِعْ فيهِمُ نُصْحًا ولا عَذَلَا
وبعدَ ما أشعرُونِى فى الهوَى خَبَلَا
تبدَّلُوا بِى ، ولَا أبغِى بِهِمْ بَدَلا   حَسْبِى بهم، أنصفُوا فى الحُكمِ، أوْ ظَلَمُوا
فَقُلْ لسارِى الدُّجَى تهدِيه ظُلْمَتُه
واللَّيلُ كالبحرِ، تعلُو الأرضَ جُمَّتُه[٢]
تُغْرِى الفَلَا والدُّجَى والهولَ عزْمَتُه:
يَا رَاكِبًا تقطعُ البيداءَ همَّتُه   والعيسُ تعجِزُ عمَّا تدرِكُ الهممُ
إذا وصلتَ ، وقاكَ اللهُ مَهلَكَةً
وذَادَ عنكَ الرَّدَى، إن خضتَ معركَةً
فمَا سلِمتَ فقدْ مُلِّكْتَ مملَكَةً
بلِّغْ أميرِى معينَ الدِّين مَأْلُكَةً[٣]   منْ نَازِحِ الدّار لكنْ وُدُّه أَمَمُ[٤]

(١) قمن : خليق وجدير .
(٢) الجم : الكثير من كل شيء ، كالجميم . ومن الظهيرة والماء معظمه : كجمته .
(٣) المألكة : الرسالة .
(٤) الأمم : القرب . وفى هامش الديوان أن أسامة أسقط ها هنا بيتا لم يرضه تصريعه . والبيت هو :
وقل له أنت خير الترك ، فضلك الحياء ، والدين ، والإقدام ، والكرم
(وانظر القطعة ٢٦٦ من هذا الديوان صفحة ١٤٦) .

لَمَّا وَلِيتَ الرَّعَايَا سُرَّ كلُّ ولِى
وسُنْتَهُم بالتُّقَى فى القولِ والعملِ
تُمْضِى القضَايَا بِلَا حَيْفٍ ولا زَلَلِ
وأنتَ أعدلُ من يُشكَى إليهِ ، ولِى   شَكِيَّةٌ أنتَ فيهَا الخصْمُ والحَكَمُ

فاسمَعْ قضيَّةَ مَأخُوذٍ بخُلَّتِـه[1]
وفاؤُهُ لكَ أَرْدَاه بغُلَّتِـه[2]
ولَمْ يكُن عالمًا فى طبِّ عِلَّتِه
هَلْ فِى القضيَّةِ يا مَنْ فضلُ دولتِه   وعدلُ سيرتِه بينَ الورَى عَلَمُ

أَمْ فِى كريمِ السَّجايَا ، وهِىَ قَدْ فُقِدَتْ
أَمْ فى العُلَا ،وهى بالعُدوانِ قد عُدِمت
وساءها ، فلَحَتْ[3] ،من بعد ما حَمِدَت
تضييعُ واجِبِ حقِّى بعد ما شهِدتْ   به النَّصيحةُ ، والإخلاصُ ، والخِدمُ

يا لهفَ نفسِى ، ولهفٌ طالمَا شَفَت
لَمْ تُغنِ عنِّى تجارِبِى ومعرفَتِى
حتى اغترَرْتُ بآمالٍ مزَخْرَفَة
وما ظننتُـكَ تنسَى حقَّ معرفتِى   إِنَّ المعارفَ فى أهلِ النُّهَى ذمَمُ

---

(١) الخلة بالضم : الصداقة المختصة لا خلل فيها .

(٢) الغلة : حرارة الحبّ .

(٣) لحاه : لامه .

يامَنْ إذَا استأْذنَ السّاعِى عَلَيه أذنْ
إِذَا الغَديرُ أقامَ المـاءُ فيه أَجِنْ[١]
وَلَمْ يطلْ مكثُ ميثاقِى، فكيف أَسِنْ[٢]
ولا اعتقدتُ الذِى بينِى وبينَك: منْ وُدّ، وإن أجلبَ[٣] الأعداءُ، ينصرمُ

وكم رَمَانِى العِـدَا بَغْياً بإفكهِمُ[٤]
فلَمْ أرقّ ، ولم أفرَقْ[٥] لبَغْيِهِم
وكم سَعَوْا بِى ، فلَمْ أحفِل بسعْيِهِم
لكنْ ثِقاتُك ما زالُوا بغشّهِمُ حتَّى استوتْ عندكَ الأنوارُ والظُّلمُ

ما كانَ أبعَـدَهُم فهماً ، وأجهلَهَمْ
مالُوا ، ومالَوْا[٦] عَلَى من كانَ مَوّلَهُمْ
وقبلَهُ خَوَلَا كانُوا نخوّلَهُمُ[٧]
باعُوكَ بالبَخسِ ، يرجون الغنَى، ولَهُمْ لو أنَّهم عَدِمُوك ، الويلُ والعَـدَمُ

كيفَ اغتررتَ بهِمْ فيما أمَرْتَهُمُ
حتّى كأنّكَ يوماً ما خبرتَهُمُ
وغورُهمْ كان يبدُو لو سَبَرْتَهُمُ[٨]
واللهِ ما نصحُوا ، لمـا استشرتَهُمُ وكلُّهم ذُو هوىً فى الرأيِ متّهمُ

كان التحامُلُ منهمْ فى إشارتِهِمْ
والنّقصُ فِى دينِهِم أو فى عِبارَتِهم
وكلُّ ذلكَ نوعٌ من تجارتِهِم
كم حرَّفُوا من مقالٍ فى سِفارتِهم وكم سَعَوْا بفسادٍ، ضلَّ سعيُهمُ

---

(١) أجن المـاء: تغير طعمه ولونه. (٢) أسن: أجن. (٣) أجلب: توعد بشرّ.
(٤) الإفك: الكذب. (٥) فرق كفرح: فزع. (٦) مالئوا عليه: اجتمعوا.
(٧) الخول: العبيد. وخوّله: أعطاه متفضلا. (٨) السبر: امتحان غور الجرح وغيره.

قالوا : الأميرُ وفىٌّ بالعهودِ ؛ فلُذْ
بذى الحميّة[1] ، إن خَطْبٌ ألَمَّ ، وعُذْ
والوصفُ فى السمعِ قبلَ الإمتحانِ يَلَذْ
أين الحميّةُ ، والنّفسُ الأبيّـةُ ، إذْ سَامُوكَ خُطّةَ خسفٍ عارُها يصِمُ؟!

لمّـا رأيتَ لصَرفِ الدّهرِ وَاعظةً
للخيرِ والشّرِّ ما تنفـكُّ حافظةً
حتى تَشيعَ سماعًا أو ملاحظَةً
هـلّا أنفتَ حياءً أو محافظةً[2] من فعلِ ما أنكرته العُربُ والعجمُ؟!

أتيتَ فينَا ، وما اقتادتكَ مَوجدةٌ[3]
إساءةً هى للإحسانِ مُفسِـدَةٌ
أغربْتَ[4] فيها ، فجاءت وهى مُفردةٌ
أسلمتَنَا ، وسيوفُ الهنـدِ مغمَدةٌ ولم يُرَوِّ سِنـانَ السمهرىِّ[5] دَمُ

ما شُبتُ حُسنَ ظُنونِى فيكَ بالتُّهَمِ
ولم تَمُرَّ بِفكْرِى نَجـلةُ النَّـدمِ
وأن إفكَ الأعادى مُخْفِرٌ[6] ذِمَمِى
وكنتُ أحسَبُ مَن والاكَ فى حَرَمٍ لا يَعتريه به شَـيْبٌ ولا هَرَمُ

---

(١) الحمية : الأنفة .
(٢) المحافظة : الذب عن المحارم .
(٣) الموجدة : الغضب .
(٤) أغرب : أتى بالغريب .
(٥) السمهرى : الرمح الصلب . (٦) مخفرذممى : ناقض عهدى .

يأوِى إلى حُسن عهدٍ منكَ ماابتُذِلَا

ولا ابتَغى بصديقٍ صَادقٍ بَدَلَا

ولا رأى انخِلَ منه ساعةً مَلَلَا

وأنَّ جارَك جارٌ للسموءَلِ ، لا يَخشى الأعادى ، ولا تَغتاله النِّقَمُ[1]

إساءةٌ جئتَها ، والله يغفرُهَا

يُذيعُها الدّهرُ فى الدّنيا ، ويَنشرُهَا

والخلقُ أجمعُ يأبَاها ، ويُنكِرُهَا

هبنَا جنينَا ذُنوبًا لا يُكفِّرُها عُذْرٌ ، فماذَا جنَى الأطفالُ والحُرُمُ

مَا زلتَ فى كلِّ حالٍ مُحسنا وَرِعًا

ترى الإساءةَ فى وجهِ العلا طَبَعًا[2]

لكنَّ فعلَك فيهم جاءَ مُبتدَعَا

ألقَيتَهم فى يدِ الإفرنج مُتَّبِعًا رضًا عِدًا يُسخِطُ الرحمنَ فِعلُهُمُ

أَخفَى الهوى عَنك بعد الكشفِ أمرَهُمُ

حتَّى لأنكرتَ يا مَخدوعُ مكرَهُمُ

وسوفَ تَعرِفُ بعد الفَوتِ غَدرهمُ

هُمُ الأعادِى ، وقَاكَ الله شرَّهُمُ وهُم ، بزعمهم ، الأعوانُ والخَدَمُ

---

(١) أسقط أسامة بعد هذا البيت بيتا لم يسمطه وهو :

وما طمان بأولى من أسامة بالـ * ـوفاء ، لكن جرى بالكائن القلم

(وانظر القصيدة ٢٦٦ ص ١٤٧) .

(٢) الطبع : الوسخ الشديد والعيب .

ما أنصفوكَ ، أتَوْا مالستَ تجهلَهُ
وما استقلُّوا[1] بعبءٍ أنت تحملهُ
وخَالفُوا كلَّ خيرٍ كنتَ تفعلُهُ
إذا نهضتَ إلى مجدٍ تؤثِّلُه[2] تقاعدُوا ، فإذا شيدتَه هَدَمُوا

صدَّقْتَهمْ ، وعهودُ القومِ كاذبةٌ
وكلُّ أحلامِهم فى الغدرِ عازبةٌ[3]
لغيرِ دولتِكَ الغرّاء طَالِبَةٌ
وإن عَرَتكَ من الأيامِ نائبةٌ فكلُّهم للَّذى يُبكيكَ مُبتَسمُ

ضَلالَةٌ قد أظلَّتهُم غوَايتُها
ودولَةٌ رُفعت بِالغدرِ رايَتُها
دَنت لِكُفرانِها النُّعمى نِهَايَتُها
حتى إذا ما انجلَت عَنهُم غَيابَتُها بِجَدِّ عَزمك ، وهو الصَّارِمُ الخَذِمُ[4]

وأصبحُوا فى نعيمٍ ما له خَطرُ
ما يعتري عيشَهم بؤسٌ ولا ضَررُ
ولم يَرُع سَرحَهُم[5] خوفٌ ولا حَذَرُ
رَشفتَ آجنَ عيشٍ ، كلُّه كَدَرٌ ووِردُهم من نداك السلسَلُ الشَّبِمُ[6]

---

(١) لا يستقل بالأمر : لا يطيقه .
(٢) أثل ماله : أصله .
(٣) عازبة : بعيدة .
(٤) غيابة كل شيء : ما سترك منه . والخذم : القاطع .
(٥) السرح : فناء الدار .
(٦) الشبم : البارد .

أحلَتَهم غَلطًا أعلَى ذُرا الأُفُقِ
فلم يَرَوْا حقَّ تلك الأنعُم الدُّفُقِ
وعَامَلُوك بِغِشّ الغِــلّ والمَلَقِ
وإن أتاهُم بقَولٍ عنكَ مُخْتَلَقِ وَاشٍ ، فذَاك الذى يُحبى ويُحتَرمُ

أَخفَوْا من الغلّ ما أخفَوْه ، ثُمَّ عَلَنْ
وأضمَروا محناً من غِشهم وإحَنْ[1]
وأنكُروا نِعمًا طوَّقتَهم ، ومَنَنْ
وكلُّ مَن ملتَ عنه قرّبوه ، ومَنْ وَالَاكَ فَهو الذى يُقصَى ويُهْتَضَمُ[2]

ما زلتَ فى وُدّهم تجرى على سَنَنِ
وهمْ بِذَاك فيا لله للغَــبنِ
أعوانُ عادِيةِ الأيَّام والزَّمنِ
بغيًا وكُفرا لما أوليتَ من مِنَنٍ ومَرتَعُ البغِى، لولَا جهلُهم، وَخِمُ

أَخفيتَ بادِى مَساويهم لتَستُرَهُمْ
ولو كشفتَهُم لم ترض مكسِرَهُمْ[3]
فاكشِفْ بحثِك ما أخفَوْا لتُنكِرَهُمْ
جرِّبهُمُ مثــل تجريبي لتَخبُرَهُمْ فلِلرّجال — إذا ما جُرِّبُوا — قِيَمُ

---

(١) الإحن : جمع إحنة ، وهى الحقد والغضب . (٢) الاهتضام : الظلم .

(٣) المكسر : المخبر والأصل .

مازلتُ، منذ كنتُ، فى عينِ العدوِّ قذَى
يَرى محــلِّيَ فوق النجمِ مُنتبِــذَا[1]
فسلهمُ بى تَزِدهُم من جوًى وأذَى
هــل فيهمُ رجلٌ يُغنى غَنَـاىَ، إذَا جلَّى الحوادثَ حدُّ السّيف والقَــلَمُ

أم فيهمُ من يُجلِّى حِندسَ الشُّبَه
بِعَــزمٍ أروعَ[2] مدرَاكٍ لمَطْلَبِــه
ماضٍ على الهَولِ مُستوطٍ[3] لمَــركَبِـه
أم فيهمُ مَن لَه فى الخَطبِ ضاق به ذَرعُ الرجالِ يدٌ يسطُو بهـا وفَمُ

عرفتَ غِشَّهُمُ فى السِّرِّ والعَلَن
وأنَّ نيَّاتِهم ملأَى من الدَّرَنِ[4]
ولم تَزل عاكِفًـا منهم على وَثَنِ[5]
لــكنَّ رأيكَ أدنَاهُم وأبعَــدنِى فليتَ أنَّا بِقَــدرِ الحُب نَقتَسِمُ

لمَّـا خَلطتَ يقينَ الوُدِّ بالشُّبَــه
رَعيتَ عَهــدى بطَرفٍ غيرِ مُنتَبِه
وملتَ بالوُدِّ عن مَلحُوبِ[6] مَذهَبِه
وما سخطتُ بِعَادى، إذ رضيتَ بِه ولاَ بجُــرحٍ، إذا أرضَـاكُمُ، أَلَمُ

---

(١) الانتباذ : التنحى .
(٢) الأروع : من يعجبك بحسنه ، أو بشجاعته .
(٣) استوطأه : وجده وطيًا ، أى على حالة لينة .
(٤) الدرن : الوسخ .
(٥) الوثن : الصنم.
(٦) لحب الطريق : بينه .

لا تحسبَنَّ الرَّزايا ضَعضَعتْ جَلَدِي
ولا النَّوَى عن دمشقٍ فتَّ فى عَضُدِي
أنَّى ثَوى اللَّيثُ فهو الخِيسُ (١) للأسد
ولستُ آسَى على التَّرحالِ عن بَلَدٍ   شُهْبُ البُزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ (٢)
أقولُ إذ فاتَ حَزمِي عزمةُ الرَّشَد
وقد بَدالِيَ ما لم يجرِ فى خَلَدِي:
للّهِ درُّكَ ، لولا الغَبْنُ ، من بَلَدِ
تعلَّقَتْ بحِبالِ الشَمسِ مِنه يَدِي   ثمَّ انثَنَتْ، وهي صِفرٌ (٣)، مِلْؤُها نَدَمُ
كم عَزَّنِي (٤) أملِي فيه ، وسوَّفَنِي (٥)
وكَم وثِقتُ بميعادٍ فأخلَفَنِي
حتى تلاشَى رجائِي فيه ، ثمّ فَنِي
لَكِنْ فِراقُكَ آسانِي ، وآسفَنِي   فَفِى الجوانِح نارٌ منه تَضْطَرِمُ
ومِثلَ وجدِي لبُعدِي عنكَ لم أجِدِ
وكَم شَجِيتُ بترَحَالٍ ومُفْتَقَدِ (٦)
فما تنكَّر لِي صبرِي ولا جَلَدِي
فاسلَمْ، فما عِشتَ لِي فالدَّهرُ طَوْعُ يَدِي   وكلُّ ما نَالَنِي من بُؤسِهِ نِعَمُ

(١) الخيس بالكسر : موضع الأسد ، كالخيسة .
(٢) البازى : ضرب من الصقور . والشهبة : بياض يصدعه سواد . والرخم : جمع رخمة ، وهو طائر ضعيف .
(٣) صفر : خالية .
(٤) عزّه : غلبه .
(٥) سوفنى : مطلنى .
(٦) انتقده : طلبه عند غيبته .

نجز ديوان الأمير: مؤيد الدولة أسامة بن منقذ (رحمه الله) ، بحمد الله ومنّه، لتسع بقين من صفر، سنة ثمان وثمانين وستمائة .

كتبه الفقير إلى الله تعالى عبد العزيز بن أحمد العجمي ، حامدا الله على نعمه ، ومصليا على نبيه محمد وآله ، ومسلما .

الفهــارس

١
فهرس القوافي
مرتب على أغراضه الشعرية

في الغـز ل
البـــاء

التـــاء

الضـــاد

الطــاء

العيــن

الغيــن

الميـم

النـون

الهـاء

٣
المكاتبات والمعاتبات

الهمـــزة

البـــاء

التـــاء

الثـــاء

الفاء

القاف

اللام

الميم

النون

الهاء

الياء

البحر الصفحة

٦

المديــح

البـــاء

الجيــم

الحـــاء

الـــدال

الـــراء

السيــن

٧

الافتخار

الفاء

اللام

٨

الحماسة

الهمزة

الباء

الجيم

١٠
الشواهد والأمثال

البـــاء

١١

الكبر والمشيب

الباء

الميــم

النــون

الهــاء

١٢
الزهد والمواعظ

البــاء

التــاء

التاء

الراء

الزاي

العين

الفاء

الكاف

اللام

(٢)

فهـرس الاعلام

الفهـرس